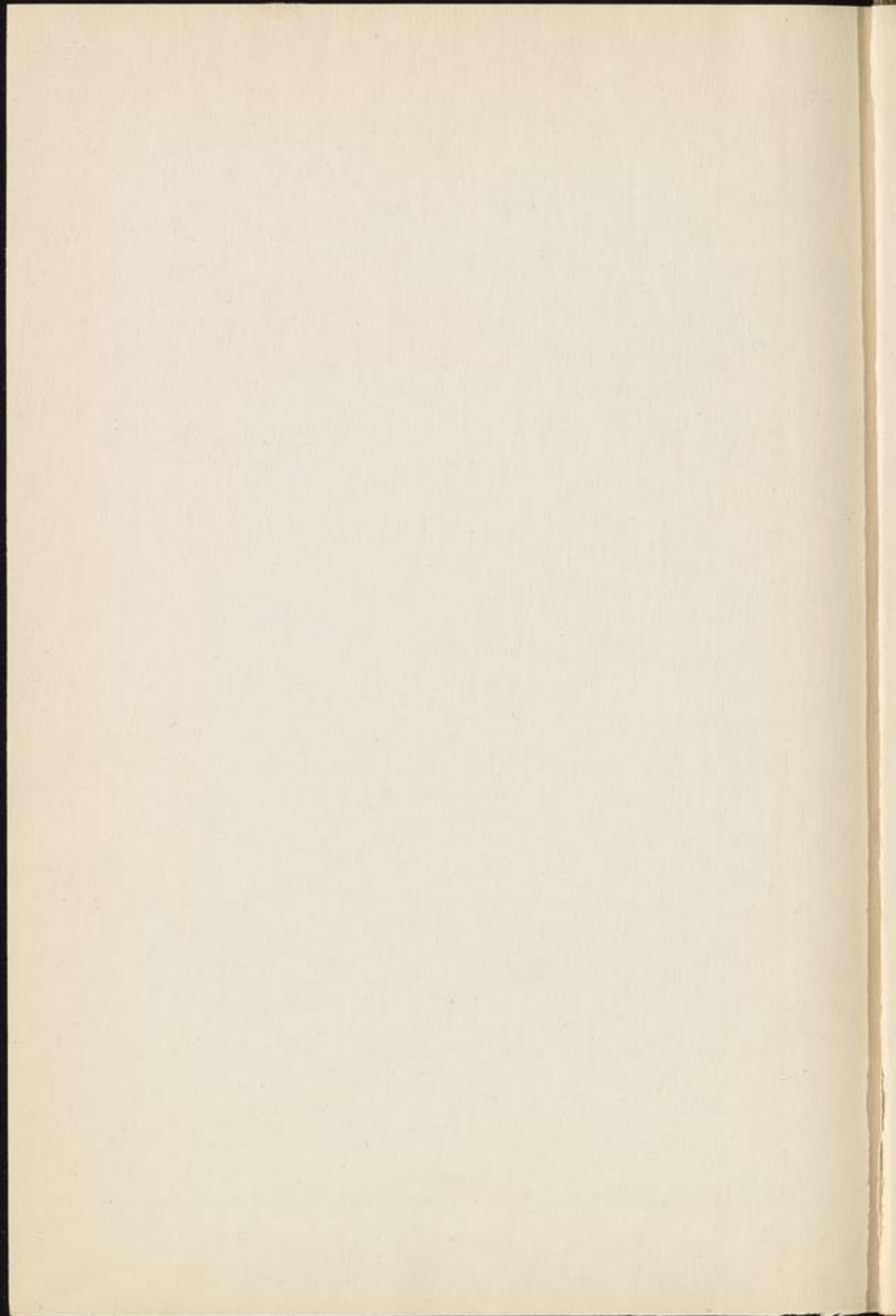
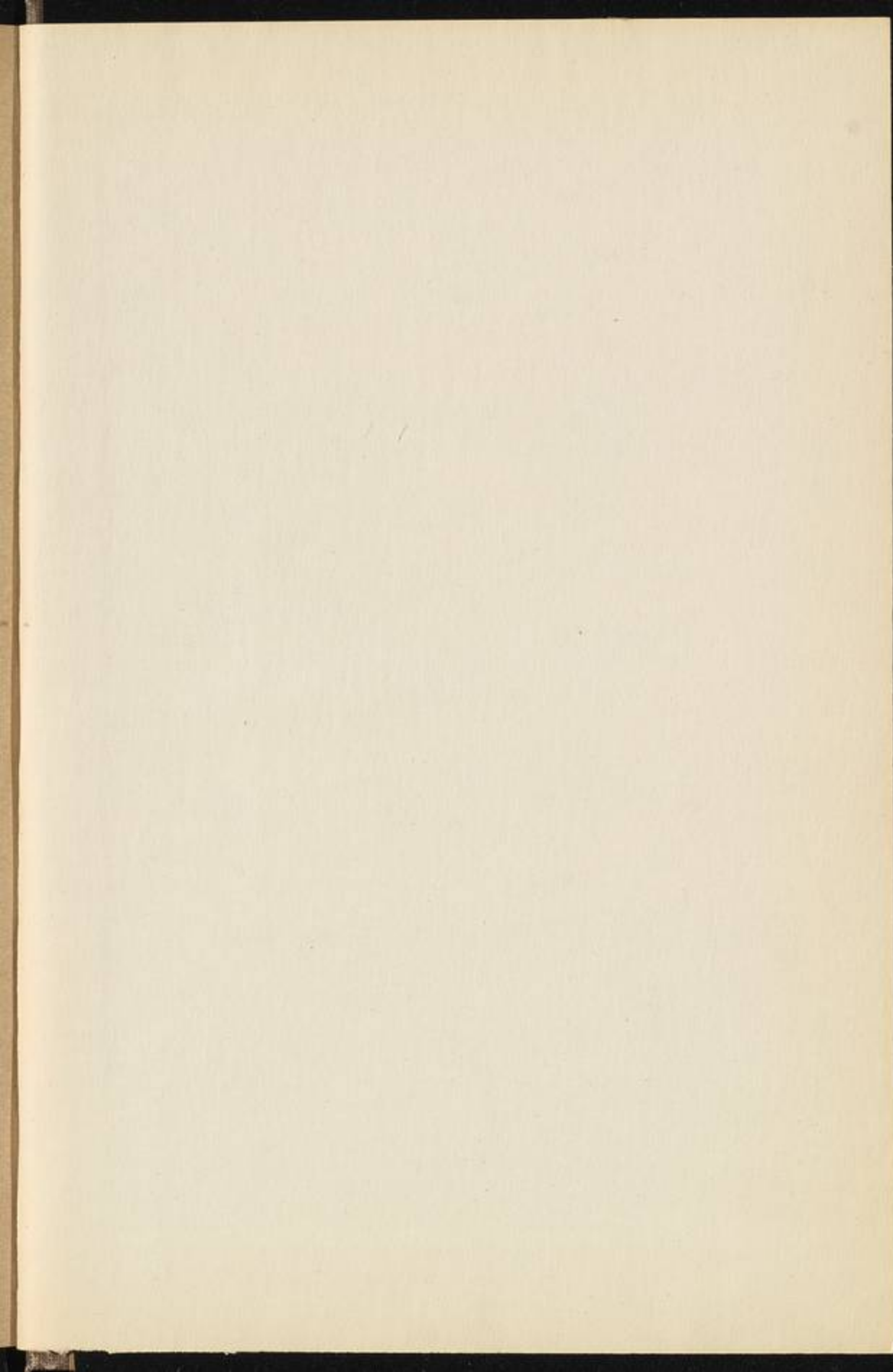


Columbia University  
in the City of New York

THE LIBRARIES







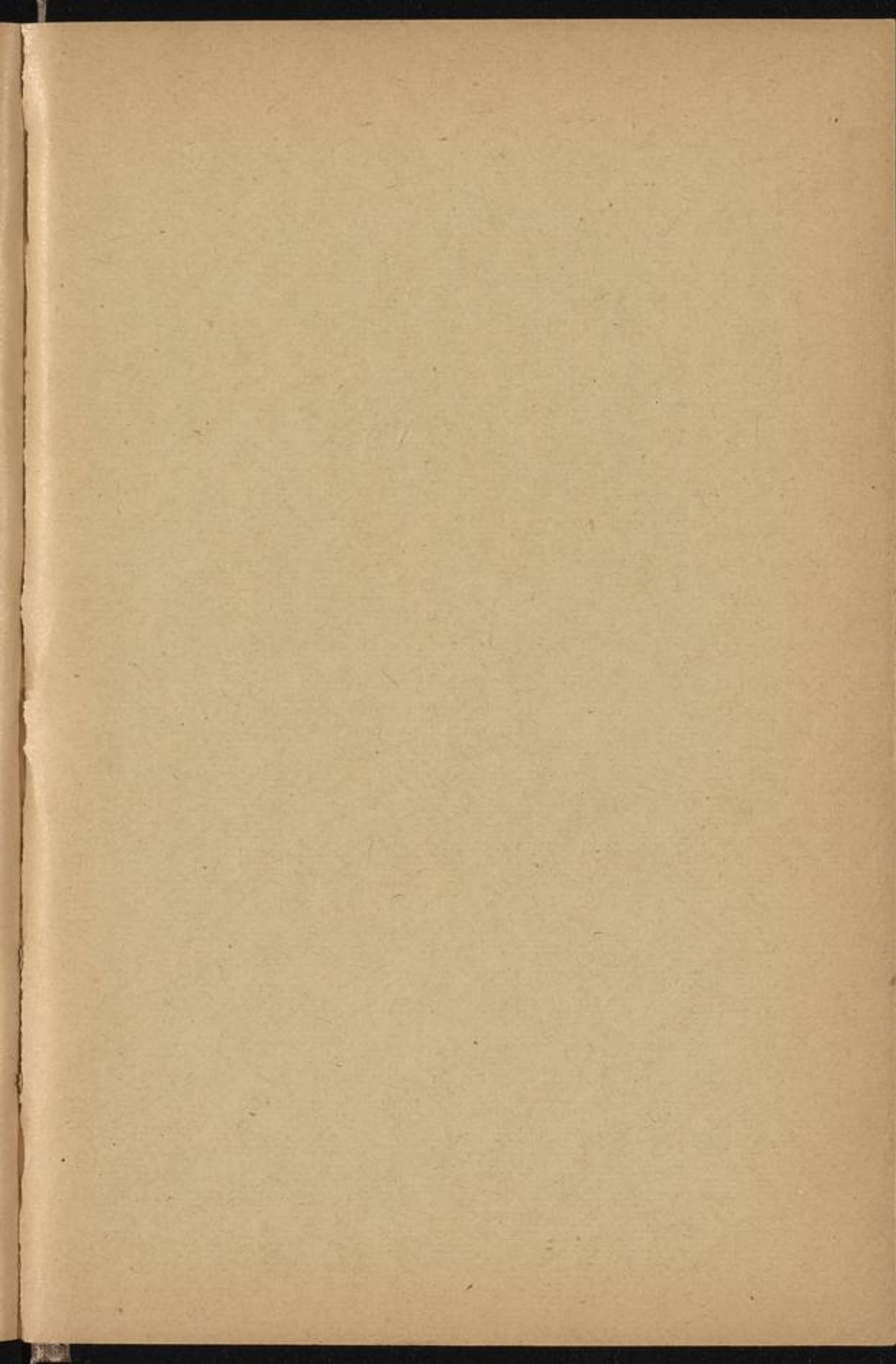
دكتور محمد كامل حسين

بكلية الآداب — جامعة فؤاد

# في أدب مصر القاطنين

ملائم الطبع والنشر

دار الفكر العربي



دكتور محمد كامل حسين

بكلية الآداب — جامعة فؤاد

# في ادم مصر الفاطمية

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

893.79

49563

21

26715F



# الفهرسة

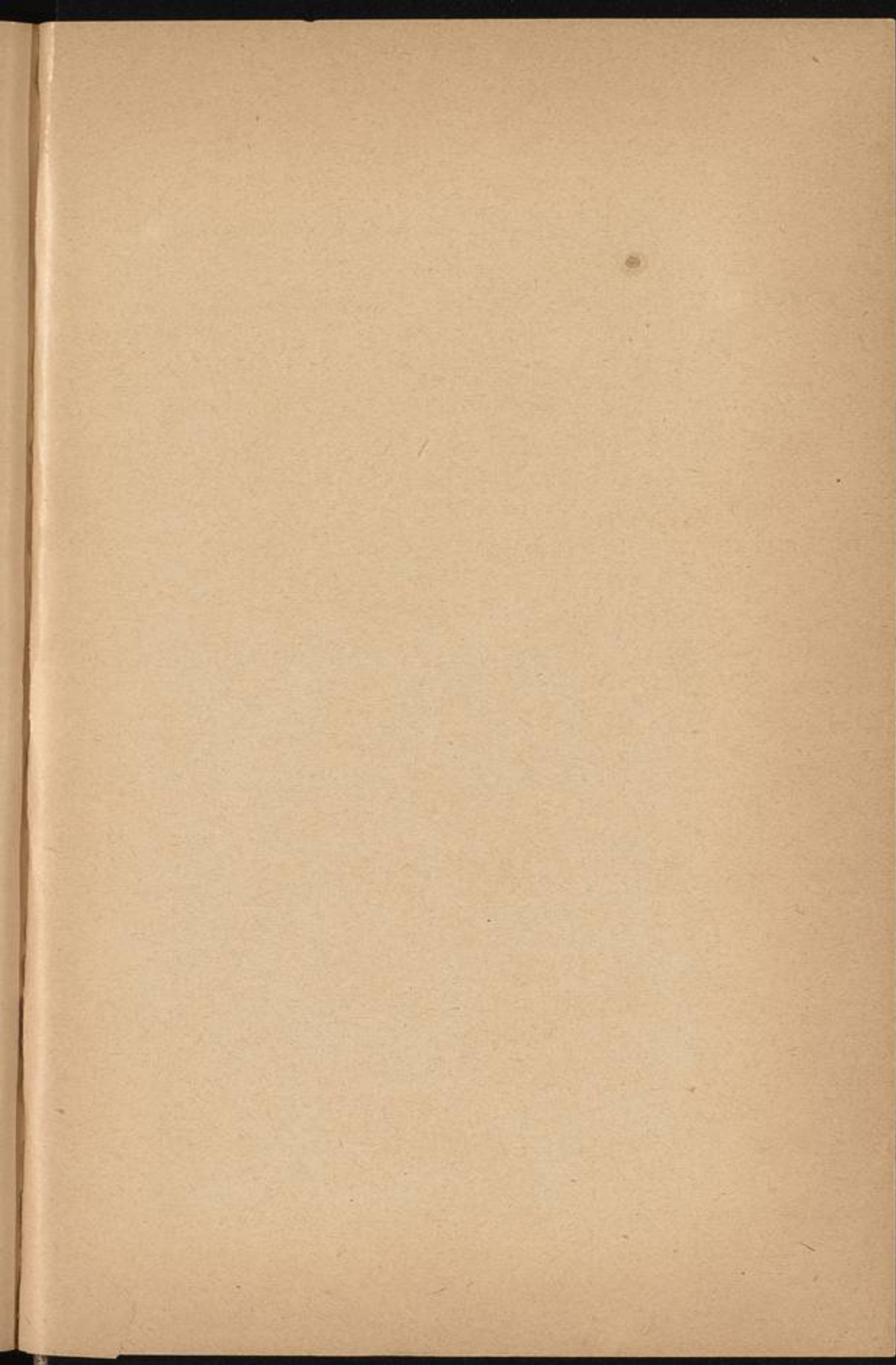
إلى أستاذي الأجل حضرة صاحب المعالي

الدكتور طه حسين

الذي آثرني فوجهي إلى دراسة أدب مصر ، وحباني بغزير علمه وعميم

فضله ، أرفع ثمرة من غرسه ، وقطرة من فيضه ، إجلالا له ووفاء .

محمد كامل حسين



## فهرست الموضوعات

| صفحة |                                  | صفحة |                                   |
|------|----------------------------------|------|-----------------------------------|
| ١٠٠  | فقهاء الشافعية . . . .           | (٧)  | مقدمة                             |
| ١٠١  | فقهاء المالكية . . . .           |      | الكتاب الأول: الحياة العقلية      |
| ١٠٣  | تعصب الفاطميين لمذهبهم . . . .   |      | الباب الأول: في الدعوة الفاطمية   |
| ١٠٨  | الفصل الثالث: التاريخ والسير     |      | الفصل الأول :                     |
| ١٠٨  | ابن زولاق . . . .                |      | عقائد الفاطميين                   |
| ١١٠  | المسبحي . . . .                  | ٣    | الفصل الثاني :                    |
| ١١٢  | القضاعي . . . .                  |      | مراتب الدعوة الفاطمية ومرتازها ١٩ |
| ١١٣  | فن السير . . . .                 | ٢٣   | المساجد . . . .                   |
| ١١٤  | سيرة الأستاذ جوذر . . . .        | ٢٦   | القصر . . . .                     |
| ١١٦  | السيرة المؤيدية . . . .          | ٣٠   | دار العلم . . . .                 |
| ١١٧  | خاتمة القول في الحياة العقلية    |      | الفصل الثالث :                    |
|      | الكتاب الثاني: في الحياة الأدبية |      | مجالس الحكمة التأويلية            |
|      | الباب الأول في الشعر . . . .     | ٣٣   | الفصل الرابع :                    |
|      | الفصل الأول :                    |      | أشهر علماء الدعوة الفاطمية        |
| ١٢٤  | ازدهار الشعر . . . .             | ٤٢   | بنو النعمان . . . .               |
| ١٢٩  | شعر الأئمة . . . .               | ٥٤   | يعقوب بن كلس . . . .              |
| ١٣٧  | ضياح الشعر الفاطمي . . . .       | ٥٩   | المؤيد في الدين داعي الدعاة       |
| ١٤١  | الفصل الثاني: الشعر والأئمة      | ٦٦   | الباب الثاني: في الحياة العلنية   |
| ١٤٢  | الاسكندراني . . . .              |      | الفصل الأول:                      |
| ١٤٣  | قصيدة ذات الدوحة . . . .         |      | العلوم الفلسفية . . . .           |
| ١٧٠  | الأمير تميم بن المعز . . . .     | ٧٢   | ابن الهيثم . . . .                |
|      | الفصل الثالث :                   | ٧٨   | الفصل الثاني: علوم اللغة          |
| ١٧٤  | الشعر والوزراء . . . .           |      | العربية والفقهاء . . . .          |
| ١٧٩  | الأفضل وشعراؤه . . . .           |      | علوم اللغة والنحو . . . .         |
|      | أمية بن أبي الصلت ورسالته        | ٨٩   | القراءات وعلوم القرآن . . . .     |
| ١٧٩  | المصرية . . . .                  | ٩٥   | رواية الحديث . . . .              |
| ١٨٧  | أبو علي الأنصاري . . . .         | ٩٧   | دراسة مذاهب أهل السنة             |
| ١٩٠  | ظافر الحداد . . . .              | ٩٩   |                                   |

| صفحة |                            | صفحة |                          |
|------|----------------------------|------|--------------------------|
| ٢٨٠  | التصوف والزهد              |      | شعراء بني رزيك حتى آخر   |
| ٢٨٢  | ابن الكيزاني               | ١٩٣  | الدولة الفاطمية          |
| ٢٨٥  | الوصف                      | ٢٠٣  | المهذب بن الزبير         |
| ٢٩٥  | خاتمة القول في الشعر       | ٢١٠  | الرشيد بن الزبير         |
|      | الباب الثاني : في النثر    | ٢١٥  | القاضي الجليس            |
| ٣٠٢  | الفصل الأول : ازدهار النثر | ٢١٩  | عمارة الينبي             |
| ٣٠٦  | النثر والأئمة              | ٢٢٢  | ابن قلاقس                |
|      | الفصل الثاني :             |      | الفصل الرابع :           |
|      | كتاب ديوان الانشأ          | ٢٢٧  | الشعر والحروب الصليبية   |
| ٣١١  | ابن خيران                  |      | الفصل الخامس :           |
| ٣٢٣  | رسالة للمؤيد               | ٢٣٨  | الفكاهة والمجون          |
| ٣٢٦  | ابن الشيخبأ                | ٢٤١  | أبو الرقعمق              |
| ٣٢٨  | ابن منجب الصيرفي           | ٢٤٥  | جماعة صالح بن رشد بن     |
| ٣٣٣  | أبو الفتح بن قادوس         | ٢٤٧  | جماعة الأمير تميم والرمي |
| ٣٣٨  | أبو على حسن بن زبيد        | ٢٥٢  | ابن وكيع التنمى          |
| ٣٤٣  | الموفق بن الحلال           | ٢٥٥  | الشريف العقبلي           |
| ٣٤٤  | عمارة الينبي الناثر        | ٢٥٩  | القليوبى الكاتب          |
| ٣٤٨  | خاتمة                      | ٢٦٠  | قتيل الغواني             |
| ٣٥٥  | فهرست عام                  | ٢٦١  | شعراء آخرون              |
| ٣٦٠  | المصادر والمراجع           | ٢٧٠  | الفصل السادس : في الغزل  |
| ٣٧٦  |                            |      | الفصل السابع :           |
|      |                            |      | أغراض أخرى في الشعر      |

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا الكتاب ، في أدب مصر الفاطمية ، حلقة جديدة من سلسلة أدب مصر الإسلامية ، وكان من حقه أن يكون بين يدي الجمهور منذ خمسة عشر عاما ، ولكننا لم نشأ أن نخرجه للناس قبل أن نعطيهم صورة صحيحة لتلك النزعة الدينية التي يمايز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور مصر ، فقد خضعت مصر لهذا المذهب الديني واتخذها أمة هذا المذهب قاعدة ملسكهم ، فأصبح هذا المذهب هو المحور الذي تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية ، بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية في عصر الفاطميين إلا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين . أدركنا هذه الحقيقة وقرأنا الكتب التي تحدثت عن الفاطميين وعقائدهم ، فرأينا هذه الكتب تعطينا صورة متناقضة أشد التناقض عن عقائد الفاطميين بحيث لا يستطيع أن يطمئن إليها باحث ، ففي الوقت الذي نرى فيه هذه الكتب تذهب إلى أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس ديني إسلامي ، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه ، وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالا لم يعهد من قبل ، وأنهم أسسوا المساجد لإقامة الصلوات ، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة في الأعياد إلى غير ذلك من المظاهر التي تشعر بأن الفاطميين كانوا من أشد الناس حرصا على الإسلام وتقاليد المسلمين ، في الوقت نفسه نرى هذه الكتب أيضا تذهب إلى أن الفاطميين كانوا يقولون بالإباحة وتحليل ما حرمه الله تعالى ، ونبذوا الصلاة والصوم والحج ، بل عملوا على طرْح الأديان ، ودانوا بالناسخ والحلول والتلاشي وادعوا معرفة الغيب . . . إلى غير ذلك . قرأنا ذلك كله وعجبنا أشد العجب لهذا التناقض الذي وقع فيه القدماء والمحدثون ، فحرصنا على أن نرجع إلى كتب دعوة الفاطميين ، وراعنا أن القاهرة التي أنشأها الفاطميون وكانت قاعدة ملسكهم الواسع لا تحتفظ بكتاب واحد من كتب الدعوة ، فسمعنا إلى البحث في غير مصر ، وكان السعي شاقا عسيرا كلفنا من الجهد والمال الشيء الكثير ، وما حبلتنا إذا كانت أكثر كتب الدعوة في حوزة طاهر مبيف الدين

الذي لقب نفسه بسليمان البهرة وزعم أنه الداعي المطلق لإمام مستور من نسل الأئمة الفاطميين ، وهو رجل شحيح بهذه الكتب على الباحثين بدعوى أنها كتب الدعوة السرية ، ولكن حجته هذه أوهى من بيت العنكبوت فإن الأئمة الفاطميين — الذين ورث دعوتهم — لم يسترُوا علومهم ، بل عملوا على نشرها وإذاعتها ، شجعوا العلم والعلماء ، وأنشأوا دار العلم وخزائن الكتب ليطلع عليها من يشاء متى يشاء ، وكانوا يطلبون من العلماء تأليف الكتب على النحو الذي سنراه في هذا الكتاب ، فظاهر سيف الدين الآن يعمل عكس ما عمله الأئمة ، ويأتي بأراء لم نعهدها في عصر الفاطميين ، ولعله يريد ان يظل أتباعه في جهل مطبق حتى يستطيع أن يخذعهم بهذه الآراء الرجعية التي لا سند لها من تقاليد الأئمة ونظمهم ، ومن يدري لعله يريد أن يستغل ما عليه أتباعه من جهل بحقيقة الدعوة الفاطمية كي يستولى على أموالهم باسم الدين ، شأنه في ذلك شأن كل دجال مشعوذ ، ومع ذلك كله ففي طائفة البهرة عدد من المثقفين المستنيرين الذين لا يعابون بظاهر سيف الدين ولا يقيمون وزنا لضلالاته ، زدونا بالكتب التي حرصنا على تقديمها للجمهور قبل أن نقدم إليهم هذا الكتاب حتى يدركوا حقيقة الدعوة الفاطمية من كتب الدعاة أنفسهم ، فقد نشرنا ستة كتب فاطمية وسيتبعها كتب أخرى إن شاء الله .

والدعوة الفاطمية دعوة شيعية وقبل أن نتحدث عنها وعن أثرها في مصر نتساءل : إلى أي حد عرفت مصر التشيع قبل دخول الفاطميين بها ؟

كان المسلمون في مصر بعد الفتح العربي يجمعون على مذهب واحد ، ويخضعون لإمام واحد ، فلم نعرف انه كان بين العرب الوافدين من خالف في مسألة الإمامة ، أو تحدث عن تفضيل خليفة على آخر ، ولكن بدأ المسلمون في عهد عثمان بن عفان يتحدثون عن سياسته وتصرفاته ، فانهز بعض المسلمين في مصر هذه الفرصة ودعوا لخلعه ، ويروي الطبري قصة عجيبة عن ثورة المصريين ضد عثمان ، وأن ذلك كان بتأثير عبد الله بن سبأ !!

يقول الطبري : « كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين محاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فاخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما قال : لعجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب ، بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي

فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصى وكان على وصى النبي، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء... الخ (١)، وهكذا ساق الطبري هذه الرواية بين روايات عديدة عن سبب قيام المصريين ضد عثمان، ونحن نعجب لهذه الرواية إذ لم أجد في كتب التاريخ التي وضعها المصريون عن بلدهم وعن تراجم رجال مصر مثل كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وكتب السكندی وابن الداية وابن زولاق، أو في كتب المتأخرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرخين القدماء ما يشير إلى وفود شخصية عبد الله بن سبأ على مصر، أو أن أحدا من المصريين قال بمثل هذه المقالة التي زعم الطبري أن ابن سبأ عليها للمصريين، فلو صححت رواية الطبري لرأينا شيئا من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذاك لهذه الدعوة السبائية، ومعارضتهم لها، ولا سيما أن ابن عبد الحكم وغيره رووا بعض الأحاديث عن صحابة مصر وترجموا لهم ولم يرد ذكر ابن سبأ ولا آرائه. ولم يذكر شيئا عن إنكار هذه الآراء أو معارضتها، فقصه ابن سبأ في مصر، وأنه بث آراء التشيع بين المصريين هي أقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر.

حقيقة ثار بعض المصريين على عثمان، وقام محمد بن أبي حذيفة بانزع الإمارة في مصر، وطرد عامل عثمان من الفسطاط سنة ٣٥ هـ وزج بعدد من شيعة عثمان في السجون، ولكن ليس معنى ذلك أن ابن سبأ هو الذي أثر على الناس وألهم على عثمان، إنما كان ذلك بتدبير بعض أبناء الصحابة الذين كرهوا أن يكون أمير مصر هو عبد الله بن أبي سرح أخو عثمان في الرضاة، وكبر في نفوسهم أن يعزل عمرو بن العاص عن مصر، فلم تسكن ثورة المصريين ضد عثمان تمت بسبب إلى تشيع المصريين إلى علي بن أبي طالب أو المطالبة بإمامته، وبالرغم من أن المصريين هم الذين بايعوا علياً بالخلافة بعدمقتل عثمان، فإن ذلك لم يكن عن حب خالص له أو عن عقيدة بأنه أحق الناس بها، فالمفاوضات التي كانت قبل مبايعته تدل على أنهم نظروا إلى علي بن أبي طالب نظرهم إلى غيره من الصحابة، أضف إلى ذلك إن المصريين بعد أن بايعوا علياً عادوا إلى الفسطاط وهم يرجزون:

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨ (طبعة مصر).

خذها إليك واحذرن أبا الحسن  
إننا نمر الحرب إمرار الرسن  
بالسيف لن نحمد نيران الفتن

ففي هذا الرجز تحذير للإمام الجديد علي بن أبي طالب ، فإن سار على نهج  
عثمان في سياسته فهي الحروب الدائمة والفتن المستمرة ، فهذا دليل على أن  
المصريين لم يذهبوا في علي بن أبي طالب ما رواه الطبري عن ابن سبأ ، وأن  
المصريين لم يقدسوا علياً أو يقولوا بوصايته ، ثم أننا نرى المسلمين في مصر  
انقسموا بعد مقتل عثمان إلى فريقين : فريق يطالب بدم المقتول ، وفريق يؤيد  
خليفة علي ، وكانت مصر من الولايات التي خضعت للأمراء الذين أرسلهم علي ،  
ولكن أنصار علي لم يكن لهم شأن كبير في الأحداث التي جرت ، ولم يقيموا  
وزناً للنزاع بين علي ومعاوية ، فقد سم الأشر النخعي على حدود مصر ، وقتل  
الوالي محمد بن أبي بكر الصديق ، وأدخلت جثته في إهاب حمار وأحرقت على مرأى  
من المصريين فلم يحرك شيعته ساكناً ، فلو كان التشيع في مصر قويا لأسهم الشيعة  
في النزاع بين علي ومعاوية ولناصروا علياً ، ونحن نتساءل أيضاً ، أين كان  
شيعة مصر عند ما قتل علي وبعد مقتل الحسين ؟ وأين كان شيعة مصر إبان  
حركة المختار الثقفي ؟ هذه أسئلة لم يجب عنها المؤرخون ، فالمصادر التي بين أيدينا  
لم تذكر شيئاً عن قيام الشيعة بمصر في المساهمة في الحركات الشيعية التي كانت في  
الأقطار الأخرى ، مما يجعلنا نذهب إلى أن الشيعة في مصر كانوا من الضعف  
لدرجة أنهم لم يؤثروا في الحياة السياسية والعقلية ، ولذلك نعجب لقول المؤرخين  
الذين يزعمون أنه بعد أن تم الأمر للأمويين أصبح الجند وأهل شوكة مصر  
عثمانية وكثير من أهلها علوية<sup>(١)</sup> . والمقصود بالعثمانية أهل الكنف الذين قالوا  
كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وإذا كان هذا موقف الشيعة في  
مصر من علي وابنه الحسين فكيف نرى عدداً من المصريين يخرج لمناصرة  
عبد الله بن الزبير في ثورته سنة ٦٤ هـ ضد الأمويين ، بل نرى ابن الزبير يرسل  
والياً من قبله على مصر هو عبد الرحمن بن جحدم الفهري وهو من الخوارج ،  
وقد قدم مصر ومعه عدد كبير من الخوارج فأظهروا بمصر التحكم ودعوا إليه<sup>(٢)</sup>  
ثم عادت الشوكة والقوة للعثمانية بعد فشل الزبيريين وعودة مصر لسلطان

(١) القرظي : المخطوط ج ٤ ص ١٥١ (٢) السكندري : الولاية والقبضاء ص ٤١



الأمويين ، وكان الأمويون يظهرون في مصر سب علي بن أبي طالب دون خشية  
 ثورة الشيعة وذلك لضعف شأن الشيعة في مصر ، ومع ذلك فقد روى  
 المقرئ عن يزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ أنه قاله : نشأت بمصر وهي  
 علوية فقلبتها عثمانية (١) فإن صح هذا القول عن يزيد فإنما يدل على أن بعض  
 المصريين كانوا يتحدثون عن فضائل علي ، وأن يزيد استطاع أن يصرف الناس عن  
 ذلك ويجعلهم يميلون إلى رأى أهل الكف والمساائل الفقهية ، ولا نستطيع أن نقول  
 إن المصريين شغلوا بالآراء الشيعة التي شغلت شيعة العراق وفارس ، فإننا  
 نستطيع أن نمر بالعصر الأموي في مصر دون أن نسمع شيئاً عن الشيعة بمصر ،  
 ومن يدري لعله كان بمصر شيعة هوام مع أبناء علي وقلوبهم مع أهل البيت  
 ولكن سيوفهم كانت مع بني أمية ، وأغفلت كتب التاريخ الحديث عنهم  
 فاصبحنا لا ندرى شيئاً عن نشاط الشيعة في مصر في هذا العصر الأموي ولا عن  
 العقائد التي دانوا بها إلا ما قيل عن قصة فرار مروان بن محمد إلى مصر من وجه  
 المسودة ، فقد وجد الدعوة الجديدة سبقتة إلى مصر ووجدت بين المصريين  
 قبولا ، وقد ذكر الكندي أسماء زعماء هذه الحركة بمصر ، ففي الحوف الشرقي  
 كان أول من لبس السواد شرحبيل بن مذيلفة الكلبي ، وفي الاسكندرية كان  
 الأسود بن نافع ، وبالصعيد عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني ، وبأسوان يحيى بن  
 مسلم (٢) ، ونحن نعلم أن دعوة المسودة في أول أمرها كانت للرضا من أهل البيت ،  
 وتوهم الشيعة في جميع الأقطار الإسلامية أن الدعوة لهم فاستجابوا لها ونشطوا  
 مع القائمين بها ، فلعل هؤلاء الذين دعوا للمسودة في مصر كانوا من الشيعة  
 وتوهموا ما وهمه غيرهم ، فإن صح ذلك فتكون هذه أول حركة شيعية في  
 مصر علمنا بها . ومهما يكن من شيء فإن مروان استطاع أن يقضى على هذه  
 الحركة وأن يقتل زعماءها ، ولكن القدر لم يمهله كي يستمر في حكم مصر ، فقد  
 دخلت جيوش العباسيين مصر سنة ١٣٣ هـ وقبض على مروان بن محمد ومن معه  
 من الموالين للأمويين وخضعت مصر للعباسيين ، وكان العباسيون في مبدأ  
 أمرهم يتجنبون إلى الشيعة ، فحجى من مصر سب علي وآله ، وظن العلويون أن  
 الأيام أقبلت عليهم ، وجاءت دولتهم التي طالما حللوا بها ، ولكنهم سرعان  
 ما فطنوا إلى أن العباسيين نقمة حلت بهم ، ذلك أن العباسيين نكلوا بأهل البيت

(١) المقرئ : المخطوط ج ٤ ص ١٤٦ (٢) الكندي : الولاية والقضاء ص ٩٤

ومن لاذ بهم أو من عرف بولايتهم ، فلا غرابة إذا كنا نرى في العصر العباسي سلسلة حركات شيعية تظهر من وقت إلى آخر ، وأمعن الشيعة في التقية وأكثروا من الدعوات السرية المختلفة وكانت مصر من الميادين التي ظهرت فيها بعض حركات الشيعة في العصر العباسي ، ففي خلافة أبي جعفر المنصور قدم مصر سنة ١٤٤ هـ على بن محمد بن عبد الله ودعا لأبيه النفس الزكية ، وانتشرت دعواته في البلاد على يد الداعي خالد بن سعيد بن ربيعة الصدفي ولكن الوالي العباسي استطاع أن يقضى على هذه الحركة (١) . وفي عهد المتوكل العباسي أرسل إلى والي مصر بإخراج كل أهل البيت من مصر إلى العراق فأخرج الوالي اسحق بن يحيى سنة ٢٣٥ هـ بعض أهل البيت بعد أن فرق فيهم الأموال ليتحملوا بها فاعطى كل رجل ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً (٢) ، فاضطر من كان بمصر من الشيعة إلى التقية خوفاً من بطش العباسيين . ولا سيما بعد أن أصبح أكثر الولاة في مصر من الأتراك الذين كانوا شديدي التعصب ضد الشيعة ، ولعل أكثر الولاة الأتراك اضطهاداً للشيعة ومطاردة لهم هو الوالي يزيد بن عبد الله الذي ولي مصر سنة ٢٤٢ هـ وظل على مصر حتى سنة ٢٥٥ هـ وتذكر كتب التاريخ قصصاً عديدة عما أتاه هذا الوالي من اضطهاد للشيعة ، من ذلك أنه ضرب رجلاً من الجندي في شيء وجب عليه فأقسم الجندي عليه بحق الحسن والحسين إلا أعفاه فزاده الوالي ثلاثين درة ، ورفع صاحب البريد أمر هذا الجندي إلى الخليفة في بغداد فأمر بضربه مائة سوط ثم حمل بعد ذلك إلى بغداد (٣) ، وفي أيامه دل على علوى هو محمد بن علي بن الحسن بن علي زين العابدين فذهب الوالي وأحرق الموضع الذي به العلوى بعد أن قبض عليه (٤) ، وفي أيامه أيضاً أتاه من بغداد بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسقاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة (٥) وفي سنة ٢٥٠ هـ أخرج هذا الوالي ستة رجال من الطالبين إلى العراق ، وفي رجب من السنة التالية أخرج ثمانية منهم (٦) ، وكانت هذه السياسة التعسفية

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٢) السكندى : الولاة والقضاء ص ٩٨

(٣) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٤) السكندى : الولاة والقضاء ص ٢٠٤

(٥) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٤ (٦) السكندى : الولاة ص ٢٠٥

سبباً في أن ينضم أحد العلويين وهو عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الأرقط إلى ثورة جابر المدلجي سنة ٢٥٢ هـ وقوى الثائرون بانضمامه إليهم وزاد عددهم فهزموا جيش الوالي الذي استعان بالخليفة العباسي فأمدّه الجيش بقيادة مزاحم ابن خاقان فأخذت الثورة واستأمن ابن الأرقط العلوي فأخرج من مصر (١) ، وفي سنة ٢٥٤ هـ ثار بغا الأكبر وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا ولكنه هزم وقتل ، وفي سنة ٢٥٥ هـ في ولاية أحمد بن طولون خرج بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا وانتشرت دعوته في الإسكندرية وبرقة والصعيد ولكنه قتل ، وفي هذه السنة أيضاً خرج بمصر ابن الصوفي وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى من نسل عمر بن أبي طالب واستمر ثائراً يحارب ابن طولون أربع سنوات إلى أن هزم فاضطر إلى أن يهرب إلى مكة سنة ٢٥٩ هـ وكانت المصائب التي صبها الجند من السودان على الشيعة بمصر أضعاف ما نال الشيعة من اضطهاد الولاة ، فقد كثرت عدد السودان في مصر واستفحل أمرهم ، فأصبحوا مصدر فتن بين أهل السنة والشيعة ، ففي سنة ٣٥٠ هـ خرج شيعة مصر إلى قبر كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق وأقاموا هناك مآتم الحسين ، فتدخل الجند واضطربت الأمور بين الجند والشيعة ، وقتل جماعة من الفريقين فلم يكتف الجند من السودان بذلك بل ساروا في الطرقات يصيحون : معاوية خال علي !! حتى أنهم كانوا يصيحون بنقيب الأشراف الحسينيين أبي جعفر مسلم ويهتفون بذلك في وجهه (٢) ، ولما ورد الخبر بقيام بني الحسن بمكة ومحاربتهم الحاج ، خرج خلق من المصريين ولقوا كافورا الأحمدي بالميدان وصاحوا : معاوية خال علي !! وسألوه أن يبعث جيشاً لمحاربة بني الحسن (٣) .

وهكذا كان حال الشيعة في مصر ، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم في الأقطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين ونقماتهم ، وهذه الأمثلة التي أوردنا بعضها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشيع بدأ يدخل مصر ، بل أخذ يقوى ويشد أزرها ، وأصبح الشيعة يؤثرون في الحياة العامة بمصر ويقومون بثورات ضد الولاة . أضف إلى ذلك أن مصر في هذا العصر شهدت عدداً من العلماء الذين كانوا يفضلون علياً على الشيخين ، ويخلصون في حبهم لأهل البيت ولعل الشافعي

(١) نفس المصدر ص ٢٠٨ (٢) المقرئبي : الخطط ج ٤ ص ١٥٥

(٣) شرحه

أصدق مثل لذلك ، ففي شعره ما يدل على عاطفة مخلصه قوية لأهل البيت فهو يقول : —

يا آل بيت رسول الله حبيكم فرض من الله في القرآن أنزله  
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له (١)

فهذا قول إمام من أئمة أهل السنة ، وصاحب مذهب فقهي من مذاهبيهم ، فقد ذهب إلى أن حب أهل البيت فرض أنزله الله تعالى في القرآن ، وإن الله تعالى لا يقبل صلاة من لا يصل على أهل البيت ، وهذه آراء شيعية لا يقول بها إلا متعصب في تشيعه ، ونحن نشك في أن تصدر مثل هذه الآراء من الشافعي ونخشى أن تكون موضوعة ونسبت إليه ، ولكن الشافعي يظهر مرة أخرى أنه يحب عليا ولا ينكر فضل الشيخين ، وهذا الرأي يخالف الرأي السابق فالشافعي يقول

إذا نحن فضلنا عليا فينا روافض بالتفضيل عند ذو الجهل  
وفضل أنى بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل  
فلا زلت ذارفض ونصب كلاهما بحبيها حتى أوسد في الرمل

وهكذا كان الشافعي في أحاديثه وأماله وأشعاره يشيد بفضل علي وحبه ، وأخذ المصريون عن الشافعي فيما أخذوه هذا الحب لأهل البيت . واتخذ المصريون عادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتا ، فقد قيل إنه في سنة ٢٠٨ هـ توفيت بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها اسحق بن جعفر الصادق أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، ولكن أهل مصر سألوه أن يتركها في مصر ليتبركوا بها (٢) فدفنت في مصر وبنى قبرها الوالي عبيد الله بن السري بن الحكم ، ولا يزال قبرها إلى الآن مقصد المسلمين في مصر يتبركون بها . ووضع النسائي المحدث المعروف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب رواه عنه المصريون ومنهم القاضي الفقيه محمد بن أحمد بن الحداد (٣) وكان هذا القاضي ممن يفضلون عليا ولكنه لم يستطع أن يصرح بذلك خوفا من السلطان ومن شغب العامة ، ويروي ابن زولاق أن ابن الحداد كان في مجلس أبي القاسم بن الأخشيد مع جماعة ، فلما نهض ابن الحداد أمسكه ابن الأخشيد وسأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فقال القاضي الاثنان حذاء واحد . فكرر عليه السؤال فقال ابن الحداد : إن كان عندك فعلى وإن كان بره (في الخارج) فابو بكر (٤) . وشيبه بهذا ما يرويه ابن زولاق أيضاً

(١) الجوهر النقيص ص ٤٦ (٢) المفريزي : الخطط ج ١ ص ٣١٥

(٣) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر ( نسخة خطية بدار الكتب المصرية )

(٤) نفس المصدر

عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر ورئيس مذهب مالك في عصره أن رجلا سأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فاستعفاه ابن عبد الحكم فأخ عليه الرجل ، فقال له ابن عبد الحكم : إن أخبرت أحدا عما أقول لك كنت أحمد بن طولون الأمير فضربك بالسياط ، علي أفضل (١) . وقيل إن يموت بن المزرع كان في حلقة يلقى دروسه الأدبية واللغوية على المصريين فتطرق الحديث عن أبي بكر وعمر وعلي فانقسم الناس إلى طائفتين طائفة يزيد فضائل علي ، وطائفة تزيد فضائل أبي بكر وكانت هذه الطائفة الأخيرة أكبر (٢) فهذا كله يدل على أن المصريين أخذوا ينقسمون بين أبي بكر وعلي ، وأن الحديث قد كثر في التفضيل بينهما ، ولكن الذين كانوا يفضلون عليا كانوا يتسترون خوفا من شغب العامة وبطش الولاة وجندهم من السودان .

على أن أمر الشيعة بمصر أخذ يقوى منذ استطاع دعاة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية من بسط دعوتهم في شمال أفريقيا وتقويض أركان دولة بني الأغلب ، وقد كان للمهدي دعاة وأنصار بمصر ، ومحدثنا القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة ، أن المهدي نفسه دخل مصر مستترا في زى التجار هربا من العباسيين ، فأتمت السكتب من بغداد إلى والى مصر بصفة المهدي والأمر في طلبه وكان بعض أهل خاصة ذلك الوالى وليا مؤمنا ( بدعوة المهدي ) فأمرع إلى المهدي بالخبر ، ولطف في أمره إلى أن خرج المهدي من مصر ومعه القائم وبعض عبيده (٣) . ويروي صاحب سيرة جعفر بن علي الحاجب . وسرنا ( أى المهدي ورجاله ) من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي ، وكان مقبلا يدعو بها وأكثر دعاة الإمام من قبله . وكان فيروز الذى رماه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده ، فتقدم إليه المهدي ع . م قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا . وأن ينزله عند من يثق به فأنزله عند ابن عياش (٤) . ويقول في موضع آخر عن داعي المهدي بمصر : ولما صح عند فيروز خروج المهدي إلى المغرب تغيرت نيته وعزم على النفاق ، وكان قد زوج ابنته كما ذكرنا أولا بأبي علي الداعي بمصر ، ومحمد أبو الحسين بن أبي علي الداعي ولده ، وقد بلغ محمد أبو الحسين هذا مع الأئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله

(١) نفس المصدر (٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٩

(٣) النعمان بن محمد : افتتاح الدعوة ( نسخة خطية بمكتبتي ) .

(٤) سيرة جعفر : نسخة خطية بمكتبتي

والمنصور بالله والمعز لدين الله صلوات الله عليهم المحل الجليل العظيم وكان داعي  
الدعاة (١). ولما تم الأمر للمهدي بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ راسله شيعته بمصر للنهوض  
إليها ، وفعلا حاول الفاطميون غزو مصر عدة مرات ، منها تلك الحملة التي كانت  
بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي التي نجحت في دخول الإسكندرية ولكن  
تكاثرت جيوش العباسيين فانهمزم حباسة (٢) وشعر والى مصر أن بين المصريين  
من كاتب الفاطميين لغزو البلاد فتبهمهم الوالى وسجن منهم عددا كبيرا ، وعذب  
آخرين بقطع أيديهم وأرجلهم (٣) ، وفي ذلك قال الشاعر المصري ابن مهران :

وقد وافى حباسة في كتام بكل مهند وبكل خطي  
وقد حشدوا المصر ودون مصر له خرط القتاد وأى خرط  
وأقبل جاهلا حتى تخطى وجاز بجعله حد التخطى  
بكتب جماعة قد كاتبوه من اقباط بمصر وغير قبلى  
وكل كاتبوه ونافقونا وكل فى البلاد له موطنى  
فقل لحباسة إن كنت عنا مضيت فإن قتلك ليس يبطى (٤)

كذلك نذكر الحملة التي كان يقودها القائم بأمر الله فى سنة ٣٠٧ هـ فقد فتح  
القائم بأمر الله الإسكندرية ثم سار إلى الفيوم وكاتب المصريين بالثغر تارة  
وبالشعر تارة أخرى ، فكان القائد مؤنس الخادم يصادر هذه المسكنات  
ويرسلها إلى الخليفة العباسى المقتدر وظلت أحوال القائم بمصر مضطربة حتى  
اضطر إلى العودة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ ، وقد حفظ عريب بن سعد القرطبي  
صورة مقطوعة من الشعر قيل إن القائم أرسلها إلى شيعته من المصريين يستهض  
همهم ، وذهب عريب إلى أن هذه المقطوعة أرسلت إلى بغداد وأن الخليفة أمر  
محمد بن يحيى الصولى بالرد عليها ؛ وهاك المقطوعة .

أيا أهل شرق الله زالت حلومكم  
أم اختدعت من قلة الفهم والأدب  
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟  
وغزوكم فيمن ؟ أجيبيوا بلا كذب  
صلاتكم والحج والغزو ويلكم  
بشراب خمر عاكفين على الريب  
ألم تترى بعث الرفاهة بالسرى  
وقت بأمر الله حقا كما وجب  
صبرت وفى الصبر النجاح وربما  
تعجل ذو رأى فأخطا ولم يصب

(١) نفس المصدر

(٢) السكندى : الولاة ص ٢٧١

(٣) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ٢٨١ (٤) السكندى : الولاة وانفضاة ص ٢٧٢

إلى أن أراد الله إعراز دينه  
وناديت أهل الغرب دعوة واثق  
بجاءوا سراعا نحو أصيد ماجد  
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم  
وأردفتها خيلا عتاقا بقودها  
شعارهم جدى ودعوتهم أبى  
فكان بحمد الله ما قد عرفتم  
وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم  
فقمتم بأمر الله قومة محتسب  
رب كريم من تولاه لم يخب  
يبادونه بالطوع من جملة العرب  
وقد لاج وجه الموت من خلل الحجب  
رجال كأمانال الليوث لها جنب  
وقولهم قولى على النأى والقرب  
وفزت بسهم الفلح والنصر والغلب  
فدونكم حربا تضرم كاللهب (١)

وتابعت غزوات الفاطميين لمصر فكانت ترد مهزومة مدحورة ، فاضطر  
شيعة المهدي إلى اتخاذ التقية وإلى الدعوة السرية حتى ولى كافور نيابة عن ابن  
سيده الحسن بن عبد الله بن طغج وكان ابن طغج ضعيفا فطمع فيه الجنند وكرهوه ،  
واستغل ضعفه أحد دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر وحبب إليه دخول مذهبه  
ومكاتبه المعز لدين الله (٢) ويذكر ابن زولاق أنه كان بمصر داعية آخر يسمى بأبى  
عيسى عبد العزيز بن أحمد (٣) ، ويخيل إلى أن أبا جعفر بن نصر الداعى كان  
معروفا أكثر من صاحبه وأنه كان من جلساء كافور وبنى طغج ، وعرف عنه  
الدعوة للفاطميين فى مصر ولا أدرى سبب سكوت الأمير عنه ، ويذكر ابن  
زولاق أن هذا الداعى بنى دارا له بمصر فر عليه سييويه المصرى فقال : كافور  
الأسود غدا يؤخذ بأذنه ، إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة  
على كل تابع ومتبوع ، وذليل ومرفوع تغير فيها الأحوال وتحمل إليها الأموال (٤)  
معنى هذا كله أن الدعوة الفاطمية كانت أسبق إلى مصر من جيوش الفاطميين  
وأن الدعاة استطاعوا أن يبدروا بين بعض المصريين عقائد الفاطميين فاستجاب  
لهم من استجاب وكانوا عوننا لجيش جوهر القائد فى دخول مصر سنة ٣٥٨ هـ  
إذن كان بمصر شيعة ، واسكننا لا ندرى إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان  
المصريون ، ويغلب على ظنى أن المصريين لم يعتنقوا مذهبا من مذاهب التشيع

(١) عريب بن - د : صلة تاريخ الطبرى ص ٤٢

(٢) ابن زولاق : أخبار سييويه المصرى ص ٤٠ ، وأبو الحسن : النجوم ج ٤ ص ٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٢٣ (٤) نفس المصدر ص ٤٠

كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا التشيع من ناحية العبادة العملية كما فعل غيرهم ، إنما كان هوامم مع علي بن أبي طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم يجاهدوا كما جاهد الشيعة في الأقطار الأخرى ، ولم يفلسفوا عقيدتهم الدينية على النحو الذي نراه عند غيرهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل علي ، وحرصوا على حبهم وولائهم لأهل البيت ، يكرمون الأحياء ويتبركون بالأموات ، حتى دخل جوهر مصر ، ووجد المصريون أنفسهم أن لا طاقة لهم بقتاله وصدده عن ديارهم ، فارتحلوا إليه وفدا برياسة أحد العلويين بمصر كان نقيب الأشراف الحسينيين بها وهو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسني ، وطلبوا من جوهر الأمان والصلح ، فأجابهم ، وكتب لهم الأمان وفيه نص بتأمين المصريين على عقيدتهم فقد كان السواد الأعظم من المصريين حريصين أشد الحرص على أن لا يتحولوا عن مذهبهم الديني الذي كانوا عليه وهو مذهب أهل الجماعة والسنة ، وان لا يتعرض الفاطميون لعقائدهم التي دانوا بها ، فألحوا في أن يذكر جوهر ذلك في كتاب أمانه لهم . فهل وفي الفاطميون في مصر بذلك ؟ الواقع أن الفاطميين لم يحترموا الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين فقد عملوا على تشيع المصريين على النحو الذي سنراه في هذا الكتاب ، فأصبحت مصر شيعية لها من الآراء ما تميز به في هذا العصر عن جميع عصورها التاريخية ، وأثرت هذه العقائد الفاطمية الجديدة على الحياة المصرية بل تعدت مصر إلى غيرها من البلدان الأخرى ولاسيما التي خضعت لنفوذ الفاطميين ، فأثرت في الحياة العقلية الإسلامية تأثيراً كان له خطره في جميع البلدان الإسلامية .

وهذا الكتاب هو محاولة الكشف عن الحياة العقلية والأدبية بمصر في عصر الفاطميين ، وهو عصر غامض لنا أشد الغموض بالرغم مما كتب حوله ، وكان عصر الفاطميين عصراً زاهراً في الأدب والعلم ولكن ما بقي لنا من آثار هذه الفنون والعلوم شيء قليل جداً متفرق في كتب مختلفة ، وقد حاولنا مما بقي لنا أن نعطي صورة لما كانت عليه الحياة العقلية والأدبية ، ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذه المحاولة ؟

جزيرة الروضة في ١٥ إبريل سنة ١٩٥٠

٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

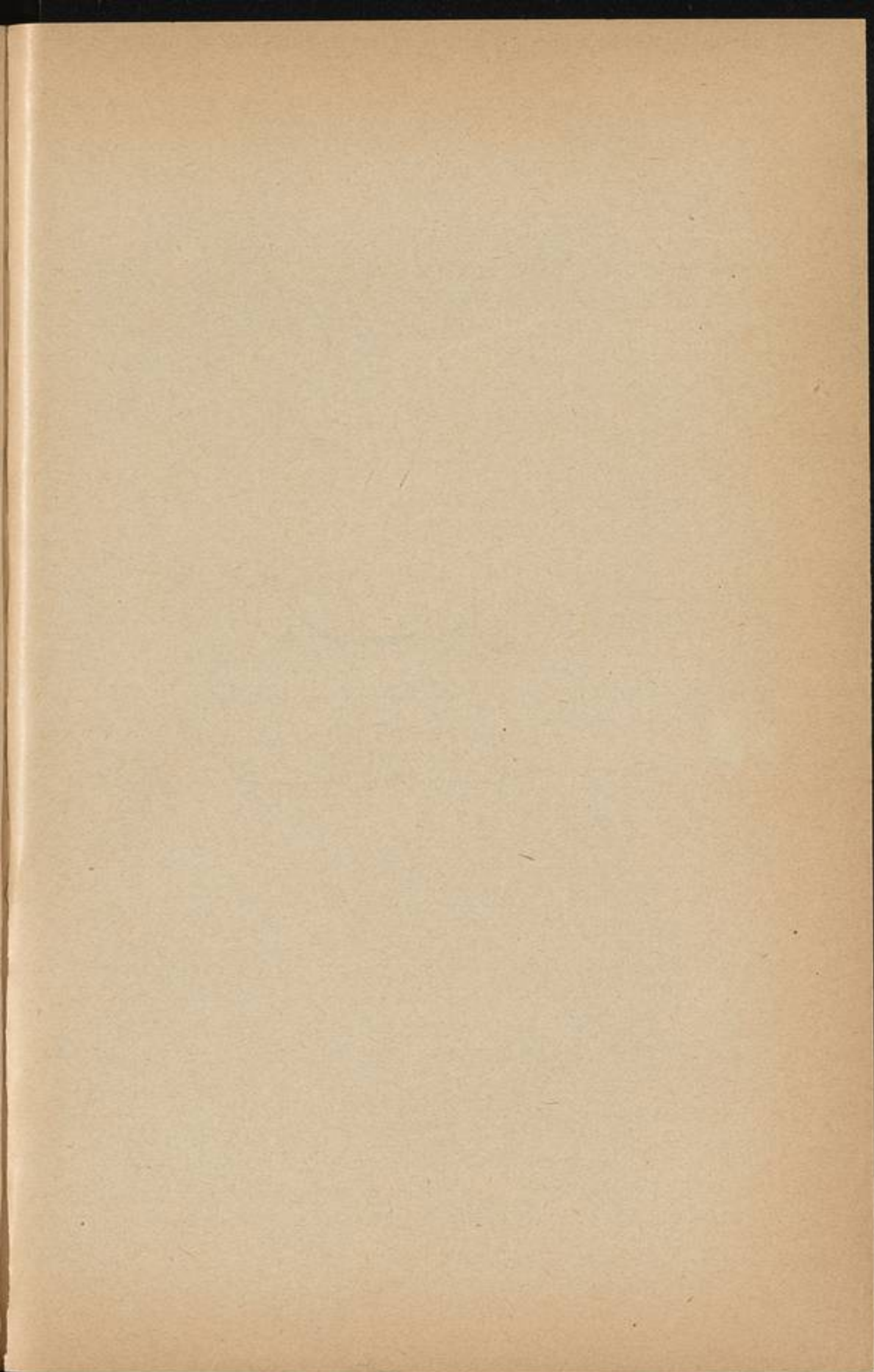
محمد طاهر حسين



# الكتاب الأول

---

الحياة العقلية



# الباب الأول

في الدعوة الفاطمية

## الفصل الأول

عقائد الفاطميين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعي ، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة . ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ؛ والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام ، ووصاية علي بن أبي طالب (١) ، وإمامة ابنه الحسن فالحسين ، فزين العابدين ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثني عشرية . وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الاسماعيلية وهي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فأئمة ( دور الستر ) وهم عبد الله بن محمد ، فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد (٢)

(١) قال الفاطميون إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الامامة وأقل من مرتبة النبوة فعلى ابن أبي طالب في مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة ولذلك لا يعدونه إماما من أئمتهم بل قالوا إنه وصى النبي ، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن عليا وصى وهو أول إمام من أئمتهم .

(٢) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين ، فمنهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميمون الفداح الذي ينسب إليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين ، ولعل السر الذي لم يعرف كنهه إلى الآن هو في هؤلاء الأئمة المستورين ، فالحديث عنهم أقرب إلى الحرافات منه إلى الواقع ، فالإمام المستور عند الاسماعيلية لا يعرف إلا لأقرب الناس إليه ، وإمعانا في الستر =

ثم أئمة دور الظهور وأولهم عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية . وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استطعنا أن نطمئن إلى أن الفاطميين نظروا إلى أئمتهم على أنهم من البشر ، يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موت وحياة ، فهم في ذلك يخالفون الغلاة من الشيعة الذين ألهوا عليا والأئمة من ذريته ، وقالوا إنهم أحياء برزقون . ومخالفون الشيعة الاثني عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكري وأنه سيظل حيا حتى يعود ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . وقال الفاطميون إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابني علي بن أبي طالب ، فالأب ينص على ابنه في حياته وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الفاطميين ، وقد أولوا قول الله تعالى ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ، بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب ،

والإمام حجة الله على عباده وهاديهم إلى الطريق القويم . فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام . وجعلوا ولاية الإمام إحدى أركان الدين ودعائه ، بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ولا يستقيم الدين إلا بها . قال المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في مجالسه : « فلو أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسننه التي جاء بها رسوله كلها ، ثم لم يقترن بعمله باعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآتي بها لم يغن عنه ما عمل فتىلا ، ولم يتبع غير أهل النار سييلا . إذ ولاية الرسول كالمركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض ، فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، وإذا كانت هذه نصبة الرسول في حياته كانت نصبة من يوليه أمر دينه مثلها ، وكثل ذلك نصبة من يليه ومن يلي من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد ، وورثها ولد عن والد ، إذ الولاية هي الأصل الذي يدور عليه موضوع الفرائض ، (١) وبهذا الرأي يقول الشيعة الإمامية جميعا ، وهو ما يتمايزون به عن

== يلقبهم بلقبه ويسمى باسمه ويكنى بكنيته . ومن هنا التبس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يقطعوا برأى فيه إلى الآن ، وكل حديث عن هؤلاء المستورين يحتاج إلى أدلة لإثباته . ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة ، ولذلك تمعدنا إغفال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أن نستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ ( نسخة خطية بمكتبتي الخاصة )

جمهور أهل السنة ، وأيد الشيعة الإمامية ومنهم الإسماعيلية هذا الرأي بقصة تروى أن النبي بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند (غدير خم) في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، هناك أنزل عليه قوله تعالى ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ) فذهب الشيعة إلى أن النبي الكريم صدع بأمر ربه ، وأمر بالصلاة حتى إذا انتهى منها أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : ألسم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، قالوا : بلى . قال : ألسم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ، قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار ، واعتبر الشيعة قول الرسول عليه السلام تليغاً لأمر الله تعالى ، ونصاً صريحاً بوجوب اتباع علي وولايته ، ومن بعده من ذريته المنصوص عليهم ، وقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب هذه القصة وأتبعها بقوله : فلقبه ( أي لقي علياً ) عمر بن الخطاب ، فقال : هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة (١) .

فالشيعة الإمامية على اتفاق مع الإسماعيلية في وجوب ولاية الوصي علي ابن أبي طالب ، ويروون عن النبي أحاديث كثيرة في شأن علي مثل قولهم : وأنا مدينة العلم وعلي بابها ، و علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ، وأنا المنذر وعلي الهادي من بعدي ، و النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، و من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ، و أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق ، و إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، (٢) واشترك الفاطميون في رواية هذه الأحاديث وغيرها . واتخذ الفاطميون دليلاً آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبقوا دور محمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لكل نبي وصياً بكل إليه أمر المؤمنين ، وأن الله تعالى هو الذي

(١) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٢ ، ٣٣٠ . والجزء الرابع ص ٢٨١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، والجزء الخامس ص ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ففي هذه المواضع نجد هذا الحديث عن النبي عليه السلام . وفي سنن الترمذي ( الكتاب السادس والأربعون الباب التاسع عشر ) قول النبي لعلي بن أبي طالب ( أنت ولي كل مؤمن بعدي )

(٢) راجع ذلك كله في كتاب بحار الأنوار وفي المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة .

يوحى إلى نبيه باعلان من اختاره الله وصيا لنبيه ، وخليفة له ، فكان وصى آدم هايل  
ووصى نوح ابنه سام ، ووصى إبراهيم ابنه إسماعيل ، وكان وصى موسى أخاه  
هرون ، ووصى عيسى بن مريم حواريه شمعون الصفا ( سمعان بن يونا المعروف  
بالصفا )<sup>(١)</sup> ، فوجب أن يكون لمحمد وصى ، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء  
السابقين ، وأن الله تعالى اختار على بن أبي طالب لمرتبة الوصاية ، ويخيل إلى أن  
الفاطميين أخذوا هذا الرأي مما جاء في إنجيل يوحنا في مواضع متعددة أن سمعان  
ابن يونا هو الذى سماه المسيح بطرس أو صفا ، وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه  
أى جماعة المؤمنين ، فصنع الشيعة هذه العقيدة بالصيغة الإسلامية ، واتخذوا لها  
أدلة من القرآن والأحاديث ، على أن الإسماعيلية الذين جعلوا عليا وصيا للنبي  
جعلوا عليا من ناحية أخرى يشارك النبي في كل صفاته وخصائصه وفضائله إلا  
في مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبي وحده ، فكل الآيات القرآنية التى  
جاءت في النبي كقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، و « إنما أنت منذر  
ولكل قوم هاد » ، إلى غير ذلك من الآيات هى فى محمد وفى على أيضا ، بل جعلوها  
فى كل الأئمة المنصوص عليهم من نسل على ، ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا  
فى تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يشير فيها إلى على والأئمة من  
ذريته ، مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس  
ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، وقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا  
العالمون » ، وقوله : « وأولى الأمر منكم » ، وقوله : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا  
من عبادنا » ، وغير ذلك . فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى على  
ابن أبي طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من  
البشر . فمحمد وعلى عندهم صنوان متشابهان فى كل الصفات إلا فى مرتبة النبوة التى  
أطلقوا عليها اسم ( مرتبة الاستيداع ) فقد اختص بها محمد عليه السلام ، على حين اختص  
على بمرتبة الوصاية والإمامة التى أطلقوا عليها اسم ( مرتبة الاستقرار )<sup>(٢)</sup> ، ولذلك  
يروون أن النبي قال : لم أزل أنا وأنت يا على من نور واحد ننقل من الأصباب  
الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، كلنا ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى اتهمنا

(١) الفترات والقرانات لجعفر بن منصور البين ( ص ١٢ ب ) نسخة خطية بمكتبة الخاصة

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع فى كتاب « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة »

إلى الجد الأفاضل والاب الأكل عبد المطلب فانقسم ذلك النور نصفين في عبدالله وأبي طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا محمدا ويا هذا كن عليا (١) ، وهذه العقيدة التي تجعل من علي شريكا وشيها للنبي في كل شيء . قال الإسماعيلية بعصمة الأنبياء والأوصياء والأئمة ، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء ولم يؤولوا قصص الأنبياء هذا التأويل الذي نراه في كتبهم (٢) إلا لإثبات عصمة أئمتهم ، ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه العصمة ، إنما هو رأى جميع فرق الشيعة ، وكان موضوع عصمة الأنبياء من موضوعات الجدل بين علماء الكلام .

ولعل المشاركة الكبرى التي جعلوها بين محمد وعلي هي عقيدتهم في التأويل الباطن ، وهو العلم الذي خصوا أنفسهم به ، وسموا من أجله بالباطنية ، فقد جعلوا محمدا هو صاحب تنزيل القرآن ، وجعلوا عليا صاحب تأويله ، أى أن القرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها عليا وأبناءه من بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار ، أخذ الإسماعيلية بعض آيات القرآن الكريم دليلا على عقيدتهم في وجوب التأويل كقوله تعالى ، وكذلك يجتئيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، وقوله : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وقوله : وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي ذهبوا في تفسيرها إلى أن الله تعالى : جعل لدينه تأويلا خاصا يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلق الإسماعيلية عليهم لقب أهل الظاهر أو العامة واستدلوا بقول الله تعالى ، هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات حكيمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب ، على أن الأنبياء والأوصياء

(١) المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة .

(٢) راجع كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وكتاب أسرار النطقاء وكتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور البين والمجالس المؤيدية . وكلها نسخ خطية بمكتبتى الخاصة .

والأئمة هم الراسخون في العلم وهم الذين يعلمون تأويله ، وذهب علماءهم إلى أن قوله تعالى ( والراسخون في العلم ) نسق على الله ؛ وقوله ( يقولون آمنا به ) أخرجه مخرج الحال بمعنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به ، إذ لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه لكان مستحيلا منهم أن يقولوا آمنا به لأن الإيمان معناه التصديق والتصديق بالشيء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به ولا يجوز تصديق المرء بمالم يعلمه . ثم أنه ليس يخلو من أن يكون النبي علم يتأويل ما أتى به أو لم يعلم ، فإن كان علم به بطل الوقف بعد لفظه الله ، في الآية السابقة ، ووجب دخول النبي في مرطمن من علمه ؛ وهو أول الراسخين في العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم ، وإن كان النبي لم يعلم فأرسال الله تعالى إياه بشيء إذا سئل عنه لا يعلمه خارج عن الحكمة والرسالة (١) . فالنبي كان يعلم تأويل القرآن ، ومن يقوم مقام النبي في كل عصر يعلم هذا التأويل أيضا ، وضربوا مثلا بقصة موسى مع الرجل الصالح التي وردت في القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرفونها نبي ناطق من الأنبياء وهو موسى ، فقصة موسى هذه دليل عندهم على أن العامة من المسلمين أضعف وأقصر من النهوض بأعباء تأويل القرآن الذي اختص به الوصي والأئمة . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين :

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| وإن أجزنا ظاهر الكلام    | في ذلك أسلتهاه للخصام     |
| ففي اختلافات القرآن كثره | من كل قول مع كل زمره      |
| يا قوم سر الملكوت هذا    | يحمل أصنامكم جذاذا        |
| سر له صاحب موسى الحضرا   | قال معي لن تستطيع صبرا    |
| وقال موسى سوف ألقى صابرا | فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا  |
| تدبروا القصة ماذا يما    | من قصها إن لم تكونوا نوما |
| لعلكم أن تحسبوها سمرا    | إذن أسأتم للنفوس النظرا   |
| من كان ذا عقل وذا عينين  | يبلغ حقا مجمع البحرين (١) |

ولهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضا من القرآن الكريم كقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وقوله : « وفي الأرض آيات للموقنين »

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥١ .

(٢) ( القصيدة الأولى ) من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة .



وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، فذهبوا إلى أن مثالة الدين تؤخذ من خلقه السموات والأرض وتركيب الأفلاك وجميع ما يتأمل مما خلقه الله تعالى ، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حمله القرآن الكريم ، فأيات القرآن إذن في حاجة إلى من يخرج كشوز هذه المعاني (١) ، وبناء على هذه الطريقة التي اتخذوها لأنفسهم للتأويل وهذه القاعدة التي بها يستدلون بما في الطبيعة والمخلوقات على الدين جعلوا المخلوقات قسمين : قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن ، وسموا الباطن ماثولا والظاهر مثالا ، ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم ، نظرية المثل والممثول (٢) ، وقد أخذت هذا الاسم مما كتبه دعاة الفاطميين ، فالمؤيد في الدين يقول في مجالسه ، خلق الله أمثالا ومثولات ، لجسم الإنسان مثل ، ونفسه ممثول ، والدنيا مثل والآخرة ممثول ، وأن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل ، وأن قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي ممثول تلك الأمثال (٣) وقول صاحب المجالس المستنصرية : ومعشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لسلك الأمثال جملا وتفصيلا ، ولم يستح من صغر الممثل إذا بين به ممثولا ، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلا (٤) ، ويقول المؤيد في الدين :

اقصد حى ممثوله دون المثل ذا لبر التحل وهذا كالعسل (٥)

وإذن فالقاعدة في التأويل عند الإسماعيلية هي تطبيق نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه ممثولات ، والظاهر هو هذه المعاني التي يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة ، والباطن هو هذه المعاني التي يستخلصها الوصي والأئمة من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين . وبالرغم من أن الإسماعيلية أتوا بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والممثول . فإن هذه النظرية

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥٢

(٢) راجع نظرية المثل والمثول وأثرها في شرمصر الفاطمية — بحث قرى في مؤتمر

المستشرقين الحادى والعشرين في باريس يوم ٢٩ يولية سنة ١٩٤٨

(٣) المجالس المؤيدية : المجلس الثامن من المائة الثانية

(٤) المجالس المستنصرية ص ٩٨ — ٩٩ ( طبع دار الفكر العربي )

(٥) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعى الدعاة

وإن كانت قد صبغت بالصبغة الإسلامية فإنها هي نظرية المثل الأفلاطونية القديمة ، أدخلوها في عقيدتهم بعد أن غيروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم الإسلامية . ويحيل إلى أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذي نراه عند الإسماعيلية لم يعرف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التي ظهرت في عصر المأمون العباسي وبعده ، وبعد أن ترجمت الكتب الفلسفية اليونانية ، فالمعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية وعلى الأخص فيلون وتلاميذه حاولوا تأويل التوراة تأويلا باطنيا — إن صح هذا التعبير — وأن سانت أوغسطين هو أول من حاول تأويل الإنجيل تأويلا باطنيا كذلك . وجاء الإسماعيلية وأخذوا فكرة التأويل مما نقل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة ، ولكنهم صبغوا تأويلهم بالصبغة الإسلامية كما دأبوا دائما في كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية . ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخلوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة الأجنبية فقد ظهرت في تأويلاتهم آثار هذه العلوم والفلسفة كما ظهر تأثيرهم بالعقائد والأديان القديمة التي غمرت العالم قبل الإسلام وبعده . ويحيل إلى كذلك أنهم لم يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إمعانا منهم في زيادة شرف علي بن أبي طالب والأئمة ، وخصهم بميزات تبعدهم بعض البعد من سائر البشر ، فكانت الولاية هي المحور الذي تدور عليه جميع العقائد الفاطمية ، فتأويلاتهم وفلسفتهم في الإبداع والخلق وكل عقيدة في النفس والعقل كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة هي الوصي والأئمة ، ففي التأويل الباطن أن وجه الله ، و يد الله ، و جنب الله ، هم الأئمة ، والشمس محمد والقمر علي والأئمة ، والأهله هم الأئمة . بل ذهبوا كما ذهب بعض فلاسفة الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة (اللوجوس) فقالوا إن الكلمة هي ، كن ، من قوله تعالى : ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وكلمة ، كن ، حرفان كاف ونون ؛ ولكنهما في التأويل الباطن مثلان للحدود الروحانية المقربة إلى الله ، فالكاف رمز للعقل الأول أو (القلم) وهو أقرب الحدود إلى الله وهو الذي ورد فيه الحديث النبوي الذي رواه البخاري : ، أول ما خلق الله القلم ، فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر ، فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أئيب وبك أعاقب . الخ ، والعقل الأول الذي ذكر في ظاهر القرآن بالقلم ولأنه أقرب الحدود إلى الله تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سمي بالسابق . أما النون فهي رمز

لنفس الكلية وهي التي رمز إليها في القرآن باللوح وسميت بالتالي ، وبناء على نظرية المثل والمثول يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن ، فالإمام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالي ، وكل خصائص العقل الأول ( السابق ) جعلت للإمام ، فمثلانزي الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن كل الصفات والأسماء ، وقالوا : إن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الأول (السابق) وأن الله سبحانه يتعالى على أن يتصف بصفة وأنه ليس أيسا وليس ليسا ، إنما كل ما جاء في القرآن الكريم من صفات الله فهي صفات العقل الأول ( السابق ) وإذن فهذه الصفات يوصف بها أيضا مثل العقل الأول في العالم الجسماني وهو الإمام ، وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئت لا ماشاءات الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فقد فهم القدماء من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هاني أنه يؤله إمامه ، وحكموا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية بدليل هذا البيت وأمثاله ، ولو كان القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليها ولا غلوا في العقيدة ، وسنتحدث عن ذلك كله في باب الشعر .

وإذن فالتأويل الباطن عندهم لسبب واحد هو إغداق صفات التمجيد والتفخيم لأئمتهم على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضرورته قالوا أيضا بالظاهر معه فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعا انتدحت الفوائد وعرفت المقاصد ،<sup>(١)</sup> ومن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر فهو بمن يعبد على حرف<sup>(٢)</sup> والظاهر عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد في سبيل الله ، فيجب على المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية الظاهرة كما ورد في كتاب الله وما سنه رسول الله ، وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن بعلم الباطن الذي هو العبادة العملية التي خص بها الوصي والأئمة ، فالفاطميون إذن لم يعملوا على طرح الأديان وإبطال العبادة كما وهم الكتاب والمؤرخون الذين

(١) المجالس المستنصرية ص ٢٧ .

(٢) المجالس المستنصرية أيضاً ص ٢٩ .

محدثوا عن الفاطميين ، بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد في الدين :

فإننا لأهل علم وعمل لله دنا بهما عز وجل (١)

وشاركوا غيرهم من المسلمين في هذه العبادة الظاهرة ، ودعوا إلى الهادعونهم إلى عبادتهم الباطنة ، وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد وكتاب المجالس المستنصرية ، للداعي ثقة الإمام علم الإسلام وجدنا أن الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنة وفقه مالك على وجه خاص ، مع أن الإسماعيلية لا يأخذون في أحكامهم الشرعية بالرأى ولا بالقياس إنما يأخذون بالأحكام التي يشرعها الإمام ، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل السنة إلا في بعض مسائل فرعية ، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم ، فقد كانت هذه المسألة من أهم المسائل التي أثارته سخط المسلمين على الفاطميين ، ذلك أن الفاطميين لا يبدهون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة ، فقد وجد الفاطميون أن الهلال إذا غم في بلد من البلاد بسبب سحب أو غيره فقد يظهر في بلد آخر قريب ، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر ، وكثيرا ما يحدث اضطراب في بدء الصيام في البلد الواحد ، فيقع ما يسمى بيوم الشك ، وهو ما نشاهده كل عام إلى اليوم . ومن ثم لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا تقوينا قريبا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازلها حتى يعرفوا أن هلال رمضان قد أهل حقا ، فجعلوا الشهور العربية شهرا تاما والتالي له ناقصا دائما وبذلك أصبح شعبان ناقصا دائما ورمضان تاما دائما ، ومن هذا التقويم الدقيق عرفوا متى يبدأ رمضان ومتى ينتهي دون الرجوع إلى رؤية الهلال برؤية نظر ، بل جعلوا قول النبي الكريم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار ، وهذا التقويم الفاطمي جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ويبدهون عيد الفطر قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ، ومن هنا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهم حقيقة دعوتهم ورموزهم بالخروج عن الجماعة وعن الإسلام .

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة بل بين الشيعة عامة وبين السنين مسألة ميراث البنات ، فالشيعة يورثون البنات كل ما تركه الأب إذا لم يترك

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة

ولذا ذكرا . ومن الخلافات أيضا مسألة مسح الرجلين في الوضوء ، فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح ، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين ، ومن أهم الخلافات التي بين الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثاني عشر حتى يرزق منذ اختفى في السرداب ، وأنه سيظهر ليلا الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، على حين يذهب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشري جرى عليه ما جرى على البشر من حياة وموت ، فن السخف أن يقال إن إماما يعيش طول هذه المدة ، ومن الخلاف أيضا قول الاثني عشرية بتحليل زواج المتعة على حين يحرمه الإسماعيلية . ولم يذهب الفاطميون بالقول بالرأى كالمعتزلة ولا بالقياس كأهل السنة بل رفضوا الأخذ بالرأى والقياس ، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المعصوم وإلى علوم أهل البيت التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر ، فعمل الباطن الذي خص به الأئمة دعاهم إلى القول بأن إعجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إعجازه من ناحية اللفظ ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه ، ولكن إعجازه يظهر بما يحتويه من معاني وفي ذلك يقول المؤيد :

إن كان إعجاز القرآن لفظا ولم ينل معناها منه حظا  
صادقتم معقوده محلولا من أجل أن أنكرتم تأويلها

وفكرة عصمة الإمام دعوتهم كما دعت الشيعة عامة إلى القول بعصمة الأنبياء . أما ما ورد في القرآن الكريم عن معاصي الأنبياء فقد ذهبوا في تأويلها إلى أوجه لم يعرفها المفسرون ، ولا أدري من أين أتوا بها (راجع ما كتبناه عن تأويل الأنبياء في كتاب «ديوان المؤيد في الدين» ) .

وهكذا ترى الفاطميين لا يكادون يختلفون في عبادتهم العملية الظاهرة عن غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمه الله تعالى ، ويتجنبون المآثم والمعاصي ، ويحللون ما أحله الله تعالى للمسلمين ، ولكن التأويل الباطني للإسماعيلية هو الذي جعلهم يوسعون الهوة بينهم وبين غيرهم من المسلمين ، فقد أرادوا بتأويلهم الباطني إسباغ الفضائل على الأئمة فجعلوا الأئمة يناسبون العقل الأول ، وصفات الله وأسماءه الحسنى المذكورة في القرآن الكريم جعلوها للعقل الأول ، وتبعاً لذلك جعلوها للأئمة ، أما الله سبحانه وتعالى فقد نزوه عن كل صفة ووحده التوحيد كله .

نوحده الله ولا نشبهه قد انتفت عنا بذاك الشبه (١)

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة

فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس الشريفة تعود إلى ما يحاسبها ويناسبها ، فتصبح نفس الإمام عقلا من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ولا تتلاشى ، لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم ، ولا يقولون بالتلاشى بل ناقشوا أصحاب هذه العقائد وسفها آراءهم ، كما كفروا الغلاة الذين ألهوا عليا والأئمة من أبنائه ، قال المؤيد في الدين داعي الدعاة :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| فكيف شرع الأنبياء ندفع    | وما لنا إلا النبي مرجع      |
| بنوره في الدرجات نرتقي    | وبالكرام الكاتين نلتقي      |
| يا رب فالعن جاحدى الشرائع | وارمهم بأجمع الفجائع        |
| والعن إلهى من يرى الإباحه | بلعنة فاشحة محتاحه          |
| والعن إلهى غالبا وقالبا   | ولا تدر فى الأرض منهم باقيا |
| يا رب إنا منهم براء       | هم واليهود عندنا سواء       |
| فأخزهم وأخز من رمانا      | بريبة ولقه الهوانا (١)      |

ويقول في الرد على القائلين بالتلاشى والتناسخ :

|                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| أيها المدعى التلاشى حمقا     | ذا الذى تدعى عليك وكيل   |
| أترى هذه الصنائع طرأ         | عشنا ما لصانع محصول      |
| حركات الأجرام قل لى لماذا ؟  | ولماذا طلوعها والأفول ؟  |
| ألها فى مجالها الفعل أم لا ؟ | فبغير إذا يجوز تجول      |
| إن تقل ذاك فعلها باختيار     | أنكرت منك ما ادعت العقول |
| إن فيما دنا من الماء والنار  | على ما علا لنا التمثيل   |
| ولئن قلت : ذاك غير اختيار    | قلت : كل مدبر محمول      |
| فإذا كان هكذا ثبت الحامل     | والفاعل اللطيف الجليل    |
| فإذا كان فاعل متقن الفعل     | وما دونه له مفعول        |
| فالتلاشى لفعله مستحيل        | جمل عمّا به عليه تحيل    |
| والذى قال إنه الفسخ والفسخ   | وما ذا بغير دنيا حلول    |
| فهو عن جوهر النفوس البسيطا   | ت ومن حيث بدوها مستول    |

(١) من القصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعاة

فلئن كان يثبت الأصل منها فكذا نحوه يكون القبول  
ولئن كان نافيا قيل مهلا فلهذا المشاهدات أصول  
فتواب يكون بالأكل والشرب فذاك العذاب والتنكيل (١)  
ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإباحة المطلقة  
والقول بالتناسخ والحلول، إلى غير ذلك من الاتهامات التي أظهر البحث الحديث  
أن الفاطميين براء منها. على أني لا ألوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة  
الفاطمية على أنها مباينة للإسلام وتوحيد الله بقدر ما ألوم بعض الغلاة من الدعاة الذين  
غيروا المذهب الفاطمي وخرجوا به عن منهجه الصحيح، حتى اضطرت الأئمة إلى  
إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالهم. نذكر  
من هؤلاء الدعاة علي بن الفضل الذي كان من أسبق الدعاة في أواخر دور الستر  
الأول في إظهار الدعوة في اليمن ولكنه ضل طريق رشده، فتبرأ منه الامام وطلب  
من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه ويمحو أتباعه (٢)  
ونذكر أحمد بن السكيال الذي كان داعيا للإسماعيلية فغير المذهب ودعا لنفسه (٣)  
والقرامطة الذين استباحوا المحرمات ونادوا بالإباحة فاضطر عبيد الله المهدي قبل  
ظهوره بالمغرب إلى عزلمهم عن الدعوة فحاربوه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا  
متاعهم. فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة فصر إلى أن رحل إلى شمال  
أفريقيا حيث أقام دولته (٤) واستمر العداء بين القرامطة والفاطميين ردحا طويلا  
من الزمان، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذكر في كتب التاريخ، وكذلك  
نقول عن فرقة الدرزية التي ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله، فأمثال هؤلاء الدعاة  
كانوا أسلحة ماضية ضد المذهب، حتى قال القاضي النعمان وذكر المعز لدين الله رجلا  
أصابه بلاء عظيم في نفسه ووصف ما صارت حاله إليه، وكان هذا الرجل قد ألد  
في أولياء الله وغلا في دينه، وقد كان قلد شينامته وناله بسبب ذلك من سخط الأئمة  
ما نعوذ بالله منه، فقال المعز لدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه: ما ألد

(١) القصيدة الخامسة من ديوان المؤيد داعي الدعاة.

(٢) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة) وكتاب

كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليماني ص ٢١ وما بعدها.

(٣) راجع الشهرستاني.

(٤) راجع افتتاح الدعوة واستتار الامام وسيرة جعفر الحاجب.

أحد فنيا ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا بيلاء يكون نكالا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد وأبقى .

ثم ذكر من تجاوز هذا الرجل وتعديه وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين ما يطول ذكره . قال : وتقرر عند المنصور بالله أنه يقول : عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال ولنا من أولياتنا في الدين من نزول السموات والأرض ولا يحول ولا يزول . فأعظم ذلك المنصور بالله من قوله وأحضر جماعة من الأولياء فذكر ذلك لهم عنه ولعنه . ثم قال المعز لدين الله : أعظم آيات موسى فلق البحر ، فهذا الشقي ادعى فوق ذلك لنفسه وهو ينسب إليتنا ويدعى علمنا ومذهبنا وقوتنا ، نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله ، وما ينسب إلى نفسه ، أن ينسب إليتنا وإلى من يتصل بنا . ثم قال : سمعت القائم بأمر الله يقول : إنما أراد الدعاة إلى النار الذين انتسبوا إليتنا بما ينحلوننا إياه أنا نعلم الغيب وما تخفى الصدور ، وأشياء ذلك مما افتروه علينا ونسبوه إليتنا أن يجعلوه عدة لنفاقهم ... الخ<sup>(١)</sup> . وقال حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرماني : إن أعظم الفرق ضللا لفرقة الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها ، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة ،<sup>(٢)</sup> ويقول المؤيد في الدين ، استعبدوا بالله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة ، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة ، يستوطنون مركب الإباحة ، ويميلون ميل الراحة ، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين ، فإذا عرف سقطت الصلاة ، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة ، وأن الصوم هو السكوت عن إفشاء سرهم إلى غير أهله ، فإذا هم سكتوا لم تبق لهم حاجة إلى الصوم واحتمال كده ، وأن النهي عن شرب الخمر هو النهي عن موالة بعض الأضداد ، فإذا هم كفوا كان شربها حلالا سهل القياد ، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا من مهاوى الردى في تحليل المحرمات شر وورد ، وهؤلاء أضرب بالدين وبالمؤمنين بمن شهر سيفه وشرع رحمه إلى أمتهم بالبغضاء . ولم يزل من مضى من أمير المؤمنين علي والأئمة من ذريته إلى إمام الزمان براء إلى الله تعالى بمن هذه سبيله سرا وجهرا ينشرون في صحف الخزي على من دان دينهم . الخ<sup>(٣)</sup> فهؤلاء الدعاة الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة

(١) المجالس والمساربات ورقة ٨٦ م نسخة خطية بمكتبتي الخاصة

(٢) كتاب تنبيه الهادي والمستهدى نسخة خطية بمكتبتي

(٣) المجالس المؤيدية



الإسماعيلية كانوا سببا في أن يذهب المؤرخون القدماء ومن تبعهم من المحدثين إلى فساد عقيدة الفاطميين ، ومن يتعمق في دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت في كتب دعواتهم وعلماهم — وهي الكتب التي لا يقربها إلا من بلغ درجة رفيعة في الدعوة — يرى الفاطميين براء من كثير مما نسب إليهم ، ولولا هذا التأويل الباطني الذي جعلوه قوام عقيدتهم لتساووا مع غيرهم من المسلمين في كل شيء ولما وجد خصومهم مطعنا في عقيدتهم .

والذي ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة التي عرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة للآراء الإسلامية ويصبغوها بالصبغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ويردها إلى أصولها القديمة ، فمثلا قال قدماء المصريين بأن روح الملوك تنتقل إلى العالم العلوي وتصبح من الآلهة ، فقال الفاطميون إن روح الإمام تصبح ملكا من الملائكة وعقلا من العقول الروحانية المدبرة لعالم الكون والفساد، وذهب بعض فلاسفة اليونان إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى شيئا إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشعلة ، فقال الفاطميون إن العقل البشري في تبصره لا يستطيع الوصول إلى معرفة شيء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الآئمة ، ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضا أن النفس كانت صفحة بيضاء فإذا حلت في جسم نقش عليها ما اكتسبه الإنسان إن خيرا نحيير وإن شرا فشر ، فقال الفاطميون بهذه المقالة . وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة ، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي وخلق العالم بواسطة الكلمة ؛ مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جمعات الكلمة هي العقل الكلي على حين قال الإسماعيلية بأن الكلمة هي السابق والتالي أي القلم واللوح وأنها هي كلمة كن من قوله تعالى ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة الفيوضات ومراتبها بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحانية والجسمانية ، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل ، وعن الزرادشتية القديمة مذهب التخميس ، وعن الفيثاغوريين القدماء مذهبهم في التوحيد، وجعل الأعداد أصولا لعقائدهم ، بل كان نظام دعوتهم

هو النظم الفيثاغورية عينها ، وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيرا من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى بالرغم من صبغ هذه الآراء والعقائد بالصبغة الإسلامية ، حتى ليتوهم الباحث في كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أي علم أو رأي دخيل .

وخلاصة القول في العقائد الفاطمية أن الولاية هي محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتجيده أكثر من أي شيء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب ، ويقومون بفرائض الدين ، ويحرمون ما حرمه الله ، ولا يقولون بالتعطيل أو الإباحة ، ولم يعتقدوا التناسخ أو الحلول أو التلاشي ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبي دوره ، ويأتي النبي الذي بعده ينسخ شرع النبي قبله ، فلما جاء دور محمد وهو سادس الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث في أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله في دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لوصي محمد والأئمة بعده وأولوا ذلك كله تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، ونراه واضحا في أشعار شعرائهم ورسائل كتبهم على النحو الذي نراه في باب الشعر من هذا الكتاب :

## الفصل الثاني

### مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتب الفاطميون لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً لا أكاد أجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها ، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ، ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين ، وكان للبعثة دعاة يدعون لآرائهم في الأقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة لها حكومتها . أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، بل لا تزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين من ورث دعوتهم ، وهم المعروفون بالهيرة والمعروفون بالاسماعيلية الأناخانية . وكما أنهم في تأويلهم الديني يطبقون نظرية المثل والممثل التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، كذلك نراهم قد طبقوا هذه النظرية أيضا على نظم الدعوة أي أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة أي من نظام دورة الفلك وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات ، فالسنة اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً واليوم أربع وعشرون ساعة منها اثنا عشر بالهارة واثنا عشر بالليل ، فكذلك قسمت مراتب الدعوة : فالسنة التي تجتمع الشهور والأيام مثل على النبي في عصره أو الامام الذي يجمع جميع مراتب الدعوة ، والاثنا عشر شهراً مثل على رؤساء الدعوة في الجزائر<sup>(١)</sup> ويسمون حجج الجزائر ، ولكل من هؤلاء الحجج ثلاثون داعياً أو

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثني عشر جزءاً ، سمو كل جزء بجزيرة أي إقليم . وحاولت أن أعرف هذه الجزائر دون قائمة ، وبذهب الأستاذ ايفانوف ( هامش ١ ص ٢٠ من كتاب Rise of Fatimite ) إلى أن هذه الجزائر هي : العرب . الترك . البربر . الزنج . الحبشة . خزر ، الصين . فارس . الروم . الهند . السند . الصقالبة . ولكنني وجدت أن حميد الدين السكرماني كان يلقب بحجة العراقيين . ولم أجد العراقيين بين الجزائر التي ذكرها الأستاذ ايفانوف . وكلمة جزيرة مأخوذة من الأصل ( جَزَرَ ) بمعنى قسم .

نقيا ، ولكل داع من هؤلاء الدعاة أربعة وعشرون داعيا ماذونا أو مكسرا .  
ولكل مرتبة من هذه المراتب عمل خاص به ، فالامام يختار من شيعته أقواهم لسانا  
وأصدقهم جنانا وأحجهم بالحجة وأغزرهم علما ، فيجعله في مرتبة داعي الدعوة أو  
باب الأبواب ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة ، لأنها تلي مرتبة الامام مباشرة  
من الناحية المذهبية فهو المالك لجماعة الحجج والدعاة ، وإليه الاشراف على الدعوة  
في جميع الأقطار ، وقد وصف أحد علماء المذهب هذه المرتبة بقوله : « وحده الباب  
هو من الحدود الصفوة واللباب ، فهو أفضل الحدود ، وهو حد العصمة ، ولا ينتهي  
إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد <sup>(١)</sup> » ، وقال آخر : « هو باب صاحب الزمان الذي  
يؤتى منه إليه ، وحجته على الخلق ، وحامل علمه ، وصاحب دعوته » <sup>(٢)</sup> . فنسبة الحججة  
إلى الإمام كنسبة الوصي إلى الناطق ، والحجة هو صاحب التأويل في عصر الإمام فهو  
الذي يعقد مجالس الحكمة ، ويتلو على المستجيبين علوم أهل البيت أى علم الباطن .  
ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التي قسموا إليها العالم حجة هو كبير دعاة الإقليم  
والمشرف على الدعوة فيه ، وهو الذي ينوب عن باب الأبواب في عقد مجالس  
الحكمة وتلاوة المجالس ، وهذا الحججة على صلة وثيقة بباب الأبواب الذي اختاره  
الإمام ، ولكي ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا في نفوس أتباعه أنقل ما كتبه  
أحدهم وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته وهو يحدث الوزير  
بشيراز : « معلوم ما بيني وبين الديلم من الأحوال الممهدة ، والأسباب المؤكدة ، وأن  
أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه ييا كرفي شاكيا إلى ، ومورداجمة أمره وتفصيله  
على » <sup>(٣)</sup> فكانة حجة الجزيرة في جزيرته لا تقل عن مكانة الوالى أو القاضى ؛ ولكل  
حجة جزيرة ثلاثون داعيا نقيا يقومون بهداية الناس وبث الدعوة في نفوس  
المستجيبين ، وهم الذين يفتحون الذين دخلوا في الدعوة بالعالم بعد أن يأخذوا عليهم  
العهد والميثاق ، وهم الذين يجمعون النجوى منهم ويكون أمرهم لحجة الجزيرة ، ولكل  
نقيب من هؤلاء النقباء أربعة وعشرون داعيا ماذونا مكسرا ، وهو الداعي الذي  
يشكل المسلمين في عقائدهم المذهبية ويوقع الوهم في نفوس المتدينين أنهم على

(١) رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة في نصف رجب (مخطوط رقم ٢٥٧٤٠

بمدرسة اللغات الشرقية بلندن) .

(٢) هامش جامع الحقائق ج ٢ من ١٥٣ (مخطوط بمكتبتي الخاصة)

(٣) السيرة المؤيدية من مطبوعات دار الكتاب المصرى .

ضلال ، ولا يزال بهم حتى يطلبوا إليه أن يدلهم على الصواب المبين ، ولكنهم يحاورهم ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال أحالهم على الداعي أو النقيب الذي يبدأ في مفاصلهم بأسرار الدين شيئا فشيئا بعد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق ، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب في زمرة الدعوة ، ومن ذلك يتبين أن الداعي المأذون هو الذي يكاسر الناس بأن يظهريهم بأسئلة لا يستطيعون الإجابة عنها ، ولذلك يشترط في من يتولى هذه المرتبة أن يكون على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها ، وموضع الضعف في كل مذهب من المذاهب ، وأن يكون متمكنا من أصول مذهبه ، وأن يكون لسنا مجادلا ، وقد حدد الفاطميون الصفات التي يجب أن تتوفر في الداعي ، فلخصها في سعة العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه ، وهذه المرتبة هي أقل مراتب الدعوة فما بالك بالشروط التي يجب أن تتوفر في مراتب الحدود التي هي أعلى شأننا من مرتبة المكاسر .

ويحدثنا الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى في كتابه راحة العقل عن الحدود الجسمانية الذين إليهم أمر الدعوة ورتبهم بالترتيب الآتى . -

- ١ - الناطق وله رتبة التنزيل
  - ٢ - الأساس وله رتبة التأويل .
  - ٣ - الإمام وله رتبة الأمر
  - ٤ - الباب وله رتبة فصل الخطاب
  - ٥ - الحجة وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا
  - ٦ - داعى البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد
  - ٧ - الداعى المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية
  - ٨ - الداعى المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة
  - ٩ - المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق
  - ١٠ - المأذون المحدود الذى هو المكاسر وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة (١)
- هكذا ذهب الكرمانى في ترتيب الحدود الجسمانية ولكننا نتساءل عن الطريقة التي رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والأساس ولا سيما وقد ذكر الفاطميون

(١) المشرع السادس من السور الرابع من كتاب راحة العقل (مطبوعات الجمعية الاسماعيلية

في كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته ، ثم تتساءل مرة أخرى عن مرتبة الإمام في عهد الناطق إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب وأن الإمامة كانت له فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق

وضع هذا النظام للدعاة بحيث لا يخلو بلد من دعواتهم . وفي ذلك قال المعز لدين الله الفاطمي « إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ، ولا يظنون أنا لا نعني إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لسكننا قد ضيعنا من بعد عنا ، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد ، ولسكننا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا » (١) .

وبالرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي وكان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقيّة على أنفسهم خوفاً من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحذثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور الستر الأول ، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين بن حوشب ابن زادان الملقب بمنصور اليمن ، وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور الستر — الحسين بن أحمد بن عبد الله — للدعوة باليمن ، وهو الذي أوفد تلميذه أبا عبد الله الشيعي داعية إلى المغرب (٢) ومنهم الداعي فيروز وكان داعي الدعاة في زمن المهدي قبل ظهوره بالمغرب ، وكان من أجل الناس عند الإمام ومن أعظمهم منزلة والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الأبواب إلى الأئمة (٣) ، ومنهم أبو جعفر الجزري وكان له أيضا محل جليل عند المهدي لأنه كان من كبار الدعاة ، ووكله المهدي بالحريم عندما فر من سلمية (٤) ، وتوفي هذا الداعي برفادة بعد أن فتحها المهدي . وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي إلى المغرب رجلا يعرف بأبي علي الداعي ، وكان رأس الدعاة بمصر وأبو علي هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه « الفترات والقرانات » ملقبا بالشيخ الأجل المفيد وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته (٥) وانجب ابنه محمداً أبا الحسين بن أبي علي الداعي

(١) المجالس والمساربات للقاضي النعمان ورقة ١٠٥ B مخطوط .

(٢) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان نسخة خطية .

(٣) سيرة جعفر الحاجب نشرت بمجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني من المجلد الرابع ، عدد

ديسمبر سنة ١٩٣٦ . (٤) المصدر السابق . (٥) المصدر السابق .

الذي بلغ مع الأئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله المحل الجليل العظيم وكان داعي الدعاة (١) ، وجاء في كتاب استتار الإمام أن عددا من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور ، وهم ابو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن ابن الترمذي وحياد الخنعمي وأحمد بن الموصلی وأبو محمد الكوفي (٢) وهؤلاء جميعا لا نعرف عنهم شيئا . أما في دور الظهور - الذي يبدأ بظهور المهدي بالمغرب إلى انقراض الدولة الفاطمية - فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة كما وصلت إلينا بعض كتبهم (٣)

قلنا: إن من أهم أعمال داعي الدعاة هو عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين ، فانخذت مراكر لإلقاء هذه المجالس التأويلية ، ولعل أهم هذه المراكز في مصر هي :

( ١ ) المساجد ( ٢ ) القصر ( ٣ ) دار العلم

١ - المساجد : كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا الحديثة ، فقد كان الناس يتحلقون في المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقيه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذي نراه إلى الآن في بعض المساجد في مصر ، فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانا لإقامة الشعائر الدينية فحسب بل كانت دور علم أيضا . وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا في اتخاذ المساجد مجالا لنشر دعوتهم الدينية وبث عقائدهم المذهبية ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء المساجد وجعلها متناسبا مع عظم ملكهم أولا وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيا ، لذلك نرى القائد جوهر الصقلي عند ما وضع أساس مدينة القاهرة لم ينس أن يبني مسجده العتيق - الجامع الأزهر - أنشأه بأمر مولاة الإمام المعز لدين الله ، وشرع في بنائه في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٤) وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، ثم جدد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٢) استتار الإمام ، نشر بمجلة كلية الآداب بالجزء الثاني من المجلد الرابع عدد ديسمبر

سنة ١٩٣٦ ص ٩٣ .

(٣) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

(٤) خطط المقرئ ج ٤ ص ٤٩ ( طبع مطبعة النيل ) .

الذي وقف عليه رباعاً بمصر ، ثم جدده المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي انشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربي ، وهكذا كان هذا المسجد في العصر الفاطمي محل رعاية الأئمة وعنايتهم ، فلم يقصروا في تجديده والزيادة فيه ، حتى قيل إنه كان يصدر في محرابه منطقة فضة قلعها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى فتاديل الفضة وتنورين من الفضة ، ووقفوا المؤذنيه وخدمه ووسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور في كتب التاريخ ، والذي يهمننا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتخليق في هذا المسجد العتيق واتخذوا منه جامعة علمية ، فقد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ ، ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكاناً لها بين أما كن أخرى ، ففيه عقد أول إجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير - وفي ذلك يروي المقرئزي عن المسيحي أنه في يوم الغدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعاً عظيماً أقاموا إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة وكان هذا أول ما عمل بمصر (١) ، وبالجامع الأزهر كان داعي الدعوة يعقد مجلساً للنساء يلقي عليهن شيئاً من علوم أهل البيت (٢) وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان وابتدأ في قراءة كتاب جده ، اختلاف أصول المذاهب ، (٣) ويذهب المقرئزي إلى أن أول ما عرف من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار ، وعمل ذلك بالجامع الأزهر (٤) ، ويقول القلقشندي إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق وبني لهم داراً بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه ، وأبو يعقوب قاضي الخندق رئيس الحلقة والملقى عليهم إلى وقت العصر وكانوا سبعة وثلاثين نفر (٥) ، وجاء في خانمته النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات . تمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرته من خاتمه محمد وآله الأئمة الطاهرين وهي الرسالة التي كتبها علي بن حسين بن أحمد الأصبهاني المؤذن بالجامع الأزهر عن الداعي

(١) المقرئزي الخطط > ٢ ، ٢٢٣ . (٢) خطط المقرئزي > ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) رفة الإصر ص ٧٣ . (٤) خطط المقرئزي > ٤ ص ١٩٢ ، > ٢ ص ٢٢٢ .

(٥) صبح الأعشى > ٣ ص ٣٦٦ .



احمد بن عبد الله بن محمد الكرماني مؤلفها قدس الله روحه ، كتبت من نسخته وقرأت عليه وعلى جمهور المؤمنين (١) ويحدثنا الكرماني في مقدمة هذه الرسالة أنه وفد إلى مصر — ويحيل إلى أنه جاء مصر إبان ثورة الدرزي — فاضطر إلى تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس فنقلها عنه مؤذن الجامع الأزهر . فهذا كله يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفاطميين اتخذوا من المسجد الجامع الأزهر مركزاً من مراكز دعوتهم ومعهداً تلقى فيه علوم أهل البيت .

وهنا نقف لتسامل ، هل كان هذا المسجد معهداً لتعليم الدعوة الفاطمية فحسب فلا نجد أثراً لحلقات الشافعية والمالكية والحنفية ؟ يحيل إلى أن الفاطميين كانوا يتساحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يلقي دروسه وتعاليمه في الجامع الأزهر ، فقد قيل إنه في سنة ٣٨٣ هـ رتب رجل جعفرى للجلوس في الجامع للفتوى على مذهب أهل البيت فذهب عليه الفقهاء من أهل الجامع ، فبلغ القاضى ذلك فقبض على بعضهم (٢) فمن هذا النص نستطيع أن نتبين أنه كان بالجامع فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية ، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذاهبهم وعقيدتهم ، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الفاطمي شغبوا عليه فاضطر القاضى إلى أن يقبض على بعضهم لا لشيء سوى أنهم لم يتساحوا مع هذا الفقيه مثل ما تساحت الدولة معهم . ويروى أيضاً أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ثم بدا له فقتلها بعد ذلك (٣) . أضف إلى ذلك أن مصر شهدت في العصر الفاطمي عدداً من فقهاء الشافعية والمالكية ، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد ابن بندار أبو يوسف القزوينى شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة (٤) يلقي تعاليمه التى تخالف تعاليم الفاطميين ، وستحدث عن ذلك كله في الفصل الخاص بفقهاء أهل السنة ، وإذن نستطيع أن نقول إن الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب الأخرى بإلقاء تعاليمهم بجانب ما كان يلقي من تعاليم الفاطمية . وقد تكون هذه سياسة وضعت لأن تمام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين حتى يستطيع جمهور المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية وأن يقتنعوا بحجج الدعاة وأدلتهم وتبرهنهم فصاحتهم فبدخلوا في الدعوة .

(١) رسالة مباسم البشارات : نسخة خطية بمكتبتي الخاصة .

(٢) الكندى س ٥٩٤ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٦ .

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح وجامع راشدة وجامع المقس وجامع القرافة والجامع الأحمر وكثيرا من المساجد التي لا يزال بعضها ماثلا أمام أعيننا الآن ، وقد نقل الفاطميون إليها المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمي فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقين الدعوة الفاطمية .

٢ — القصر : يحدثنا القاضي النعمان بن محمد بأنه ولما فتح المعز لدين الله (ص) للمؤمنين باب رحمة وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرني أن أقرأه عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقائه ، فكثرت ازدحام الناس وغص بهم المكان ، وخرج احتفالهم عن حد السماع وملأوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه (١) .

وفي موضع آخر قال القاضي النعمان : وسمعت صلي الله عليه (أى سمع المعز) يقول لبعض الأواباء : ما تنظرون اليوم في شيء تنفعون به ، ما تفرمون شيئا ، ما تسمعون شيئا ؟ فسكتوا ، وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضا في الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذي بسطه المعز لدين الله (صلى) وجعله في مجلس من مجالس قصره ، وأباح لهم حتى أحبوا استماعه وقراءته وانتساحه والتعلم منه والتفقه فيه ، وقال بعض من حرض على ذلك : ويحكم أما تخافون إن قصرتم في هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم أن يختبركم فيه ، وقد أباحه لكم دهرًا طويلا فيختبركم فيه أو في بعض أبوابه فلا يجدركم حفظتم شيئا منه ولا انتفعتم به ، فيقال لكم إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذي تعبدكم الله بالقيام به فكيف ينبغي لنا أن نعطيكم من باطنه (٢) .

ولعل هذه القاعة التي أشار إليها النعمان والتي ألقى فيها هذا العلم الباطن هي المسكان نفسه الذي خصصه الفاطميون للدعوة وعرف باسم المحول . فكان المحول في العصر الفاطمي أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث ، وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس (٣) ، وهكذا جعل الفاطميون جزءا من قصرهم للدعوة لمذهبيهم ، ومكانا

(١) المجالس والمساربات ورقة ٦٨ ب .

(٢) المجالس والمساربات ج ٢ ص ١٢٣ — ١٣٤ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

يلقى فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت ، وهي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة  
التأويلية . ولم يكتف الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول في قصرهم بل نراهم  
يهتمون اهتماما خاصا بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين ،  
فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ويقول المقرئ  
نقلا عن ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر : « ومن  
جملة ما باعوه خزانه الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن في جميع  
بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنه  
كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك ، ويقال إنها كانت تشتمل  
على ألف وستمائة ألف كتاب (١) . ويقول المقرئ : « وما يؤيد ذلك أن القاضى  
الفاضل عبد الرحيم بن على لما انشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب  
القصر مائة ألف مجلد (٢) . ويروى عن المسيحي أن عدة الخزائن التي برسم الكتب  
في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانه بعضها داخل القصر لا يتوصل إليها أحد  
وبعضها في خزائن القصر البرانية . وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل  
فن من فنون العلوم الإسلامية ، فن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة وكتب  
حديث وتاريخ ونجامة ، وروحانيات وكيميا غير المصاحف الكثيرة ، ويقال إن  
العزير بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا  
من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وحمل  
إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزير خازنه  
فأخرج له من الخزانه ما يثيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير . الخ (٣)  
وهكذا كانت خزانه كتب القصر . ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللوحة القصيرة  
مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن وحرصهم على أن تجمع  
خزائنها الطرائف والنفائس في كل علم ، وذلك تشجيعا منهم للعلم والعلماء . ولا  
غرو في ذلك ، فإن مذهبهم الدينى يدعو إلى العلم والعمل وإلى الاستزادة من جميع  
العلوم والآداب ، حتى يتسنى لدعاتهم أن يكسروا خصومهم بأدلة علمية ، وأن  
يتخذوا من سعة أفقهم ومداركهم وثقافتهم مجالا يجولون فيه حتى يبرزوا غيرهم . فلا  
نعجب إن رأينا داعيا من دعائهم مثل هبة الله بن موسى الشيرازى المعروف بالمؤيد

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٣ .

في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره ، واستطاع بما حصله من علم أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يدحض رأى الزنادقة المارقين أمثال ابن الراوندى والثغوري ، وأن يناظر بعض الشاكرين أمثال أبي العلاء المعري ، وأن يجادل خصومه هؤلاء بأدلة علمية منطقية وحجج قوية ، فلو لا ما أوتيته من علم لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعا فيها جهم ويدحض حججهم ثرا وشعرا ويترك لنا هذه الذخيرة في مجالسه وديوانه ونستطيع أن نقول كذلك عن الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى وعن الداعي أبي حاتم الرازى وعن السجستاني وغيرهم من ثغول دعاة المذهب الذين تم على أيديهم فلسفة المذهب وتبلورت عقائده .

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم ، وكان ابتداء هذه المحنة التي نكبت بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمى وقد شاهد المسيحي المؤرخ المصرى شيئا من هذه المحنة وصفها بقوله ، وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة قرأت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبها محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربى فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والحظير ابن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلماهما من ديوان الجليلين ، وأن حصه الوزير أبي الفرج منها قامت عليه من نجارى مما ليك وغلماها بنخسة آلاف دينار ، وذكرى من له خيرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار ، ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة ابن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كديته وغيرهما ، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ما صار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالإسكندرية ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب ، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار إليه بالابتياح والغصب في بحر النيل والإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان

أعز الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار وبقى منها ما لم يحرق ، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية في نواحي آثار تعرف بتلال الكتبت<sup>(١)</sup> هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصرى الكبير وذكره في كتبه ، وعنه أخذ من جاء بعده عن هذه الذخيرة العلمية ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والخدم بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية وأصبح الوزراء والأمراء أصحاب الحول والطول في البلاد ، ومع ذلك كله بقي في مكتبات القصر عدة آلاف من الكتبت ، ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثروة الأفاضل بن بدر الجمالى خمسمائة ألف مجلد من الكتبت<sup>(٢)</sup> لأشك أن أكثرها كان في خزائن القصر وأبادهها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين وقد ذكرنا ما أخذه القاضى الفاضل من خزائن القصر لمدرسته الفاضلية ، ويذكر المقرئى أن ابن صورة دلال الكتبت باع منها جملة في مدة أعوام<sup>(٣)</sup> وكذا ضاعت كنوز الفاطميين العلمية بيد التعصب المعقوت .

كان في هذه الخزائن كتب الدعوة وما ألفه الأئمة وكانت هذه الكتبت بما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصيبه الفساد ، ويحدثنا منصور الجوذرى الكاتب أن المنصور بالله أرسل إلى جوذر الصقلي رسالة نسختها : بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة آباء الطاهرين ، وقد ميزتها فأقررها عندك مصنونة من كل شر ، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه ، وما من الذخائر شيء هو أنفس عتدى منها فأمر محمدأ كاتبك ينسخ لك منها ثلاث كتب ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به<sup>(٤)</sup> فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتب الأئمة وهى كتب الدعوة ومحافظتهم عليها . فلا شك أن مثل هذه الكتبت العزيزة لديهم كانت تحفظ داخل القصر فلا يقربها إلا الأئمة والدعاة فقط ، أما المكتبات التي عبر عنها المسيحيون بالبرانية ، فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة التأويلية .

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها ،

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٥٤ . (٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٥٧ .

(٣) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) سيرة الأستاذ جوذر ، نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

فحرص الفاطميين على إقتناء الكتب على اختلاف فنون العلم والآداب ، وشغفهم  
بالمحافظة عليها ، سهل للدعاة الاطلاع وإدمان النظر فيها ، والمجادلة فيها بينهم ،  
والمناظرة في هذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لغايتهم ، وسلاحا من أسلحة  
دعوتهم . حقا لم يذكر لنا القدماء أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التي  
كانت بالقصر في خدمة الدعوة ، فلم يعقد فيها الدعاة مجالس الحكمة ، ولكن هذه  
الكتب الكثرية لم توجد في القصر عينا ، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليباهوا بها  
غيرهم ومنافسيهم فحسب ، بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى  
تسكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليه طبيعة عملهم ، ولا سيما هذه  
الكتب التي كانت في داخل القصر والتي لا يقرها إلا الخاصة ، وهي الكتب التي  
قلنا إنها كتب الأئمة أي كتب الدعوة ، فكيف يتأتى للداعي أن يقوم بما فرض  
عليه من الدعوة إلا بمعرفة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة ، ولا سيما  
أن الداعي كان عرضة دائما للمجادلات والمناظرات مع علماء المذاهب الأخرى  
المخالفين لمذهبه ، وقد ذكرنا شيئا من صفات الداعي العلمية ، وما يجب أن يكون  
عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمذهبه ، وإذن قلنا أن نقول إن هذه المكتبات  
التي كانت في القصر استخدمت في الدعوة من طريق غير مباشر . وهكذا استخدم  
القصر في العصر الفاطمي في نشر الدعوة الفاطمية بمحوه ومكتباته ، وفي المحول كان  
يجمع الناس لسماع المحاضرات - مجالس الحكمة التأويلية - وكان الجمهور يقسم  
إلى أقسام فكان الأولياء مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر مجلس ،  
ولعوام الناس مجلس ، وللطائفة مجلس وللنساء مجلس (١) ، وهكذا ، وسنتحدث عن  
ذلك في فصل مجالس الحكمة التأويلية .

دار العلم : ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله  
سنة ٣٩٥ هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءا من قصره ، ولعلها هي الخزانة التي أشار  
إليها المسيحي باسم الخزانة البرانية ، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر  
من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك  
كاه لسائر الناس على طبقاتهم بمن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها مجلس فيها القراء  
والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي  
لم يسمع بمثلا من إجراء الرزق السنني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

وغيره ، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم وفنونهم العلمية ، منهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والآقلام والورق (١) ، فدار العلم إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم ، وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها . من ذلك ما يرويه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة النحوي النحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحق على ابن سليمان المعري النحوي ، وكانوا يجتمعون في دار العلوم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات (٢) ، ويروي المقرئ عن المسيحي أنه في سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، للمناظرة بين يديه ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلمهم (٣) .

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ، ولقبه بعالم العلماء ، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة (٤) ، ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يقيمادار العلم ويلقيادروسافي المذهب المالكي (٥) . فهذا كله إن دل على شيء فإتسما يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها ، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل ، فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تمتاز بها المدينة الحديثة في أيامنا هذه !

جعل الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي القضاة (٦) ، وظلت تؤدي أغراضها العلمية ، ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب ، إلى أن كانت أيام وزارة الأفاضل بن بدر الجمالي ، وعلم الوزير أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب ، وأن بعضهم ادعى الألوهية ، فاضطر الوزير إلى أن يغلق هذه الدار سنة ٥١٦ هـ بعد أن عمرت

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٤ . (٢) بغية الوعاة للسيوطي ص ٢١٣ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٤) رفع الإصر ( ص ١٩ ب ) نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ . (٦) الولاة والقضاة للسكندى ص ٦٠٠ .

أزيد من قرن ، وكان إغلاق هذه الدار العلمية وقع وقع الصاعقة على الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله وعلى بعض العلماء الذين كانوا في خدمته ولكن الخليفة كان مسلوب الإرادة مع وزيره ، فصبر على مضض ، حتى قتل الأفضل وتولى الوزارة المأمون البطاحي ففاته الأمر في إعادة دار العلم على ما كانت عليه ، وما زال الخليفة بوزيره حتى قبل أن يعيد افتتاحها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر ، وأن يتولاها رجل دين ، وأن ينظر فيها الداعي ابن عبد الحقيق ، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . فوافق الخليفة الأمر على ذلك كله ، واستخدم في هذه الدار الجديدة أبو محمد حسن بن آدم (١) ، ولكن هذه الدار الجديدة لم تعمّر طويلا إذ قضى عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية .

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية ، فكان الداعي يجلس فيها ويجمع إليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم (٢) ، كما كانت هذه الدار المكان الذي يجتمع فيه داعي الدعوة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة (٣) . ومن يدرى لعل في دار العلم كانت تحضر مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقبها داعي الدعوة نائبا عن إمامه .

ومهما يكن من شيء فالقصر والمساجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة في العصر الفاطمي . ولما كانت هذه المراكز في القاهرة كان في كل بلد من البلدان مركز للدعوة هو المسجد أو منزل الداعي في هذا البلد . يحدثنا المؤيد في الدين وكان داعيا في أول الأمر بشيراز : « فلما كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة كنت بيوم قبله مستعدا له في تحصيل فرش وآلة وسجادات يصلي عليها المصلون ولا يستغنى عنها المتعبدون ، فرفع الخبر بأنني أستجمع الجموع للصلاة والخطبة في غد وأضرب في ساحة داري المضارب والغازات ولما كان في غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصلبت بهم ، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والإنذار . الخ (٤) فالداعي هنا كان يتخذ منزله مركزا للدعوة ولكنه كان في بلد يخضع لحكم العباسيين ، أما في مصر فقد كانت الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بما لها وسلاحها ، فكانت الدعاة يتخذون المنازل والمساجد للدعوة دون خشية ، وفي المساجد كانوا يلقون بحالهم التأويلية .

(١) القرظي ج ٢ ص ٣٣٧ . (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٦٦ . (٤) السيرة المؤيدية .



## الفصل الثالث

### مجالس الحكمة التأويلية

من أجل أعمال داعي الدعوة ونوابه في الجزائر عقد مجالس الحكمة التأويلية ، أو بعبارة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم يشرح فيها الداعي عقائد مذهبهم والتأويل الباطن للدين ، وهي العلوم التي عرفت بعلوم أهل البيت ، والتي هي السر الذي يجب أن يظل مدفوناً في صدور الأولياء لا يوحون به لأحد ، فكل المجالس التي عقدها الدعوة هي مجالس تعليمية ، ولكن هذه المجالس درجات ، ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل ، فللعامة مجلس ، وللنساء مجلس ، وللخاصة مجلس ، وهكذا. ولم تقسم هذه المجالس على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين ، وإنما قسمت على حسب مرتبة الحاضرين في مدارج الدعوة ، فلا يلقى داعي الدعوة على دعائه ما يليقه على المبتدئين في دخول الدعوة ، ولا يلقى على العامة من أهل البلد ما يليقه على الغرباء ، فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص ، وعلوم خاصة ، بحيث ينتهي إلى أسرار الدعوة التي يجب ألا يقرها إلا كل ذي قدم راسخة في الدعوة ، ومن بلغ فيها مرتبة رفيعة كأن يكون داعياً مثلاً.

وداعي الدعوة — ويعرف بساب الأبواب ، وباب حطة ، وبالحيجة — هو الذي يعد هذه المحاضرات ويرفعها إلى الإمام فيوقعها هذا بعلامته ويعيدها إلى كبير دعائه فيلقبها على المستجيبين في المحول أو غيره ، فإذا انتهى من قراءتها مسح على رءوس الناس بعلامة الإمام تبركاً بها ، وتكسب هذه المجالس عادة على أنها صادرة من الإمام فتظهر للجمهور وكأن الإمام هو الذي كتبها وأن داعي الدعوة هو قارئها لما كتب الإمام ، ولذلك يحتفي اسم الداعي ولا يظهر في كتب المجالس ، مع أن المعروف أن حجة الإمام هو صاحب التأويل في عصره .

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله والصلاة على نبيه والآئمة من نسل علي ، ويرددها الداعي بشيء من الوعظ والإرشاد ، ثم يبدأ في تأويل آية من آيات القرآن أو حديث نبوي أو أثر عن الآئمة أو يؤول شيئاً من فرائض الدين العملية ،

ويجتمع مجلسه بالدعاء والصلاة والحمد وتلقى هذه المجالس مرتين في الأسبوع :  
يوم الاثنين ويوم الخميس ، ويخيل إلى أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة ، وفيها  
يقول المؤيد :

يا صباح الخميس أهلا وسهلا      زادك الواحد المهيمن فضلا  
أنت عيـد للمؤمنين عتيـد      جمع الدين منهمم فيك شملا  
نحن نجنى ثمار جنة عدن      كلما أقبل الخميس وولى  
من رياض أنهارها جاريات      وبها الحور في المقاصر تجلى  
تتروى الأرواح منها بماء      هو أشقى من الزلال وأحلى  
رتبة خصنا بها صاحب المصـ      رامين الإله عز وجل (١)

وبين يدي الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها بعض  
الدعاة ، مثل كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ، وكتاب المجالس  
المؤيدية ويحتوى على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل ، وكتاب المجالس  
المستنصرية للداعى الموسوم بعلم الإسلام نقة الإمام (٢) ، وهذه المجالس تختلف  
باختلاف الداعى ، فمجالس القاضي النعمان في تأويل فقه الفاطميين ، والمؤيد يميل  
في تأويله إلى فلسفة المذهب ، أما ماجاء في المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائى ،  
ويخيل إلى أن المجالس المستنصرية كانت تلقى على المبتدئين في الدعوة ، وقد رأيت  
أن أقدم صورة من هذه المجالس المختلفة .

**المجالس العاشرة من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان**

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى جل عن تقدير المتوسمين ، ولطف عن  
لطيف بحث المتوسمين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين ،  
ثم إن الذى يتلو ما تقدم ذكره ما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال :  
أول الصفوف أفضلها ، وهو صف الملائكة ، وأفضل المقدم ميامن الإمام . تأويله  
ما تقدم القول به من أن أمثال الصفوف في الصلاة أمثال درجات المستجيبين إلى  
دعوة الحق على مقادير فضلهم وسبقهم ، وأن أمثال الملائكة من الناس أمثال

(١) ديوان المؤيد داعى الدعوة .

(٢) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار القسركى العربى بالقاهرة .

المملكين أمور العباد ، وهم أولياء الله من رسله وأئمة دينه ومن ملكوه شيئا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوه لهم له ، والملك والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتقة أسماءها من الرسالة ، والألوك والملائكة في لغة العرب الرسالة ، وقد قال الله جل من قائل : والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، فالصف الأول من صفوف ظاهر الصلاة لا ينبغي أن يقف فيه إلا أفضل أهل المسجد من علمائهم ، كما قال رسول الله (ص) : ليلني منكم أولو النهى والعلم . وينبغي أن يكون على يمين الإمام في الصف من خلفه أفضلهم ، ومن يصاح أن يكون إماما إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة ، لأن انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين ، فيكون من يقدمه هناك ، فيأخذ يديه ويقدمه مكانه ، وعلى هذا تجرى مراتب أهل الدعوة في حدودها : أن يكون الذين يلون القائم بها في الدرجة العالية من درجات المؤمنين الذين هم أهلها ، وأن يكون أقربهم منه عن يمينه ، وهي أفضل درجاتهم ، من يصلح لمقامه من بعده ، ويتلوه ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال : سدوا فرج الصفوف ، ومن استطاع أن يتم الصف الأول أو الذي يليه فليفعل ، فإن ذلك أحب إلى نبيكم ، وأتموا الصفوف فإن الله وملائكته يصلون على الذين يسمون الصفوف . وعن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال : أتموا الصفوف ولا يضرك أن تتأخر إذا وجدت تضييقا في الصف الأول فتم الصف الذي خلفك ، وإن رأيت خلاا أمامك فلا يضرك أن تمشي منحرفا حتى تسده . يعني وهو في الصلاة . وعن رسول الله (ص) أنه قال : صلوا صفوفكم ، وحاذوا بين منا قبكم ، ولا تخالفوا بينها فتختلفوا ويتخللكم الشيطان كما يتخلل أولاد الحذف . فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج وتماها واعتدال وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر ؛ ومثله في الباطن اعتدال أهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حدث لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خلا في حد من الحدود التي فوه أو دونه فينبغي له أن يسعى ويجتهد فيها بيلغه إلى تلك الدرجة ويوجب له سد ذلك الخلل ، وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحال فيها ، وأوجب لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين في ذلك على ما أمروا به من التساوي فيه ، لا يتقدم أحد منهم

أحداً في ذلك ، كما وجب في ظاهر الصلاة أن يحاذي أهل كل صف منها بين مناهجهم ،  
ولا يتجاوز أحد منهم أحداً ، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا ومخلفهم الشيطان ،  
وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تعدى أحدهم حده ، وخرج عنه إلى حد  
غيره ، أو جب ذلك اختلافهم ، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله  
الذين أمثالهم أمثال الشياطين ، وقوله : « كما يتخلل أولاد الخذف » . فالخذف  
ضرب من الغنم الصغار السود ، واحدها خذفة ، تتخلل الغنم وتمشي بينها ، فشبه  
رسول الله ( صلع ) تخلفها ومشيا بتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين  
لما يريد من تقاطعهم وتدابيرهم إذا وقع مثل ذلك فيهم ، وتنافسوا في الرياسة  
بالخروج من حدودهم التي حدث لهم وأمرؤا بلزومها . ويتلو ذلك ما جاء عن علي (ص)  
أنه قال : قال لي رسول الله (ص) يا علي لا تقوم في العيكل . قلت : وما العيكل  
يارسول الله ؟ قال : تصلي خلف الصفوف وحدك ، فهذا مما يكره في ظاهر الصلاة ،  
أن يقف المصلي خلف الصفوف وحده ، وهو يجرد فيها مكاناً يقوم فيه ، فإن لم يجد  
ذلك قام إلى أن يأتي من يقوم إلى جانبه أو يصلي كذلك وحده إن لم يأت أحد ولم يجد  
في الصفوف موضعاً يقوم فيه ، وتأويل ذلك في الباطن ؛ نهى رسول الله (ص)  
علياً عليه السلام عن أن يفعل في الظاهر لأنه ليس هو حده في الباطن ، وحده  
في الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة ، فكره له أن يقوم في  
الظاهر في مكان لا يشبه مكانه في الباطن ، وكذلك لا ينبغي له أن يخلف بنفسه وأن  
يتواضع عن الدرجة التي جعلها له رسول الله (ص) . ويتلو ذلك قول محمد بن علي  
عليه السلام : « ليكن الذين يلون الإمام أولو الأحلام والنهي فإن تعابا لقنوه ،  
وقد جاء في مثل ذلك عن رسول الله (ص) أنه قال : ليلني منكم أولو النهي  
والعلم . وتأويل ذلك ما تقدم القول به من أن ذلك كذلك يجب في ظاهر الصلاة  
أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس علماءهم وأهل الفضل منهم ، فإن تعابا  
وتوقف في القراءة لقنوه وإن سها في الصلاة سبجوا له ليتذكر ما سها فيه ، فيرجع إلى  
الواجب منه ، وإن ذلك في الباطن كذلك لا يلي صاحب دعوة الحق في الرتبة  
والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة فإن سها عن شيء عندهم من علم ذكره إياه  
على ما تقدم القول به ، ويتلو ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : « إذا  
صلى النساء مع الرجال فمن في آخر الصفوف لا يتقدم من رجلاً ولا يحاذينه إلا أن

يكون بينهن وبين الرجال سترة ، فهذا هو الواجب في ظاهر الصلاة . وتأويله ما قد تقدم القول به من أن الرجال أمثال المفيدين والنساء أمثال المستفيدين ، وأن درجة المفيدين فوق درجة المستفيدين ، ولا ينبغي للمستفيد أن يتجاوز حداً إلى حد المفيد ولا أن يدانيه ، بل ينبغي له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له ، وأما قوله : إلا أن تكون بينهن وبين الرجال سترة ، وتأويله أن يكون المفيد مستتراً لحال التقية ، فيعامل المستفيد منه في السر ويفيده ويتقدم إليه ألا يدل عليه شيء من إجلاله ولا التواضع له فيطرح ذلك المستفيد في ظاهر أمره تقية على مفيده وعلى نفسه . فافهموا بيان التأويل يا ذوى النهى والعقول ، جعلكم الله ممن يفهم ويعلم ويعمل بما علم ، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صورة من المجالس المؤيدية :

### المجالس التاسع من المائة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى علا عن كل معلوم ، وسما عن كل موسوم ، وكبر عن كل موهوم ومفهوم ، وصلى الله على ربيب رحمته المعمور ، وبحر حكيمته المسجور ، محمد المبشر به فى التوراة والإنجيل والزيور ، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج ، ومستودع سر ليلة المعراج ، على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين العذب الفرات والمالح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه ، والمستحفظين لدينه وحقه ، والمتممين كلبه عدله وصدقته . معشر المؤمنين ، آمنكم الله من الفرع الأكبر ، وحشركم مع من تحبون فى يوم المحشر ، التليل الطيب خير من السكر الحبيث ، فسكونوا طياباً ، وكونوا فى جانب الخير ولا تيمموا الشر جناباً ، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله ( صلح ) فيما شرع ، والافتداء به فى وصل ما وصل وقطع ما قطع ، فصلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، واقطعوا ما أمر الله به أن يقطع بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، يرض عنكم ، وبدلوا حرصكم على الدنيا فتوراً ، وفتوركم عن الآخرة حرصاً ، وعوضوا

عن نقصكم في طلب الباقي ازديادا. وعن ازديادكم في طلب الفائت نقصا ، من قبل أن  
يفشيكم غواشي الندم ، ويطوف عليكم طوائف العدم ، فلا دنيا أدركتم ، ولا بعقب  
تمسكتم ، وأنصتوا لما يليق إليكم من الحكمة فإنها تنقش صور نفوسكم المستجئة في  
الأجسام ، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الأجنة في الأرحام . واعلموا أنها  
نعمة الله سبحانه على خالصة عبادته ، وأنتم بها مشمولون ، وعلى حالتكم حفظكم لها  
وإضاعتهم لا محالة مشمولون . قال الله أصدق القائلين : ثم لتسألن يومئذ عن النعيم .  
زعم الزاعمون أنه الماء البارد في اليوم الصائف ، وحمى الماء البارد للبهائم كما  
للإنسان مباح ، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح ، وهو  
علم الحقيقة الذي يؤثر في النفوس اللطيفة لصالح المعاد أكثر مما يؤثر الماء البارد  
لصالح الأجسام . وفسر بعض مفسري الشيعة أن النعيم المشتمل عليه هو ولاية  
علي بن أبي طالب (ص) وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصحة التوحيد ،  
ومعرفة الحدود الوقوف على معالم الإيمان ، وعلم التأويل الذي نفيك به أقفال  
القرآن ، وكذبوا إن اعتمدوا في معرفة الله سبحانه على عقولهم ، وادعوا وقوع  
الغناء فيها عن الرسول والوصي ، على ما عليه رأى كثير من الشيعة بزعمهم من  
الاستظهار بالولاء والافتداء في معرفة التوحيد بذوى القياس والآراء والجهود  
بالتأويل الذي يتغذ من ظلمات الاختلاف ويفضي إلى نور الائتلاف ، وإنما  
الافتقار إلى الرسول والوصي عليهما السلام لبلوغ ما هم بزعمهم بالغوه من معرفة  
الله جل جلاله ، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصح من دونهما فأى حاجة تبقى  
بعدها إليهما للناس ، وأية فضيلة تخلص لهما ، وسوى هذا فإن كانت المعتزلة التي  
هي الفئة المبرزة بدعاوى معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول نزولا على رأى  
بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند من أشرنا إليهم من الشيعة أن  
يقتدوا بهم في توحيد ربهم والقول في العدل على قضايا مذهبهم ، فلم لا يكونون  
مأمونين على الإمامة التي هي دونهما فيرجعوا إلى ربهم فيها ، ولا يناقضوهم في  
نقض مبادئها ، عهد من يكون مأمونا على انتظار ، ولا يكون مأمونا على دينار ، فقد  
اختل عليهم القول بولاية علي (ص) بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل من نظام  
الإمامة في ولده ، فصاروا في معالم توحيدهم وعدلهم على أضدادهم عيانا ، ولو

فأدوا إلى جملة المعتصمين بحبل الله الممدود باتصالها لوردوا عيوننا وظلالا ،  
ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقد كان قري  
عليكم من قول الله سبحانه : « فأما الذين آمنوا ف يعملون أنه الحق من ربهم وأما الذين  
كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . ما شفع بالإبانة عن معنى الحق ، ولم سمى  
حقا؟ وإن ذلك جهة كونه أصلا يحتمل الوضع عليه . وانتهى الشرح إلى القول بأن الأشكال  
الجبسية السكيفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة ، ومثال ذلك : أن السموات  
والأرض وما بينهما محمولة على قوة إلهية لطيفة يعبر عنها بأمر الله كما قال الله سبحانه :  
ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، وكذلك أجسام البشر على نقلها محمولة  
على الأرواح اللطيفة التي هي من أمر الله سبحانه .. ويسألونك عن الروح قل الروح  
من أمر ربي .. الآية .. فقد تثبت العلم أن النفسانيات حاملة والجبسيات محمولة  
عليها ، وأن النفوس المحقوقة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم ثابت إلى عالم النفس  
الذي هو الحق والأصل الحامل ، وثبت أيضا من اتلاف الجسم والنفس الإنسانية  
عن غير قصد منها ولا إرادة ، وتفرقتهما عن غير قصد ولا إرادة على كون تألف  
النفس السككية بالجسم السككية وعالم الجسم من السماء والأرض وما بينهما أيضا عن غير قصد  
منهما ولا إرادة ، بل بأمر المبدع سبحانه ، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها  
وأنجمها وسفلها وعلوها أمكنته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين  
الأنفس والأجسام الذي يصير به عامر الأجسام خرابا . وأتم تسمعون ما نقرأه  
الآن عليكم من قوله تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به  
إلا الفاسقين ، وما نلوح به في معناه وقال قوم : إن الضلال والهدى من الله سبحانه  
وهم جمهور العامة ، واستشهدوا عليه بهذه الآية وما هو في معناها من مثل قوله : « ولوشئنا  
لأتيننا كل نفس هداها ، وقوله تعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى  
من يشاء ، وقوله حكاية عن نوح ع . م : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح  
لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، ونظائرها كثيرة في  
القرآن ؛ وقال أهل الرأي : إنه إن كانت الصورة هذه فقد بطل ثواب المحسنين  
وعقاب المسيئين ، وإن لهذه الآيات تأويلا يرجع إليه ويحمل الأمر عليه ، وهو مثل  
قولهم في معنى الآية : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . أي يضل به عن الثواب

الضالين ويهدي به إلى الثواب المهتدين بفعلهم وكسب أيديهم . واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما يجرى بجره وهو كثير في كتاب الله تعالى . وقد سئل الصادق عليه السلام عن ذلك فقيل : يا بن رسول الله الناس مجبورون على المعاصي؟ فقال : الله أعدل أن يجبر خلقه على المعاصي ثم يعاقبهم عليها . قيل : ففروض إليهم؟ قال : هو أعز من أن يكون لاحد في ملكه سلطان . قيل فكيف ذلك؟ قال عليه السلام : أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض ، فقوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا ، يوجب أن كثيرا الضالين قليل وقليل المهتدين كثير ، وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة لا يحسمه الكشيف ، فالنفس الصالحة منسرحة في فضاء عالم النفس منفسحة ، وصاحبها قليل من حيث الجسم المحدود المحصور ، كثير من حيث النفس البسيطة غير المحصورة ، قال الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ، والنفس الطالحة ضيقة حرجة كأنفس البهائم لاخطر لها في العالم العلوي ، فأربابها وإن كثروا عددا فلقد قلوا محصولا كما قال الله سبحانه : « فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، وكما قال سبحانه : قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، وقال رسول الله ( صلح ) لعلي عليه السلام : لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت الشمس عليه . وقوله : « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ، معنى الفسوق الخروج من الطاعة وعقد البيعة ، وأما الفاسقين ، فنفس فسوق ففسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام الذي هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فنقض بيعة الله ، وفيه قال الله سبحانه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، ثم نزل على مكانه في آخر الأدوار الذي هو دور محمد ( صلح ) فنقض بيعة الغدير ، وسار الآخر على منهاج الأول ، فإبليس إمام الفاسقين أولا وهو إمام الفاسقين آخر ، جعلكم الله برا من الفاسقين ، وألحقكم بالصالحين ، لتكونوا لهم في منازلهم مرافقين ، والحمد لله الذي له في إظهار دينه أمر يبلغه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وصلى الله على رسوله الأمين ، محمد المبعوث بالبرهان المبين ، وعلى وصيه السني الأقدار ، علي بن أبي طالب معدن الفخار ، وعلى الأئمة من ذريته هداة الحق ، وأولياء الحق .



هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها كبار الدعاة على جمهور  
المستجيبين، كل بحسب درجته وحده في مراتب الدعوة، فمثل مجالس التأويل كما  
ذكرنا هي تطبيق النظرية التي أطلقت عليها نظرية المثل والممثل، وكل العقيدة  
الفاطمية إنما تدور حول الإمام وولايته ومحاولة إثبات أن الله سبحانه أشار إلى  
الأئمة في كتابه الكريم ورمز إليهم فيه، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة الأئمة وولايتهم  
وتصديق ما جاءوا به، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم التأويل الباطن  
وأمرهم بستره إلا لمستحقه من المؤمنين.

## الفصل الرابع

### أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١ — بنو النعمان (١)

لا أكاد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لها بين الأسرتين: أسرة عبد الحكم (٢) قبل العصر الطولوني وأثناءه وأسرة النعمان في العصر الفاطمي ، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر ، وكان بين بني عبد الحكم من اتجه إلى التاريخ وتدوينه ، كذلك كان بين بني النعمان من دون التاريخ ، وكان بنو عبد الحكم مقربين إلى الولاية في مصر ، كذلك كان بنو النعمان في مكانة لا تقربها مكانة أخرى لدى أئمة الفاطميين ، فالأسرتان — بنو عبد الحكيم وبنو النعمان — من أشد الأسرات أثرا في الحياة المصرية ، ولا سيما من الناحية العقلية .

أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمي ومن أكثرهم تأليفا للكتب ، وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبعها من جاء بعده من علماء هذا المذهب ، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقومها لدى طائفة البهرة الإسماعيلية، هذا الرجل هو القاضي أبو حنيفة النعمان ابن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التيمي المغربي ، ويعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان تميزا له عن سمية أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف . اختلف الناس في تاريخ مولده فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى أنه ولد سنة ٢٥٩ (٣) وتبعه الأستاذ ماسينيون في ذلك الرأي . ولكن الأستاذ آصف فيظي خالفهما وذهب إلى أنه ولد في العشر الأخير من القرن الثالث (٤) وليس لدينا

(١) راجع ما كتبناه عن بني النعمان في مقدمة كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة. (طبع دار الفكر العربي)

(٢) راجع ما كتبناه عن بني عبد الحكم في كتاب أدب مصر الإسلامية — عصر الولاية

J.A.O.S. 1907 Pvol. XXVII P.227. (٣)

J.R.A.S. I 1 P.34 (٤)

ما يرجح أحد الرأيين ، بل نصرح بأنه لم يصلنا شيء عن أنشأته الأولى ولا عن آبائه وأسرته إلا ما رواه ابن خلكان أن والده أبا عبد الله محمد قد عمر طويلا ، وأنه كان يحكى أخباراً كثيرة نفيسة حفظها في كبره ، وتوفى في رجب سنة ٣٥١ وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان ودفن بأحد أبواب القيروان (١) حياة الأسرة غامضة أشد الغموض ، ولم يحفظ التاريخ شيئاً عنها ، ولا أدرى من أين استقى الأستاذ جوثيل ما رواه من أن والد النعمان كان من رجال الأدب ، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك .

وليس لدينا شيء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ وقبل اتصاله ببيد الله المهدي الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ، إلا أنه كان مالكي المذهب وتحول إلى المذهب الفاطمي (٢) ، ولكن مؤرخي الشيعة الاثني عشرية قالوا إن النعمان كان مالكي المذهب ثم تحول إلى الشيعة الاثني عشرية ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية (٣) ويذهب أبو المحاسن إلى أنه كان حنفي المذهب قبل أن يعتنق المذهب الفاطمي (٤) . ولكن إذا أمعنا النظر في هذه الخلافات وجدنا أن الأرجح هو ما رواه ابن خلكان ، فالمذهب المالكي هو المذهب الذي كان يسود شمال إفريقيا والأندلس ، على أن المذهب الحنفي كان قليل الانتشار بين المسلمين في إفريقيا وفي مصر أيضاً ، وأن خاصة تلاميذ مالك كانوا مصريين ، وعن مصر انتقل هذا المذهب المالكي إلى شمال إفريقيا والأندلس وساد هذه البلاد حتى قل أن نجد فيها مذهبا آخر من مذاهب أهل السنة . فنرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده ، أما ما يدعيه الأستاذ آصف فيظن أن النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره وأنه اتخذ التقية والستر خوفاً على نفسه وعلى مذهبه فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده ، وكذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدي سنة ٣١٣ هـ أي بعد أن أظهر المهدي نفسه في المغرب وهزم الأغالبة واحتل ديارهم . دخل النعمان في خدمة المهدي واتصل به ، ولا ندري نوع الخدمة

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المستدرک ج ٣ ص ٣١٣

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

التي كان يؤديها ولا الصلة التي اتصلها به ، ولكن بعد وفاة المهدي اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب . أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئا . ولما بنى المنصور مدينة المنصورة كان النعمان أول من ولي قضاءها ، بل ولاة المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقربا منه ، وظل قاضي قضاء هذه المدن ومن تحته قضاتها ، إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به حتى إنه كان يجالسه ويسايره وقل أن يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته . ولكن المعز طلب إليه أن يكون في عهده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله ، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره ، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسائرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز . ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ اصطحب معه بنى النعمان ، وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجليش ، وكان من الطبيعي أن يقلد النعمان قضاء مصر ، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبي طاهر الذهلي محمد بن أحمد الذي كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وطلب إلى أبي طاهر أن يحكم بفقهاء الفاطميين ، فكان لا بد للقاضي من أن يسترشد في أحكامه بالقاضي النعمان ، وما زال كذلك حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣ هـ .

ويقول ابن حجر: إن النعمان كان يسكن مصر أي القسطنطينية ويفدو منها إلى القاهرة في كل يوم (١) ويروي ابن خلكان عن المسبجي أن النعمان كان من أهل العلم والفقهاء والدين والتبيل ما لا مزيد عليه (٢) ، ونقل ابن خلكان عن ابن زولاق أن النعمان بن محمد القاضي كان في غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه . وعلمنا بوجوده الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر والفجل والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف (٣) . وكل من تحدث عن النعمان من المؤرخين يذكر فضله وعلمه وسعة ثقافته ، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الكتب الكثيرة التي ألفها النعمان والتي

(١) رفع الإصر ص ١٣٦ ب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

أصبحت عمدة كل باحث في المذهب الفاطمي بل أصبحت الأصل الذي يستقى منه علماء المذهب ، فلا أكاد أعرف عالماً من علماء الدعوة الفاطمية لم يتهجج بهج النعمان في فقهه أو اختلف معه في رأى في المسائل الفقهية ، وقد يكون ذلك لأن النعمان قال في كتابه المجالس والمساربات : إن الإمام المعز لدين الله طلب إليه أن يلقى على الناس شيئاً من علم أهل البيت ، فألف النعمان كتابه ، وكان يعرضها على المعز فصلاً فصلاً وباباً باباً حتى أتمها ، فهو يقول مثلاً :

أمرني المعز لدين الله ( صلح ) بجمع شيء لخصه لي وجمعه وفتح لي معانيه وبسط لي جملة فابتدأت منه شيئاً ثم رفعت له إليه ، واعتذرت من الإبطاء فيه لما أردته من لإحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته (ص) فطالعت في مقداره ، فوقع إلى : يا نعمان لا تبال كيف كان القدر مع إشباع في إيجاز ، فكلما أوجزت في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ، والذي خشيت من أن يستبسط في تأليفه فوالله لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما تعتقدت من النية ومحض الولاية لما كنت تستطيع أن تأتي على باب منه في أيام كثير ، ولكن النية يصحبها التوفيق (١) ، وفي كتابه هذا كثير من النصوص التي تدل على أنه كان يعرض كتابه على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس ، كما أنه كان يقرأ مجالس الحكمة التأويلية ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعي (٢) وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن النعمان كان من الدعاة وإن كان مؤرخو المذهب المحدثون مثل الداعي لإدريس محدثنا في كتابه عيون الأخبار أن النعمان كان في مكانة رفيعة جداً قريبة من الأئمة ، وأنه كان دعامة من دعائم الدعوة ، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولي مرتبة داعي الدعوة ، ويخيل إلى أن النعمان كان داهية في سياسة التقرب إلى الأئمة ، وأنه استطاع بعلمه وثقافته أن يجذب إليه قلوبهم ، فقرّبوه إليهم وعرف أسرارهم ونياتهم ، فوضع هذه الكتب الكثيرة وادعى أن الأئمة هم الذين لفتوه إياها ، بل لعلى لا أغالي إذا قلت إن النعمان هو أول من دون فقه المذهب الفاطمي ، فلا أكاد أعرف فقيهاً من فقهاء المذهب قبله كتب في هذا الفن ، وبين يدي الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية (٣)

(١) المجالس والمساربات ورقة ٧٥ ب .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) Inavow: Griol to Ismah. Literature

وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب الإسماعيلية ، وأما فهرست ابن النديم ،  
وبجموعة خطية قديمة لمؤلف مجهول جمع فيه أسماء الكتب التي ألقت منذ أوائل  
الدعوة الإسماعيلية ، فلم أعثر في هذه الكتب كلها على كتاب واحد في الفقه  
الإسماعيلي قبل كتب القاضي النعمان بن محمد . فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم  
وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات ، ولا سيما أن النعمان ذكر في كتبه أنه اقتبس هذه العلوم  
من الإمام !! حتى قال المعز عن النعمان : من يؤدي جزءا من مائة مما أداء النعمان  
أضمن له الجنة بجوار ربه (١) ويحدثنا المؤيد في الدين في سيرته أن الوزير اليازوري  
قال له : إن النعمان بنى هذا الأمر وإن أحق الناس بمكانه أبناؤه (٢) ، فالنعمان إذن  
قد أدى للدعوة الفاطمية هذا الفضل الذي عرفوه له ، إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون  
على الفقه الذي وضعه لهم النعمان ، وربما على التأويل الذي ذكره في كتبه .

ولننظر الآن إلى هذه الكتب التي وضعها النعمان لأهل الدعوة ، فيقول ابن  
خلكان : إن النعمان ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف  
وأملح سجع ، وعمل في المناقب والمثالب كتابا حسنا ، وله ردود على المخالفين ، له رد  
على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج ، وكتاب اختلاف الفقهاء  
ينتصر فيه لأهل البيت ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخبة (٣) وسرد الأستاذ  
إيفانوف مؤلفات القاضي النعمان فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتابا بعضها  
لا يزال يحتفظ به أتباع المذهب وهم طائفة البهرة ، ومنها كتب عثر على بعض أجزاءها  
ومنها ما فقد ولم يعرف إلا أسماؤه ، ولا تعرف مكنتيات أوربة إلا ستة كتب  
من كتب النعمان هي :

( ١ ) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين ، وأحضرت دار الكتب  
المصرية صورة فتوغرافية منه .

( ٢ ) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي دار  
الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(١) كتاب عيون الأخبار ج ٦ ص ٤١

(٢) السيرة المؤيدية .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦

(٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي مكتبة جامعة فؤاد الأول صورة فتوغرافية منه .

(٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٥) جزء من كتاب المجالس والمسائرات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي مكتبة جامعة فؤاد الأول .

(٦) كتاب الهمة في اتباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن . وعندى نسخة خطية منه .

ويحتفظ أصحاب الدعوة الآن في مكتباتهم الخاصة بالسكتب الآتية :

(١) افتتاح الدعوة ، وعندى نسخة خطية منه كما تحتفظ مكتبة جامعة فؤاد بصورة منه (٢) كتاب الإيضاح (٣) كتاب البنوع (٤) مختصر الآثار (٥) كتاب الطهارة (٦) القصيدة المختارة (٧) القصيدة المنتخبة (٨) منهج الفرائض (٩) الرسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة (١٠) اختلاف أصول المذاهب (١١) كتاب التوحيد والإمامة (١٢) مناقب نبى هاشم (١٣) تأويل الرؤيا (١٤) مغايب النعمة .

أما كتبه التي لم يعثر عليها وعرفت أسماؤها فهي :

(١) مختصر الإيضاح (٢) كتاب الأخبار (٣) كتاب الاقتصار (٤) كتاب الاتفاق والافتراق (٥) كتاب المقنصر (٦) كتاب يوم وليلة (٧) كتاب كيفية الصلاة (٨) الرسالة المصرية في الرد على الشافعى (٩) كتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي (١٠) دماغ الموجز في الرد على العتكي (١١) نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل (١٢) حدود المعرفة في تفسير القرآن والتنبيه على التأويل (١٣) كتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق (١٤) كتاب في الإمامة في أربعة أجزاء (١٥) كتاب التعاقب والانتقاد (١٦) كتاب الدعاء (١٧) كتاب الحللى والثياب (١٨) كتاب الشروط (١٩) أرجوزة ذات المنن وهي في سيرة الإمام المعز (٢٠) أرجوزة ذات المنن وهي في تاريخ ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (٢١) كتاب معالم المهدي (٢٢) كتاب منامات الأئمة (٢٣) كتاب التفريع والتعنيف .

هذه هي السكتب التي تركها النعمان بن محمد ، واعلم أهم كتاب خالد له هو كتاب

ودعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، وهو الكتاب الذي أمر الظاهر بأن يحفظه الناس وجعل لمن يحفظه مالا جزيلًا ، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين ، فدعائم الإسلام عندهم الولاية والظهار والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها فهو يتحدث عن ذلك كله بشيء من الإطناب ، ويروى عن كل فريضة ما ورد عنها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وما جاء عن الأئمة ، ومن يقرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك لا يكاد يجد اختلافًا إلا في بعض أمور لا تمس الدين في شيء ، اللهم إلا ما ورد في القسم الخاص بالولاية .

والفصل الخاص الذي في أول الكتاب يتحدث فيه عن الإيمان وجعل الولاية شرطًا أساسيًا للمؤمن ، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين وسننه والمعاملات وغيرها فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية . وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المذهب - منذ عرف هذا الكتاب - إذا عرفنا أن عالمين من أكبر علمائهم ذكراه في كتبهم واعتمدا عليه ونوها به ، أما العالم الأول فهو أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى المتوفى ١٢٤ هـ فقد ذكر في مقدمة كتابه ، راحة العقل ، الكتاب التي يجب أن تقرأ قبل قراءة راحة العقل ومن هذه الكتب كتاب دعائم الإسلام ، والعالم الثاني هو المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هـ فقد ذكر في السيرة المؤيدية ، أنه كان يعقد مجلساً خاصاً كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبى كاليبجار البويهى فصول كتاب دعائم الإسلام . ويعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية بالرغم من أنه في علم الظاهر ، ويعد من كتبهم السرية التي لا يقربها إلا علماء المذهب فقط .

وقد أتبعه القاضى النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام واسمه الكامل : كتاب تربية المؤمنين بالتوفيق على حدود باطن علم الدين في تأويل دعائم الإسلام ، وهو في ذكر التأويل الباطنى للأحكام والفرائض التي وردت في كتاب دعائم الإسلام ، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية ، وعليه اعتمد الدعاء بعد النعمان (١) ، وقد توفي النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب .

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك في مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .



ومهما يكن من شيء فالقاضي النعمان يعد من أكبر علماء الدعوة وفقهها الأعظم ،  
وتوفي هذا الرجل بمصر سنة ٣٦٣ هـ

كان هذا الفقيه رأس هذه الأسرة ومؤسسها ، وجاء بعده أبناؤه وحفدته  
وعرفوا جميعا بالعلم والفقه ، وتولوا الدعوة والقضاء بعده .

٢ — ولد ابنه الأكبر أبو الحسين علي بن النعمان بالقيروان في رجب سنة ٣٢٨ هـ<sup>(١)</sup>  
وقدم مصر مع باقي أفراد الأسرة في حجة المعز لدين الله ، ولما مات النعمان اشترك علي بن  
النعمان في قضاء مصر مع أبي طاهر الذهلي فضلا بقضيان حتى توفي المعز وولى العزيز  
وعرض لابن طاهر القاضي مرض الفالج ، فقوض العزيز الحكم إلى علي بن النعمان  
وذلك في صفر سنة ٣٦٦ ، وظل منفردا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام العزيز  
حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضى بين الناس ، فقام من وقته ومضى إلى داره  
وأقام عليلا أربعة عشر يوما ، وتوفي يوم الاثنين لست خلون من رجب سنة ٣٧٤ هـ  
وصلى عليه العزيز ، وهو أول من لقب بقاضي القضاة في مصر ، وكان عالما فقيها مثل  
أبيه ، وكان شاعرا أورد له الثعالبي شيئا من شعره ، مثل قوله :

ولى صديق ما مسنى عدم مذ وقعت عينه على عدى  
أغنى وأقى فما يكلفنى تقبيل كف له ولا قدم  
قام بأمرى لما قعدت به ونمت عن حاجتى ولم ينم<sup>(٢)</sup>

ومن شعره ، وقيل بل من شعر أخيه محمد بن النعمان<sup>(٣)</sup>

رب خود عرفت فى عرفات سلبتى بحسبها حسنائى  
حرمت حين أحمرت نوم عيني واستباححت دى بنى اللحظات  
وأفاضت مع الحجيج ففاضت من جفونى سوابق العبرات  
لم أنل من منى منى النفس حتى خفت بالخييف أن تكون وفاتى<sup>(٤)</sup>  
ومن شعره أيضا :

صديق لى له أدب صداقة مثله نسب  
رعى لى فوق ما يرعى وأوجب فوق ما يجب

(١) رفع الإصر ورقة ٨٥

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٠٥

(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٠٦

(٤) دمية القصر للباخرزى ص ٨٨

فلو نقدت خلأته لهرج عندها الذهب (١)

فن هذه الأبيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعرا رقيق الشعر عذب  
الديباجة متلاعبا باللفظ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملا حتى نستطيع  
أن نكون رأيا دقيقا في شاعريته .

ولا أدري أيضا من أين استقى الأستاذ آصف فيظي أن أبا الحسن علي بن  
النعمان كان في مرتبة داعي الدعاة ، فليس لدى من النصوص ما يؤيد ذلك ، بل  
الذي ذكره المؤرخون أن أول من أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين هو ولده  
الحسين بن علي بن النعمان علي نحو ما سنذكره بعد .

٣ - ولما توفي علي بن النعمان أرسل الإمام العزيز بالله إلى أبي عبد الله محمد  
ابن النعمان يقول : إن القضاء لك من بعد أخيك ولا تخرجه عن هذا البيت (٢)  
وهكذا ولي مرتبة قاضي القضاة بعد أخيه، وكان في حياة أخيه ينوب عنه في القضاء ،  
فإنه لما سافر العزيز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨ وسار على في صحبته استخلف  
أخاه محمدا في القضاء . ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥ هـ (٣) وقدم القاهرة مع أفراد  
الأسرة ، وما زال بها حتى ولي القضاء وكان جيد المعرفة بالأحكام، متفتحا في علوم  
كثيرة، حسن الأدب والدرابة بالأخبار والشعر وأيام الناس (٤) . وقدمدحه الشاعر  
عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى بقوله :

تعادلت القضاة على أما أبو عبد الإله فلا عدل  
وحيد في فضائله غريب خطير في مفاخره جليل  
تألق بهجة ومضى اعتزاما كما يتألق السيف الصقيل  
ويقضى والسداد له حليف ويعطى والغمام له زميل  
لو اختبرت قضاياهم لقالوا يؤيده عليها جبرئيل  
إذا رقى المنابر فهو قس وإن حضر المشاهد فالخليل

فلما قرأ محمد بن النعمان هذه القصيدة كتب إلى الشاعر :

قرأنا من قريضك ما يروق بدائع حاكها طبع رقيق

(١) بيتيمة الدهر ص ٣٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) رفع الإصر ص ١٢٩ (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

كأن سطورها روض أنيق      توضع بينها مسك فتيق  
إذا ما أنشدت أرجت وطابت      مازلها بها حتى الطريق  
وإنا ناتقون إليك فاعلم      وأنت إلى زيارتنا تنوق  
فواصلنا بها في كل يوم      فأنت بكل مكرمة حقيق (١)  
ومما يروى له أيضا قوله :

أيا مشبه البدر بدر السماء      لسبع وخمس مضت واثنتين  
ويا كامل الحسن في نعمته      شغلت فؤادي وأسهرت عيني  
فهل لي من مطمع أرتجيه      وإلا انصرفت بخفي حنين  
ويشمت بي شامت في هواك      ويفصح لي ظلت صفر اليدين  
فإما إمنت وإما قتلت      فأنت القدير على الحالتين (٢)

وفي سنة ٣٧٥ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ائمة القائد جوهر الصقلي في مجلس العزيز ، ثم قرر ابنة هذا في نيايته عنه في الأحكام بالقاهرة ومصر ، وعلت منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز بالله حتى إنه كان يصعد معه على المنبر (٣) وكان مهيبا محترما ، حتى إن أحدا لم يكن يخاطبه إلا بسيدنا (٤) ويروى ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصرى : « ولم نشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق ، ووافق ذلك استحقاقا لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة » (٥) فكانت هذه المكانة التي حظي بها هذا القاضى سببا في أن ينقم عليه الوزير يعقوب بن كلس . ويحيل إلى أن الوزير كان يخشى اتساع نفوذ بنى النعمان فأول ما استطاع أن يكسر شوكتهم وينقص من قدرهم ، فكان يعتمد إلى أن ينقض أحكام القاضى ، ويروى ابن حجر العسقلانى عن المسبحى أن الوزير ابن كلس كان كثير المعارضة لبني النعمان في أحكامهم ، (٦) وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضمه لهم . وبعد أن توفى العزيز بالله سنة ٣٨٥ وولى الحاكم بأمر الله أقر القاضى محمد بن النعمان على ما بيده من القضاء ، وزادت منزلته عنده

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ (٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه (٤) السكندى ص ٥٩٤

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ (٦) رفع الإصر ص ١٢٩

رفعة ، ولكن محمدا تزاحت عليه العلل ، فتوفي ليلة الثلاثاء رابع صفر سنة ٣٩٩ هـ وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه ، وحزن الحاكم لوفاته ، فلم يول أحدا مرتبة القضاء إلا بعد شهر ، فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان .

٤ — ولد أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان بالمهدية سنة ٣٥٣ هـ وقدم مع أسرته إلى القاهرة المعزية ، ومهر في علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء المذهب الفاطمي ، وكان ينوب أحيانا عن عمه محمد بن النعمان في القضاء حتى ولىه بعد وفاة عمه . وفي صفر سنة ٣٩١ هـ بينما كان القاضي جالسا في الجامع بمصر يقرأ عليه الفقه أقيمت صلاة العصر ، فقام يؤدي الفريضة ، وبينما هو في الركوع إذ هجم عليه رجل مغربي وضربه بمنجل في رأسه ووجهه ، فحمل القاضي جريحا إلى داره ، وظل حتى اندمل جرحه ، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلا بالسلاح ، وكان إذا صلى وقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة ثم يصلى حرسه ، ولا تكاد نسمع أن قاضيا من قضاة المسلمين في التاريخ الإسلامي كله كان يصلى والشرطة تحرسه غير الحسين بن علي بن النعمان . وزاد الحاكم في إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته ، وفوض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة ، وولاه الدعوة وقرارة مجالس الحكمة التأويلية بالمقصر وكتابتها وهو أول قاض أصيقت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين<sup>(١)</sup> . ويظهر أنه في ذلك الوقت دب ديب الشقاق بين أبناء هذه الأسرة ، فهذا القاضي طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ببعض ودائع كانت في الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء ، وتشدد القاضي في مطالبة ابن عمه بهذه الودائع حتى ألزمه أن يبيع كل ما خلفه أبوه سدا لهذه المطالبة ، ولست في مركز يسمح لي أن أقول أكان تشدد القاضي عن ورع ودين أم عن حسد وغيره وشقاق بين بنى الأعمام . ومهما يكن من شيء فقد صرف هذا القاضي عن رتبة القضاء والدعوة في رمضان سنة ٣٩٤ هـ ، وأمر الحاكم بحبسه ثم ضربت عنقه في مطلع سنة ٣٩٥ هـ وهكذا لقي حتفه بيد الحاكم ، بعد أن كان مكرما لديه مقربا إليه .

٥ — وولى القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان المولود في أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥ هـ وهو الذي كان ينوب عن أبيه في القضاء ، وكان

(١) الكندي ص ٥٩٦ وما بعدها

عالماً من علماء الدعوة الفاطمية ينسب إليه كتاب البلاغ الأكبر والناموس الأعظم في أصول الدين ، وهو الكتاب الذي رد عليه القاضي أبو بكر الباقلاني<sup>(١)</sup> ، وقيل إن هذا الكتاب من تصنيف عمه علي بن النعمان ، ومهما يكن من شيء فالقاضي عبد العزيز بن محمد هو أول من ولي النظر على دار العلم<sup>(٢)</sup> ، وكان يجلس في الجامع ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان ، واختلاف أصول المذاهب ، وبالرغم من أنه خص بمجالسة الحاكم ومسايرته فإنه لم ينجح من نزوات الحاكم وتقليباته ، فعزله عن القضاء سنة ٣٩٨ هـ ثم اعتقله في السنة التالية ثم عفا عنه وأعاد إليه النظر في المظالم وخلع عليه ، وفي سنة ٤٠١ هـ اضطر هذا القاضي إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جوهر الصقلي ، فصادر الحاكم بيوتهما وحمل كل ما كان فيها ، ثم كتب الحاكم لهما بالأمان وخلع عليهما ، ولكنه أمر بعد ذلك بقتلها في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ .

وبعد هذه المأساة ضعف أمر بني النعمان وساءت حالهم ، ولم تبق لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ ، حتى إن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولي القضاء سنة ٤١٨ هـ ولكنه لم يمكث في هذه المرتبة سوى عام وشهرين ، وأعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧ هـ وأضيفت إليه الدعوة ويقول عنه المؤيد في الدين : وتوجهت إلى الموسوم بالقضاء والدعوة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا ، فرأيت رجلاً يصول بلسان نسبه في الصناعة التي وسم بهادون لسان سبيه ، فارغاً مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون بلوح من حركاته وسكناته ،<sup>(٣)</sup> وعزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١ هـ ويحدثنا المؤيد أن نساء بني النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر وألحفن عليها بالسؤال لإعادته ، فعينه الوزير البيازوري سنة ٤٤٢ هـ نائباً له في الدعوة ، فقبل القاسم أن يكون تابعاً لداعي الدعاة بعد أن كان أصلاً في هذه الخدمة ، واستمر القاسم بن عبد العزيز نائباً للبيازوري في مرتبة الدعوة حتى أقعده المرض ، فأناج ابنه محمد بن القاسم في الدعوة بدله ، واستمر محمد نائباً عن والده في نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠ هـ . ثم لم نعد نسمع شيئاً عن هذه الأسرة التي ظلت زهاء قرن في مكانة رفيعة عالية وفي اتصال

(١) الكندي ص ٦٠٣

(٢) السيرة المؤيدية

(٣) المصدر نفسه

بالائمة الفاطميين ، كما كان لهذه الأسرة أثرها في بث العقائد الفاطمية في نفوس الناس بما ألقوه من كتب وما ألقوه من مجالس الدعوة ، وبما كانوا يحكمون به في القضايا على حسب فقه المذهب الفاطمي الذي وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة .

## ٢ — يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى في الحياة العقلية بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، ولد ببغداد في أسرة يهودية ونشأ بها حيث درس شيئا من الكتابة والحساب واتخذ التجارة متكسبا له ، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشئ الطرق والوسائل ، ثم رحل مع أبيه إلى الشام في بعض مسائل تجارية فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلا للتجار بها ، ثم فر منها إلى مصر . قيل إن سبب ذلك أنه اجتمع قبله مال عجز عن أدائه فهرب (١) وقيل بل أرسله أبوه إلى مصر للتجارة بها (٢) ومهما يكن من شيء فقد وفد يعقوب على مصر لبان ولاية كافر الإخشيدى ، فاستطاع بذلكه وكياسته أن يتصل بكافر ، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كافر يقربه إليه ويتق به حتى اشتدت صلة يعقوب بكافر ، فعرض عليه كافر الإسلام ، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام ، وذلك يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٦ ولزم التعبد ودراسة القرآن ، ورتب لنفسه رجلا من أهل العلم يدرس له أصول الدين الإسلامى . وكأنه في ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك ، فعمل على إتمام النقص الذى كان يشعر به ، وهو يهوديته السابقة ، فأراد ألا يرمى بضعف إسلامه إذا بلغ ما ناقت إليه نفسه ، فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية . وكأنى بالوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه وزير كافر عرف ما كان يرمى إليه يعقوب ، فخشى من صلة كافر بهذا اليهودى التاجر ، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلس اشتد مقت ابن حنزابه له ، فنصب له الحباطل لإخراجه من البلاد ، فلما توفي كافر سنة ٣٥٧ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين ، وطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب ، واتصل يعقوب

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣

(١) المقرئى ج ٣ ص ٧

بالمعز لدين الله ، فقر به المعز إليه وسحبته معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون . وقيل إن ابن كلس هو الذي أطلع المعز على أسرار مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل . وبعد أن استتب الأمر في مصر للمعز ونقل عاصمة ملكة إلى مدينة القاهرة ، ولي يعقوب بن كلس الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة وذلك في سنة ٣٦٣ هـ ومن مثل ابن كلس يصلح لأمر المال !! فاستمر في عمله حتى سنة ٣٦٥ فقد زادت صلته بالمعز واكتسب حبه ونقته ، فولاه المعز النظر في جميع أموره في قصره ، وبعد قليل توفي المعز لدين الله ففوض العزيز بالله ليعقوب النظر في سائر أموره وجعله وزيراً له وذلك في المحرم ٣٦٧ ، وفي رمضان ٣٦٨ خلع العزيز عليه ، ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلس أول وزير في مصر الفاطمية ، ويروى ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس ، أنه لما خلع على الوزير يعقوب بن كلس وكان مكيناً من العزيز وكنت حاضراً مجلسه ، فقلت أيها الوزير : روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثني الصادق - ع - أنه ( ص ) أن الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه ، وهذا علو سماوى ، فقال الوزير : ليس الأمر كذلك وإنما أفعالى وتوفيراتى وكفائى ونيايى ونيتى وحرصى الذى كان يهجمى ويعاب ، وقد مات قوم بمن كان وبقي قوم . وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذى خرج من العزيز في ذكر تشريفه ، قال ابن زولاق : فأمسكت ، وقلت : وفق الله الوزير ، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً . وقتت وخرجت وهو ينظر إلى . وحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسينى قال : عانت الوزير على ما تكلم به ، وقلت : إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه ، وما أراد إلا الخير ، فقال الوزير : خفى عنك ، إنما هذا مثل قول المتنبي في كافر :

ولله سر في عسلاك وإنما كلام العدى ضرب من الهديان  
وأجمع الناس على أن ذلك هجو في كافر لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سب ،  
وإن زولاق هجاني على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فما أمكنتى السكوت ،  
وكان في نفسى شيء فجعلت كلامه سبياً (١) . فركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن  
يعتقد أن تهمة ابن زولاق هجاء له ، وشعوره يهوديته الأولى وأنه أصبح وزيراً مقرباً

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٥ .

إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتعمق في دراسة الدين الإسلامي حتى أصبح علما من أعلام علماء الدعوة الفاطمية . ومع ذلك فنحن لا ندرى السبب الذي من أجله اعتقل الوزير في القصر سنة ٣٧٣ هـ عدة أشهر ، فالمؤرخون لم يذكرُوا لنا شيئا عن ذلك ، ثم نرى العزيز يطلقه سنة ٣٧٤ هـ ويأمر بحمله على عدة خيول وقرى سجل برده إلى تدير أمور الدولة مرة أخرى ، ووجهه العزيز خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ، فآسعت دائرته وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي السكتب (١)

بجانب هذه المكانة الرفيعة التي بلغها الوزير يعقوب بن كلس ، وهذا السلطان القوى الواسع الذي أحرزه ، كان هذا الوزير محبا للعلم والعلماء مشجعا لمن طلب العلم ، يفتق المنح والعطايا للكتاب والشعراء ، ويروي ابن خلكان : « كان يعقوب يجمع عنده العلماء ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقظونها ، وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه (٢) فكان من خاصة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الاسجاع (٣) والتميمي المقدسي الطيب الذي صنف للوزير كتابا ضخما في عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء ، (٤) وأخذ الوزير علم العروض عن شيخه البديهي وفتحه وهدايته قال الشعر (٥) وبلغ هو نفسه في علم الفقه الفاطمي درجة أهله لأن يؤلف السكتب ويعقد مجالس التأويل ، فقد رتب لنفسه مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والعدول وغيرهم من وجوه الدولة (٦) ، كما نصب مجلسا في داره يحضره في كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل للمناظرة بين يديه (٧) فرغايته للعلم والعلماء ساعدته على أن يؤلف هذه السكتب التي قرأها على الناس والتي منها كما ذكر ياقوت (٨)

(١) المقرئ ج ٣ ص ٨ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ (٤) أخبار الحكماء للقفطي ص ٧٤

(٥) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٢ (٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤

(٧) المقرئ ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٨) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١١٨ ط دار المأمون



( ١ ) كتاب في القراءات ( ٢ ) كتاب في علم الأبدان وصلاحها ( ٣ ) كتاب في الفقه مما سمعه من المعز والعزير ( ٤ ) كتاب في الأديان وهو في الفقه ( ٥ ) مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية ( ٦ ) كتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه بعض الكتب التي ألفها هذا الوزير . ويقول إبقانوف إنها فقدت جميعها ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه وهو الكتاب الذي طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه ، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه (١) وحدثنا المقرئ أن الناس كانوا يفتون بكتابه في الفقه ، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقا كل شهر تكفيهم (٢) ، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول من جعل من الجامع الأزهر جامعة عليية ، ورتب لعلماها الأرزاق ، معنى هذا كله أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء ، فاتسعت بفضل الثقافة ، وازداد الإقبال على العلم . وكذلك لقي الشعر على يديه التشجيع الذي لقيه العلم ، فقد كان الوزير بعد أن ينتهي من مجالسه العلوية يأذن للشعراء في إنشاده مدائحهم فيه (٣) وكان يغدق عليهم الهبات والعطايا ، ولعل أكثر الشعراء مدحا له هو الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقعمق وعبدالله بن محمد بن أبي الجوع ، فمن قول ابن أبي الجوع وقد مرض الوزير من علة أصابت يده :

|                                |                                 |
|--------------------------------|---------------------------------|
| يد الوزير هي الدنيا فإن أملت   | رأيت في كل شيء ذلك الأملما      |
| تأمل الملك وانظر فرط علته      | من أجله ، وأسأل القرطاس والقلما |
| وشاهد البيض في الأعقاد هائمة   | إلى العدى وكثيرا ما روين دما    |
| وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت   | كأنما أشعرت من أجله سقما        |
| هل ينهض المسجد إلا أن يؤيده    | ساق يقدم في إنهاضه قدما         |
| لولا العزيز وآراء الوزير معسا  | تحيفتنا خطوب تشعب الأملما       |
| فقل لهذا وهذا أنتما شرف        | لا أوهن الله ركنيه ولا أنهدما   |
| كلا كما لم يزل في الصالحات يدا | مبسوطة ولساننا ناطقا وفما       |
| ولا أصابكما أحداث دهركما       | ولا طوى لكما ما عشتما علما      |
| ولا اتحمت عنك يامولاي عافية    | فقد محوت بما أوليتني العدمما    |

(٢) خطط المقرئ ج ٣ ص ٩ .

(٤) المصدر السابق

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق

ومن قول أبي الرقعمق :

إن يعقوب قد أفاد وأقنى      وأعاد الندى وأغنى الضعيفا  
سل سيفاً من البصيرة والراء      ي فأغناه أن يسل السيوفاً  
بأدلاً للعزير دون حماه      مهجة، حرة ورأيا حصيفا  
ما رأيتاه قط إلا رأينا      خلقنا طاهرا وفعلا شريفا  
ورأينا قرما كبيرا هماما      منها مفضلا رحما رموفا (١)

ووجد بين شعراء مصر في ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس، ويحدثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا يعقوب بن كلس وهجا كاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني بقوله :

قل لأبي نصر صاحب القصر      والمتأق لتقض ذا الأمر  
انقض عرا الملك للوزير تفز      منه بحسن الثناء والذكر  
واعط أو امنع ولا تخف أحدا      فصاحب القصر لبس في القصر  
وليس يدري ما ذا يراد به      وهو إذا مادري فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزيز وأنشده الشعر ، فقال له : هذا شئ اشتركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفو عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرض بالفضل القائد :

تنصر فالتنصر دين حق      عليه زماننا هذا يدل  
وقل بثلاثة عزوا وجلوا      وعطل ما سواهم فهو عطل  
فيعقوب الوزير أب وهذا      العزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه يعقوب إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه . فعفا عنه ، ثم دخل الوزير على العزيز فقال له : لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك وسبك بقوله :

زبارجي نديم      وكلس وزير  
نعم على قدر المكا      ب يصلح الساجور

فغضب العزيز على هذا الشاعر وأمر بالقبض عليه ، ثم بدا للعزيز إطلاقه فأرسل

(١) ينمية الدرر ج ١ ص ٢٣٩

يستدعيه ، وكان للوزير عين في القصر فأخبره بذلك ، فأمر بقتل الشاعر ، فقتل (١) وهكذا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أنصار ومحبون ، وقد حزن الناس حين ابتدأت علته في الحادى والعشرين من شوال سنة ٣٨ هـ ونزل إليه العزيز بالله بعوده وقال له : « وددت أنك تباع فأبتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى » (٢). وتوفى يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجة سنة ٣٨ هـ واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشيعه إلى مقره الأخير ، وخرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه ، وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ولا يجلسها من عادته الحضور ، وأقام الناس عند قبر الوزير شهرا ، وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائة شاعر أجزوا كلهم . فهذا كله يدل على أنه كان للوزير مكانة في نفس إمامه وفي نفوس معاصريه جميعا ، وذلك لما عرف عنه من إنصافه وكرمه وعلوه ، وما أظهره من شدة تمسكه بأهداب الدين الإسلامى على مذهب القوم .

### ٣ — المؤيد فى الدين داعى الدعوة (٣)

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث عن هذا العالم الذى بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه ، ذلك هو المؤيد فى الدين داعى الدعوة الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى بمناظراته مع أبى العلاء المعرى فى تحريم أكل اللحم ، والذى أراد الأستاذ مرجوليوت المستشرق الإنجليزى أن يعرف شيئا عن حياته فخانه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ، فبالرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة فقد وفد على مصر ، وأقام بها زهاء ثلاثين عاما ، واستمع له جمهرة من المصريين ، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر فى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى كان ينادى بها ، وفى مصر أخذ عنه ملك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالاستاذية فى علوم الدعوة ، وفى مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه ، وألقى مجالسه التى بلغت

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ (٢) الفرزى ج ٣ ص ٩

(٣) راجع « ديوان المؤيد داعى الدعوة » وكتاب « السيرة المؤيدية » — طبع شركة الكاتب المصرى .

الباثمة مجلس ، فلا غرابة أن نتحدث عنه في كتابنا هذا ، وهو كتاب خاص بمصر .  
اسمه هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود الشيرازي ، ولد بشيراز في العشر  
الآخيرة من القرن الرابع من الهجرة في أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهبها لها ،  
وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمي ، فنشأ ابنه هبة الله يأخذ  
مكاتبه في الدعوة في هذا الأقليم ، وأخذ منذ نشأته بالإسلام بكل شيء يخص  
الدعوة وأسرارها ، وكاتب الحاكم بأمر الله بأن يولى ابنه هبة الله أمر فارس من  
بعده ، وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه ، وما لبث أن أصبح يملك  
نفوس أتباعه فانقادوا له الاتقياد كله ، فكانوا يقشون إليه أسرارهم الخاصة حتى  
مع أهل بيتهم ، ويضحون في سبيله بأرواحهم ، وكثر أتباعه حتى خشى السلطان  
أبو كاليبجار البويهسي سطوته ونفوذه ، وهم أن ينفيه مرارا من شيراز ، وانكسبه كان  
يخاف ثورة أتباع المؤيد ، وبلغت كراهية السلطان أبي كاليبجار للمؤيد أنه كان يكره  
سماع اسمه في مجالسه ، ولكن المؤيد في الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبي  
كاليبجار ، وان يجعل السلطان يستمع إليه وأن يعقد مجالس المناظرة بين المؤيد  
وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظره  
فاضطر السلطان أمام قوة بيانه ودامغ حجته إلى أن يخضع للمؤيد ، بل لأن يدخل  
في دعوته وأن يعقد مجلسا خاصا يلقي فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل  
البيت والفقهاء الفاطمي من كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان . كان ذلك كله سببا  
في غضب جمهور أهل السنة في فارس ولا سيما القضاة والعلماء ، فأخذوا يوغرون  
صدور المقربين من أبي كاليبجار وندمائه على المؤيد ، واتهموا فرصة واتهم للايقاع  
به ؛ ذلك أن المؤيد زار أتباعه في مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت  
جدرانها فأمر شيخته بتجديده ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين  
وطلب من نقبائه الأذان فيه بحجى على خير العمل ، أذان الشيعة ، وخطب يوم  
الجمعة باسم المستنصر الفاطمي ، فظهر بالدعوة الفاطمية دون خشية وأعلن عصيانه  
في بلد يدين للعباسيين ، مما جعل قاضي الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد  
ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد في الدين كما ثار أهل السنة على  
أبي كاليبجار وجاء الوزير العباسي ابن المسلمة موفدا من قبل العباسيين للقبض على  
المؤيد ، وكان أبو كاليبجار إذ ذاك يرنو إلى ملك بغداد ، فكان بين عاملين إما

ضياح هذه الفرصة من يده في سبيل رعاية ذمة المؤيد، وإما أن يضحي بالمؤيد في سبيل  
أطاعه. وأدرك المؤيد تردد أبي كاليبجار في هذا الأمر، ولا سيما بعد أن قطع السلطان  
بجاسه الليلية مع المؤيد، ورغبته عن لقائه. فلم يجد المؤيد بدمان الزوج عن وطنه، فسار  
مخفيا متجنبا الطرق العامة، سالكا البراري والقفار حتى وصل إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ.  
جاء مصر يحدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاه وسلطان وتوقير، لأنه خدم  
دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله، وقام بأمرها حق قيام، ولكنه من جهة  
أخرى كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد إمامه المستنصر، بل كانت السلطة كلها بيد  
أم المستنصر ووكلائها أمثال التستري واليازوري وغيرهما. ويصرح المؤيد بذلك  
في سيرته بقوله: «بلغت بشق النفس الباب الطاهر، مترجحا بين أمل وبأس،  
ومتعقبا للمتقى ما يلقاني من طرفي إيجاش وإيناس، فأما الأمل فمن جهة خدمة  
ما خدم مثلها غيري، حداني حاديها، وناداني بالأهل والمرحب مناديا. وأما  
اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب، ووجهه نهار  
تبرقع بالسحاب، وأن المسافة لعلها تقذفني من الإضاءة في يم. وتوقيني من حيث  
أرادت غما إلى غم. . . . أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة،  
عمرها الله تعالى — فاستلمت على جاري العادة في مثله الأبواب. ولحمت الثريا ترابا  
تحت قدمي إذ ترشفت ذلك التراب، وأجلسوني هنيهة لأفيق من غشية الهيبية التي  
ملأت جوانحي لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي. ثم أدخلوني  
إلى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخا عليه من الوقار  
مسحة، ومن الإنسانية سمة. فأدنى وقرب، وأكرم ورحب، وخرجت، فأخذوني  
إلى دويرة كانت فرشت لى هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال، لا بالإكثار  
ولا بالإقلال. . . . وهكذا استقر بمصروا تصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها،  
ولكن الوشابات لم تنقطع عنه، والدساتس تحاك حبالها حوله، فكان يقربه  
الوزراء حينما ويعدونه حينما آخر، فعاش في مصر بين الرضا والفضب، وكثيرا  
ما فكر في الرحيل عن مصر، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل، وكان يأمل أن  
يولى مرتبة داعى الدعاة ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الإمساك بها، وأخيرا عينه  
الوزير اليازورى رئيسا لديوان الإنشاء، وزاد في معاشه، فتحسنت حاله، فظل في

هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرل بك التركياني لامتلاك بغداد . وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه ، إذ أدرك أن التركيانية خطر على الدولة الفاطمية وأنه إذا تم أمر بغداد لطغرل بك فإنه لا يثنى عن محاربة أملاك الفاطميين في بلاد الشام وأعلى الجزيرة ، فأسرع المؤيد في الدين في درء هذا الخطر عن أملاك إمامه ، فكتب رجال طغرل بك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية ، كما راسل البساسيري وغيره من رجال العباسيين الذين يحدون على التركيانية ويخشون تملكهم للبلاد ، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوموا طغرل بك ، أما البساسيري ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين على حين لم يستجيب رجال طغرل بك . فأيقن المؤيد أن الحرب لاشك ناشبة بين الفاطميين والتركيانية ، فنشط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغرل بك ، ووجدت دعوته قبولا منهم وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال . وأنفقت الدولة على هذه الحملة أموالا جمة ذكرها المؤرخون في كتبهم ، وهي الأموال التي أدت إلى ضعف مصر اقتصاديا وجرتها إلى ما عرف بالشدّة العظمى ، وطلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري ، فاعتذر المؤيد ولكن ، المستنصر الفاطمي أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب فلم يسع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه . وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمعن في الإباء ، وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة . حياة الرجل العسكري وحياة السياسي الداهية ، فقد خرج من مصر وليس معه جندي واحد وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربي ، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشاء ، وبغيرهم جميعا بالأموال والخلع والألقاب من قبل الفاطميين ، فإذا كانت إنجلمترا تعترف لأحد أبنائها وهو لورنس ، بمخدماته في تأليب العرب على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطولته ، فكيف ينسى المصريون المؤيد في الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين ، بل ما أداه من نشر الدعوة الفاطمية في بلاد لم تذكر الدعوة فيها من قبل ، وفي إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة وسلطانها . لقد وصف لنا المؤيد في سيرته حركاته ومكاتباته مع أمراء العرب ، وكيف استمالهم جميعا للتبويض معه في حرب التركيانية ومساعدته في طردهم من العراق ، حتى تكاثر الانتصار حوله ، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحلب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر ، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن ينتصر

على طغرل بك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن جيوس في قصيدة منها :

عجبت لمدعي الآفاق ملكا وغايته ببغداد الركوند  
 وبهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر، ولكن  
 جموعه كانت تضم نفوساً متباغضة متشاحنة فسرعان مادب بينها النفور وحل الشقاق  
 وتفرق عنه أكثر الأمراء حسدا منهم لمن قريهم المؤيد إليه ، ووصف المؤيد حالهم  
 بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهارش . . . وكان يحاول تهدئتهم وإصلاح  
 ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغرل بك بحالهم فأسرع إليهم وهزمهم ، وكان المؤيد  
 إذذاك في الرحبة ، فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يبحث من تفرقوا عنه إلى الرجوع  
 إليه ويعدهم ويمنيهم ، ولكنها كانت صيحة في واد ، وخشى أن يدركه العدو  
 وهو حي ، فأثر أن ينسحب إلى حلب واتخذها مقرا لقيادته ، وكانت حلب في يد  
 المرادسين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، فآزال المؤيد بهم حتى سلوا بلدهم إلى الوالي  
 الذي أرسله المستنصر الفاطمي ، وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بإبراهيم بن  
 ينال وأغراه أن يخالف طغرل بك ووعدته بالتلقيب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة  
 ناجحة إذ انفصل إبراهيم بن ينال عن جيوش طغرل بك وخرج هذا لمحاربتة فانتز  
 المؤيد هذه الفرصة ، وأمر البساسيري بالمسير إلى بغداد فتم له ذلك سنة ٤٥٠ هـ  
 ودعى على منارها باسم المستنصر الفاطمي لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر استمعوا  
 لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الإسلامي ، وكانت هذه الحركة سببا في محو الخلافة  
 العباسية مند دخلت جيوش البساسيري بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن المؤيد عاد إلى  
 مصر دون أن يحفل به أحد ، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم يفتخ فيها بوق واحد  
 ولم يقرع فيها طبل واحد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير في مصر إذذاك هو  
 الوزير المغربي الذي لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه . وهكذا أضاع  
 وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التي هياها لهم المؤيد بدهائه وسياسته .

عاد المؤيد إلى مصر فولى مرتبة داعي الدعوة ، وبذلك أصبح في المرتبة التي شق  
 بالتطلع إليها ودحا طويلا من الزمان ، ولكنه لم يملك في تلك المرتبة طويلا إذ  
 خشي الوزراء مكائته ونفوذه وسلطانه ، فنتق مرة من مصر ، ثم أعيد إليها وولى مرتبة  
 الدعوة ، ثم عزل عنها وولى ديوان الإنشاء مرة ثانية . وهكذا عاش حتى توفي ٤٧٠ هـ  
 بالقاهرة ودفن في دار العلم بجوار القصر ، وصلى عليه الإمام المستنصر نفسه .

كان المؤيد في الدين من أكبر علماء عصره ، وتد لنا كتيبه التي وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملماً بالما تماماً بجميع العلوم التي عرفت في العالم الإسلامي إذ ذاك ، قوى الحجّة في مناظراته وجداله مع مخالفيه ، وقد صدق أبو العلاء المعري حين وصفه بقوله : « سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، لازالت حجته بأهرة ودولته عالية . . . ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لبذ حججه خلفه (١) » ويكفي أن ننظر إلى مناظرات المؤيد مع المعري لنذكر كيف كان شيخ المعرة يتهرب من هذه المناظرة ، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه ، فاعترف له بالتفوق في الجدل ، وأنه ورث علم الأولين .

وضع المؤيد في الدين عدة كتب أهمها :

١ - المجالس المؤيدية وهو أكبر كتاب وصل إلينا في الدعوة الفاطمية إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التي كان يلقيها المؤيد ، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد ، وبعد هذا الكتاب من أقوم الكتب عند طائفة البهرة ولا يقربه إلا من بلغ مرتبه خاصة من مراتب دعوتهم . وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدي الداعي اليمنى هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب حسب موضوعاته ، وسمى الكتاب « جامع الحقائق » ، وإذا نظرنا في كتب الدعوة لدعاة اليمن ، نرى أن جميع الدعاة كانوا يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم ، فهو موسوعة في علوم الدعوة الفاطمية ، وفي هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد وردده على المخالفين .

٢ - ديوان المؤيد في الدين : كان المؤيد شاعراً كما كان أديباً وعالماً وقد وصل إلينا ديوانه فإذا به مجموعة من قصائده التي أنشدها في مدح الأئمة ، وفي هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد ووصف أحواله وإشارات إلى جهوده ، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها ، وطبع هذا الديوان بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

٣ - السيرة المؤيدية ، ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخي يفصل لنا الحياة السياسية والاجتماعية في فارس والعراق ومصر في المدة من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠

(١) أنظر الرسالة الثانية من الرسائل التي دارت بين المؤيد في الدين وأبي العلاء المعري

في معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٠٢ طبعة دار المأمون .



كما يمد سجلا للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب ، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التي عرفت في التاريخ باسم ثورة البساسيري، وكذلك لم أجد كتابا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة كما تحدث عنها المؤيد ، ولا غرو في ذلك إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومديرها والمشرف عليها . وقد طبع هذا الكتاب بشركة الكتائب المصرية في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

وللمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير ، وكتاب الابتداء والانتهاه وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والجواب ، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للفاغنى النعمان وهو في تأويل قصص الأنبياء .

ويعتبر المؤيد أستاذا الدعوة في اليمن والهند. فعنه أخذ القاضي ملك بن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن بلقى على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد . كما يعد أستاذا ناصري خسر والشاعر الفارسي المعروف ، فقد ذكره ناصر في أشعاره ووصف مجالسه . وهكذا كان للمؤيد أثر في الحياة السياسية والعقلية والأدبية .

## الباب الثاني

### في الحياة العلمية

بعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم . وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للشتغلين بالعلم حتى يتبها لهم التفرغ لما أهلوا أنفسهم له ، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء أسبق مما عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفهم حقهم ، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولاً ، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون ، وبلغ من تشجيع العاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع لإمامه المعز يقول : وإنا لنسر بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسر بذلك في الولد ،<sup>(١)</sup> ففي ظل هؤلاء الأئمة ، وعلى ضوء ما ذكره الإمام المعز ، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ، ويحميهم من القاقة ، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف .

ويذكر المؤرخون عدداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير ، فيحدثنا ابن أبي أصيبعة أنه لما وصل المهذب بن النقاش — وكان فاضلاً في صناعة الطب — إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما من أرباب العلم والفضل ، فتروجه إلى مصر وانصل بالقاضي الأجل السديد أبي المنصور عبد الله بن الشيخ السديد

(١) المجالس والمسارير (ورقة ٤٦ ١)

أبي الحسن علي فوهب له الأموال وأقام في مصر مكرماً (٢). ونردد ما ذكره المؤرخون عن القاضي عبد الوهاب بن علي أحد فقهاء المالكية المجتهدين في المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد: ولم أرفى المالكية أفقه منه، إذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد، وأكرمه المصريون بالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف ما هم عليه، حتى تمول وحسنت حاله جداً، ولكن أدركه المرض، وكان يقول وهو في مرضه: لا إله إلا الله عندما عشنا ممثناً، وتوفي بمصر سنة ٥٤٣٢هـ. وستذكر غير هذين العالمين في الفصول التالية.

فالقاهرة المعزية أصبحت مطمع أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينتمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يقدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وأقرب مثل تقدمه لذلك هو الإمام الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه، ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته ووضع كتابه مشكاة الأنوار متأثراً ببعض العقائد الفاطمية، ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول.

ويخيل إلى أن السبب الذي من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر في العالم الإسلامي. واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العتيدة، فعقيدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم. فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن، وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للعقول، فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذي هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية. وقد أثرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلمائها على نحو ما رأيناه في الباب السابق من هذا الكتاب، فسكان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية، إما لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم أو للرد عليها وتهجين

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢).

هذه الآراء القديمة ، فعل ذلك الفاطميون في الوقت الذي كان فيه أهل السنة في البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد ، فالفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين وتوسعوا في دراسته ، وقد لاحظ المستشرق أولبري ذلك فقال : « إن الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكاتنها في جو مشبع بالفكر الهليني ، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية (١) . وسنرى في الفصل التالي مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية واصطناعهم لكل من عرف بالاستغفال بفرع من فروع الفلسفة ، فقد قيل إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع استدعاه إلى مصر فاعتذر (٢) ، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الميثم يستدعيه فأجاب ، وكتب الوزير الفلاحى إلى والى حلب وأعمالها بحمل أبى العلاء المعرى إلى مصر ليبنى له دار علم يكون متقدماً فيها ، وسمح بخراج معرفة النهمان له في حياته وبعده ، وإن والى حلب سار إلى معرفة النهمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ السجل عاياه فاستمعه ، وكتب إلى الوزير الفلاحى يستعفيه من ذلك فأعفاه . وتساح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية ، فأبو الفتح منصور بن مقشّر كان طبيبياً للعزيز والحاكم بأمر الله ومن المقربين إليهما ، وبمد وفاته استطب الحاكم إسحق بن إبراهيم بن نسطاس وهما من أهل الذمة ، ولكن الفاطميين أعادقوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخنازير والألقاب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم .

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف التفت عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة وأخذوا عنهم علوم الدعوة ، فنستطيع إذن أن ندرك في سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر في مصر لحسب بل أثرت في جميع البلاد الإسلامية ، وتبع ذلك أن الآراء اليونانية وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية وهى التى صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية قد انتشرت في العالم الإسلامى على أيدي دعاة الفاطميين . وإذا درسنا الحياة العقائدية في العالم الإسلامى في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه

O'Leary : Hist. of the Fatimid Khalifate P. 140 (London 1923) (١)

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٥ .

الآراء التي بثها دعاة الفاطميين ، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة ، فابن حوقل كان متشيعا لهم حتى قيل إنه من دعاةهم ، والفارابي مثلا في حديثه عن القلم والروح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ، ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد (١) ، وابن مينا قيل إنه إسماعيلي المذهب وأن أباه كان أحد دعاةهم فنشأ متأثرا بعقائدهم ، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم ازدهروا في ظل البوسيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يرسل الخليفة الفاطمي ، وظهرت في رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم . وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كنفه ، وأبو العلاء المعري حكيم المعرفة كان متأثرا تأثرا تاما بهذه الآراء التي كانت تحيط به ، فقدمت ظل الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم ، فترى في أشعار أبي العلاء وكتابه كثيرا من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر ، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصاييح وكتاب الهادى والمستهدى وكتاب الأقوال الذهبية وغيرها التي تدل على أن الكرمانى فيلسوف ناضج التفكير ، وأنه متأثر بما أخذ من فلسفة اليونان وغيرها (٢) ، ونذكر المؤيد في الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها . وهكذا نستطيع أن نتبع كثيرا من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين ، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة .

ولم ينس الفاطميون العلوم العربية الخالصة ، بل وجهوا إليها اهتماما ملحوظا وعناية خاصة ، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب للمناظرة بين يديه ، ورأينا أثر يعقوب بن كلس في نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ويحدنا عمارة اليمنى أن مجالس الوزير الصالح بن رزيق لم تكن تنقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم

(١) راجع ما ذكرناه في كتاب راحة العقل في المقارنة بين رأى الكرمانى ورأى الفارابي

(٢) راجع كتاب راحة العقل (من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند)

الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته (١). فكانت هذه العناية الخاصة التي وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سببا في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية، وفي أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف الفنون والعلوم.

حقيقة كان علماء مصر في ذلك العصر يشرحون أو ينقدون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم في هذه العلوم العربية، ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقوهم، ولكن ليس ذلك بغريب فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذ اتهم تكويناها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها، ويكثر من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم. هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة، وهذا ما حدث أيضا للمسلمين في جميع الأقطار الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وفنونه، وبعد أن صيغت القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم مرت بها مصر الفاطمية بل مرت بها جميع الأقطار الإسلامية، بل أستطيع أن أقول إننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن، فقواعد اللغة التي دونها سببويه وأصول الصرف كما تركه ابن جنى وعروض الحليل بن أحمد وأصول الفقه كما دونه الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن، بالرغم من أن عددا كبيرا من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلا يلائم حياتنا الحديثة، ولكن لا تزال السيطرة للقديم، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه.

فبالرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التي تحتاج إلى مجلد ضخيم لسرد أسمائها، وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمي للعصور التي تلت عصر الفاطميين، فإن هذه الكتب الكثيرة ولا سيما ما كان منها

في العلوم العربية لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر ، إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التي تحدثت عن مصر ، ففي هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يتأثروا بما حولهم وأن يظهروا شيئاً مصرياً لا يستطيع غير المصريين أن يأنوا به .

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر في كتب العلماء المصريين في العلوم العربية ، ذلك هو رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلباً للعلم ، فصر بموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب وطربق الغرب إلى الأراضي المقدسة ، هذا الموقع الجغرافي جعل مصر مركزاً هاماً لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التمرج على مصر في رحيلهم لتأدية فريضة الحج . أو في رحيلهم لطلب العلم في العراق وفارس ، وتطول مدة إقامتهم في مصر أو تقصر يأخذون عن علماء مصر أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم فتتلاقح الآراء وتمتزج وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسي ومصري ومغربي وصقلبي ، ولا تظهر الشخصية الإقليمية في هذا النحو من العلم ، وكذلك نقول عن علماء مصر الذين رحلوا في طلب العلم من الأقطار الأخرى وعلماء الأقطار الأخرى الذين رحلوا في طلب العلم أو للتعليم في مصر ، فهذه الرحلات الكثيرة كانت سبباً في ألا تمتاز العلوم العربية بتمايز الأقطار ، حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشاركة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم . أما من الناحية الموضوعية للكتب فن الصعب العسير أن نصل إلى نتيجة يطمئن إليها الباحث ، والأقطار العربية التي كانت تتنازع فيما بينها في السياسة والمذهب الديني ، وتنتشب فيها الحروب المختلفة ، كانت تربطها وتوحيدها هذه الحياة العلمية ، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علومها واحدة لا فرق بين قطر وقطر ، ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخالصة والعلوم الإسلامية ، وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية أن تتم وحدتها في مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجددهم القديم بهذه الوحدة التي لن تنفصم بعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية .

# الفصل الأول

## العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى ، والتي تضمنها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذفها فلاسفة هذه العصور ، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألم بها جميعا ، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلهيات من الطبيعيات ، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون ، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب ، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزير والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراها من أحداث ، ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب ، ويروي المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، كما يروون بعض الأشعار كان يتهم بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب ، من ذلك ما روى أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا      وليس بالكفر والخماقة  
إن كنت أعطيت علم غيب      فقل لنا كاتب البطاقة

وتصنيف الرواية أن العزيز بالله أفلح عن ادعائه الغيب بعد ذلك ، ويروي ابن ميسر في تاريخه أن الثيل زاد وبلغ المساء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة ، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والانقطاع ، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتابا فإذا فيه : إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد ، ثم قال : هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي



بعدها (١) فإن صححت هذه الرواية فهي تؤيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وبين يدي الآن كتاب ، الفترات والقمرات ، المنسوب إلى جعفر بن منصور اليمن من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري — ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه — يتحدث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد ويتنبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة . وذهب مؤلفه إلى أن علم القمرات أو علم الجفر علم خص الله سبحانه به آدم عاينه السلام وورثه آدم وصيه شيث ، وتداوله الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والفقهاء المتوحدين بالتأييد (٢) ، ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول : لو نئيت لي وسادة وجلست عليها لحسنت بين أهل النوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بانجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، ولولا أن يقال إن ابن أبي طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة مما علمني رسول الله صلعم (٣) ، فهذا كله يؤيد ما قيل عن الفاطميين أنهم كانوا يدعون علم الغيب وأنهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب . ولكن بجانب هذه النصوص التي تثبت ذلك نجد نصوصاً أخرى تثبت عكسها ، فالفاضي النعمان يحدثنا في كتابه المجالس والمسائرات : ذكر الإمام المعز لدين الله يوماً وأنا بين يديه النجامة والمنجمين . فقال : من نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار ويعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيد لا شريك له ، فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله وانقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ . ولقد كان المنصور بالله من أعلم الناس بها ، ولقد قال لي غير مرة : والله ما نظرت فيها إلا طلباً لعلم توحيد الله وتأثير قدرته وبجانب خلقه ، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها فما عملت في شيء من ذلك باختبار مني دلائل النجوم ولا التفت إليه ، ثم قال المعز : أتاني بعض المنجمين بكتاب ألفه يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل ، وما دلت عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه ، ورأى أنه أتى

(١) أخبار مصر لابن ميسر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والمقريزي ج ١ ص ٩٧ .

(٢) كتاب الفترات والقمرات ورقة ٢ نسخة خطية بمكتبتي الخاصة .

(٣) المجالس المؤيدية والفترات والقمرات ص ٥٧ والسيرة المؤيدية في الفصيصة المسطحة .

في ذلك إلى بغائدة وعلم سبق إليه ، فلما وقفت على كتابه سألته : هل كان قبل آدم  
شيء ؟ قال : نعم قد كان قبله ، قلت : فما كان قبله ؟ ومن كان ؟ وكيف كانت هذه  
الكواكب قبل ذلك وما دلت عليه قبل خلق آدم ؟ فلم يجر جوابا ، وقال : هذا  
شيء ما ظننت أني أسأل عنه ، قلت : وهذا الذي تكلمته وجمت به ما سألت عنه  
أيضا فكيف تكلمته ؛ فعجبت من قوم يفتنون فيما لا يعلمون ويتعاطون ما لا يدرون (١)  
فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعيا الغيب ، ولم يدرس الكواكب  
وحرركاتها لعلم ما كان وما سيكون ، ويقول جعفر بن منصور البين في كتابه الكشف :  
« قال الله تعالى : قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم  
إني ملك ، وهذا قول نوح عليه السلام الذي ذكر الله في كتابه عنه ، وكل هذا دليل على  
أن الأئمة والرسل لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأييده وفوره وثبته عن الله  
جل ذكره (٢) ، فهذا دليل آخر تقدمه في دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب .  
وقال القاضي التتيمان في كتابه المهمة : « فإننا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون  
المبطلون الصادون عن أولياء الله الدافعون لإمامتهم الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله  
وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذي تفرد بعلم ذلك دون خلقه ، ولم يطلع ماشاء  
منه إلا من ارتضى من رسله ، وإنما أراد هؤلاء الفسقة . مما نسبوه إلى الأئمة صلوات  
الله عليهم من ذلك دفع لإمامتهم لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب والناس  
يروهم لا يعلمون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لهم لم يكونوا أئمة عند أولئك  
الفسقة ولا عند من قبل منهم ، إذ لم تكن تلك الصفة التي وصفوهم بها منهم (٣) . ولعل  
سبب هذا الادعاء هو تطرف بعض الدعاة في إسباغ جميع الفضائل على الأئمة حتى  
جعلوا أئمتهم يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس في هذا الأمر مصدر جدل بين  
المصريين ، وصور لنا الأمير تميم في إحدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب أخاه  
الإمام العزيز بالله :

ولما اختلفنا في النجوم وعلها      وفي أنها بالرفع والضر قد تجرى  
فن مؤمن منا بها ومكذب      ومن مكثر فيها الجدل ولا يدري

(١) المجالس والمساربات ورقة ٩٢ ب .

(٢) كتاب الكشف لجعفر بن منصور البين ( نسخة خطية بمكتبي ) .

(٣) كتاب المهمة في آداب أتباع الأئمة ( طبع دار الفسحر العربي ) ص ٥٤ .

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس وتعلم ما يأتي من الخير والشر  
فعلمتنا تأويل ذلك كله بما فيه من سر وما فيه من جهر  
عن الطاهر المنصور جدك ناقلنا وكان بها دون البرية ذا خبر  
فأخبرتنا أن المنجم كاهن بما قال، والسكان من شيعة الكفر  
وأن جميع الكافرين مصيرهم إلى النار في يوم القيامة والحشر  
لجتمعتنا بعد اختلاف ومرية وألفتنا بعد التنافر والزجر  
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يحل ظلام الشك عن كل ذي فكر  
فعدنا إلى أن الكواكب زينة وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى  
مسخرة مضطرة في بروجها تسير بتدبير الإله على قدر  
وأن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر  
وما علمت منه الأئمة إنما رووه عن المختار جدكم الطهر (١)

وإذن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب، فإن هؤلاء المؤرخين استقوا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة ولم يحققوا الأمر تحقيقاً علمياً، فقصيدة الأمير تميم وأقوال علماء الدعوة تنفي ما جاء به المؤرخون وتبرئ الفاطميين من ادعاء الغيب.

حقيقة اهتم الفاطميون بالنجوم ورصدها، واستدعى الفاطميون إلى مصر عدداً كبيراً من المنجمين، فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقي (٢)، ورفع العزيز بالله منزلة المنجم أبي عبد الله بن القلانسي إلى أن توفي سنة ٣٨٦ (٣)، وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلاً يرصد فيه النجوم وعمل

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبتي الخاصة.

(٢) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد العتقي المنجم كان متفناً في عدة علوم والغالب عليه علم النجوم، ولما وفد بمصر قربه الفاطميون ولم يزل مقرباً إلى أيام العزيز بالله ولكن حدث أن صنف كتاباً في التاريخ ذكر فيه بنى أمية وبنى العباس وأشاد ببعض محاسنهم وجميل أفعالهم، وأطلع عليه الوزير يعقوب بن كاس فأنهاه إلى العزيز فوبخ العتقي على ذلك وجمع الوزير العلماء إلى داره وضم العتقي أمامهم، فاضطر العتقي إلى أن يلزم داره كما صودرت أملاكه وتوفي سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتب في النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع صنفه إلى بعض أيام العزيز، وكتاب في النجوم سماه السبب لعلم العرب [راجع أخبار الحكماء للفتحي ص ١٨٧] (٢) الففطى ص ٢٦٧.

له منجمه أبو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكي في أربعة مجلدات، ويقول ابن خلكان عنه إنه لم ير في الأزياج علي كثرتها أطول منه (١)، ويقول الفطلي إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل علي أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب (٢) وهذا الزيج هو الذي سار عليه منجمو مصر بعده، ويذهب المقرئزي إلى أنه عمل للأفضل بن بدر الجمالي مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة، وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبي وابن الهيثمي وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة علي عمل التقويم في كل سنة، فإذا كان في غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقاويم علي العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم فقالوا: الشامي يحسب ويعمل علي رأى الزيج المهجور المأموني، ونحن نعمل علي رأى الزيج الحاكي لقرب عهده، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف، ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد، وأشار عليه أبو الحسن بن أبي أسامة أن يتولى ذلك القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس العالم، ولكن الأفضل غضب علي ابن أبي العيش وولى بدله أبا سعيد بن قرفة الطبيب، فنشط في إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ وولى الوزارة المأمون البطائحي فأحب أن يتم هذا الرصد علي أن يعرف بالرصد المأموني المصحح، واستمر العمل إلى أن قتل الوزير البطائحي سنة ٥١٨ هـ فوقف العمل به، وكان من المهندسين الذين اشتركوا في إقامة هذا الرصد أبو جعفر بن حسنداي والقاضي ابن أبي العيش، وأبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب، وأبو النجاشي بن سند الساعاتي الاسكندراني المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقلي وغيرهم، ومن الحساب والمنجمين ابن الحلبي وابن الهيثمي وأبو النصر تليذ سهلون وابن دياب والقلمعي وغيرهم (٣). وكان الخليفة الحافظ مغرماً بعلم النجوم وله عدة من المنجمين (٤)، وما يدل علي

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ . (٢) الفطلي ص ١٥٥

(٣) المقرئزي ج ١ ص ٢٠٦ . (٤) المقرئزي ج ٢ ص ٢٤٩ .

شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدي وكان من أهل الخبرة بعمل الاضطراب والحركات أن الوزير الجرجاني تقدم سنة ٤٣٥ فأمر بعمل فهرست لخزانة المكتب وبرم ما أخلق من جلودها وأنفذ القاضي القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك ، وحضر ابن السنيدي ليشهد ما يتعاقق بصناعته قل : فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للبلك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشترت بثلاثة آلاف دينار، (١) من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللون من العلم ، وللكر الفاطميين لم يكونوا بدعا في ذلك كله، فهم ليسوا بأول من رصدوا النجوم . وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلي وتأثير حركات الكواكب في الارض ، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام وبعد الإسلام ، ففي أوائل قيام الدولة العباسية عنى أبو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم ، وترجم له السندهند ، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للتنجيمين رواتب واستشارهم الخلفاء في أحوالهم الإدارية والسياسية ، وليس يبعد عن أذهاننا قصة فتح عمورية وقصيدة ابن تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويقول أستاذنا المرحوم كارلو نالينو إن التنجيم كان له شأن في قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك الى القرن الماضي فكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم ، بيد أنه لا يزال موجوداً في البلاد التي لم تصب من الحضارة الغربية الا قليلاً (٢) . فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين في التنجيم والفلك . وقد يكون من أهم الاسباب التي أدت الى اهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان ، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوماً دائماً ، ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل برؤية استبصار . فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن

(١) الففطى ص ٢٨٦ .

(٢) مادة تنجيم في دائرة المعارف الاسلامية .

السنة القمرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وخميس يوم وسدس يوم ، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام ، واشدة الدقة في هذا التقويم اضطرروا الى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والزيجات .

### ابن الهيثم

ولعل أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم وقيل: إنه أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم ، اتفق المؤرخون على أنه بصرى المولد والنشأة ، وإن كانوا لم يذكروا شيئا عن حياته في شبابه ، فإن هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض ، والذي ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام وعاش في كنف أمير من أمراءها ، وأن الأمير أعذق عليه نعمه وعطاياه ، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير : « يكفيني قوت يومي ، وتكفيني جارية وخدام ، فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمرى وعلمى ؟ فما قبل بعد ذلك الا نفقة احتاج اليها ولياسا متوسطا (١) فإن صححت هذه الرواية فهى تدلنا على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف الى العلم ورغبة عن المال خوفا من أن يشغله المال عن العلم ، وكان حريصا أن يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن طلب الماديات ، وأين هم العلماء الآن الذين لا يسعون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم ؟ وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجتهم الضرورية ، فإن علماء عصرنا مع شديد الأسف يتسكالبون على جمع المال بشتى الطرق والوسائل ، والحقد يملأ قلب أحدهم إذا أثرى له زميل ، أو ارتفع قدره . ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من نطق عليه لقب عالم يترك العلم والبحث للجرى وراء اقتناء الدور والأراضى ويكترز الأموال وهو في غنى عن ذلك كله إن كان عالما حقا فانما قناعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق .

(١) تاريخ حكماء الاسلام للبيهقى ص ٥١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويروى البيهقي قصة نذكرها الآن لعلها تجد عند ساداتنا علماء عصرنا رادعا لهم  
عمامهم عليه ، فهي تدل على أن ابن الهيثم لم يأبه بالمادة ولم يطلب سوى العلم للعلم ،  
تقول القصة إن أمير أجهاد يطلب العلم عليه ، فقال له ابن الهيثم : أطلب منك للتعليم أجرة  
وهي مائة دينار في كل شهر ؛ فبذل ذلك الأمير ما طلبه ابن الهيثم ، وما قصر فيه ، وأقام  
عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم ، فلما عزم الأمير على الانصراف  
إلى دياره قال له ابن الهيثم : خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لي اليها وأنت أحوج  
اليها مني عند عودتك إلى مقر ملكك ، ومسقط رأسك . وإن قد جرتك بهذه  
الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم بذلت مجهودي  
في تعليمك وإرشادك . واعلم أن لأجرة ولارشوة ولاهدية في إقامة الخير ، ثم  
ودعه وانصرف (١) . وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما في هذه الكلمة  
من معان وأوصاف . وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله  
الفاطمي ، وقيل إنه نقل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال : لو كنت بمصر لعملت في  
نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه  
ينحدر من موضع عال وهو في طرف الإقليم المصري (٢) ، فآزاد الحاكم شوقا  
إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه ، وأرسل اليه يرغبه في الوفود اليه ، فاستجاب  
ابن الهيثم إلى رغبته وخرج الحاكم نفسه للقائه والترحيب به وقربه اليه وأكرمه ،  
ثم طلب اليه الحاكم أن ينظر في أصول النيل عساه ينفذ ما خطر له وهو بالشام ،  
فرحل ابن الهيثم في النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلي أسوان ، ورأى في  
طريقه آثار قدماء المصريين فعلم أنه لا يستطيع أن يأتي من الأعمال الهندسية ما لم  
يبلغ القدماء معرفته ، فإظهر ابن الهيثم عجزه وعاد إلى القاهرة معتذرا إلى الحاكم (٣)  
وهذه خصلة أخرى نسجلها لهذا العالم العظيم الخلق الذي خطر له رأى فلما  
كلف بتنفيذه أبي عليه تواضعه العلمي إلا أن يعترف بعجزه أمام ما وجدته من فن  
القدماء ، ولو لم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لما دى في مشروعه  
ولسلك الدولة آلاف الدنانير ولا استفاد هو أيضا إن كان على نمط علماء عصرنا ،

(١) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ص ٥١ وما بعدها نسخة خطية بدار السكتب المصرية

(٢) الففطلى ص ١١٤

(٣) الففطلى ص ١١٥

فما أحرانا وقد مضى نحو ألف عام على وفاة ابن الهيثم أن تتمثل به في فناعته وتواضعه وعلمه . وكان من المتوقع أن يفضب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم ، ولكن الإمام الحاكم حفظ له مكانته وعرف قدر خلقه وعلمه ، فولاه بعض الدواوين ، وقبل ابن الهيثم العمل رهبة لارغبة . ثم خاف بطش الحاكم بعالمه وتقليباته مع من حوله ، فزوات الحاكم وتسرعته في إراقة الدماء أو التعذيب أمر عرف به هذا الإمام ، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يتصنع الجنون والخيال ، فتركه الحاكم في منزله وجعل له من يخدمه ويقوم بمصالحه (١) فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة الحاكم سنة ٤١١ هـ وأطمأن من نزواته على نفسه ، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا ، واشتغل بالتصنيف والتعليم ونسخ الكتب القديمة ، فكان يبيعها بمائة وخمسين ديناراً هـ . ووفته لسنة (٢) ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالماً متقناً لعلوم كثيرة فيقول الففطى عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتأليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متقناً فيه فيما بغوامضه ومعانيه مشاركاً في علوم الأوتل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه ، (٣) . ويقول البيهقي : « الحكيم بطليموس الثاني أبو علي بن الهيثم ، كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى (٤) ، وبذهب ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كان متقناً في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه (٥) . ويقول المستشرق دي بور : نجد في القاهرة في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ( الخامس من الهجرة ) رجلاً من أعظم الرياضيين والطبيين في العصور الوسطى هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (٦) . وسرد الففطى أسماء سبعة وستين كتاباً من تأليف ابن الهيثم ، أما ابن أبي أصيبعة فنذكر

(١) الففطى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠

(٢) الففطى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠ (٣) الففطى ص ١١٤ (٤) تاريخ

حكاه الاسلام ص ٥١ (٥) ابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠ (٦) تاريخ الفلسفة في الاسلام

ص ١٩٠ ترجمة الدكتور أبو ريذة .



له ما يقرب من مائتي كتاب ، خلا رسائل كثيرة ، فقد ألف ابن الهيثم في الهندسة والطبيعية والفلك والحساب والجبر وفي الطب والمنطق والأخلاق ، فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الثروة العلمية التي خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكانته في هذه الفنون التي نبغ فيها وعرض لها في مصنفاته ، فالاستاذ مصطفى نظيف بك قال : « إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة ، وأنشأ علما جديدا ، هو قد أطل علم المناظر الذي وضعه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التي تراها الآن ، وإن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر ، فإن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادى عشر للميلاد » (١) .

وقال الاستاذ محمد رضا مدور بك : « إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغاليا إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة العلامة أنيشتين في عصرنا هذا » (٢) .

ويقول الاستاذ الدكتور مشرفة باشا : « المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك إقليدس يلدس فيه دقة المؤلف في التفكير وتعمقه في البحث واستقلاله في الحكم ، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الإقليدسية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير ، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات . فإن الهيثم في هذا الكتاب رياضي بحث بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل إليه من حدود (٣) ، فهذا كله قول مختصين يستطيعون الحكم على مكانة ابن الهيثم في العلوم الرياضية والطبيعية ، ولكن ابن الهيثم كان في مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين ، وقد لاحظ الأستاذ ديبور إهمال العلماء له فقال : إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة في الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الملاسفة هو أبو الوفاء

(١) الاجتماع التخليدي لذكرى ابن الهيثم - ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) المصدر السابق ص ٤

مبشر بن فاتك القائد (١) ولكنى أرى خلاف ما رآه ديبور فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون ، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته ، ولكن كما قلت كان التعصب الدينى عند الأيوبيين والعباسيين قويا حتى لأنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية ، فكل من انصل بالفاطميين فهو من زمريهم وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه . وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء .

أما مبشر بن فاتك الذى ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم فهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها ، دائم الاشتغال بحباً للفضائل والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والانتفاع بما يقتبسه من جهتهم ، وكان ممن اجتمع به منهم ، وأخذ عنه كثيرا من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو على محمد ابن الهيثم (٢) . ويقول أمية بن أبى الصلت إنه أدرك أبا الوفاء وأخذ عنه شيئا من المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه ، وأن أبا الوفاء أدرك أبا كثير بن الزقان تلميذ أبى الحسن على بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح بزعمه وفسر ولخص (٣) ، وكان أبو الوفاء أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ ، وكان فى أيام الظاهر والمستنصر وله كتاب سيرة المستنصر فى ثلاثة مجلدات ، وله تواليف فى علوم الأوائل كما كان حريصا على اقتناء الكتب فجمع منها ما لا يحصى عدده كثرة (٤) . ويقول القفطى إنه قرأ على المبشر فضلا زمانه فسادوا (٥) ، ويذكر من تلاميذه الطيب سلامة بن رحمون اليهودى الذى ناظر أمية بن أبى الصلت (٦) .

ومن الرياضيين الذين كانوا فى هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذى وصفه أمية بقوله : « وله فى فروع النجامة بعض دربة وبتجرباتها بعض خبرة ، وهو شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم الذى علمهم السحر ، فجميعهم إليه منسوب

(١) تاريخ الفلسفة ص ١٩٤ (٢) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٨

(٣) الرسالة المصرية ص ٧٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٤) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧ (طبعة رفاعى) (٥) القفطى ص ١٧٦ .

(٦) القفطى ص ١٤٢ وابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٦ .

وفي جريدته مكتوب وبفضله معترف ، (١) . وأبو علي المهندس المصري الذي كان قيا يعلم الهندسة ، وكان يعيش في أوائل القرن السادس الهجري ، وكان مع ذلك أدبيا شاعرا ، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلا :

تقسم قلبي في محبة معشر بكل فتى منهم هوأى منوط  
كأن فؤادي مركز وهم له محيط وأهوائى لديه خطوط (٢)

وقوله أيضا :

إفايدس العلم الذي يحوى به ما في السماء معا وفي الآفاق  
تزكو فوائده على إنفاقه يا حبيذا زك على الإنفاق  
هو سلم وكأنا أشكاله دجج إلى العلياء للطراق  
ترقى به النفس الشريفة مرتقى أكرم بذاك المرتقى والراقى (٣)

وظهر في مصر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء ، والطب كما نعلم كان في ذلك العصر من علوم الفلسفة ، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم ، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفقه وكثرة التأليف حوله ، وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعظاياهم خلاف ما أوقفوه لهم من مرتبات شهرية ، فمن ذلك ما يروى أن منصور ابن مقشر النصراني طبيب العزيز بالله اعتل سنة ٣٨٥ هـ وتأخر عن الركوب مع الإمام ، فلما تماثل من علته كتب إليه العزيز رقعة بخطه نسختها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

طبيبتنا سلبه الله .

سلم الله الطبيب وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبتنا الله من عافية الطبيب وبرته ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة في جسمنا ، وتمم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد في بحره ، وابتلاه بما لا طاقة له ، بعد الكفاية فيك ، وإفالتك العثرة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودك ، وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسليما (٤) ،

(١) الففطلى من ١٢٧ . (٢) الففطلى من ٢٦٧ (٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق من ٢١٩

فشل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير ،  
فما بالك اذا صدرت من إمام مسلم إلى طبيبه المسيحي ، فالإمام عرف لطيبه قدرته  
في فنه وعلو كعبه في صناعته ، فقربه واتخذهُ صديقا ، وكذلك يقال : إن المعز  
لدين الله اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار ، وكان طبيبا عالما بتركيب الأدوية  
وطبائع المفردات ، وهو الذي ألف شراب الاصول (١) .

ووجد على مصر في عهد المعز والعزير الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي وهو  
من بيت المقدس ، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الأدوية ، ولقى الاطباء بمصر  
وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في صحبة المعز  
والمقيمين بمصر من أهلها . ويقول القفطي : إنه كان منصفاً في مذكراته ، غير راد على  
أحد إلا بطريق الحقيقة ، وصنف للوزير يعقوب بن كلس كتابا كبيرا في عدة  
مجلدات سماه : مادة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء ،  
وتوفي التميمي بمصر في حدود سنة ٣٧٠ هـ (٢)

ومن أشهر الأطباء في هذا العصر سلامة بن رحمون أبو الخير اليهودي المصري  
الذي قال عنه أمية بن أبي الصلت : « وأنبه من رأيت من أطباء مصر وأدخلهم في  
عداد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون فإنه لقي أبا الوفاء  
المبشر بن فاتك وأخذ عنه شيئا من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه  
وأدرك الكثير الزقاني تلميذاً في الحسن بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ،  
ثم نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعا وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية ،  
وشرح بزعمه وفسر ولخص ، ولم يكن هنالك في تحصيله وتحقيقه ، بل كان يكشر  
كلامه فيفضل ، ويسرع جوابه فيزل (٣) ، وناظره أمية ، ولكن إجابات سلامة لم  
تجد منه قبولا ، فرماه بسوء التصور والفهم (٤)

ولعل من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان ، ولد بالجيزة  
وكان أبوه فرانا ، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للمعلمين وانتقل إلى مدينة  
مصر وهو في العاشرة لطلب العلم . وبدأ في دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة  
وهو في الرابعة عشرة من عمره ، ولفقره وحاجته إلى ما يستعين به في الحياة اضطر  
إلى أن يتكسب بالطب مرة وبالتمجيم مرة أخرى وبالتعليم كذلك ، وفي الوقت نفسه

(٢) القفطي ص ٧٤ و ٧٥ .

(٤) المصدر السابق .

(١) القفطي ص ٢١٠ .

(٣) القفطي ص ١٤٢ .

كان يواظب على طلب العلم ويحجد في التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سنى حياته ، إذ بدأ يشتهر بالطب ، وكفاه ما كان يكسبه عن طريقه ، بل تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين ، وصار له ذكر حسن في البلاد . وسمع به الحاكم بأمره فاستخدمه وجعله رئيسا على سائر المتطببين ، فاتسعت حاله ، واقتنى الأملاك في المدينة ، كما ذاع صيته في البلاد الإسلامية . حتى إن الأطباء فيها كانوا يناظرونه مراسلة ، ويطلبون ما عنده من علم الطب ، فمن راسله الطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف بالبرودي الدمشقي الذي راسل ابن رضوان وغيره من الأطباء المصريين . ويقول ابن أبي أصيبعة عنه : وله مسائل عدة إليهم طبية ومباحثات دقيقة ، وكتب بخطه شيئا كثيرا جدا من كتب الطب ، ولا سيما من كتب جالينوس وشروحها وجوامعها<sup>(١)</sup> . ويفهم من إحدى رسائل ابن رضوان أن البرودي زار مصر ، وكان كثير الاختلاط به للنظرة والمناقشة في المسائل الطبية<sup>(٢)</sup> . كذلك ناظره الطبيب أبو الحسن الختار بن الحسن المعروف بابن بطلان النصراني البغدادي ، فكان بين الطبيب المصري والطبيب البغدادي مراسلات عجيبة ، ولم يكن أحدهما يؤولف كتابا ولا يبتدع رأيا إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . ثم رأى ابن بطلان البغدادي أن يفتد على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان ، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطبيين ، وخرج ابن بطلان من مصر ووضع كتابا تضمن الوقائع التي كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان ورد ابن رضوان عليه<sup>(٣)</sup> . ويقول ابن أبي أصيبعة في الموازنة بين الطبيين ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها<sup>(٤)</sup> . وحفظ لنا خمس رسائل لهذين الطبيين في المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول .

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري ص ٤٣ ( مطبوعات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ) .

(٣) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٤) عيون الأنباء ج ١ ص ٢٤٢ .

وكان ابن رضوان معترزا بعلبه ومهارته في فنه فكان يرد على جميع أطباء عصره وغيرهم ، فكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء ، وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشتيح على من يريد مناقشته ، وأكثر ذلك عند ما كان يرد على حنين بن إسحق وعلى أبي الفرج بن الطيب أستاذ ابن بطلان ، وعلى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (١) وكان ابن رضوان دميم الخلق مشوه الصورة أسود اللون . ومن تأليفه مقالة في من غيره بقبح الخلق ، وبين في هذه الرسالة أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه ، وكثيرا ما كان ابن بطلان البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصري حتى إنه قال في الرسالة التي وسمها « بوقعة الأطباء » يصف ابن رضوان :  
فلما تبسدى للقوابل وجهه تكصن على أعقابهن من الندم  
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم  
وكان يلقبه بتمساح الجن لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه (٢) .

وتغير عقل ابن رضوان في أواخر أيام حياته ، وقيل إن السبب في ذلك أنه في إبان المحنة العظمى التي حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمي والتي اشتدت وعظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان ابن رضوان قد أخذ بتيمة رباها وكبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلا لها المنزل ، وكان قد ادخر أشياء نفيسة ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خير ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت ، وتوفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب .

كان لابن رضوان أثر كبير في الحياة العقلية بمصر ، فهذه المناظرات الكثيرة التي كانت بينه وبين غيره من الأطباء ، وهذه الردود المختلفة التي كتبها في الرد على الأطباء السابقين كان لها أثرها في تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه ، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبها ، فمن هؤلاء التلاميذ الطبيب الإسرائيلي افرائيم بن الزفان وأبو كثير بن الحسن بن إسحق ، وكان من الأطباء المشهورين بمصر ، واستخدمه الأئمة ، وكان كثير الاهتمام بجمع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم منه ، ومن جملة هؤلاء النساخ

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٢) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٢ .

محمد بن سعيد بن هشام الحجرى المعروف بابن مسأقة ، وقيل إن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب من افرائيم ، فسمع الأفضل بن بدر الجمالى بذلك ، فأمر بفسح هذه الصفقة وأن تبقى الكتب فى مصر ولا تنتقل إلى بلاد أخرى ، وأمر بشرائها وإضافتها إلى خزانة الأفضل ، وكتب عليها ألقابه ، ويقال إن افرائيم خلف ما يزيد على عشرين ألف مجلد (١) .

وصنف الطيب أبو جعفر يوسف بن حسداى شرحا لكتاب الإيمان من كتب أبقرات ، سماه الشرح المأمونى ، نسبة إلى الوزير المأمون بن البطائنى . من هذه الأمثلة التى ذكرناها عن حركة العلوم الطيبة فى مصر ندرك مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين ، وأن مصر استطاعت فى هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية فى مضمار هذا العلم ، فوفد عليها عدد من الفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال لالحصر أمية بن أبى الصلت الأندلسى جاء مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٩ هـ ، وكان أمية عالما فى فنون مختلفة شاعرا خيلا ، وأديبا بمتازا بجانب علومه الفلسفية ، سجنه الوزير الأفضل فنصف وهو بالسجن رسالة العمل بالاصطراب وكتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة ، وكتابا فى المنطق ، وآخر سماه الانتصار فى الرد على ابن رضوان فى رده على حنين بن إسحق ، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الشامى وسليمان بن الفياض الاسكندراني ، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم ، وستحدث عن أمية فى باب الشعر من هذا الكتاب .

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا فى الإلهيات فى هذا العصر أحمد حميد الدين ابن عبد الله بن محمد الكرماني ، ويعرف فى الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقين ، وقد على مصر فى عهد الحاكم بأمر الله . فهو يقول فى رسالته : « مباسم البشارات بالإمام الحاكم ، وفانى لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا ، وللسدة العلوية زائرا ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء عظيم . . . » (٢) ويخيل إلى أنه وفد على مصر عقب ثورة الدرزي ، وظل بمصر نحو من عشر سنوات ، وصنف بها عدة رسائل منها ، الرسالة الكافية ، فى الرد على الشريف الهارونى الحسنى ، والرسالة الواعظة فى الرد على الفرغانى ابن الأخرم أحد دعاة الدرزية ، ورسالة

(١) عيون الأنباء - ٢ من ١٠٥ (طبعة مصر ١٨٨٢) .

(٢) رسائل الكرماني (نسخة خطية بمكتبتي)

مباسم البشارات بالإمام الحسّام ، ورسالة الصوم ، وغيرها .. وإذا قرأنا رسائل  
الكرماني وكتبه نجدته يتحدث في الفلسفة الطبيعية والإلهية كما في «راحة العقل» ، وفي  
الفلسفة الإلهية كما في «الرسالة الدرية» ، ورسالة النظم في مقابلة العوالم ، ورسالة الرضية في  
جواب من يقول بقدوم الجوهر وحدوث الصورة ، والرسالة الحاوية وهي في البحث  
عن أيهما أسبق الليل أم النهار . وهكذا ، نجد الكرماني يتحدث في جميع أقسام الفلسفة  
ولا سيما في كتابه «راحة العقل» الذي يعد من أقوم كتب الفلسفة في العصر الفاطمي ،  
فهو في هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية المصطبغة بالصبغة الإسلامية  
على المذهب الفاطمي ، وحديثه عن إبداع العقل السكلي وصفاته وخصائصه وانبعث  
النفس السكلية وصفاتها وعن العالم الروحاني وعالم الكون والفساد يدل على أن  
الكرماني كان من أكبر الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية ، ولا غرو أن كان لهذا  
الداعي أثره في تاريخ المذهب الإسماعيلي إلى اليوم ، فكل من جاء بعده أخذ عنه  
واقتبس من رسائله وكتبه .

مما سبق نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر  
الفاطمي ازدهارا لا نجد له مثيلا في الأقطار الإسلامية الأخرى ، بل نجد غير  
الفاطميين كانوا ينجحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة لحادية ، وأن القائمين  
بها من العلماء زنادقة ، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقا في تفكيرهم ، وكان  
مذهبهم يقوم على الفلسفة فجمعوا إليهم علماءها ، وعقدوا مجالس المناظرات  
بينهم ، فازدهرت بذلك الحركة العلمية ، وقوى البحث للوصول إلى معرفة الحقيقة ،  
مستعينين بالمنطق وآراء الفلاسفة الأقدمين .



## الفصل الثاني

### علوم اللغة العربية والفقهاء

١ - علوم اللغة والنحو :

بجانب هذه الدراسات الفلسفية التي ازدهرت بمصر الفاطمية ، كان هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو ، ورواية للأدب القديم وشرحه ونقده ، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر ، وكان هؤلاء العلماء كعبة يفتد عليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر ، فقد ذكرت في كتاب « أدب مصر الإسلامية » ، أن هذه العلوم وجدت في مصر منذ بدأ المسلمون في مصر يقرءون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ، ويهتمون بإيجامه على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي وعبد الله بن أبي سحق ، حتى إذا درن علم النحو وظهر كتاب سيبويه ونحاة الكوفة والبصرة ، أقبل المصريون على الأخذ عنهم ، واطرد نمو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر وقاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس . وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والعصور التي تلتها ، وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به . وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات ويحبسون المرتبات للعلماء ، وكيف حرصوا على اقتناء الكتب اللغوية والنحوية وجعلوها مع غيرها من الكتب بين يدي العلماء والمتعلمين ، فلا غرو أن رأينا عدداً كبيراً يفتغون في هذه العلوم ، ويصنفون كتباً كثيرة في هذه الفنون ، ويكفي أن نأتي نظرة على كتب التراجم لنذكر كيف أقبل الناس على هذه الدراسات ، وكيف تضاعف عدد الكتب التي ألفت فيها .

وكا كان الفلاسفة يجتمعون للباحثة والمذاكرة في فنونهم ، كذلك فعل علماء النحو واللغة ، فقد قيل إن جنادة الهروي والحافظ عبد الغنى بن سعيد ، وأبا إسحاق علي بن سليمان المعري النحوي ، كانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة ، وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات (١) . وبلغ من اهتمام الفاطميين بعلم اللغة والنحو أنهم جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل ، حتى لا يظهر في كتابات الكتاب لحن في اللغة أو خطأ في النحو . وسنحدث عن ذلك في باب الكتابة الفنية .

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في هذا العصر ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز النحوي ، كان في خدمة العزيز بالله الفاطمي ، ويقال إن العزيز تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي أشار إليها النحويون في قولهم إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة ، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب ، فبلغ جملة ما جمعه ألف ورقة . ويروى ابن خلكان عن أبي علي الحسن بن رشيق في كتاب الأنموذج أن القزاز فضح المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرين ، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديدا (٢) . ولأبي عبد الله القزاز كتاب الجامع في اللغة ، وهو من الكتب المختارة المشهورة ، وتوفى سنة اثنتي عشرة وأربع مائة بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر في العصر الفاطمي : علي بن أحمد المهلبى ، فقد كان إماما في النحو واللغة ، ورواية الأخبار وتفسير الأشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقربين إليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقربا إلى كافور الأخشيدى ومن عصر المتنبي في مصر ، وكانت بيته وبين المتنبي بعض محاورات عليية . يروى ياقوت أن المهلبى قال : وقع بيني وبين المتنبي في قول العدواني :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقوتى

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢١٣ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ .

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون في هذا البيت ، والصواب اشقوفى من شقات الرأس بالمشقة وهو المشط . فقلت له : أخطأت في وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال شقات بالهمزة ، وأيضا فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول في الهامة ، إنها إذا لم يثار بصاحبها لا تزال تقول : اشقوفى ، فإذا نأروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم (١) .

وللمهلبى كتاب في الرد على كتاب المقصور والممدود لابن ولاد المصرى (٢) ، وقيل : إن المهلبى أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها إلى نفسه . وروى كثير من المصريين عن المهلبى ، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرى وابنه هزاد وعبد الرحمن بن إسماعيل العروضى نزيل مصر وغيرهم . وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ (٣) .

ومن أشهر علماء مصر في ذلك العصر أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ الذى عد إمام عصره فى النحو ، وهو أحد الذين عهد لإيهم تصحيح رسائل الكتاب فى ديوان الإنشاء ، يروى ابن خلكان أن الخطيب التبريزى دخل مصر فى عنفوان شبابه وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوى وغيره علوم اللغة ، ثم عاد إلى بغداد (٤) . ألف من الكتب كتاب المقدمة المحسنة فى فن العربية ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، وله شرح على هذه المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج ، وله فى النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النجاة بعده وتعايق الغرقة ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند من تصدروا وضع ابن بابشاذ فى حلقة بجامع عمرو ، فقد انتقلت إلى تلميذه عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى اللغوى ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبى محمد عبد الله بن برى النحوى ، ثم بعده إلى أبى الحسين النحوى المنبوز بشلط الأفيل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أخص تلاميذه ويهد إليه بحفظها . ولقد اجتهد جماعة من الطلاب فى نسخها فلم يتمكنوا من ذلك . وهكذا انتفع

(١) معجم الأدباء - ج ١٢ ص ٢٢٤ (طبعة رفاعى) .

(٢) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .

(٣) راجع بغية الوعاة ص ٣٢٨ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ ، وأنباء الرواة ج ٤

ص ٤٦٤ . (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٣ .

الناس بعلم ابن بابشاذ وبصانيفه ، وقد ترهد في أواخر أيامه ، واستقال من عمله بديوان الانشاء ، وانقطع في غرفة بجامع عمرو ، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع فزلت قدمه فسقط وأصبح ميتا في اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة (١) .

ومن لهم أثر يذكر من علماء النحو واللغة ، على بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي ، لم يكن مصريا ، ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على علمائها كابن للبر أبي بكر الصقلي اللغوي وأمثاله ، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفريج على تملكها في حدود سنة خمسائة ، فوفد على مصر متخذها وطنا له ، ولقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا في إكرامه وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدبا لولده في علوم العربية وفنون الأدب ، وقد روى ابن القطاع عن أبي بكر الصقلي كتاب الصحاح للجوهري ، وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب في الآفاق ، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن بري النحوي المصري فيما تكلم عليه من حواشي الصحاح ، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها كتاب الدررة الخطيرة في شعراء الجزيرة - أي جزيرة صقلية - اشتمل على مائة وسبعين شاعرا وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء في اللغة ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما في ثلاث مجلدات . وله تاريخ صقلية ، وتوفي في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة ودفن بقرب ضريح الشافعي (٢) .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا في مصر في العصر الفاطمي أمثال محمد بن أحمد البازودي ، ومحمد بن أحمد العميدي ، ومحمد بن أحمد الجرجاني ، ومحمد بن الحسين بن عمير النبي صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كلية ودمنة ، وهو أستاذ القاضي القضاعي ، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة ومحمد بن علي بن محمد أبوسهل الهروي الذي إليه كانت رئاسة المؤذنين بجامع عمرو

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٥ وبغية الوعاة ص ٢٧٢

(٢) راجع بغية الوعاة ص ٢٣١ وابن خلكان ج ١ ص ٣٣٩ ، ومعجم الأدباء ج ١٢

ص ٢٧٩ (طبعة رفاعي) .

وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ الذي ولى قضاء دمياط . وله تصانيف أدبية ولغوية . كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو الذي أجاز لأبي عبد الله الصوري الحافظ .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى ، نرى عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية في طلب العلم أو الكسب به ، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحا من الزمان ثم تركوها إلى بلادهم أو إلى غيرها من البلدان ، ولكنهم تركوا في مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم ، كما استفادوا هم من علماء مصر ، نذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي ، ولد بمكة وقدم مصر في صباه ورحل عنها إلى إفريقية وأقام بالمهدية مدة طويلة ، انتقل بعدها إلى صقلية ومنها إلى مصر ، ثم وفد على حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة ، وفي هذه الفتنة نهبت كتبه فقصد حماة وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥ ، وكان لغويا أكثر منه نحويا ، وله من الكتب ينبوع الحياة في التفسير ، التفسير الكبير ، الاشتراك اللغوي ، الاستنباط المعنوي ، القواعد والبيان في النحو ، الرد على الحريري في درة الغواص ، المطول في شرح المقامات ، وغيرها من الكتب (١) .

ومحمد بن أبي الفرج الكتفاني الصقلي المعروف بالذكي النحوي ، كان من صقلية وطاف العالم الإسلامي حتى وصل إلى الهند ، وكان من أئمة النحو ، وتوفى بأصبهان سنة ٥١٦ هـ (٢) .

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخزرجي تلميذ القاضي القضاعي وراويته ، وكان نهاية في علوم العربية ، وألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات . وأصله من لشبونة ، ورحل إلى مصر حيث أقام بها ردحا من الزمن ، ثم عاد إلى مدينة بطليوس يحدث فيها بما رواه عن المصريين ، وتوفى بها سنة ٥٠١ هـ (٣) .  
ولإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمي ، وهو كوفي رحل إلى الشام ومصر ثم عاد إلى موطنه وبه توفى في شوال سنة ٤٦٦ ، وكان له حظ من الشعر وتفوق في النحو

(١) راجع بنية الوعاة ص ٥٩

(٢) البغية ص ٩٠ .

(٣) البغية ص ١١٥ .

واللغة ، وهو صاحب القصيدة التي أنشدها وهو في مصر ، ومنها .

فإن تسأليني كيف أنت فإنني تشكرت دهرى والمعاهد والقربى  
وأصبحت في مصر كإلا يسرى بعيدا عن الأوطان منتزعا غربا  
وإني فيها كأمري القيس مرة وصاحبه لما بكى ورأى الدربا  
فإن أنج من بابي زوبله فتوبه إلى الله ألامس حتى لها تربا

ومن الطريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الأبيات وكان حصل له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية<sup>(١)</sup> ومع ذلك فإنه كان يشعر بشدة الغربة عن بلاده

ونذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي النحوى الذى كانت له حلقة في جامع عمرو الإفرأ . وتوفى سنة ٥٢٠ هـ<sup>(٢)</sup> . وعبد الجبار بن محمد بن على المعافرى اللغوى الذى قدم مصر وأقرأها العربية ، ورحل إلى بغداد حيث ألقى بها علومه وهو شيخ ابن جبرى المصرى<sup>(٣)</sup> . ومنهم الحسن بن الوليد القرطبي المعروف بابن العريف النحوى . فقد خرج إلى مصر ورأس فيها ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة<sup>(٤)</sup> ، كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسى النحوى ، قدم مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه إلى معرة النعمان ، ولازم أبا العلاء المعرى وأخذ عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه ، وعاد إلى مصر فقدمها للحاكم بأمر الله الفاطمى . وقرأه عليه فأعجبه نظم المعرى حتى قيل إن الحاكم أرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب أن يحمل المعرى إلى مصر فاعتذر المعرى<sup>(٥)</sup> .

إذن نستطيع أن ندس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر ، وكيف كثر عدد العلماء ، وكثر إنتاجهم ، كما تعددت أما كن هذا الدرس ، ففي الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس ، وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب وفي جامع عمرو بالفسطاط استمرت حلقات التدريس التي تحدثنا عن نشاطها في كتابنا ، أدب مصر الإسلامية ، ، ولم تكن القاهرة والفسطاط مراكر الدرس في مصر فحسب ، بل كانت الإسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد نقلت

(١) البقية من ١٨٨

(٢) البنية من ٢٨٢

(٣) البقية من ٢٩٥ .

(٥) البقية من ٤٠٣

(٤) البقية من ٢٣٠

كتب التراجم عن الحفاظ السابق تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية في هذا العصر ، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية . كما يحدثنا السيوطي أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسيني النحوي قرأ على القاضي الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب ، وانتقل الى قوص وتوفي سنة ٥٤١ هـ (١) . وكانت قوص من مراكز العلم في مصر ، وسنحدث عن ذلك كله فيما بعد . ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب القسطنطينية والقاهرة .

### القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ومعرفة أسرار إنجازه ، وتفهم معانيه ، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن . فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر ، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبل في كتاب «أدب مصر الإسلامية» ، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورعايتهم ، ففي كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القراء في مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدي الإمام ، وكان كل مقرئ يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكبر قسط من العطاء ، وكذلك كانت تختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية وهم أشبه شئ بموظفين رسميين في الدولة ، ولهم جاريهم الشهري سوى الهبات والخلع ، وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرا جدا ، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم ، نذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحرقي ، فقد كان عالما بالعربية وتفسير القرآن ، أخذ عن أبي جعفر النحاس وأبي بكر الأدفوي ، ولقي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم ، وتصدر للإفادة في العربية وإعراب القرآن وتفسيره ، وأخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان

في تفسير القرآن في ثلاثين مجلدا ، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشر مجلدات ، وصنف في النحو كتاب الموضح في النحو ، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ. صاحب كتاب إعراب القراءات في تسع مجلدات ، توفي الحرفي سنة ٤٣٠ هـ (١) .

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق أبا عدى المصرى المعروف بابن الإمام مسند القراء في زمانه ، قرأ على أبي بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عدد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غلبون ومكي بن أبي طالب وابن نفيس وغيرهم ، وتوفي سنة ٣٨١ هـ (٢) .

ويقول صاحب الشذرات. إن ابن الإمام كان محققا ضابطا لقراءة ورش وأنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد وقرأ على أبي بكر بن سيف صاحب أبي يعقوب الأزرق (٣) . وكان أبو بكر الأدفوى محمد بن علي بن أحمد المصرى المقرئ النحوى المفسر شيخ مصر وعالمها في عصره ، كان أصله خشايا ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوى ، وقرأ برواية ورش على أبي غانم المظفر ابن أحمد ، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر ، وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع ، وكانت حلقاته من أكبر الحلقات العلمية ، وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلدا سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن . وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٨٧ هـ (٤) ويقول السيوطى بل في سنة ٣٨٨ هـ (٥) .

ومن العلماء أيضا عبد الجبار بن أحمد الطرسوسى ، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه ، ومن أسانذة أبى الظاهر إسماعيل بن خلف الصقلي ، وله كتاب المجتبى في القراءات . وتوفي سنة ٤٢٠ هـ (٦) . وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثمان ، وهو المذكور في باب التكبير في الشاطبية وتوفي سنة ٤٠١ هـ (٧) . ويروى باقوت عن الحافظ السابق : أن عثمان

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٢ ، والبنية ص ٣٢٥ وبقوت ج ٦ ص ١٦٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (طبع مصر سنة ١٣٥٠ هـ) .

(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨١ (٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٢ .



ابن علي بن عمر السرقوسي الصقلي كان من العلم بمكان نحوا ولغة وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره ، وله تواليف في القراءات والنحو والعروض ، وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء ، وقرأ على كثير من كثر على من كثر أقرأ عليه كأبي صادق وابن بركات الفراء الموصلين وآخرين (١) .

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة ، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون بما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللمحة التي أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين ، مدعين أن للقرآن الكريم تأويلا باطنيا يخالف ما يقول به المفسرون ، قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر ، وسمحوا لهم بالتعلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم ، فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متسامحين مع غيرهم من أصحاب الفرق والنحل الأخرى . وستوضح ذلك فيما بعد .

#### رواية الحديث :

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى ، وكثرت الرحلة في طلبه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا في مصر الفاطمية : أبو بكر محمد بن علي ابن حسن المصري نزيل تيس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين وسمع النسائي وأبا علي وروى عنه الدارقطني وغيره وتوفي سنة تسع وستين وثلثمائة (٢) . ومعاصره الحسن بن رشيق ، أبو بكر محمد العسكري المصري ، روى عن النسائي أيضا ، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد ، وفيه يقول ابن الطحان في تاريخه الذي جعله ذيلًا لتاريخ ابن يونس المصري : « ما رأيت علما أكثر حديثا منه » ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة سبعين وثلثمائة (٣) .

والمحدث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور البلخي روى عن ابن سعيد بن يونس ، وروى عنه عبد الغني بن سعيد ، وأقام بمصر وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة (٤) .

(١) ياقوت معجم الأديب ج ١٢ ص ١٣٠ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٩ (٣) الصدر السابق (٤) الصدر السابق .

ومن أشهر الحفاظ في هذا العصر أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدي ، ولد سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، وتوفى والده بعد خمس سنوات من ولادته ، ونشأ عبد الغنى محبا للحديث ، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبي القاسم الكشاني المصري<sup>(١)</sup> وأبي بكر محمد بن علي وابن مسرور البلخي ، ثم انصل بالدارقطني ولازمه وروى عنه ، وقيل إن الدارقطني سئل : هل رأيت في الحديث أحدا يرجي عليه ؟ فقال : نعم ، رأيت شابا بمصر كأنه شعله نار يقال له عبد الغنى . ولما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودعون ، وتحزّنوا على مفارقتهم وبكوا ، فقال لهم : لقد تركت عنديكم خلفا ، يعني عبد الغنى ، وقيل أيضا : إن عبد الغنى لما صنف كتابه المؤلف والمختلف عرضه على الدارقطني ، فقال له : اقرأه ، فقال : كيف أقرؤه لك ومعظمه أخذته عنك ؟ فقال : نعم أخذته عن متفرقا والآن قد جمعتها<sup>(٢)</sup> وروى عن الدارقطني أيضا أنه كان يقول عنه : ما رأيت في طريقي مثله ، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة<sup>(٣)</sup>

وكان بين عبد الغنى بن سعيد وبين أبي أسامة جنادة اللغوي وأبي علي المقرئ الانطاكي مودة أكيدة واجتماع في دار العلم ومذاكرات ومحادثات ، فلما أمر الحاكم بأمر الله بقتل جنادة وأبي علي الانطاكي استتر عبد الغنى خوفا من أن يلحق بهما لصداقته لهما ، وأقام مستخفيا مدة حتى حصل له على الأمر فظهر وتوفى في صفر سنة ٤٠٩ هـ ، وقيل سنة ٤١٠ هـ ، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامع جعل الحفاظ عبد الغنى بن سعيد على بنائه ونظره<sup>(٤)</sup> . وقد طبع كتابه المؤلف والمختلف بالهند سنة ١٣٢٦ هـ

ولعل أشهر المحدثين الذي شهدتهم مصر في أواخر الدولة الفاطمية هو الحفاظ السلفي وكان متقنا ناقدنا ثبتا دينا خيرا ، انتهى إليه علو الاسناد ، وكان أوجد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية<sup>(٥)</sup> ، ويقول صاحب النجوم : وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشي حافيا لطلب العلم والحديث<sup>(٦)</sup> . ورد بغداد فأخذ عن أبي الحسن المهراس علوم الفقه وعن الخطيب التبريزي علوم اللغة ، كما روى عن

- 
- (١) النجوم الزاهرة (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥  
(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤ (٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩  
(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠ (٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

أبي محمد جعفر بن السراج وغيره ، ثم دخل دمشق وأخذ عن علمائها ودخل  
الاسكندرية سنة ٥٢١ هـ واستوطنها فقصده الناس وسمعوا عليه ، وبنى له العادل  
ابن الحسن علي بن السراج وزير الظاهر الفاطمي مدرسة بالاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ  
وفوض أمرها إليه (١) ، وصار إليه الهجرة في الحديث حتى لم يكن في آخر أيامه  
مثله ، ومن أشهر تلاميذه جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصغراوي الاسكندري  
والحافظ أبو الحسن علي بن فاضل الصوري والحافظ شرف الدين السكندري  
 وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهرُوا في العصر الذي يلي هذا العصر الذي تُوِرِخه  
ولما وفد أبو حامد الغزالي على الاسكندرية لقي الحافظ السلفي وتباحثا في بعض  
المسائل ، أما كتبه وأماله فهي كثيرة ، وكذلك كان له بعض مقطعات من  
الشعر ، فمن قوله في كبر سنه :

أنا إن بان شبابي ومضى فلربني الحمد ، ذهني حاضر  
ولئن خفت وجفت أعظمي كبراً ، غصن علوي ناصر (٢)  
ذلك أن السن تقدمت به حتى قيل إنه جاوز المائة بخمس سنين ، إذ توفي سنة  
ست وسبعين وخمسمائة . ومن الرحالين الذين وفدوا على مصر في هذا العصر  
في طلب الحديث ، الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي ،  
ولقي بمصر والاسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم ، كما استفاد بعض المصريين  
منه ، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ (٣) . وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي  
المعروف بابن القيسراني ، وكان أحد الرحالين في طلب العلم والحديث بوجه خاص ،  
روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس ، وتوفي ببغداد  
سنة ٥٠٧ هـ (٤) .

### دراسة مذاهب أهل السنة :

وهنا نعرض لموضوع أكثر فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمي إلى  
الآن ، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدي التعصب

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣١ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ . (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨١ .

لمذهبهم الديني ، وتطرفوا في عصيتهم حتى إنهم أكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لارغبة ، وإنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة بل أفنوهم تفتيلاً ، ويقول السيوطي : إن الفاطميين أفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة — أي الشافعية والمالكية والحنفية — قتلاً ونفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرفض والشيعة (١) ، وذهب قليل من المؤرخين المحدثين إلى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية ، وأن جوهر الصقلي أعطى الأمان للبصريين بأن يختاروا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين ، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلماً ، فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتاب دار الإنشاء من كان مسيحياً أو يهودياً ، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عرف بالتقلب في سياسته وأحكامه .

### فقهاء الشافعية :

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا عدداً كبيراً من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ، ويلقبون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يسمهم سوء . فمن علماء مذهب الشافعي القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر فقد أملى بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١ هـ (٢) ، وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي فقد كان فقيهاً محققاً ومناظراً مبرزاً وتوفي سنة ٤٧٧ هـ (٣) . والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصل الخلعى المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان فقيهاً مشهوراً له تصانيف وروايات متسعة وكان أعلى أهل مصر إسناداً ، وجمع له أبو نصر أحمد ابن الحسن الشيرازي عشرين جزءاً وخرجها عنه وسمها « الخلعيات » وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاءه الفاطميون القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ وينسب إليه مسجد الخلعى بالقرافة ، وكان والده أيضاً من فقهاء الشافعية ، توفي بمصر سنة ٤٤٨ هـ (٤) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧ وتاريخ بغداد .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ وابن ميسر ص ٣٩ .

ومن فقهاء الشافعية أيضاً في ذلك العصر أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي ، الذي قال عنه الحافظ السلفي : كان من أفضقه الفقهاء بمصر ، وعليه قرأ أكثرهم ، ولد بالقدس سنة ٤٤٢ هـ وتفقه على الشيخ نصر المقدسي ثم دخل مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ (١) .

وكذلك نقول عن أبي الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي الميورقي الذي اتخذ الإسكندرية موطناً له وصنف تعليقه في الخلاف بين الفقهاء ، وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلفي ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ (٢) ومجلى ابن جميع بن نجا المخرومي المصري صاحب كتاب الذخائر ، تفقه على سلطان المقدسي وبرع في فقه الشافعي حتى صار من كبار الأئمة ، وتفقه عليه جماعة منهم العراقي شارح المذهب ، وبالرغم من تمذهبه بمذهب يخالف مذهب أولى الأمر في البلاد فقد ولي القضاء سنة ٥٤٧ هـ ومكث في القضاء عامين ، ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تصانيفه كتاب أدب القضاء وكتاب الجهر بالبسملة (٣) .

وأبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري الذي ولي قضاء الجزيرة فقد كان فقيهاً ماهراً في الفرائض ، أخذ عن الخلعي ولازمه مدة طويلة ، وهو آخر من حدث عنه ، ثم ترك القضاء واعتزل في القرافة متعبداً إلى أن توفي سنة ٥٦١ هـ (٤) وستحدث في فصل التاريخ عن القاضي القضاعي الشافعي وكيف ولي القضاء ، وولى ديوان الإنشاء بالرغم من شافعيته ، وأنه صنف كتاباً في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب في فقه الشافعية (٥) .

وهكذا نرى عدداً كبيراً من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون في العصر الفاطمي ، ومنهم من ولي القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية ، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر في حياتهم العلمية أو العملية .

### فقهاء المالكية :

وكذلك نقول عن فقهاء المالكية ، فقد وجد في مصر الفاطمية عدد كبير منهم ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر التعال الذي كانت إليه إمامة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق وابن ميسر ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٢ .

(٥) المصدر السابق .

المالكية في وقته وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقة في الجامع تدور على سبعة عشر عمودا ، لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه للأخذ عنه ، وتوفي سنة ٣٨٠ هـ (١) .

وأبو القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي المصري صاحب مسند الموطأ المتوفى في شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ (٢) .

ونحن جميعا نعلم قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي ، أحد الأئمة المجتهدين في المذهب حتى وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم ير في المالكية أقمه منه ، ونعلم كيف وفد إلى مصر لضيق حاله في بغداد ، وكيف أكرمه المصريون حتى تمول وحسنت حاله ، ولما أدركه المرض كان يقول : لا إله إلا الله ، عندما عشنا متنا ، وتوفي بمصر ٤٢٢ هـ .

ونسلمع في هذا العصر عن عبد الجليل بن مخلوف الصقلي الذي قال ابن ميسر عنه : إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩ هـ . وعن علي بن الحسن بن محمد ابن العباس الفهرى صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ . وعن أبي بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزير الإسكندرية ، وكان كثير الرحلة في طلب العلم فسافر إلى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الإسكندرية واتصل بالوزير المأمون البطائحي الذي أكرمه فصنف له الطرطوشي كتاب « سراج الملوك » ، وكان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم الأزدي الذي خلفه في حلقة ، والذي شرح المدونة . وتوفي الطرطوشي سنة ٥٢٥ هـ وتوفي تلميذه سنة ٥٤١ هـ . إذن تستطيع أن تطمئن إلى أن دراسة مذهب مالك استمرت في مصر في العصر الفاطمي بجانب مذهب الشافعي بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى هذين المذهبين ، وأن دعاة المذهب الفاطمي كثيرا ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب السنية في مجالس حكمتهم وفي أشعارهم ، وما هو ذا الداعي المؤيد في الدين يقول :

فما أبو حنيفة والشافعي حيثهم قد نفعوا بتبافع (٣)  
ويقول مرة أخرى :

وتزيل لبس الشافعي ومالك بيان زين العابدين وجعفر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦ . (٢) المصدر السابق .

(٣) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة (من مطبوعات دار الكاتب المصري)

وقياس قِيَّاس غندا متبرجا بالإعتزال وترهات المجر (١) بيد أن الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حرمتهم العقلية ، وسمحوا لهم بالتحلق في المسجد وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من الطلاب ، وقد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لما أمر بعارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر ، أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته . وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم ويحدثنا عمارة النخعي أن الملك الصالح طلائع بن زريك كان يلقي في ولايته فقهاء السنة ويسمع كلامهم (٢) ، مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط في التعصب لمذهبه (٣) .

### تعصب الفاطميين لمذهبهم !!

أما هذه المسألة التي أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم ، فيخيل إلى أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، أحيانا بالترغيب وأحيانا بالترهيب ، فكان الدعاة يؤدون واجبهم في تشكيك المسلمين في مذاهبهم السنية ويحبون إليهم المذهب الفاطمي ، فمن المصريين من استجاب لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعاة ، ومنهم من استجاب لغرض التقرب إلى الحاكم عساه يجد حظوة لديهم وينال مآربه ، وهذا اللون من الناس كثير في كل البيئات والأقاليم ، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه الديني ، واستمر يحافظ على عقيدته التي دان بها والتي نشأ عليها أبواه ولو أدى ذلك إلى تعسف الحاكمين معه ، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف في سبيل نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم ، فهذا أمر طبيعي نجد مثيلا له في ظل كل الحكومات التي لها نزعة خاصة حتى في عصرنا الحاضر ، فقد رأينا اليوم ألوانا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية تركلها تحاول فرض سلطانها ومبادئها في بلادها وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة ، وأن تحكم بالقوانين التي سنتها نظمها ، ولو أدى ذلك إلى القتل والنفي والتشريد لكل من حاول مخالفة تلك النظم والقوانين ، رأينا ذلك كله ولمسناه في هذا العصر الحديث ، فلانستطيع أن ننكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ ألف عام تقريبا كانوا يستعملون وسائل الارهاب الخشني عقيدتهم ، ولا سيما أن الشيعة عامة ذاقت من العذاب والتنكيل على أيدي خصومهم ما يتحدث به كتب التاريخ .

(١) من القصيدة السابعة من ديوان المؤيد في الدين .

(٢) النكت العصرية ص ٤٥ . (٣) النكت ص ٤٨ .

كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم بمصر الى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمير هذا المبلغ الذي نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين، ففي هذا العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمرا طبيعيا لتثبيت أركان الدولة وحمايتها من أعدائها أموي الأندلس في الغرب، ومن العباسيين في الشرق، فكانت السياسة تقضى على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم، وأن يشحذوا السيف لكل من تحدته نفسه بالخروج على سلطنتهم، ولا سيما أن العباسيين وأموي الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين في نسبهم وفي عقائدهم، وحاربوا الفاطميين بالسيف طورا وبالديعة طورا آخر، فكاتبوا المحاضر في نسب الفاطميين، وطلبوا من العلماء والكتاب الطعن في عقائد الفاطميين مثل ما نراه في كتب الغزالي وغيره فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جد الجد، وأن يعتبروا كل من لم يعتقد عقيدتهم عدوا لهم، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله في سياسته، فكان حينما يقرب أهل السنة ويفدق عليهم أمواله وطورا يشتمهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن، وهو في كبل الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة أو تلك على حسب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه، فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنونا كما يصور في كتب التاريخ، وإنما كان سياسيا حازما في سياسته، يعفو في وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر، وهكذا كان الحال في سياسة الفاطميين نحو أهل السنة.

فحينما ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الاسلامية أو الذمية فهم يستخدمونهم في وظائف الدولة، ولا يتعرضون لهم بمقت ولا أذى، وقد قال القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسائرات (١) : « لما قلدى القضاء بالمنصورية رأيت قوما لم يصلوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة ورجوت أن يهديهم الله إن فتح في ذلك لعباده، فلما جاء الله من ذلك بما هياه لخلق من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم، ورمزت لهم وطارحتهم فلم أرهم يقبلون على شيء، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتم فلم يزدوا ذلك إلا تماديا في النغي وإصرارا على الجهل، فنقل على أمرهم وكرهت جانبهم وأبغضت رؤيتهم وسممت صحبتهم، فأردت الاستبدال بهم، فرفعت ذلك إلى

(١) المجالس والمسائرات ورقة ٧٣ ب ( نسخة خطية بمكتبي ) .



العز ، فوقع إلى فيهم : « أبقيهم على خدمتك فان بقي الله بهم فسعادة ساقها الله إليهم وثواب يصير اليك بما بذلته من النصيحة لهم ، وإلا فلا يمنحك جهل الحر المستنقرة من الاتفاح بها في بعض مصالحك ، ويكونون بعد كما قال الله عز وجل :  
« عاملة ناصبة تصلي ناراً حامية »

وحينا آخر كان الفاطميون يضطرون واضطرا إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشدة والعنف . حتى ولى المستنصر بالله سنة ٢٧٤ هـ فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سلطة من الخلفاء ، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد ، وأصبح الخليفة الفاطمي العوبة في أيدي وزراءه وليس له من الأمر إلا الخطبة . وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يخالف المذهب الفاطمي<sup>(١)</sup> ، هنا نرى حدة العصبية الأولى تنحف ، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل ؛ بل ذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي إلى أن يعين للبلاد أربعة قضاة ، اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة ، فالشيعة أحدهما فاطمي المذهب والآخر إمامي المذهب ؛ والسينان أحدهما شافعي والآخر مالكي . وأعطى لكل واحد السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه<sup>(٢)</sup> . وقد ذكرنا أن الوزير أبا الحسن علي بن السلار وزير الظافر كان ظاهر التسنن شافعي المذهب وهو الذي أنشأ مدرسة للشافعية بالإسكندرية وفوض أمرها إلى الحافظ السلفي<sup>(٣)</sup> ، وهكذا بدأ الضعف يدب في الدولة الفاطمية والمذهب الفاطمي نفسه ، حتى هم بعض الوزراء في مصر إلى تسيير الدعوة لابني صاحب عدن ، ويقول عمارة اليمني في ذلك : إن الداعي ابن عبد القوي والأجل الفاضل ، وشاور ، والكامل ، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء بتسيير الدعوة لولدي صاحب عدن بعد موته ، ثم قال شاور : أحضروا فلانا (يعني عمارة) وخذوا ما عنده ، ولم يبق في النوبة إلا صرما ، فلما حضرت وأعلموني منعهم وقلت : إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة ، فإذا تبرعتم بها فقد هويتم حرمتها ، فرجع الجميع عما كانوا عليه<sup>(٤)</sup>

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٠ .

(٤) النكت ص ٩٢ .

وقصة أخرى رواها عمارة أيضا تدلنا على ما بلغ اليه التهاون في عقيدة الفاطميين ، ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبي الهيثم صهر الصالح بن رزيق توضحا ومسح رجليه ولم يغسلها - على حسب عقيدة الفاطميين - فتناول عمارة الابريق وسكب الماء على رجليه ، فغذبهما وهو يضحك ، فقال عمارة : إن كان الحق معكم في مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطي ولا نعاقب على غسلها . وإن كان الحق معنا في غسل الرجلين خر جثم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض . فكان سيف الدين يقول له بعد ذلك : والله لقد أدخلت على قلبي الشك والوسواس بكلامك في مسألة الوضوء (١)

ولعل قصة محاولة إدخال عمارة النجني في الدعوة من القصص التي ترىنا أن القائمين بأمر الدولة الفاطمية في أواخر عهدها لم يأبهوا بأمر المذهب وأنهم كانوا يتسامحون مع مخالفيهم إلى حد بعيد ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن رزيق كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمي ، وأنه أدخل عددا من المسلمين في مذهبه فإنه لم يستطع أن ينجح في محاولته مع عمارة ، يقول عمارة : وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات ويأمرني بالحوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد . حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » ونهضت فخرجت فأدركني الغلبان ، فقلت : حصاة يعتادني وجعها . فتركوني وانقطعت في منزلي أياما ثلاثة ورسوله يأتي في كل يوم والطبيب معه . ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبي ، فقلت : إني لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه مامن مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه ، فضحك . وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها أبيات بخط الملك الصالح ، ومعها ثلاثة أكياس ذهب ، وفي الرقعة :

قل للفقيه عمارة يا خير من  
أضحي يؤلف خطبة وخطابا  
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى  
قل (حطة) وادخل إلينا البابا  
تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد  
إلا لدينا سنة وكتابا  
وعلى أن يعلو محلك في الورى  
وإذا شفعت إلى كنت مجابا  
وقبضت آلافا. وهن ثلاثة  
صلة وحقك لا تعد ثوابا  
فأجابه عمارة مع الرسول بهذه الآيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا  
يا خير أملاك الزمان نصابا  
لكن إذا ما أفسدت علياؤكم  
معمور معتقدى وصار خرابا  
ودعوتهم فكبرى إلى أقوالكم  
من بعد ذاك أطاعكم وأجابا  
فأشدد يدك على صفاء محبتي  
وأمتن على وسد هذا البابا<sup>(١)</sup>

ولا أدري كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين  
بالبیت الثاني من هذه المقطوعة . ولكن الأمر لم يكن أمر تعصب من الملك  
الصالح بن رزيك ، بل هو أمر تهاون بالمذهب ستمل الأمراء وغير الأمراء ، ولعل  
هذا الضعف الذى حل بالعقيدة الفاطمية هو الذى سهل الأمر لصلاح الدين  
الأيوبى فى أن يقوض أركان الدولة المتداعية وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل السنة  
والجماعة ، وقبل الناس منه ذلك ، فتحولت مصر بعد عشية وضحاها من شيعية  
إلى سنية . لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة فى نفوس المصريين ، وأن الذين  
اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها ، فسهل على الأيوبيين أن ينتزعوها منهم .

## الفصل الثالث

### التاريخ والسير

رأينا في عصر الولاية بمصر (١) كيف أسهم المصريون في تدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة ، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا في العصر الذي سبق العصر الفاطمي ، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعمار بن وسيمة المصري ، وابن يونس والكسندى وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمي ، فظهر عدد كبير من المؤرخين ، وحفظت لنا أسماء مؤلفاتهم ، وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة في كتب التواريخ ، ففي كتب المقرئى وأبي المحاسن بن تغرى بردى والسيوطى وابن فضل الله العمري والنويرى والقلقشندي مقتبسات كثيرة من الكتب التي وضعها مؤرخو مصر الفاطمية ، وهذه المقتطفات تدلنا على أن مؤرخي مصر في العصر الفاطمي كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر ، فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر ، وإن كان منها ما كتب في التاريخ العام .

فن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر ، أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني ، ولد بمصر في ذي الحجة سنة ٣٢٧ هـ ، وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبري وروى عنه تصانيفه ، وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبري وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه ، وكتاب سيرة كافور الأخشيدى ، وسيرة العزيز بالله الفاطمي ، وكان مقامه بمصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٩٨ هـ (٢) .

#### ابن زولاق :

وشهد هذا العصر المؤرخ المصري الكبير الذي أخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر ، ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثي المصري المعروف بابن زولاق ، فقد كان من أعيان علماء مصر ولد سنة ست

(١) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ( من مطبوعات دار الفكر العربي ) .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ١٠٥

وثلاثائة ، وروى الحديث ، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان وغيره ، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندي وابن قديد وابن الداية ، يقول ابن زولاق : كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب ( أى ابن الداية ) قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ، وانتشرا في الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه مع غيرهما من مصنفاته . ثم عملت أنا ما فاتته من سيرتهما (١) .

وكان ابن زولاق من فرط حبه لرواية التاريخ كثيراً ما ينشد :  
مازلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً (٢)  
وصنف ابن زولاق عدة كتب منها سيرة محمد بن طعج الأخشيد ، وكتاب أخبار سيويوه المصري ، وكتاب سيرة المادرائين — وقد طبعت هذه الكتب كلها . وكتاب فضائل مصر ( منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار الكتب المصرية وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس ) وكتاب سيرة كافور ، وكتاب سيرة جوهر ، وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز . وكتاب التاريخ الكبير على السنين ، وله تذييل على كتاب الولاة للكندي وآخر على كتاب القضاة للكندي أيضاً . وكتاب خطط مصر ، وأكثر هذه الكتب فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة في الكتب . وإذا نظرنا إلى الكتب التي حفظت إلى الآن ترى ابن زولاق يدون ماسمعه من الثقات العدول من معاصريه أو ماشاهده بنفسه من أحداث ، فهي سجلات حوادث يتلو بعضها بعضها دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى ، فالكتب ليست بكتب تاريخ على النحو الذي نفهمه الآن من كتب التاريخ ، بل هي أشبه شيء بجرائد الأخبار في عصرنا الحديث . وإن كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث التي حدثت في عصر ملك من الملوك ، ولم تقسم الكتب إلى أبواب وفصول ، بل هي كما قلت مجرد سرد للحوادث ، كما أن أكثرها ليس مرتباً على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التي ذكرها ، فقد تجد حادثة في أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التي جاءت بعدها ، ومهما يكن من شيء فقد كان تأليف كتب السير في ذلك العصر على هذا النحو الذي نراه في كتب ابن زولاق ، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدراً هاماً من المصادر

(١) المغرب في حلى المغرب ص ٤ .

(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر في رثاء أبي سعيد عبد الرحمن بن

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٤٧ هـ .

التي اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده . فابن خلكان ، والنويري ، وابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وابن دقاق ، وأبو المحاسن ، وياقوت ، والقلقشندي ، والعمرى وغيرهم نقلوا كثيرا من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق . وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » ، مما يدل على قيمة كتبه وأخباره ، ولا غرو في ذلك فقد كان محدثا ، والمفروض في المحدث أن يكون صدوقا فيما يرويهِ ، وقد تكون ميزة ابن زولاق الكبرى هي صدق أخباره ، حتى عرف بذلك بين معاصريه أنفسهم ، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة في نفوسهم ، وقد ذكرنا قصته مع الوزير يعقوب بن كلثوم . وتوفي ابن زولاق في عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلثمائة من الهجرة (١) .

### المسبحي :

ومن مؤرخي هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم ، المؤرخ الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم عميد الله بن أحمد المعروف بالمسبحي ، الحراني الأصل ، المصري المولد والنشأة ، ولد في رجب سنة ست وستين وثلثمائة ، واتصل في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله في زمرة جنده ، وما زال يرقى في مراتب الجندية حتى صار أميراً على إقليم البنسنا والقيس من أعمال صعيد مصر ، ثم ولي ديوان الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذاكرات أودعها كتابه « التاريخ الكبير » ، الذي وصفه بقوله : التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ، وهو أخبار مصر ، ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما به من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاء والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم . وهو في ثلاثة عشر ألف ورقة . ويدلنا هذا النص على أن المسبحي لم يهتم بالتاريخ السياسي فحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، ومن المؤلم حقا أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم ، ولم يبق منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة في كتب التاريخ ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

لم يكن الأمير المسبحي مؤرخا فحسب ، بل كان أديبا له ذوق فني واطلاع

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ ومجمع الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ .

واسع في ميدان الأدب ، وألف في ذلك الميدان كتباً كثيرة منها « كتاب التلويح والتصریح » في معاني الشعر ، وكتاب « الشجن والسكن » في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ، وكتاب « جونة الماشطة » يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وكتاب « الراح والارتياح » في وصف الشراب وآلاته والندام عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الزهور والرياض والثمار والأشجار . وكتاب الفرق والشرق ، وكتاب مختار الأغاني ومعانيها وكتاب المفاتيح والمناكحة في أصناف الجماع ، وكتاب الطعام والإدام في صفة أنواع الطعام وما يقدم على الخوان ، وكتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمنتبين وذكر الفرائض والآداب ، وكتاب الجوعان والعريان ، وكتاب القران والتمام . وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان شاعراً رقيق العاطفة دقيق الحس ، فمن شعره في رثاء أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تقطعا      وفادحة لم تبق للعين مدمعا  
أصبراً وقد حل الزرى من أوده      فله هم ما أشد وأوجعا  
فيا ليتني لبوت قد مت قبلها      وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وانظر إليه وهو يرثى والده سنة . . ٤٤ هـ :

خطب ألم من الزمان عظيم      فالدمع سح للهباب سجوم  
خطب يقل له البكاء وينطوى      عنه العزاء ويظهر المكثوم  
خطب يميت من الصدور قلوبها      أسفا ، ويقعد ثأره ويقيم  
يادهر : قد أنشبت في محالبا      بالأسودين لوقعهن كلوم  
يادهر : قد ألستني حلال الآسى      مذ حل شخص في التراب كريم  
لو كنت تقبل فدية لفديت من      رضت عظامي فيه وهو رميم  
يا من يلوم إذا رآني جازعا      من طارق الحدثان . فيم تلوم  
بأبي فجت فأى نكل مثله      نكل الأبوة في الشباب أليم  
قد كنت أجزع أن يل به الأذى      أو يعتريه من الزمان هموم

وبجانب هذه النفحة الأدبية كان المسيحي يلم بالنجامة . وله في ذلك كتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم . من هذا كله نستطيع أن ندرك أن المسيحي كان من أركان الحركة العلوية والأدبية في مصر الفاطمية . وقد استفاد

منه المؤرخون الذين جاءوا بعده . فاقتبسوا من مؤلفاته لقبوه بمؤرخ الفاطميين  
وتوفى المسيحي سنة عشرين وأربعمائة ، ورتناه جماعة من شعراء عصره ؛ ذكرهم  
ولده في تاريخه وذكر مرثيتهم (١)

### القضاعي :

ومن المؤرخين النابهين في هذا العصر ؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر  
القضاعي ، تفقه على مذهب الشافعي ، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء  
ثم اتصل بالوزير الجرجاني فجعله الوزير كاتب علامته ؛ ثم عمل في ديوان  
الإنشاء ، وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ رسولا من قبلهم  
إلى الامبراطورة ثيودورا لإصلاح ما فسد من العلاقات بين المصريين والبيزنطيين  
ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصداقة المصريين إذ ذاك وفضلوا أن يتحالفوا  
مع طغرليك التركي (٢) ؛ ولما عاد القاضي القضاعي من هذه السفارة اتخذه الوزير  
اليازوري كاتباً لإنشائه وعلامته . وهكذا كان مقدما عند الفاطميين بالرغم من  
تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم . ألف القضاعي كتبا كثيرة نذكر منها كتابه  
في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب ، وكتاب الأنباء عن الأنبياء  
وتواريخ الخلفاء ؛ وكتاب خطط مصر ؛ وقد وهم المقرئ حين قال (٣) : إن أول  
من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها في ديوان جمعه ، هو أبو عمر محمد  
ابن يوسف الكندي ، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي  
كتابه المنعوت بالختار في ذكر الخطط والآثار . ومات في سنة سبع وخمسين  
وأربعمائة قبل سني الشدة ، فذكر أكثر ما ذكر ، فإن أول من تحدث من مؤرخي  
مصر عن الخطط هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر (٤)  
وتبعه المؤرخون بعده .

والقاضي القضاعي كان أستاذاً مدرسة في رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير  
من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال السعدي النحوي المولود سنة ٤٢٠ هـ

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥١٥ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧١ — المغرب  
ص ٩٦ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) راجع ذلك بالتفصيل في السيرة المؤيدية ونجد شيئا من ذلك في أخبار مصر لابن بدير

(٣) الخطط ج ١ ص ٦ (٤) راجع كتاب « في أدب مصر الإسلامية » .



صاحب كتاب خطط مصر<sup>(١)</sup> . وكان ابن بركات نحوياً لغويًا وله في هذه العلوم كتاب الإيجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ ألفه للأفضل بن بدر الجمالي ، وله تصانيف في النحو حتى قيل إنه بحر العلوم . وعنه روى الحافظ السلطاني والبوصيري صاحب البردة وأبو الميمون عبد الوهاب المالكي وهبة الله ابن صدقة المعروف بأبي الرداد وغيرهم ، وتوفي ابن بركات سنة ٥٢٠ هـ .

ومن روى عن القضاعي أبو عبد الله الحميدي والخطيب أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، فقد قابل القضاعي في الحج سنة ٤٤٥ هـ . وروى عنه . وهكذا كان أثر القضاعي في معاصريه ، كما أن الذين جاءوا بعده نقلوا كثيراً من رواياته ، واقتبسوا من أقواله ، وتوفي القضاعي سنة ٤٥٧ هـ<sup>(٢)</sup> .  
ومن المؤرخين في أواخر العصر الفاطمي ابن المأمون البطاحي ، وكان والده وزيراً الأمر بأحكام الله ، ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه . ولكن المقرئ أقتبس كثيراً من كتاباته في مواضع متفرقة .

### فن السير :

أما فن السير وهو ذلك الفن الذي يعد من فنون التاريخ ، فقد كان له شأن كبير في الحياة الفكرية في مصر الإسلامية ، ذلك أن كتاب مصر وعلماؤها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم ، وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية في مصر في القرن الثاني للهجرة<sup>(٣)</sup> وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبي الجيش ، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز وسيرة سيديويه المصري ، وكتب القاضي النعمان سيرة المعز لدين الله ، وكتب محمد بن محمد اليماني سيرة جعفر الحاجب ، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل ما وصل إلينا في فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماماً خاصاً ، نراه بمثلا فيما تركته مصر

(١) بغية الوعاة ص ٢٤ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٤ : وابن ميسر ص ١٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧

وطبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ .

(٣) راجع كتاب ٥ في أدب مصر الإسلامية ٤ .

الفرعونية من سيرملوكها وأمرائها منقوشا على جدران المعابد والمقابر أو مسطراً على ورق البردى ، ونراه في مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقوهم من الآباء والقديسين . وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتابعة في فن السير ، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة ، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين .

وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيراً عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السيرة في اجتماعاته ومغانيه ، مثل سيرة عنتر بن شداد وسيرة الهلالية . وستحدث عن ذلك فيما بعد . وقد حصلنا أخيراً على مخطوطين في فن السير ، الأول «سيرة الأستاذ جوذر» والثاني «سيرة المؤيد في الدين» .

### سيرة الأستاذ جوذر<sup>(١)</sup>

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، وهو الأستاذ جوذر الصقلي ، مع ما كان له من مكانة رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر ، ومع ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين ، يحدثنا هذا الكتاب عن دخول جوذر في خدمة المهدي بالله الفاطمي ، وأن المهدي أهدى هذا الغلام إلى ولي العهد القائم بأمر الله ، وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيدته ، حتى إن القائم — وكان لا يزال ولي العهد — عند ما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ استخلف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما توفي المهدي بالله سنة ٣٢٢ هـ خسر القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبته الاستبداد لولي عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملائ ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال ووكيل بخزائن الكساء كما كان سفيرا بين الخليفة وسائر الناس .

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى في هذه الدولة الناشئة فها به الناس ، وحببه للخير وعظّمه على الشعب أحبه الناس . وتر في القائم بعد ذلك

(١) هو الذي تمت إليه عطفه وحرارة وشارع الجوزرية بفنم الدرب لأهـ بالعامرة .

ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر ، وخرج  
لحرب الخارجين عليه مستخلفاً جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسله مفاتيح  
خزائن الأموال ، ولما عاد من حروبه أعلن موت القائم وكافأ جوذر على خدماته  
فأعتقه ولقبه « مول أمير المؤمنين » وأمره ألا يكنى في رسائله أحداً ولا يقدم  
على اسمه اسماً إلا الخليفة وولي العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس  
الخليفة وولي عهده ، وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إمعاناً في  
تشريفه ، وفي خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه ، إلى أن فتحت مصر  
وأراد المعز أن يسير إليها ، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيثول إلى جوذر  
ولكن جوذر أبى أن ينفارق إمامه فسار معه إلى مصر ولكنه توفى بالقرب من  
مدينة برقة في مكان يعرف بمياسر سنة ٦٣٢ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة  
الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى في هذه الدولة منذ نشأتها ، وإنما يوضح هذا  
الكتاب بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا  
سريعا ، ففي الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب  
قيام الدولة الفاطمية وكادت تقوض أركان تلك الدولة ، كما يطلعنا على العلاقة  
بين الفاطميين وصقلية ، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة  
ومن قرصان البحر ، ويظهر سبب الجفاء الذي كان بين المنصور وبين بني عمومه  
من أولاد المهدي ، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد في تأديبهم ورصد حركاتهم .  
أضف إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية  
فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التي خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر  
ورسائل اليهما ، وقد بلغ عددها في هذا الكتاب نحو المائة ، فالكتاب أشبه  
بديوان توقيعات للفاطميين ، ولا أكاد أعرف كتابا جمع توقيعات الفاطميين سوى  
هذا الكتاب وكتاب المجالس والمسائرات للقاضي النعمان الذي جمع فيه مصنفه  
بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذي جمع فيه رسائل  
المستنصر إلى الصليحيين باليمن ، وأجد في سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور  
بالله ، وخطبة المنصور في نعي القائم ، وخطبة المعز في نعي المنصور ، وهكذا  
نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية  
والاجتماعية في العصر الفاطمي بالمغرب .

أما مصنف هذه السيرة فهو رجل مضمور لا نكاد نعرف عنه إلا أنه منصور الجوذري العزبي ، وأنه دخل في خدمة الأستاذ جوذر كاتباً له سنة ٥٣٥ هـ وأصبح موضع سره ، وظل في عمله إلى أن توفى جوذر فأتصل بالمعز فالعزبي . ويتضح من كلامه أن العزبي جعله في مرتبة رفيعة هي نفس المرتبة التي كان فيها جوذر ، ويضيف المقربي أن أبا علي منصوراً الجوذري زادت مكانته في عهد الحاكم بأمر الله ، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك (١) .

هذا كل ما نعرفه عن واضع هذه السيرة ، ونستدل من هذه السيرة أنها صُنفت في عهد العزبي بالله الذي ولي سنة ٣٦٥ هـ وتوفى سنة ٥٣٦٨ هـ ، ولكننا لانستطيع أن نحدد السنة التي ألفت فيها (٢) ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب قريباً .

### السيرة المؤيدة :

لا أكاد أعرف كاتباً من كتاب المسلمين ، سبق المؤيد في الديرة بالله الشيرازي داعي الدعوة — الذي تحدثنا عنه من قبل — في تصنيف كتاب خاص لسيرته . فقد ترجم لنفسه في هذا الكتاب ، بفصل من تاريخ حياته ، أي من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع هذا الكتاب بعض رسائله ومناظراته العلمية المذهبية ، ولما كان المؤيد من أسهم في الحياة السياسية في هذه الفترة فهو يوضح جهوده وحركاته وسكناته منذ كان في بلاط أبي كاليجار البويهسي بفارس ، فوصف المؤيد حياته في هذه البلاد ، كما وصف هذه الحياة التي كان يحياها السلطان مع الندماء وصلة السلطان بالعباسيين ، وكان المؤيد متصلاً برجال المستنصر الفاطمي من وزراء وكتاب ودعاة ، فاضطر إلى أن يتحدث عن شيء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب ، وأسرار وزراء مصر في ذلك العصر ، وذهب المؤيد لمؤازرة البساسيري في العراق واجتمع بعدد كبير من أمراء العرب والأتراك والأكراد فتحدث عن هذه الحركة السياسية التي كادت تقوض أركان العباسيين ، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد بحسب ، بل هو مصدر هام للحياة السياسي والاجتماعية في القرن

(١) خطط المقربي ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الكتاب في مجلة الكتاب المصري المجلد الثامن عدد ٢١

(أبريل سنة ١٩٤٨) .

الخامس الهجري، لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه. والكتاب قيم جدا في دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرين التي كان بها أحداث وخطوب، وكان لها أثر قوي في مجرى الحياة الإسلامية عامة، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه (١) فهو في متناول القراء الآن.

وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية في مصر الفاطمية كما كانت قوية قبل عصر الفاطميين، وكما كانت قوية بعد عصر الفاطميين، ففن التاريخ وروايته من الفنون التي ازدهرت في مصر في عصورها المختلفة، شغف به المصريون فأكثرُوا من روايته وتدوينه.

### خاتمة القول في الحياة العقلية

قلنا إن العقائد الفاطمية كانت ميداناً فسيحاً للعقل، وإن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية في وقت كانت فيه هذه الدراسات موضع هجمات عنيفة في الأقطار الإسلامية الأخرى، بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ويصبغون هذه الآراء والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التي بشروا بها، فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفي الأخذ عن القديم، والاجتهاد في المذهب، ما لا تراهم عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة في الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة، فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية، ومجالس حكمتهم، كانت تدور قبل كل شيء حول صاحب النص المعصوم وتثبيت إقامته وإظهار الإمام ظهر الجلال والقدسية، فكان الفاطميين في مصر قد أعادوا إليها شيئاً من الحياة الفكرية التي كانت بالاسكندرية منذ عهد بطليموس، إذ كان أهم الدراسات بالاسكندرية استرضاء الحكام وإشباع غرورهم بيسناد الفضائل كلها اليهم وإلى أجدادهم، بيد أن دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم فأدخلوا في الدين ما وصلت إليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات وآراء هرمس الحرائي وغيرها من الآراء القديمة، وذلك كله لإشباع الفضائل كلها على الأئمة من أهل البيت، فكانهم قالوا بحرية

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة (من مطبوعات دار الكتاب المصري).

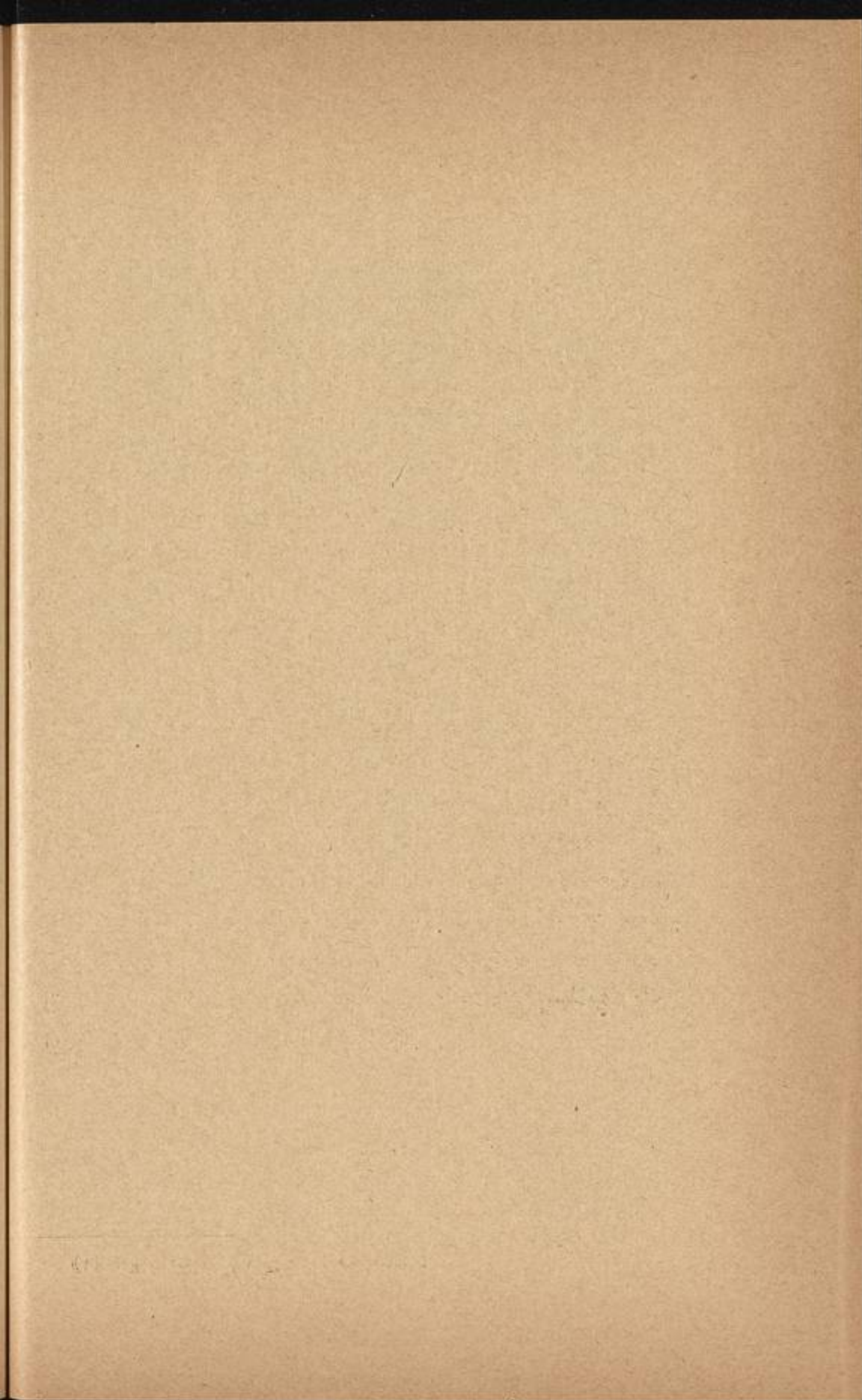
الفكر الى أبعد مدى هذه الحرية ، ولكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة . وكانت هذه الحرية الفكرية سببا في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر وظهور عدد كبير من الفلاسفة على نحو ما ذكرنا من قبل ، ولكن هذه الدراسات الفلسفية كانت في أغلبها تتبع عقائد الفاطميين ، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد مثلا كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان ، ويغلب على ظني أن الفاطميين لو لم يدينوا بروية الهلال رؤية استبصار وعلم لما ازدهرت هذه الألوان من الدراسات .

وربما أن مصر الفاطمية شاهدت دراسات أدبية عربية ، ولكننا نلاحظ أن هذه الدراسات كانت مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق عليها دون أن تنتج مصر شيئا جديدا ، وهذا ما كان أيضا في مصر إبان ازدهار مدرسة الاسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعرهوميروس ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم ، دون أن يكون للدراسات الوجدانية أثر قوى في هذه الدراسات التي قوى فيها عمل العقل والآراء العلمية أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التي تستوحى من نفسية الشعب ، ولذلك تتفق الدراسات الأدبية في العصر الاسكندري مع العصر الفاطمي في أن هذه الدراسات لا تظهر فيها شخصية مصر ، وكذلك في المزوجة بين الدراسات الأدبية الخالصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتعبيراتها ، ومن هنا نرى سبب هذا التعقيد في أسلوب الدعاة والعلماء ، حتى يخيل إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن التعبيرات الأدبية التي تتمثل فيها البساطة والذوق الموسيقي والعاطفي في اللفظ والمعنى . ولكن الدعاة والعلماء في العصر الفاطمي حشوا كتاباتهم بالتعبيرات الفلسفية ، واستعملوا مصطلحات اضطروا أن ينحتوها من ألفاظ عربية ، وأن يتلاعبوا بقواعد الصرف المعروفة لجاءت كتاباتهم غريبة عن الأسلوب العربي . حقيقة حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستعيدوا الأسلوب الأدبي وأن يتعدوا عن تعقيدات الفلاسفة ، ولكنهم وجدوا مشقة في تعبيرهم ، وصعوبة في صناعتهم ، فاضطروا إلى استخدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليفتتوا الجماهير بالزينة اللفظية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيدا ليقعوا في تعقيد آخر ، وهذه الشروح والحاشيات التي وضعت حول النصوص القديمة احتاجت هي نفسها فيما بعد إلى شروح وحواش أخرى لتوضيحها وتقريبها إلى المعلمين ، وهكذا

كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلية على الأساليب العربية .  
على أن هذه الظاهرة لم تكن في مصر فحسب ، بل كانت في جميع الأقطار  
الإسلامية منذ عرفت هذه الأقطار هذه العلوم التي عرفت بالعلوم الدخيلة ، ومنذ  
أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن آرائهم ودخض  
رأى خصومهم ، ومن يدري لعل هؤلاء العلماء تعمدوا تعقيد أسلوبهم حتى يقال  
عنهم إنهم علماء ، وهاهو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعمدوا التعقيد فيقول :  
« قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة  
كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص  
وتؤخر بعض المفهوم ؟ فأجاب : أنا رجل لم أصنع كتبتي هذه لله ، وليست هي من  
كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجات الناس إلى  
فيها . وإنما كانت غايتي المنالة ، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم  
حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت في هذا التدبير ، إذ  
كنت إلى التمسك ذهبت » (١) .

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو  
مطردي في كل نواحيها وألوانها وفنونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت  
حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة والفسطاط وفي الإسكندرية  
وتنيس في الشمال وفي أسوان وقوص وقفت في الجنوب ، كما كان أمراء الأقاليم  
يجمعون حولهم العلماء والشعراء ، وهاهو ذا عمارة اليمن يحدثنا في « النكت » عن  
بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم ، فالحياة العلمية كانت مزدهرة ،  
في مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق ، فلا غرو  
إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية ، تلك  
الزعامة التي لا تزال مصر تحمل لواها إلى الآن .

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٥ : ( طبعة الماسي ) .





# الكتابُ الثاني

في الحياة الأدبية

1000

# الباب الأول

في الشعر

## الفصل الأول

ازدهار الشعر

عرف الفاطميون ببراء دولتهم ، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتنوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم ، حتى يخيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادا ومواسم ، وكلها لهوا ومرحا . بالرغم مما كان في هذا العصر من سنى شدة وقحط ضرب بها المثل ، ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعيادا بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين ، والأعياد التي يحييها مسيحيو مصر ويشترك معهم فيها إخوانهم المسلمون . فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق المحون وارتكاب المعاصي ، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالا يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم ، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لونا من ألوان التنافس السياسي بينهم وبين أعدائهم ، فيقف أعداؤهم على هذه الحياة البهيجة الفرحة ، والنفقات الطائلة ، فيعلون أنهم أمام دولة قوية غنية ، فتضعف هممتهم عن مهاجمتها ، أما هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر فقد روى المقرئ بنى عن ابن الطوير المؤرخ أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد على بن أبي طالب ، ومولد فاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر (١)

وفي فصل آخر من خطط المقرئ بنى تحدث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم ، فقال : وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم ، وهى : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ومولد

النبي (ص) ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسماط رمضان وليلة الحتم . وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاص ويوم الميلاد وخميس العدس<sup>(١)</sup> وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة وفي جامع الحاكم مرة وفي جامع عمرو بن العاص مرة ، وينال الناس من الخليفة في هذه الجمع الثلاث رسوما وهبات وصدقات<sup>(٢)</sup> . وأضاف أيضا أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبت وثلاثاء إلى متزهاته بالبساتين والمناظر التي بنوها لزهاتهم<sup>(٣)</sup> ويوم سفر الحاج<sup>(٤)</sup> وركوب الخليفة في أول شهر رمضان<sup>(٥)</sup> وتحدث المقرئ كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهرى رجب وشعبان وليلى النصف منهما<sup>(٦)</sup> فكل هذه الأيام التي كلن يحتفل بها الفاطميون . سواء أكانت أيام حزن مثل عاشوراء أو أيام فرح تمد فيها السمت الفاخرة ، وينفق فيها عن بذخ وإسراف ويصيب رجال الدولة وكل من يتصل بالقصر من النعم والخلع ، كل بما يتناسب مع مكانته ، وينال الشعب الذي يشارك أمرؤه في أفراحهم وأحزانهم حظا مما كان يفدقه الخلفاء والأمراء عليه ، فإذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التي استنها الفاطميون ، وقد يطول في الحديث لو توخيت وصف هذه الحفلات الكثيرة ، وأكتفي هنا بأن أعطى صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم نقلا عن المقرئ عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون في وصف موسم أول العام :

وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وبادر المستخدمون في الخزان وصناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة ، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات ، وجميع الأستاذين العوالى والأدوان ، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته ، واستاذنوا على تفرقة ما يختص

(٢) المخطوط ج ٢ ص ٣٨٢

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٨

(٦) ج ٢ ص ٣٤٥

(١) المخطوط ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها

(٣) المصدر السابق

(٥) ج ٢ ص ٣٨٦

بالأجل المأمون وأولاده واخوته واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشي والأمراء والضيوف والأجناد ، فأمروا بتفرقة ، والذي اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كن قبلها ، وجلس المأمون باكرأ على السباط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية ، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات العساكر ، وترتيب الأسمطة ، وأحمد كل منهم إلى شغله ، وتوجه لخدمته ، ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب ، وقد نشرت مظلمته وخدمت الرجحية ورتب الموكب والجناث ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصياف والصابغة والبزازين وغيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعايشه لطلب البركة بنظر الخليفة . وخرج من باب الفتوح ، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزياها ، وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تعم المساكين ، والرسوم تفرق على المستقرين ، إلى أن دخل من باب الذهب . فلقبه المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص ، وغير ثياب الموكب بغيرها . وتوجه إلى تربة آباءه للترحم على عادته ، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة ، وعبيت الأسمطة وجرى الحال فيها وفي جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهية قصور الخلافة وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال في الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها ، وكذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعادت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود ، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق ، ويحمل إلى الحرميين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل إلى الثغور ، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويبيع في الثغور والبلاد .. الخ (١)

هذه صورة ما نقله المقرئ عن المؤرخين المعاصرين عما كان يجري تحت  
بصرهم وسمعتهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون ،  
ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تبين أعياد الخلفاء والأمراء ورجال  
القصر فحسب ، بل كانت أعياد الشعب أيضا بما كان يقدم فيها من الصدقات  
والسمط ، فإذا الشعب يشارك الحاكمين ، ويناله شيء من بذخ الفاطميين ، فإذا  
هو في فرح وبشر ، ولا يكاد يمضي عيد حتى يلحقه آخر .

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم ، ويتناثسون في  
الإجادة والإتقان ، وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في  
الدول الأخرى ، فلا غرابة إن قلنا إن هذه الأعياد والموااسم كانت من دوافع  
ازدهار الشعر في العصر الفاطمي ، وموضوعا من موضوعاته ، حتى إن عمارة النجني  
في قصيدته التي رثا بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد  
والموااسم فقال :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| أبكي على ما تراءت من مكارمكم   | حال الزمان عليها وهي لم تحل   |
| دار الضيافة كانت أنس واندمكم   | واليوم أوحش من رسم ومن ظل     |
| وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم    | تشكو من الدهر حيفا غير محتمل  |
| وكسوة الناس في الفصلين قد درست | ورث منها جديد عندهم وبل       |
| وموسم كان في يوم الخليج لكم    | يأتي تجملكم فيه على الجمل     |
| وأول العام والعيدين كم لكم     | فيهن من وبل جو دليس بالوشل    |
| والأرض تهتز في يوم الغدير كما  | يهتز ما بين قصركم من الأسل    |
| والخيل تعرض في وشى وفي شية     | مثل العرائس في حل وفي حلل (١) |

ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر عمارة النجني لحفلات وأعياد الفاطميين  
تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغني .

وليست الأعياد والموااسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في  
الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية ، ولسكننا نرى الفاطميين يكثرون من المباني  
والمنشآت التي أقاموها في البلاد ، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر وإكثار

(١) خطب المقرئ ج ٢ ص ٣٩٣ .

منها من الأدلة التي نستطيع أن نقدمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة ، فهذه البساتين التي جملوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها ، لم تتخذ متنزها لهم فقط دون غيرهم من الرعية ، بل أباحوا للناس دخولها والتمتع بمناظرها وجوها ، فأوجد ذلك عند المصريين لونا من ألوان الحياة الناضرة البيجة ، وسمت النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معا . ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يتمصفون ويظهرون ، ويعمون بحال الرياض وأريج الزهور ، وكان الشعراء يتصدون هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر ويتبارون في الإنشاد ، يستوحون من جمال الزهر والطبيعة وحن شعرهم ، فإذا صح مارواه القدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستهام الشعر ، فكذلك خرج شعراء مصر إلى البساتين يتغنون ببدايع الطبيعة ، فكانت هذه المتنزهات والبساتين التي أكثر منها الفاطميون مصدرا خصبا لكثير من الشعر المصري في العصر الفاطمي .

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف ، وكان سكان مصر على حظ من الثراء والغنى يحسدهم عليه العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطانهم ، وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب بما يملكون من مال ومتاع ورقية ، بما كان يحمله إليهم الدعاة من مال الخنس<sup>(١)</sup> وأموال التجوى ، ومن هدايا الأمراء في المشرق ، وكان الوزراء يشبهون بالأئمة في الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعة راقن الشعب في التشبه بأمراءهم وحكامهم ، فظهروا بمظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أبهجها ومن الزينة واللباس أزهاها ، وأكثروا من اقتناء الرقية والقيان ، وإقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب ، حتى خيل إلينا أن حياة المصريين كانت حياة لهو وقصف وسماع غناء وألحان ، فكان ذلك كله وحيا للشعراء بالتقريب .

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أن القائم على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها ، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا تدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام ، واصطنعوا

(١) راجع كتاب الأئمة في آداب اتباع الأئمة ( من مطبوعات دار الفكر العربي ) .

كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء ، وكان الفاطميون على قدرة  
وكياسة في فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم  
وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي ولأحزاب السياسية والفرق الإسلامية  
بعد ظهور الإسلام ، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان بن أبي  
حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحق وغيرهما أدخلوا في شعرهم بعض الآراء  
الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين ، فلم يشأ الفاطميون  
أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشهروه على خصومهم ، أو أن يستخدموه في  
الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم ، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين  
يبدلون العطاء الضخم الجسم لشعراء دولتهم ، ويجعلون لبعض الشعراء مراتب  
شهرية ، وينقل المقرئزي عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين  
ديناراً إلى عشرة دنانير<sup>(١)</sup> ويروى أيضاً أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم  
المطلق للتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم<sup>(٢)</sup>  
ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب  
خاصة غير ما كان يعطى لهم شهرياً . ومحدثنا المقرئزي مرة أخرى في كلامه عن  
بركة الحديث أنه كان بها طاقات ، وعليها صور الشعراء . كل شاعر واسمه وبلده  
وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر  
الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الأمر  
بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة محتومة  
فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده<sup>(٣)</sup> .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن  
يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متزهات عامة ، بما يدل دلالة قاطعه  
على تمجيد لفن الشعر والشعراء ، فأين نحن الآن من مصر في العصر الفاطمي ؟ !  
ويذكر العماد في الحريرة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفه  
ومقدم الشعراء ، ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو

(٢) المخطوط ج ٢ ص ٢٩٠ .

(١) خطط المقرئزي ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٣) المخطوط ج ١ ص ٤٨٦ .



الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن حريز<sup>(١)</sup>. وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يقدن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرا جيدا في مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة النخعي أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار<sup>(٢)</sup> ، وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فإغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الاكثار من الإنشاد ، فكثرت الشعراء وكثرت إناجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه الأئمة واستبد الوزراء بالملك فقد طلب إلى الشاعر أبي عبدالله مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك ، فسأل أن يجري له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء ، فزيد نصف دينار ، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالي سنة ٥٥٤ هـ بقوله :

|                             |                                           |
|-----------------------------|-------------------------------------------|
| جرى الحديث فقالوا كل ذي أدب | أضحت له خمسة تجرى بمقدار                  |
| بأى فضل حواه ابن المسلم من  | دون الجماعة حتى زيد في الجارى             |
| أجروا له خمسة عن حق سيرته   | فقال : لا تنقصوني حق أشعاري               |
| نادوا عليه وسوق الشعر نافقة | فلم يزد قدرها عن نصف دينار <sup>(٣)</sup> |

وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء في تثبيت أركان دولتهم حتى في وقت ضعف سلطانهم .

### شعر الأئمة :

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التي تجب العناية بها ويقدرها كل من نال حظا من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس ، بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين من

(٢) النكت ص ٣٤

(١) الحريدة ورقة ١٠٢

(٣) الحريدة ورقة ١٠٢

كان ينشد الشعر ، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبان  
غزواته ، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للمنصور بالله ، منها :

تبدلت بعد الزعفران وطيبه      صدا الدرع من مستحكات السوامر  
ألم ترني بعث المقامة بالسرى      ولين الحشايا بالخيل الضوامر  
وفتيان صدق لاضغائن بينهم      يثورون ثورات الأسود الخوادر  
أروني قتي يغني غنائى ومشهدى      إذا رهج الوادى لوقع الحوافر  
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد      بسيفي أقد الهام تحت المغافر (١)

ومن شعر المنصور بالله أيضاً يخاطب ابنه وولى عهده المعز لدين الله :

كتابي إليك من أقصى الغروب      وشوقى شديد عريض طويل  
أجوب القفار وأطوى الرمال      وأحمل نفسي على كل هول  
أريد بذاك رضا الإله      وإعزاز دولة آل الرسول  
إلى أن برى السير أجسامنا      وكلّ الركب وتاه الدليل  
فواغربتاه وواوحشتاه      وفي الله هذا قليل قليل  
وما ضقت ذرعاً ولكنى      نهضت بقلب صبور حمول  
وقد منّ ذو العرش من فضله      بفتح مبين وعز جليل  
وفي كل يوم من الله لى      عطاء جديد وصنع جميل  
فله حمد على ما قضى      وحسبي ربي ونعم الوكيل (٢)

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة  
الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادى منها إلى فن الشعر ، فالمقطوعة الأولى  
من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسى ملك ناصية الفن في اللفظ  
والمعنى ، فهو يختار اللفظ الذى يتلاءم في موسيقاه مع المعنى الذى يقصده الشاعر  
فيلد الأذن والعقل معاً ، ولكن القطعة الثانية فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها  
يعبث حين يدعى أنه يقول شعراً .

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً ، وينسب إليه هذه الأبيات :

(١) سيرة الأستاذ جوذر ( نسخة خطية بمكتبتي ) .

(٢) المصدر السابق .

الله ما صنعت بنا تلك المهاجر في المعاجر  
أمضى وأقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر  
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر (١)

فهذه الآيات إن دلت على شيء، فهي تدل قبل كل شيء، على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد فتن بهذه الملازمة اللفظية بين «المهاجر» و«المعاجر»، وبين «أمضى»، و«أقضى»، وبين «الشناجر»، و«الشناجر»، وبين «المهاجر»، و«الهواجر»، ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الآيات فإن خيال الشاعر كان قويا في تعبيره عما تفعله العيون التي تحتني تحت المهاجر ولكنها تصيب هدفها، وتفعل في النفوس أكثر مما تفعله الخناجر في الخناجر.

وكذلك ينسب القدماء إلى المعز لدين الله هذه الآيات :

أطلع الحسن من جبينك شمسا فوق ورد في وجنتيك أطلا  
وكان الجمال خاف على الور د جفا ففد بالشعر ظل (٢)

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن، فهو يصف جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحببة إلى النفس فهي كالورد المتفتح قد غمرته الشمس، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور، نخشى أن يذبل الورد من حرارة الشمس فظللته بمخضلة من شعر الحبيب، فالصورة هنا لا شك جميلة، ولا غرو أن رأينا القدماء قد فتنوا بها حتى قال ابن خلكان: «إن هذا معنى غريب بديع» (٣). ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الآيات إلى المعز لدين الله كما روى ابن خلكان، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي الفحل إذ ورد في الخريدة أن ظافراً قال :

أطلع الشمس من جبينك بدر فوق ورد من وجنتيك أطلا  
فكان العذار خاف على الور د جفا ففد بالشعر ظل (٤)

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣ (٣) نفس المصدر السابق

(٤) الخريدة ورقة (٨٧ ب)

لست أدري لمن أنسب البيتين ، فربما حاكى ظافر الإمام المعز فأخذهما عنه  
بعد أن غير بعض الألفاظ ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيتين إلى المعز عندما  
أرادوا إثبات شاعريته . ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن إياس تحدث أيضا  
عن شعر المعز فقال : « كان المعز عاقلا حازما لبيا فصيحاً شاعراً ، وله شعر  
جيد من ذلك قوله :

ما بان عذرى فيه حتى عذرا      وبدا البنفسج فوق ورد أحمر  
همت بقبلته عقارب صدغه      فاستل ناظره عليها خنجرا (١)

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر ، وعرف به ، وكذلك كان ابنه العزيز  
بالله نزار ، وابنه المعروف بالأمير تميم ، يقول أبو المحاسن عن العزيز : « كانت  
لديه فضيلة ، وله شعر جيد (٢) » . وروى الثعالبي في يتيمة قول العزيز ، وقد  
وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن      يجرعها في الحياة كاظمنا  
عجيبه في الأنام محنتنا      أولنا مبتلى وخاتمنا  
يفرح هذا الورى بعيدهم      طرا ، وأعيادنا مآتمنا (٣)

فالشاعر في هذه الآيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفين وحزن كمين ، فهو  
لم يحزن لفقد ولده لحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث  
حتى أصبحت أعيادهم مآتم ، ويخيل إلى أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت  
العزيز لأن يقول :

ولما رأيت الدين رثت حباله      وأصبح ممحو الضيا والمعالم  
وأصبحت الأغنام من كل أمة      تسوم عباد الله خزم المخاطم  
وتحكم في أموالها ودماؤها      بغير كتاب الله عند التحاكم  
غضبت لدين الله غضبة نائر      غيور عليها مانع للبحارم  
وسيرت نحو الشرق بحر كتاب      ت موج بأبطال رجال قاقم

(١) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٤٨ (٢) النجوم ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) البيهقي ج ١ ص ٢٢٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣ .

يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا  
أنا ابن رسول الله غير مدافع  
لى الشرف العالى الذى خضعت له  
بنا فتحت أبواب كل هداية  
فقل لبني العباس مع ضعف ملكهم  
غصبتم بنى مروان ما غصبوه من  
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد  
سنسقيكم كأسا كما قد سقيتم  
وبالمشرفيات الرقاق الصوارم  
تنقلت فى الأنوار من قبل آدم  
رقاب بنى حواء من كل عالم  
ومنا بحمد الله (خير الخواتم)  
بأنهم أسرى بأيدى الأعاجم  
موارثنا ، سحقا لظالم ظالم  
ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم  
أوائلنا والله أعدل حاكم (١)

ففى هذه الآيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه ، شديد العداء لمن خالفه من العباسيين ، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم ، شديد الفخر بنسبته الى الرسول الكريم ، وهو فى ذلك كله لا ينسى عقائده المذهبية التى كان إمامها ، فأشار إلى أنه تنقل فى الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين ، وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد (ص) قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب ، فقسم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما : كن يا هذا محمدا ويا هذا كن عليا ، وأن هذا النور يجمع مرة أخرى بزواج على من فاطمة بنت الرسول وتنقل فى الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكان العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذى حل به وجد قبل آدم (٢) .

وكلن الحاكم بأمر الله شاعرا أيضا وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة :  
دع اللوم عنى لست منى بموثق فلا بد لى من صدمة المتحرق  
وأسقى جيايدى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق (٣)

(١) ورقة ٦٣ من مجموعة أشعار اسماعيلية ، نسخة خطية بمكتبتى .  
(٢) راجع المجالس المؤيدية فى مواضع شتى وما كتبناه عن ذلك فى مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاء .

(٣) النجوم ج ٤ ص ١٩٦

ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الأمر وكذلك المقرئزي (١). وعندى في المجموعة الخطية عدة أبيات للحاكم ، ولكن هذه الأبيات ضعيفة في صياغتها وفي معناها ، ويظهر فيها الانتحال ، ويحيل إلى أن قائلها هو أحد أتباع المذهب الذين لا يحسنون صناعة الشعر ، والأبيات هي :

إذا ما انقضى لبس السواد أتيتكم بأبيض من فوق الدماء يفور  
على أشقر يغلى إذا ماركبته ولا صحبت رجلى بعد حمير  
وأجلس عاداتي كما كنت قبل ذا ويختال بي من بعد ذاك وزير (٢)

ويحدثنا ابن بسام في الذخيرة أن الشاعر الواساني هجا يوسف بن علي المشرف على دمشق أيام الحاكم ، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يوما : أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن النشيد (٣). فهذا يدل على أن الحاكم كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون النشيد .

وتكاد تجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعرا مبدعا ، وأنه كان متمكنا من إنشاد الشعر يرتجله في مناسبات ، ويحجب عن بعض الرسائل التي كانت ترد عليه بالشعر . يروى صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠ هـ إلى الوزير ابن كدينة ، وطالبوا الوزير بالمال ، فقال لهم الوزير : وأى مال بقى عندى بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاعات ، فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر ، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأرسلها إلى الإمام ، فأجاب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهي وله الفضل  
جدى نبي وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل (٤)

ففى هذين البيتين يظهر الألم الشديد الذى كمن فى نفس الإمام لما حل به وحق بالبلاد إبان الشدة العظمى المعروفة فى التاريخ ، والبيت الثانى يذكرنا بما نسمعه

(١) خطط المقرئزي ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأشعار الاسماعيليه .

(٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ص ٦٩ من القسم الرابع ( المجلد الأول ) .

(٤) النجوم ج ٤ ص ٨١ . وينسبها ابن منجب الصيرفى فى كتابه الاشارة ص ٢٩ إلى

الحاكم بأمر الله . أما ابن خلدون فينسبهما فى تاريخه ج ٤ ص ٧١ إلى الأمر بأحكام الله .

عند دفن الموق بما يعرف بتلقين الاموات ، فلعل المستنصر أراد أن يتهم بمن جاء يطالبه بالاموال فأجاب بما يلحق به الموق . فهو يسخر بهؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن فالعقدة النفسية التي كانت عند المستنصر هي التي جعلته يسخر ويتهم على هذا النحو .

وبما يروى عن المستنصر أيضا أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي بعد أن عاد سنة ٤٥٠ هـ إلى القاهرة منعه الوزير ابن المغربي من لقاء المستنصر ، فأخذ المؤيد يرسل إليه الكتب والرسائل وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد :

أقسم لو أنك توجتني بتاج كسرى ملك المشرق  
ونلتني كل أمور الوري من قد مضى منهم ومن قد بقى  
وقلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يامولاي أن نلتقى  
لأن إبعادك لي ساعة شيب فودي مع المفرق .

فلما بلغت الرقعة التي فيها هذا الشعر إلى المستنصر أجاب عليها بخطه :

ياحجة مشهورة في الوري وطود علم أعجز المرتقى  
ما غلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق  
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق  
شيعتنا قد عدموا رشدهم في الغرب يا صاح وفي المشرق  
فانشر لهم ماشئت من علينا وكن لهم كالوالد المشفق  
إن كنت في دعوتنا آخرنا فقد تجاوزت مدى السبق  
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى (١)

وتنسب إليه قصيدة وردت في مجموعة أشعار الاسماعيلية مطلعها :

كني ملامك يا ابنة الغمر ما بال وقر أيبك من وفر (٢)  
ولكني أرى هذه القصيدة موضوعة ونسبت إلى المستنصر ، فأكتفي الآن بالإشارة إليها .

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى علي بن محمد

(١) انظر ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة .

(٢) ورقة ٦٣ ب .

الصليحي باليمن ، ولكن من يطلع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه الرسائل لا تصدر عن الإمام ، إنما تصدر عن كتبه ، وقل أن نجد خليفة من خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله ، إنما كان ذلك عمل كتاب ديوان الإنشاء ، ونحن نشك في نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر ، ونرجح أنها كتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن ، وأن كاتبها أحد الدعاة في اليمن ، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحث آخر (١) .

ويقول صاحب النجوم عن الأمر بأحكام الله « كان للأمر نظم ونظر في الأدب » (٢) ، وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حيناً إلى الحاكم وحيناً آخر إلى الأمر ، كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر إلى الأمر قوله :

أما والذي حجت إلى ركن بيته جرائم ركبنا مفلعة شها  
لأقتحمن الحرب حتى يقال لي ملكك زمام الحرب فاعتزل الحربا  
وينزل روح الله عيسى بن مريم فيرضى بنا سحبا ونرضى به سحبا (٣)

وينسب طائفة البهرة إلى الأمر بأحكام الله رسالة تعرف « بالهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية » ، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظي وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للأمر في الحقيقة وربما كانت لأحد كتبه ، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاء ، وربما كان الأمر هو الذي أوصى بها (٤) .

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر ، فلاغرو أن رأيناهم يقرؤون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويلتف الشعراء حولهم ويتنافسون بين أيدي أمرائهم في الإنشاد ، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره .

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم — أي في القسم الأول من العصر الفاطمي — ينشدون الشعر ويقرؤون الشعراء ، كان بعض الوزراء في عهد غلبة الوزراء في مصر — ينشد الشعر ويشيب عليه ، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا

(١) السجلات المستنصرية نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٢) ج ٤ ص ١٨٣ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٧٣ .

(٤) الهداية الآمرية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظي من مطبوعات ( جمعية الدراسات

الإسلامية بالهند )



كل شيء في الدولة. فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم، حتى إن الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمي كانوا يذكرون بجانبه الوزير، ويطنبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام، ويروى المقرئ أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف<sup>(١)</sup>، إذ كان الأفضل يجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنين، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف، فمن هذه الظروف كان يقدح عطاياه على الشعراء الذين كانوا يقصدونه. ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إنشادا للشعر وتحبباً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيق، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئاً كثيراً، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت، ولم يبق منها إلا شذرات. وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيق بن الصالح الذي وصفه عمارة اليمن بقوله: وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه<sup>(٢)</sup>. فسوق الشعر قد ازدهر في عهد الوزراء كما كان مزدهراً في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد.

### ضياح الشعر الفاطمي:

كانت الحياة في مصر الفاطمية كما رأينا جانباً منها — تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية، فضاع الشعر ولم يبق منه إلا النزر اليسير، أو قل لم يبق إلا اسم الشاعر أحياناً إن قدر لاسمه البقاء، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمدهم أن يحجوا كل أثر أدبي يمت للفاطميين بصلة، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفاً من أن يكون بالشعر مديح للأئمة، وهو كفر

(١) المخطوط ج ٢ ٣٧٥.

(٢) النكت ص ٥٥.

بزعمهم . وهاهو ذا كاتب الأيوبيين العماد الأصفهاني عندما أراد أن يجمع في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة قال عن ابن الضيف داعي الأمر وشاعره : وكنت عازما لفرط غلوه على حطه ، لأنه أساء شرعا وإن أحسن شعرا ، بل أظهر فيه كفرا ، ولكنتي لم أر أن أترك كتابي منه صفرا لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، ويحمل الغناء كما يحمل الدر (١) ، وقال عن ظافر الحداد : أقول ظافر يحظ من الفضل ظاهر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله له غافر (٢) . ومع ذلك لم يرو العماد لها شيئا في مدح الأئمة ، فقد تعمد العماد الأصفهاني أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته ، وتبعه في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين ، فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبي . أضف إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر ، ولا سيما في عهد المستنصر بالله ، إبان المحنة الكبرى ، وفي الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في أواخر العصر الفاطمي ، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكتب العلماء ، حتى إن الشاعر عمارة اليمنى عندما أراد أن يذكر لنا شيئا من شعره في مدح طي بن شاور قال : فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليج (٣) ولم يتذكر منه شيئا يرويه ، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمي نفسه إذ سببت زوال دولة الفاطميين ، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضا ، وإلاخديتي عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كلثوم . وأين ديوان ابن حيدرة العقيلي (٤) وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري وكان ديوانه في مجلدين (٥) ، وأين ديوان أبي الحسن بن مطير (٦) ، وديوان ابن الشخباء أستاذ القاضي الفاضل (٧) وديوان الملك الصالح بن رزيق (٨) ، وديوان القاضي الرشيد ابن الزبير (٩) وديوان أخيه المهذب بن الزبير (١٠) ، وديوان ابن الضيف ، وديوان ظافر الحداد الذي وصفه أحد معاصريه وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن

- |                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| (١) الحريرة ورقة ٥٣ ب . | (٢) الحريرة ورقة ٥٠    |
| (٣) التكت س ١٢٧         | (٤) المغرب س ٥٢ .      |
| (٥) الحريرة ورقة ١٩     | (٦) الحريرة ورقة ١١٤   |
| (٧) الحريرة ورقة ١١٤    | (٨) الحريرة ورقة ٣٢ ب  |
| (٩) الحريرة ورقة ١٣٦    | (١٠) الحريرة ورقة ٣٦ ب |

الفزاري بقوله : وله ديوان شعر مشهور وبالجمود له مشهور (١) وأين ديوان  
الفيقيه الصوفي ابن الكيزاني ، وأين شعر بنى عرام شعراء الصعيد ، وأين مقطوعات  
ابن الصياد في أنف ابن الحباب ، فقد قيل إن ابن الحباب كان كبير الأنف وكان  
ابن الصياد مولعا بأنفه ومجها بأكثر من ألف مقطوعة (٢) ، وأين شعر أولاد  
الكنز بأسوان (٣) ، وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف  
بابن بشرون التي صنفها سنة ٥٦١ وسماها المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل  
العصر ، وأين مجموع شعراء ابن رزيك (٤) . وأين كتاب جنان الجنان للبهذب  
ابن الزبير الذي صنفه سنة ٥٥٨ وجمع فيه أشعار شعراء مصر وذيل به اليتيمة ،  
وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود بن القاضي الموفق  
اسماعيل بن احمد الدمياطي المعروف بابن قادوس وكان من أمائل المصريين  
وكتابهم مقدما عند ملوكهم (٥) ؟

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر  
الفاطمية ، إنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر ، لنعرف مدى هذه  
الخسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لضياح هذه الثروة الأدبية المصرية  
ولندل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها ، خصبة في شعرها .

هناك جناية أخرى ارتكبتها الثعالب والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي  
وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئا من الشعر ، فعمدوا  
إلى عدة أبيات من قصيدة ، ولم يدونوا كل القصيدة ، فقد اكتفوا بمقطوعة من  
بيتين أو أكثر لكل شاعر ، وقل أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب ، مما  
جعلنا لا نستطيع أن نكون حكما صحيحا على فن الشاعر من هذه المقطوعات التي  
رويت له ، لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية ، واتسعت ثقافته الأدبية  
وارتقى ذوقه الأدبي لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة ، أو  
بقصيدة واحدة من ديوان ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرا على

(٢) الحريرة ورقة ٦٨ ا

(٤) الحريرة (٦٨ ب)

(١) الحريرة ورقة ٥٩ ب

(٣) المخطوط ج ١ ص ٣٢٠

(٥) ابن ميسر ص ٩٧ .

شاعر بيت شعر قاله . فهو لاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم ، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه .

ومهما يكن من شيء . فإن بين أيدينا الآن بعض آثار لحياة الشعر في العصر الفاطمي ، وهي إن دلت على شيء . فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبا في إنتاج الشعر بحيث استطاع شعراء مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى عصوره وصوره ، فالعوامل التي تحدثت عنها ، والآثار التي وصلتنا ، وما قاله الرواة عن شعر مصر ، كل ذلك يجعلنا نقول إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية ويتطور هذا التطور الذي نلسه في العصر الفاطمي .

## الفصل الثاني

### الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهباً دينياً خاصاً يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون ، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقتهم ، ولا يفهمها غيرهم ، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوى في شعر مصر الفاطمية ، ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصقات التي صبغها المذهب على الأئمة ، ويعتمد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته ، وكما أمعن الشاعر في استخدام هذه المصطلحات ، وإدخال هذه الصفات في شعره ، ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة ، وكثر عطاؤه وزاد جاريه ، فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن . وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام ، ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء ، فإذا كانت كتب الدعوة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم ، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم ، فالشعر يختلف عن ذلك كله ، فإنه يسير بين الناس ويرويه الرواة ، فإذا سمع مستمع إلى تلك الآيات التي زحرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له إلمام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر ، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه ، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه ، وقد رأينا كيف وصف العماد الأصفهاني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية ، ونقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هاني الأندلسي ، وما وصف به من شدة الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملة ، فلو كان

هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هانيء ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراه الشاعر وقصد إليه ، لرأيانهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر ، وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية ، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي ملأه بالعقائد والذي قيل في مدح الأئمة . ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة ، وديوان الأمير تميم بن المعز وقصيدة في مدح العزيز ، وكانت هذه النصوص في مكتبات رجال البهرة بالهند .

في مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله ، وهي لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله ، وتنسب هذه القصيدة أحيانا إلى المؤيد في الدين<sup>(١)</sup> . وتنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالاسكندراني<sup>(٢)</sup> ، ولكنني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد لأن العزيز بالله أقدم عهدا من المؤيد في الدين ، وأن المؤيد لم يمدح العزيز مطلقا إنما مدح الظاهر والمستنصر وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد ، ولم يمدح غيرهما من الأئمة ، أضف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد .

أما الاسكندراني الذي تنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئا ، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا ، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو : هذه قصيدة الاسكندراني رحمه الله في مدح الإمام العزيز بالله قدس الله روحه ، وهي الموسومة بذات الدوحة<sup>(٣)</sup> .

قلت : إن هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي ، ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أهل بيتي شجرة أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، وقول النبي أيضا ، أنا شجرة وفاطمة حملها وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرتها ومحبونا أهل البيت ورقها حقا حقا أن يكونوا معنا

A Guide to Ismaili Literature. P. 49. (١)

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية المرموز إليها (ق) راجع ديوان المؤيد

(٣) ورقة ٦٦ ب .

في الجنة (١) ، وأمثال هذين الحديثين . فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله  
بقتصيدة جعل لها جذعا وفروعا على مثال الشجرة ، وسمى قصيدته ذات الدوحة ،  
وأودعها كثيرا من المصطلحات والعقائد الفاطمية ، والقصيدة هي :

|                                    |                                |
|------------------------------------|--------------------------------|
| سئمت من البين الذي ليس يصدق        | فلست بغير الحق والصدق أنطق     |
| أأمدح رهطا غير رهط محمد            | وفي الجيد عهد للإمام موثق      |
| ولا فضل لي في ذا ، بل الفضل فضل من | بهم يحرم الله الأنا م ويرزق    |
| أئمة دين الله مذ قام دينه          | وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق   |
| محبتهم فرض على الناس واجب          | وعصيانهم كفر إلى النار موبق    |
| هم العروة الوثقى ، هم منهج الهدى   | هم الغاية القصوى التي ليس تلحق |
| ولولاهم لم يخلق الله خلقه          | ولم يك في الدنيا ضياء وروثق    |
| هم دوحة الدين التي تثمر الهدى      | وباليمين والتقوى تظل وتسبق     |
| تجير من الأيام من يستظلمها         | وتحجي من الموت الجهول وتطلق    |
| سقاها غمام الوحي علما فأينعت       | بمكنون علم الله فالدين موثق    |
| جرت في تحوم المحكمات عروقها        | وفوق الثريا فرعها متعلق        |
| هم الأصل منها والأئمة فرعها        | ففي كل عصر نورها يتألق         |
| إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن       | بغير أنى المنصور لو كان يلثق   |
| فباهت على الأيام أيامه التي        | تكاد لها صم الجنادل تورق       |
| سحائب جود لا يغيب غمامها           | وبجر سماح بالندى يتدفق         |
| لئن فقدت الناس المعز لدينه         | لقد قام بالدين العزيز الموفق   |
| تجددت الدنيا علينا يمينه           | فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق |
| ولا الجود ممنوع ولا المجد حامل     | ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق |
| تضوع نشر العدل في كل بلدة          | ونشر الثناء الطيب للطيب يعبق   |
| ملأت قلوب العارفين محبة            | فدكل على مقداره يتشوق          |
| فلا صامت إلا بحبك ناطق             | ولا مضرر إلا بشركك ينطق        |
| فضائل مولانا العزيز جليلة          | إذا عد فضل فهو بالفضل يسبق     |

(١) يروى الشيعة هذه الأحاديثه ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من  
المجالس المؤيدية وفي كتاب بحار الأنوار وغيرها .





يهدى إلى إمامه مثالا من الشعر للشجرة التي ذكر في القرآن أن أصلها ثابت ووفرعها في السماء ، وشاء الشاعر إلا أن يهدى لإمامه هذه الدوحة وجعل أبيات الفروع والأغصان سبعة عن يمين وسبعة عن شمالا تمثيلا لرأى الفاطميين في الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة الدين تلاه دور آخر لسبعة آخرين ، وقد يكون ذلك أيضا لأن المعز كان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد ، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث ، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاعبه في شكل القصيدة باطنيا ، وهو باطنيا أيضا في المعاني التي قصد إليها ، ففي مدحه لإمامه أملت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني ، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته . وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول ، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضا) « بك أنيب وبك أعاقب »<sup>(١)</sup> فهذه الصفات تنطبق أيضا على مثل العقل وهم الأئمة<sup>(٢)</sup> فيثيب الله من أطاع الأئمة ويعاقب من خالفهم . وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقل نور الله منذ بدأ خلقه إلى أن حل هذا النور في إمام العصر<sup>(٣)</sup> ، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي خص به الأئمة دون غيرهم ، وأن هذا العلم هو الذي يحيى موتى النفوس ويجلو غياهب الشك ، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين وهي العقيدة التي تقول : إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى ، بل لعبادته وتوحيده . ولكن الفاطميين خالفوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد ذلك أن العبادة عندهم لا تقبل إلا بموالاتة الأئمة من أهل البيت ، فكان العالم لم يخلق إلا من أجل الأئمة الذين بهم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله . فالشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شيء .

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخاري قول النبي (س) « أول ما خلق الله القلم فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أنيب وبك أعاقب ... »  
(٢) راجع « نظرية المثل والمثول » (٣) راجع قصيدة الإمام العزيز في الفصل السابق.

عرف عقائده فاتخذ هذه العقائد وسيلة لمدح الإمام ، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره .

وما هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله ، الذي نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة ، وأخ لإمام من أئمتهم ، كان شاعراً من أكبر شعراء عصره ، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حفظت في ديوانه ، وقد استطعنا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان ، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ، ويلم في شعره بعقائد أسرته ، فهو يقول مرة للعزير بالله :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| جئت الخلافة لما أن دعيتك كما   | وإني لميقاته موسى على قدر     |
| كالأرض جاد عليها الغيث منهملا  | فزانها بضروب الروض والزهر     |
| ما أنت دون ملوك العالمين سوى   | روح من القدس في جسم من البشر  |
| نور لطيف تناهى منك جوهره       | تناهيا جاز حد الشمس والقمر    |
| معنى من العلة الأولى التي سبقت | خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر |
| فأنت بالله دون الخلق متصل      | وأنت لله فيهم خير مؤتمر       |
| وأنت آيته من نسل مرسله         | وأنت خيرته الغراء من مضر      |
| لوشئت لم ترض بالدنيا وساكنها   | مشوى، وكنت ملك الأنجم الزهر   |
| ولو تفاظنت الأبواب فيك درت     | بأنها عنك في عجز وفي حصر (١)  |

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك ، لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كثيف ترابي ، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل — الذي سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضا — وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولى ، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه ، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة ، وهو متصل بالله تعالى لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى ، وأن الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد ، لأن ممثوله العقل هو آية الله الكبرى ، وهكذا يستمر الأمير تميم في استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح شقيقه الإمام العزيز بالله

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥٨ ( نسخة خطية بمكتبي ) .

بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا المدح دون التوسل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والممثل . انظر إليه وهو يمدح الإمام :

فيابن الوصى ويابن البتول      ويابن نبي الهدى المصطفى  
ويابن المشاعر والمروتين      ويابن الحطيم ويابن الصفا (١)

فهو يصف الإمام بمعان باطنية ، فمناسك الحج في التأويل الباطن هي محمد (ص) وما أن الوصى والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته ، ويكرر هذا المعنى في أكثر قصائده كقوله :

وابن الصفا والحجر وابن الهدى      وابن نبي الهدى وابن الكتاب (٢)  
فبجانب هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب ، والكتاب هو القرآن ، وفي التأويل الباطن أن القرآن والزبور والتوراة والانجيل هي مثل ، والممثل هو الوصى . يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية : « فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب الكريم ، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والتسليم لأنه في زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وإنما يسمى الكتاب قرآنا لاقرانه بالعترة ، يبين ذلك قول رسول الله (ص) ( إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنيما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ) فالقرآن قرين كل واحد من الأئمة الطاهرين ، (٣) .

ومرة أخرى يمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول :

يا حجة الرحمن عند عباده      وشهابه في كل أمر مشكل  
من لم يكن في صومه متقربا      بك ، فصومه لم يقبل (٤)  
فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض وهو معنى من المعاني الباطنية وصفة من صفات الأئمة (٥) ، ويقول أيضا: إن الإمام هو النور الذي يبين للناس ما غمض عليهم ويوضح ما أشكل ، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة الفاطميين التي تقول إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا باتباع المنصوص عليه من أهل

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥ (٢) ديوان تميم ورقة ١٨ ب

(٣) كتاب المجالس المستنصرية ص ٢٩ (٤) ديوان تميم ورقة ١٣١ ب

(٥) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد داعي الدعاة .

البيت ، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة لأن الولاية كما قلنا هي محور عقيدة الفاطميين ، ويكرر هذا المعنى الأخير في قوله :

وأنت أنت المصطفى الملك الذى بطاعته من ربنا نتقرب  
ولولاك كان الملك فى غير أهله وكان على أفق الشريعة غيب  
عليك صلاة الله ما طلع الضحى وما حن للأوطان من يتقرب (١)

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية فى شعره ، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معان إذا طبقنا ( نظرية المثل والممثل ) .

ولعل الشاعر المؤيد فى الدين حبة الله بن موسى الشيرازى هو أول شاعر فى هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره ، فإذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية ، فالشاعر جعل كل قصائده التى فى هذا الديوان فى مدح الأئمة ، ولم يتناول موضوعاً آخر من موضوعات الشعر ، وملاً قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية حتى إنى لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلاً فى الأدب الفاطمى بل فى الأدب العربى كله ، فنحن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعرى من كتب العقائد الفاطمية ، ولاغرو فى ذلك فالمؤيد لم يكن شاعراً متكسباً بشعره مثل غيره من الشعراء ، ولم يكن شاعراً من الشعراء الذين تستهويهم حياة المجون والقصف واللهو ، إنما كان عالماً من علماء الدعوة ، بل كانت إليه مرتبة داعى الدعوة ، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعاً إلى رفع شأنه ، فليس غريباً أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم وأن يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس ، فإذا أنشد شعراً فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته .

ولذلك ترى هذه الأشعار الكثيرة التى ضمنها ديوانه ملئت علماً وتأويلاً ، أنظر إليه يقول فى إحدى منظوماته التى وضعها لمكاسرة ، مخالف مذهبه :

ما النون يا صاح ترى والكاف فالخلق در وهما أصداف  
إن الذى ظنهما حرقى هما مستوجب من ذى الحجى كل هما  
هل كافل بالأرض والسماء يا عمى حرفان من الهجاء

تفهموا يا قوم ما الحرفان **إ** نجاة المرء بالعرفان  
ما فاعل العالم كالمفعول **ك** لا ، ولا الحامل كالمحمول  
والكاف والنون اللذان انتظما صنع الإله منهما والتحما  
وعنهما يأتلف الوجود **ل** من هو المشاهد الموجود  
أنى يكونان من الموات وعنهما منابع الحياة (١)

فقارىء مثل هذه الآيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدار تأثرها بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمق في دراسة المذهب الفاطمي ، فإن قضية الإبداع ، أو الحدود الروحانية والجسدية عند الفاطميين تكاد أن تكون أدق موضوع عاجله جميع الدعاة والكتاب ، فأفردوا لهذا الموضوع كتابا خاصة ، وفصولا من كل كتاب من كتب الدعوة ، والمؤيد في الدين في هذه الآيات يشير إلى « الكاف » و « النون » وهما الحرفان اللذان تأتلف منهما لفظ « كن » . من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » غير أن الفاطميين قالوا إن « كن » هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض وما فيهما من خلق ، وإن « الكاف » و « النون » ليسا بحرفي هجا كما يتوهم العامة بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيم الشأن ، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما في قوله « نون والقلم » والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته ، « الكاف » رمز من الله « بالقلم » ، و « النون » رمز إلى « اللوح المحفوظ » ، ويسمى « القلم » عندهم بالسابق وهو العقل الكلي عند الفلاسفة ، وله كل صفات وخصائص ذلك العقل كما تحدث عنه الفلاسفة ، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود الروحانية ، ومن علماء المذهب من قال : بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أى لا من مادة تقدمت عليه ، ولا بشيء ، أى لا بألة استعان بها عليه ، ولا فى شيء ، أى لا مع غيره يشا كله ويساويه ، ولا مثل شيء أى لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، ولا لشيء أى لا حاجة فى زيادة ولا نقصان فى ملكة تعالى ومشيئته ، فكان وجود الكل كما رمز به الحكاء ولوح به

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد داعى الدعاة .

العلماء عنه تعالى بحرف « الكاف » و « النون » فكان ما كان (١) ، ولكن أغلب العلماء على أن « القلم » كان أسبق في الوجود من اللوح ولذلك سمي « القلم » بالسابق و « اللوح » بالتالي ، و « اللوح » هو ما يسمى عند الفلاسفة بالنفس ، وجعل الفاطميون لهذا الحد جميع الصفات التي وصف بها الفلاسفة النفس السكّانية ومن « القلم » و « اللوح » وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات في السموات والأرض ، فهما كافلا العالم (٢) ، فحدثهم في الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات في الافلاطونية الحديثة ، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية ، وبتطبيق نظرية المثل والمثول ، يكون النبي مثلا « للقلم » ، والوصي مثلا « للوح » ، وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلا للقلم والحجة مثلا للوح ، وللثل جميع صفات وخصائص المثول ، فكأن الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية ومماثلتهم للحدود الروحانية في العالم العلوي وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة ، وعن هذه العقيدة اشتق الفاطميون عقائدهم في صفات الإمام ، وظهر أثرها في الشعر الفاطمي ، من ذلك ما أنشده المؤيد في الدين في مدح إمامه المستنصر :

قد خلقتم من طينة وخلقنا نحن منها لكن بدا ترتيب  
إن أجسامكم لناشئة الطين الذي منه شق منا القلوب (٣)

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله ، ذلك أن جسم الإمام خلق من الطينة التي خلقت منها قلوب البشر ، أي أن الطينة التي خلق منها جسم الإمام هي نفس الطينة التي خلق منها عقل البشر ، فما هو كشاف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس . وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفا أيضا ، ولكن بما أن الإمام من البشر وجسمه ترابي كغيره من الآدميين ، فحجسه خلق من تراب ولكنه التراب الذي خلق منه قلب البشر الذي يحله عقول البشر . وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضا :

(١) كتاب كثر الولد ( نسخة خطية بمكتبي ) .  
(٢) راجع كتاب راحة العقل والمجالس المؤيدية في مواضع متعددة .  
(٣) القصيدة الثالثة

نعم قد أفاضها في البرايا فتخلت عن شكرها أنعام  
هم نهايات كل من برأ الله وغايات خلقه والسلام  
فإليهم تنمى النفوس إذ راحت إلى الأرض تنتمى الأجسام (١)  
وقوله أيضا :

مولى مواليه الأعز ز كما معاديه الأذل  
ذو نسبة بالمصطفى والمرضى يسمو ويعلو  
بكثيفه ولطيفه فأساسه نفس وعقل (٢)  
وهذا المعنى كثير جدا في شعر المؤيد نراه في أكثر قصائده التي في الديوان  
هناك عقيدة أخرى ردها المؤيد في شعره ، فهو يقول مثلا :

سلام على العترة الطاهرة وأهلا بأنوارها الزاهرة  
سلام بديا على آدم أنى الخلق باديه والحاضرة  
سلام على من بطوفانه أديرت على من بغى الدائرة  
سلام على من أتاه السلام غداة أحفت به النائرة  
سلام على قاهر بالعصا عصاة فراعنة جائره  
سلام على الروح عيسى الذى بمبعثه شرفت ناصره  
سلام على المصطفى أحمد ولى الشفاعة فى الآخرة  
سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأنجم الزاهرة  
سلام عليك ، فحصولهم لديك أيا صاحب القاهره  
بنفسى مستنصرا بالإله جنود السماء له ناصره  
شهدت بأنك وجه الإله وجوه الموالى به ناضره  
وأنتك صاحب عين الحياة وعين خصومهم غائره  
بحار الندى كفه والعلوم مدى الدهر فى قرن زاخره  
لإحياء أرواحنا الباقيات وإنشاء أجسامنا البائره (٣)

فالشاعر هنا يسلم على جميع الأنبياء ، وعلى الوصى على بن أبى طالب والآئمة  
من ذريته ، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال : « فحصولهم لديك

(١) القصيدة الثانية عشرة .

(٢) القصيدة السادسة عشرة .

(٣) القصيدة الحادية والأربعون .

أيا صاحب القاهرة ، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله ، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء ؟ تقول عقيدة الفاطميين إن النبي محمد جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله ، أي أنه في دوره مثل آدم في دوره فهو آدم على هذا النحو ، وهو إبراهيم في دوره وهكذا ، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء ، بل قال الفاطميين إن دور النبي محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين ، وما حدث للأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضاً لمحمد ووصيه وأئمة دوره ، فالأدوار واحدة ولكنها تتخذ أشكالاً مختلفة . ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو يجمع الأدوار أيضاً على هذه الصورة ، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح إلى آخر الأنبياء ، فالنور الذي تنتقل بين الأنبياء حل في إمام الزمان ، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء . فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة ، وهكذا نستطيع أن نفرس قصيدة المؤيد السابقة . ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى قارن بين الإمام وبين بعض الأنبياء فقال في مقارنة المستنصر بنبي الله عيسى بـ مريم :

|                                 |                               |
|---------------------------------|-------------------------------|
| و صديق مثل العدو مداح           | لا أراه إلا عدوا مضلا         |
| جاءني حائرا ، فقال بجهل         | ما أرى للسيح في الناس شكلا    |
| إن عيسى قد كلم الله في المهد    | صيا وكلم الناس كهلا           |
| قلت : هذا مولى الأنام معد       | قد حوى الملك والإمامة طفلا    |
| قال : عيسى أحيى الموات جهارا    | قلت : مهلا يا ناقص الفهم مهلا |
| إن هذا مولى الأنام معد          | هو يحيى بالعلم من مات جهلا    |
| قال : عيسى أبر العمي قلت : مولا | ي معد يجلو العمى إن تجلى      |
| قال : حسبي أجبتني بجواب         | باطني بينت لي فيه عقلا        |
| ثم ولي عنى متمسراً بفضل         | لإمام الهدى وزحت مدلا (١)     |

وقس على ذلك مقارناته لباقي الأنبياء ، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء ، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تؤول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة . ويستمر



المؤيد في كل قصائده يمدح الإمام بمعان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره .

ويحيل إلى أن العقائد أثرت أيضا في جميع الشعراء الذين ظهر وافي بلاط الأئمة في عهد ضعف الأئمة ووسطوة الوزراء ، وفي عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن ودخول الأئمة في دور الستر الثاني ، وقد ذكرنا أن الحافظ والظافر والفائز والعاقد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الإمام المستر ولم يكونوا أئمة ، ولكن شعراء مصر أبوا إلا أن يعدقوا صفات الأئمة على هؤلاء النواب ، بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة ، فالشاعر الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخفش شاعر الأمر والحافظ مدح الحافظ بقوله :

صرف جريال يرى تحويلها من يرى الحافظ فردا صمدا  
بشر في العين إلا أنه من طريق العقل نور وهدي  
جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسدا  
فهو في التسبيح زلني راعع سمع الله به من حمدا  
تدرك الأفكار فيه بانبا كاد من إجلاله أن يعبدا (١)

فالشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة ولكن الحافظ كان ينوب عن الإمام المستر فطبق الشاعر صفات الإمام على نائبه ، فالإمام عن طريق العقل ، أي عن طريق علم الباطن ، هو نور أي أنه عقل كله ، والعقل الأول لا يدرك بالأبصار ، فهو يتعالى أن يحده بحدود ذلك الجسد ، أما قوله « فهو في التسبيح زلني راعع » فتأويل الركوع — كما يحدثنا القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام — هو طاعة الإمام ، والإقرار بحدود الدين الروحانيين والجسمانيين ، والتسبيح في الركوع تأويله البراءة والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبهه به أحد من حدوده أو من خلقه (٢) ، وتأويل « سمع الله به من حمدا » أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه وأطلعه من أمر أوليائه عليه فيأمر الداعي بذلك من دعاه ويخبرهم أن

(١) الحريرة ورقة ١٤٢ ب .

(٢) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام — نسخة خطية بمكتبي .

الله تعالى يسمع حمدهم، ويطلع على اعتقادهم في ذلك ، فإن كانوا قبلوه حق القبول  
واغتنبوا به كما يجب وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم (١) .  
أما البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر في أمر الإمام ، وأن  
الإمام مثل للعقل الأول وما يوصف به هذا العقل ، فيكاد المفكر من إجلاله  
للعقل أن يعبده وأن يعبد مثله . وهذا البيت الأخير يشبه قول المؤيد في  
مدح المستنصر :

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا  
وهو مثل قول الشريف ابن أنس الدولة في مدح الحافظ ، وقد صعد  
المنبر يوم العيد :

خشوعا فإن الله هذا مقامه وهمسا فهذا وجهه وكلامه  
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه (٢)  
فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الآيات هو من المعاني الباطنية ، وكلها  
تخضع في التفسير لنظرية المثل والمثول أيضا . فالإمام مثل للعقل الأول فهو  
أشرف من جميع المخلوقات ، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله  
التي وردت في القرآن الكريم . ثم انظر إلى قول الشاعر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحي والتنزيل  
وإذا تمثل راكبا في موكب عاينت تحت ركابه جبريلا (٣)  
« فجلس الوحي والتنزيل ، هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم  
الإمام مقامه ، أما قوله : « عاينت تحت ركابه جبريل ، فتأويل الملائكة في عقيدة  
الفاطميين هم الدعاة ، فكأن الشاعر يقول : إن الإمام إذا سار في موكبه سار  
تحت ركابه الدعاة الذين يدعون له ولمذهبه .

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزبك من الشعراء الذين اتخذوا الشعر  
وسيلة لنشر عقائد مذهبه ولتهجين مذاهب أصداده ، فمن ذلك قوله :

يا أمة سلكت ضلالا بينا حتى استوى إقرارها وججودها

(١) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام نسخة خطية بمكتبتي .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٠ (٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧

ملتم إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجودها  
لو صح ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تقام حدودها  
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدها (١)

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين وأثارها المعتزلة  
ردحا طويلا من الزمان ، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين ، وهي مسألة  
الجبر والاختيار . فجمهور أهل السنة على أن الإنسان مجبر ، والمعتزلة تذهب  
إلى أن الإنسان مخير ، ولكن الفاطميين كانوا يذهبون مذهبا وسطا ، فالإنسان  
مجبر في أمور ، ومخير في أمور ، فهو ولد من غير اختيار بل هو مجبر ، وتصيبه  
بعض الأحداث في حياته قضاء وقدرًا ويموت بغير اختيار ، أما أفعاله فهو  
مخير فيها .

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألما في أشعارهم  
بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثير الذي رأينا بعض نماذجه ، إذ المفروض  
أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يمتدحون بمذهب الأئمة ،  
ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن  
يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة ، وأن يزينوا شعرهم  
بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة ، وأكثر الشعراء الذين  
فدوا على مصر لم يكونوا فاطميين المذهب ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة  
بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر ، ويحدثنا ياقوت أن الحسين  
ابن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حصينة المعري المتوفى سنة ٤٥٧ هـ أوفد إلى  
المستنصر بالله ، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها :

ظهر الهدى وتجميل الإسلام وابن الرسول خليفة وإمام  
مستنصر بالله ليس يفوته طلب ولا يعتاص عنه مرام  
حاط العباد وبات يسهر عينه وعيون سكان البلاد تنام  
قصر الإمام أبي تميم كعبة ويمينه ركن لها ومقام  
لولا بنو الزهراء ما عرف التقى فينا ولا تبع الهدى الأقدام

يا آل أحمد ثبتت أقدامكم وتزلزلت بعداكم الأقدام  
لستم وغيركم سواء ، أنتم للدين أرواح وهم أجسام  
يا آل طه جبكم وولاؤكم فرض وإن عدل اللحاة ولا موار (١)

فالشاعر بالرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه  
الصفات الباطنية التي تجرد حفا من القبول إذا مدح بها الإمام ، فقصر الإمام كعبة  
والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام ، ولولا الأئمة ما عرفت  
حقيقة الدين ، والأئمة عقول والناس أجسام والولاء للأئمة فرض من الله ،  
فهذه كلها من عقائد الفاطميين ، واضطر الشاعر أن يزوج بها في مدحه للإمام الفاطمي ،  
ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضا منها قوله :

أما الإمام فقد وفي بمقالة صلى الإله على الإمام وآله  
لذنا بجانبه فعم بفضله وبيدله وبصفوه وجماله  
لا خلق أكرم من معد شيمة محمودة في قوله وفعاله  
فاقصد أمير المؤمنين فما ترى بؤسا وأنت مظل بظلاله  
زاد الإمام على البحور بفضله وعلى البدور بحسنه وجماله  
وعلى سرير الملك من آل الهدى من لا تمر الفاحشات بيباله  
النصر والتأييد في أعلامه ومكارم الأخلاق في سرباله  
مستنصر بالله ضاق زمانه عن شبهه ونظيره ومثاله (٢)

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا  
بها الملوك ، ولكنه ألم فيها أيضا بالمعاني الباطنية التي تميز مصر الفاطمية عن  
غيرها من الدول ، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر العربي ، فالصلاة  
على الإمام وآله وأن الإمام من نسل الرسول ، وأن لا شبيه للإمام ولا مثيل .  
كل هذه من العقائد التي كان يبثها الدعاة بين الناس .

ولعل الشاعر عمارة اليمنى أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنيين الوافدين  
على مصر ، والذين ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ففي أول قصيدة أنشدها

(١) ياقوت — معجم الادباء ج ١٠ ص ٩٠ (طبعة رفاعى) .

(٢) ياقوت ج ١٠ ص ٩٢

في مصر . قال في مدح الخليفة الفائز ، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم      حمدا يقوم بما أولت من النعم  
وفيها يقول :

لا أجد الحق عندى للركاب يد      تمت اللجم فيها رتبة الخطم  
قربن بعد مزار العز من نظرى      حتى رأيت لإمام العصر من أمم  
ورحن من كعبة البطحاء والحرم      وفدا إلى كعبة المعروف والكرم  
فهل درى البيت أنى بعد فرقة      ما سرت من حرم إلا إلى حرم  
حيث الخلافة مضروب سراقها      بين النقيضين من عفو ومن نعم  
والإمامة أنوار مقدسة      تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم  
ولنبوة آيات تنص لنا      على الخفيين من حكم ومن حكم<sup>(١)</sup>

ويستمر عمارة في مدح الفائز ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك ، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئاً كثيراً من عقائد الفاطميين ، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية إلا بقدر يسير ، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة ، على أن الشاعر بعد أن استقر بمصر وانصل بالبيئة المصرية حوله وسمع جدل العلماء ومناقشاتهم في مجالس الملك الصالح ، وعرف شطراً من العقائد الفاطمية ، تأثر بهذه العقائد في شعره ، وإن كان لم يعنق دعوتهم ، بل ظل على عقيدة الشافعية ، فهو يقول في مدح العاضد :

وعليك من شيم أنبي وحيدر      للناظرين أدلة وشهود  
والوحى ينطق عن لسانك بالذى      من دونه يصدع الجلمود  
شخصت إليك نواظر الأمم التي      ملسكتهم لك يعة وعهود  
يوم جلت فيه الإمامة عزها      ولها الملائكة الكرام جنود<sup>(٢)</sup>

في هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر عمارة ، فالشاعر هنا متأثر بالعقائد ، حتى يخيل إلينا أنه أصبح على دينهم وعقيدتهم ، فالوحى — وهو في التأويل داعي الدعوة — ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة والبراهين

(١) النكت ص ٣٣ (٢) ص ١٩٨ .

القوية التي لا تفق أمامها حجج أو براهين ، والبيعة في عنق جميع الذين عاهدوا الإمام ، والملائكة وهم الدعاء جنود الإمامة . ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله :

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب أثني على إحسانها التنزيل  
شيم لكم غر أقي بمدحها الفرقان والتوراة والإنجيل  
سير نسختها من السور التي ما شأنها نسخ ولا تبديل  
قامت خواطرننا بخدمة نظمها فيكم ، وقام بنثرها جبريل  
شرف تبيت به قريش كلها عولا لكم وعليكم التعويل  
إن الرسول أبوكم من دونها فمن الذي منها أبوه رسول  
ولقد ورثت مقام قوم يستوى منهم شباب في العلى وكهول  
وجمعت شمل خلافة لم يختلف في فضلها المعقول والمنقول  
لما برزت إلى المصلى معلنا وشعارك التكبير والتهيل  
وخطبت فيه المؤمنين خطابة ذابت عيون عندها وعقول  
وسلت غرب فصاحة نبوية شهدت بأذك للنبي سليل (١)

فهو هنا يمدح الماضد بأن في سور القرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن الأئمة ، وهذا من أقوال الفاطميين في أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد في الدين :

لهم معاني الزبر وفضل آي الزمر (٢)

وقال عمارة أيضا في هذا المعنى نفسه :

يا خير من نظم المدح لمجده وتنزلت سور الكتاب بحمده (٣)  
وانظر إليه وهو يقول في مدح العاضد أيضا :

ولاؤك كدين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين  
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين (٤)

ولعل الآيات التي أنشدها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة على مدى تأثر عمارة بالعقائد وتأويل الفاطميين ، فهو يقول مثلا :

لا تعجبين لقدار ناقة صالح فلـكل عصر صالح وقدار  
أحللت دار كرامة لا تنقضي أبدا وحل بقاتليك بوار (٥)

(٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد.

(١) النكت ص ٣٠٦

(٥) ص ٦٩

(٤) ص ٣٦٢

(٣) النكت ص ٢٠١

فناقة صالح التي ذكرت في القرآن تقول على حجة صالح ، وكذلك كان الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز ، ويتحدث عمارة عن الأدوار ، فلكل عصر وصالح ، من نبي أو إمام ، و لكل عصر ، فناقة صالح ، أي حجة للإمام ، فهذا المعنى لا يأتي به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها ، وكان عمارة كان يجالس الدعاة والعلماء فصرف الكثير من أسرارهم بجرى لسانه به ، وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر أيضا عن عقيدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت وعودتها إلى العالم الروحاني ، فإن كانت نفساً شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية وتأخذ مرتبتها بين الحدود الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية .

وفي مديحه للصالح قال :

كاف هو الباب الذي من لم يصل منه فليس له إليك وصول  
إشارة إلى أن داعي الدعاة هو باب الأبواب وهو الذي يشير فيه إلى الحديث النبوي : « أنا مدينة العلم على بابها » فالإمام في عصره يماثل النبي في عصره وداعي الدعاة هو الباب أيضا . وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضا :

قل للفقيه عمارة يا خير من أضحي يؤلف خطبة وخطابا  
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل وحطة ، وادخل إلينا والبابا ،  
تلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا (١)

وفي قضية أول رمضان ، حدث أن غم الهلال ولم يظهر بين الضباب فلم يره الناس رؤية بصر ، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم بدورة الفلك ، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس ، فقال عمارة في ذلك :

ولما تراءت للهلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب  
وقفنا فهنا نا الصيام بعاضد سناه مدى الأيام ليس بخاب (٢)

فروية رمضان التي تحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي معلنا صوم رمضان .

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العاصد اتفق أن اجتمع الشاعر يحيى أبو سالم بن الأحذب بن أبي حصينة والشاعر عمارة النخعي في قصر اللؤلؤة فأئشدا أبو سالم في نعيم الدين أيوب :

يامالك الأرض لا أرضى له طرفا  
قد يجعل الله هذى الدار تسكنها  
تشرفت بك عن كان يسكنها  
كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة  
فأجابه عمارة :

أثمت يامن هجا السادات والخلفا  
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة  
وإنما هي دار حل جوهرهم  
فقال لؤلؤة عجبا بهجتها  
فهم بسكنها الآيات إذ سكنوا  
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه  
لولا تجسمهم فيه لكان على  
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة  
وقلت ما قلته في ثلبهم سخفا  
والعرف ما زال سكنى اللؤلؤة صدفا  
فيها ، وشف فأستأها الذى وصفا  
وكونها حوت الأشراف والشرفا  
فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا  
من البرية إلا كل من عرفا  
ضعف البصائر للأبصار تحتظفا  
لأن فيه حفاظا دائما ووقفا (١)

فانظر إلى قول عمارة إن جوهرهم هو الذى حل بهذه الدار ، وأن الآيات سكنتها وكانت تسكن الصحف ، وحديثه عن الجوهر الفرد الذى هو نور تجسم فى الأئمة .

أليس ذلك كله من الأدلة التى نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية بالرغم من تمسكه بمذهبه السنى الشافعى ؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من الشعراء ألسنة لهم فى نشر عقائدهم التى أذاعوها بين هؤلاء الشعراء ، وكيف استغل الشعراء علم الباطن وخاصة ما خلعه عليهم المذهب على الأئمة من صفات باطنية ، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا إليهم وينالوا من هباتهم وعطاياهم ، ويقول القلقشندى : « كان الشعراء جماعة



كثيرة من أهل ديوان الانشاء وغيره ، وكان منهم أهل سنة لا يغلون في المدح ، وشيعة يغلون فيه . (١) فكأن القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء الذين مدحوا الأئمة قد ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ولكن بعضهم كان يسرف في ذلك ، وبعضهم كان يمتد .

وها هو ذا الكاتب ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان الإنشاء في عهد الظاهر والمستنصر يفتش شعراً يدل على أنه كان يتشيع ، ولكنه كان يعارض الفاطميين في أمور ، فهو يقول :

أنا شيعي لآل المصطفى غير أني لا أرى سب السلف  
أقصد الإجماع في الدين ومن أقصد الإجماع لم يخش التلف  
لي بنفسى شغل عن كل من للهوى قرظ قوما أو قذف (٢)  
ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي ولا سيما شعر المدح الذي قيل في الأئمة واضحا جليا نراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها ، كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية ، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس واستغله الدعاة في نشر المذهب ، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد المؤيد في الدين تردد في المساجد ، فطائفة الهرة في الهند تردد إلى الآن قصيدة المؤيد التي مطلعها :

سلام على العترة الطاهرة وأهلا بأنوارها الزاهرة (٣)  
عقب صلاة الفجر كل يوم . ويرتلون قول المؤيد :  
أبا حسن يا نظير النذير ولولا وجودك فات النذير (٤)  
عقب صلاة التهجد كل يوم ، وينشدون قصيدته التي مطلعها :  
إلهي دعوتك سرا وجهراً أيا مالك الملك خلقاً وأمر (٥)  
عقب صلاة النوافل في رمضان ، ولا سيما في ذكرى مقتل علي . ويرددون قول المؤيد أيضا :

هلال بدا من خلال الدجنه لإمام زمان من النار جنه (٦)

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٠ (طبعة رفاعي)  
(٣) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد .  
(٤) القصيدة الخامسة والأربعون .  
(٥) القصيدة السادسة والعشرون (٦) القصيدة الثامنة والعشرون .

في أول كل شهر عربي . وهكذا يترجم طائفة الهرة بأشعار المؤيد شاعر  
المستنصر الفاطمي وداعى دعائه على نحو ما يفعله الصوفية في ترتيل الأوراد .  
على أن الشعر الذى يلم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة ، والشاعر كان  
يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد ، وأن يلائم بين هذه العقائد  
والألفاظ التى يختارها لشعره . ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر .  
ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره وكان ينفق جهدا كبيرا في إنشاد  
الشعر ، ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل .  
ولا غرابة إذارأينا في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لو نبتن من الشعر . فالمقدمة التى  
كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون ، والآيات التى بها العقائد لون آخر . يظهر في  
المقدمة فن الشاعر وطبيعته ، وتظهر فى الآيات التى بها العقائد صناعة الشاعر  
وتلاعبه . وقل أن نجد شاعرا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله . أو بين فنه  
وعلمه . ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذى كثر فى العصر الفاطمى ظهر  
مرة أخرى فى شىء من القوة فى شعر الصوفية . وهو الشعر الذى كاد يكون  
الشعر الرمزي فى الأدب العربى — وسنرى ذلك فى حديثنا عن شعر الصوفية فى  
العصور التى تلت عصر الفاطميين — ويكفى أن أقول الآن : إن شعر الصوفية  
هو تطور شعر العقائد الفاطمية ، وكذلك تأويلات الصوفية هى تطور لتأويل  
الباطن عند الإسماعيلية .

وأكثر الشعر الذى يتأثر بالعقائد كان فى مدح الأئمة الفاطميين . على أن  
هناك شعراء مدحوا الأئمة ولم يقرروا العقائد من قريب أو من بعيد . بل كان  
شعرهم فى المدح صورة أخرى المدح عند غيرهم من الشعراء . ولغير الفاطميين من  
الأمراء ، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك من الصفات  
التي جعلها الشعراء للبدوحين . فمن ذلك قول الشاعر أنى الرقعمق فى العزيز :

|                  |                  |
|------------------|------------------|
| حى الخيام فىنى   | مغرى بأهل الخيام |
| بالراميات فؤادى  | بصائبات السهام   |
| لا عذب الله قلبى | إلا بطول الغرام  |
| سقىا لدهر تولى   | بشرقى وعراى      |
| كأنما ذلك العيد  | ش كان فى الأحلام |

لم يبق من ترنجه      سبه لحادث الأيام  
إلا ابن أحمد ذوالطو      ل والأيادي الجسام  
كفاه أغدق جودا      من واكفات الغمام  
يلقى العفاة بوجه      سه مستبشر بسام  
معظما      ترنجه      للنائبات العظام  
يرى الخطوب برأى      أمضى من الصمصام  
قرم له عزمات      تفل حد الحسام (١)

ففي هذه الآيات لا تجرد معنى باطنيا في حاجة إلى تأويل ، ولا تجرد مدحا في الإمام الفاطمي يختلف عن المدائح التي تقال لغير الفاطميين ، فكل الممدوحين عند الشعراء يوصفون بالجود والشجاعة وأصالة الرأي إلى غير ذلك من الصفات التي اعتاد الشعراء أن يذكروها ، وأن يصفوا بها الرجل اليوم وغدا يصفون عدوه بالصفات نفسها .

وفي قصيدة أخرى مدح أبو الرقعمق الإمام العزيز ، ولم يذكر شيئا في حاجة إلى تأويل باطنى ، فقد قال :

سيد شادت علاه له      فى العلا آباؤه النجب  
وله بيت يمد له      فوق مجرى الأنجم الطنب  
حسبه بالمصطفى شرفا      وعلى حين ينتسب  
رتبة فى العز شاحنة      قصرت عن مثلها الرتب (٢)

فكل هذه المعاني ليست باطنية ، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب ، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوى . ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم فى أخيه الإمام العزيز بالله هى هذه المدائح المكررة المألوفة ، فهو يقول مثلا يهنئه بالعيد :

للعيد فى كل عام      يوم يعيد سنه  
وأنت فى كل يوم      عيد يلوح علاه  
ونعمة وسعود      للمعتفين وجاه  
يا من تصلى المعالى      إليه حين تراه

(١) يتيمة الدر ج ١ ص ٢٤٠

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن يبر اليتامى      من كل خلق سواه  
لو كان للفضل يوما      منى لكنت مناه  
لأن منك استعار الزر      مان حسن حلاه  
فأنت شمس ضحاه      وأنت بدر دجاه  
كفأك في كل سلم      سحاب صوب نداه  
وحسن رأيك في الحر      ب سيفه وقناه  
فأنت يمين يديه      وأنت أمضى ظباه  
فاسلم لسعدك يا من      يديم نحس عداه (١)

فالأمير تميم يهني أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية ، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بمعنى واحد من المعاني الدينية التي كان الشعراء يقصدون إليها في مدح الفاطميين ، ولو شاء الأمير تميم أن يأتي بالمعاني الباطنية في شعره لآتى بما يعجز عنه غيره من الشعراء لأنه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية فهو ابن إمام وأخو إمام ، بل كانت الإمامة ستؤول إليه بعد أبيه ، ومع ذلك كله فالشاعر هنا كان شاعراً حَسْب ، أراد أن يمدح الإمام فمدحه بهذه المعاني المألوفة وفي قصيدة أخرى يقول تميم في مدح العزيز :

رايت معداً كالحسين وإنما      تطول على المولود إن أنجب الجد  
تعرب فهما مثلها ذاب رقة      وظرفا فافى وصف كنه له حد  
به يشتقى السمع الأصم بلفظه      وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد  
كأن ضياء الشمس رداه نوره      وأهدى إليه قلبه الأسد الورد  
وليس يبالي أن يروح ويعتدى      من المال صفرا حين يصبوله المجد  
كأنك لا ترضى لنفسك خلة      إذالم يكن في كل كف لها رقد  
ولست تبالي أن تروح بعيشة      تضيق إذا كانت علاك هي الرغد  
ولولا احتمال النفس كل مشقة      إذن لتساوى في العلا الحر والعبد  
حجبت سنى شعري زمانا ولم يزل      لدى مصونا لا يبين ولا يبدو  
ونزهته دهرا فلما هزرتني      هزرت حساما ليس ينهوله حد

(١) ديوان تميم « نسخة خطية بمكتبي » .

كذا السيف لا تستخبر العين عنقه إذا لم تفارقه الخوائل والغمد  
فسار بمدحى فيك كل مهجر وغنى به في السهل والوعر من يحدو  
وصاغت له عليك حسنا وزينة وصيغ لها من حلى ألفاظه برد  
وليس لكل الناس يستحسن الثنا كما ليس في كل الطلي يحسن العقد  
وكم لك عندي من يد وصنيعة أقربها منى لك اللحم والجلد  
فلا يعجب الحساد لي أن وددتني فحق لمثلي من مثالك ذا الود  
رأيتك يفنى العذر حقدك كله فترضى ولا يفنى مواهبك القصد  
ولا تواعد الجاني إذا زل بل له إذا اعتذر المعروف عندك والوعد  
وتجحد ما تولى يداك من الندى وإن كان عندا المجتدى للندى جحد  
ولو كفر العافون نهماك لم يكن لطبعك منك الآن عن كرم رد  
وتهتز للمدح اهتزاز مهند تناوله يوم الوغى بطل نجد  
عليك صلاة الله ما لاح بارق وما حن مشتاق تداوله الفقد (١)

وهكذا يمضى الأمير تميم في مديحه للإمام ، فقل أن نجد الشاعر يصف أخاه  
بمصطلحات الفاطميين حتى يخيل إلى أن الشاعر المؤيد في الدين الذي جاء بعد تميم  
بزهاء قرن من الزمان لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح غيره من الشعراء ،  
فوضع المؤيد قصيدته التي مطلعها :

هلال بدا من خلال الدجنه إمام زمان من النار جنه  
وجعل هذه القصيدة جوابا لقصيدة تميم بن المعز التي مطلعها :  
أسرب مها عن أم سرب جنه حكيتهن ولستن هنه  
وفي قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله :

سينعت فضلك مني اللسان إذا نعت الغير توريد وجنه  
وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفضل وفطنه  
نخذاها جوابا لنجل المعز وأسرب مها عن أم سرب جنه  
فكأن المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام ، لأن الأمير تيميا مدح  
إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالغزل ، ونعت الممدوح

بالجمال وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات ، على حين أن المديح عند المؤيد هو من صميم الدين .

وأشدد على بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوكة أبي نواس يمدح فيها الحاكم بأمر الله ، منها قوله :

|                   |                                |
|-------------------|--------------------------------|
| إن الزمان قد نضر  | بالحاكم الملك الأعسر           |
| في كفه غضب ذكر    | فقد عدا على القصر              |
| من غره على الغرر  | يمضي كما يمضي القدر            |
| في سرعة الطرف نظر | أو السحاب المنهمر              |
| بادر إنفاق البدر  | بدر إذا لاح بهر <sup>(١)</sup> |

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناعة الدوح في مدح الحاكم ، وقد حدثت زلزلة في مصر :

بالحاكم العدل أضحي الدين معتليا      نجل العلي وسليل السادة الصلحا  
مازلت مصر من كيد يراد بها      وإتمار قصت من عدله فرحا<sup>(٢)</sup>

فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية ، ولا تجد أثرا لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم .

إذن نحن أمام لونين من المديح الذي قيل في الأئمة ، اللون الأول هو ذلك الشعر الذي يمدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هي من خصائص الفاطميين، وفي هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين ، أما اللون الثاني من المديح فهو ذلك المديح الذي اعتاد الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء ، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر فقط ، وقل أن نجد فيه أثرا للبيئة التي تحيط بالشاعر إلا من ناحية واحدة ، وهي الظروف التي أنشد فيها هذا الشعر ، ولذلك نرى الشعراء الذين وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم في مصر كما كانوا ينشدونه في أي بلد آخر من البلاد الإسلامية .

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم في المواسم والأعياد التي كثرت في العصر الفاطمي ، وكثيرا ما كانت هذه الأيام ، وكثيرا ما كانت المناسبات

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٨٥ (طبعة رفاعي)

(٢) المغرب ص ٨٥ ويقال إن الشاعر أنشدها في كافور .

التي ينشد فيها الشعراء مدائحهم . ففي يوم فتح الخليج مثلا كان صاحب الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإشاد<sup>(١)</sup> ، وما أنشد في هذه المناسبة قول ابن جبر :

فتح الخليج فسأل منه الماء . وعلت عليه الراية البيضاء  
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرّفها الإعطاء<sup>(٢)</sup>

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتذوق الشعر ونقده ، فبينهم لما سمعوا هذه الآيات انتقدوه في قوله : « فسأل منه الماء » وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ وأن الشاعر أضع ما قاله بعد ذلك المطلع .

وفي هذه المناسبة أيضا أنشد مسعود الدولة وكان مقدم الشعراء في عصره :

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل  
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول  
بحرى كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه كأفور بطيب المنديل

ولكن هذه القصيدة أيضا لم تعجب السامعين إذ انتقدوا عليه أيضا قوله في البيت الثاني وقالوا : « أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ! »<sup>(٣)</sup> ، وأنشد الشاعر أبو العباس أحمد بن مناسبة فتح الخليج قوله :

لمن اجتمع الخلق في ذا المشهد للنيل أم لك يابن بنت محمد  
أم لاجتماعكما معا في موطن وافيتما فيه لأصدق موعد  
ليس اجتماع الخلق إلا للذي حاز الفضيلة منكبا في المولد  
شكروا لكل منكبا لوفائه بالسعى لكن ميلهم للأجود  
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله بالقصد ليس له كمن لم يقصد  
هذا يني ويعود ينقص تارة وتسد أنت النقص ان لم يزد \*

(١) المقرئى ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

وقواه إن بلغ النهاية قصرت  
فالأآن قد ضاقت مسالك سعيه  
فإذا أردت صلاحه فافتح له  
وأمر بفصد العرق منه فاشكا  
واسلم إلى أمثال يومك هكذا  
وإذا بلغت إلى النهاية تبتدى  
بالسد فهو به بحال مقيد  
ليرى جنابا مخصبا وثرى ندى  
جسم فصح الجسم إن لم يفصد  
في عيش مغبوط وعز مخلد (١)

فشعر المناسبات كثير جدا في العصر الفاطمي ، حتى إن الخليفة الحافظ مل  
طول الشعر وكثرته فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم ، فلم يعجب ذلك الشعراء  
فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه :

أمرت أن نضوغ المدح مختصرا لم لا أمرت ندى كفيك يختصر  
والله لا بد أن تجرى سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر (٢)  
فكان الشعر ينشد في مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التي كانت تقام لأى حادثة  
صغرت أم كبرت ، فإذا تم عمل شمسية للبيت الحرام مثلا أنشد الشعراء ، من  
ذلك قول الأمير تميم وقد تم عمل هذه الشمسية في عهد المعز لدين الله :  
إليك مدت رقابها العرب والمملك ماء عليك منسكب  
وأنت في دوحة النبوة لا تألف إلا عدائك الريب  
ألست من يرهب الإله ولا يصدده عن حدوده سبب  
وكلنا قال بدء عزمته بمذهب لم يخالف العقب  
فككذا يصدع الملوك إذا صالت، وتتفي الضلالة الشهب  
ويزدهى الدين بالمعز لدين الله والمرهفات واليلب  
وكل رحراحة عزائمه دلا صها ، والرماح والقضب  
وهذه الدولة التي ذخرت فلم يسعها الزمان والحقب  
يا حبذا دهرك الزلال إذا أمر دهر ، وعصرك الشنب  
وحبذا الشمسة التي نصبت يقصر عنها المديح والخطب  
قايس العيسد وهي حلته وأخفت اليوم وهو منتصب  
ينهب ياقوتها العيون فما يكمل الأمر حيث ينتهب

(١) المصدر السابق .

(٢) الحريرة ورقة ١٠٩ ب وابن ميسر ص ٨٥ .



دوائر احدثت بغرتها      أهلة لا تحفها السحب  
كأنما درها وجورها      نجوم ليل سماؤها ذهب  
نظمتها للهدى ولبته      وإن سخطن الكواعب العرب  
في كبد المسجد الحرام بها      شوق، وللبيت نحوها طرب  
فلا تسمى بأهله زمن      إلا بما تشتهي وترتقب  
عليك صلي الإله ما طلعت      شمس، وما اتهل عارض لجب (١)

فبالرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية ، وأن الممدوح إمام المذهب لم يشأ الأمير تميم أن يلم بشيء من العقائد الفاطمية في هذه القصيدة ولكنه أنشد الشعر المناسبة فقط ، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أنشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة فإذا فسد الإمام مدحه الشاعر ، وإذا شكى من مرض مدحه ، وإذا سافر ، مدحه ، وإذا أهداه شيئاً مدحه ، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد .

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة ، فلم يستجيب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم ، وظل محافظاً على مذهبه معترفاً بخلافة العباسيين ، وظهر هذا في الشعر المصري ، فقد قيل إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا      يتلى على المنبر في الجامع  
إن كنت فيما تدعى صادقا      فاذكر أبا بعد الأب الرابع  
وإن ترد تحقيق ما قلته      فانسب لنا نفسك كالطائع  
أوفدع الأنساب مستورة      وادخل بنا في النسب الواسع  
فإن أنساب بني هاشم      يقصر عنها طمع الطامع (٢)

وقول الآخر في الحاكم ، وقيل بل في العزيز :

بالظلم والجور قدرضينا      وليس بالكفر والحماقة

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٢٢ ( نسخة خطية بمكتبتي ) .

(٢) ابن خلسكان ج ٣ ص ٥٤ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦ .

إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي ، وقد هجا رجال القصر وعرض بالعزير بالله ، وسرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود ممن كان إليهم بعض الدواوين في العصر الفاطمي ، فالفاطيون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانتهم ونفوذهم وادعائهم العصمة للأئمة . فإن بعض الشعراء لم يأبه بذلك ، وعرض بهذه العقائد وسخر بهؤلاء الأئمة .

### الأمير تميم بن المعز :

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مرارا وسنذكره مرارا فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي وهو الشاعر الذي يقرب دائما بالشاعر ابن المعتز العباسي ، لما بينهما من تشابه ، فكلا الشعارين من بيت خلافة . وكلا الشعارين من شعراء البديع ، وكلاهما ممن أكثر من الوصف والمجون وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة ، فهما متشابهان في أمور كثيرة جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائما .

ولد الأمير تميم بالمغرب وفيها نشأ مع إخوته عبد الله ونزار وعقيل ، وكان تميم أكبرهم سناً ، فلم يشك الناس في أن ولاية العهد ستكون له ، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ، ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين هو ما عرف عن تميم من مجون وفجور ، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمر صقلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يساير الأمير تيميا ويشاركه في لهوه وفسقه ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية رد خطابه وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق وفجور (١) . ولما

(١) نس ما ورد في سيرة جوذر ص ١٧٥ وما بعدها ( نسخة خطية بمكتبتي ) .

ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية ، وكان واجدا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم وما شنع من القول عنهما فأراد قتل ولده طاهرا هذا إلا أنه استأمر الأستاذ ( أي جوذر ) على ذلك وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ( أي المعز ) فصرف إليه الجواب وهو :

« يا جوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته ، إلا بعض أتباعه الذين زبنوا لهذا الصبي الشقي ولده حجة من كان سبب شقوته . ووالله إن نوجعنا =

فتحت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقي أسرته ، وفي مصر توفي عبد الله  
(ولى العهد) فجعل المعز ولاية عهده إلى ابنه الثالث تزار الذى لقب بالعزيز ،  
ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر فى شعر الأمير تميم إذ كان يمدح  
أخاه الصغير العزيز بالله ، ولكنه لم يستطع أن يخفى ما فى نفسه من آلام وشعور  
بمحن وغىظ ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره ، ولكن عاطفته فى الشعر هى عاطفة  
القائظ الحاقدة ، فهو يقول مثلاً من قصيدة فى مدح العزيز :

تهون على صغار الأمور      ويصغر عنى جميع الورى  
أنا ابن المعز سليل العلى      وصنو العزيز لإمام الهدى  
وما احتجت قط إلى ناصر      ولا رحت يوماً ضعيف القوى  
ولم أستشر فى ملم يشوب      مشيراً أرى منه ما لا أرى  
ولست بوان إذا ما أمر      زمان ، ولا فرح إن حلا (١)

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه وبنسبته للأئمة الغاطميين وعدم  
مبالاته بصروف الدهر ، ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر تلك النفس  
الناقمة الحاقدة ، ويقول يفخر أيضاً :

ليس من ساد عن ورائة جد      أو لحظ من الحظوظ مباح  
يستحق الثنا ويستوجب الشكر      ويحوى مدائح المداح  
إنما السيد المعلى المفسدى      من علا للمعلى صدور الرماح  
ورى ليل كل خطب بهميم      بدكاه أضوا من المصباح

== به كتوجعنا عن لنا ، لكن ابن أحمد رضى فيما يستعمل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرضى  
لذلك الحطة التى يرفع الله عز وجل بها أولادنا هى خطية الطهارة . ومن عدمها كان كلا على مولاه .  
والحمد لله على ماساء وسر ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنه وتشفع له عنده ، وعرفه  
أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شناعة بل حقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام فما يخفى عليه  
أن ذلك يبقى فى الأعقاب فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد  
كان يسعى به بينهما ونحن نداوى عليهم ، فن أطاعنا لم يشق ، والله لقد نكس الله رءوس كل  
من كان انتصب للشتمات بهم ، لما رأوه من فضلنا عليهم وانفاقه ، وكذا نحب أن يكونوا ما  
بقوا فى نمو وزيادة ، لافى النفس ورجوع القهقرى فعرفه ذلك ليعمل به ، ولا يحدث فى  
الصبي شيئاً من المسكروه إن شاء الله .

(١) ديوان الأمير تميم نسخة بخطية بمكتبتى .

واقنى العز بالطيبا والعوالى واشترى الحمد بالثنا والسباح  
فكذا تنتمى المكارم والمجد ويستبعد العدو الملاحى  
لا كمن قد جرى برجل سواه وسما طائرا بغير جناح  
لا ألفت العلى ولا ألفتى إن تو سمت دونها بوشاح  
أو ترفهت أو تشاغللت عنها بأباطيل قينة أو براح  
لا ولا ابيض لى سنى المجد إن لم أستجد غسله بنزف الجراح  
وألقى العداة عنه بعزم علوى يفل حد الصفاح  
ويبطش يفرى الجمجم والأعناق فرى المدى لحوم الأضاحى  
أنا فرد النهى ورب المعالى وحسام الكفاح يوم الكفاح  
، نا مفتاح قفل كل نوال يوم يغدو الندى بلا مفتاح  
أنا كالجد فى الأمور إذا ما كان عيشى فيهن مثل المزاح  
لا كراض من العلا بادعاء وبعرض مجرح مستباح  
فسل المجد عن صباحى ولىلى ومقبلى وغدوتى ورواحى  
هل يسر العلا مقالى وفعلى وارياحى لكسبها واقتراحى  
ها كها كالصهيل فى حلبة الفخر إذا كان غيرها كالنباح (١)

ويخيل إلى أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز مما جعل العزيز  
يغضب على الشاعر ، وجعل الشاعر يتنصل من وشاية الواشين ، فأخذ الشاعر  
يلبس الأعدار ، ويقدم الاعتذار ، ويذكر الإمام بأنهما شقيقان . وأن على  
الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة . فأكثر قصائد المدح التى فى الديوان  
تتحدث عن هؤلاء الذين يسعون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير .  
ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نفي مرة إلى عين شمس ، ونفي  
مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين ، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات  
من الشعر يبثهم فيها شوقه إليهم ، ويشكو غربته التى اضطر إليها اضطرارا . فقد  
أنشد فى عين شمس :

أما كفى الحب شوق موجه وأسى مبرح يقطع الأحشاء والكبداء

حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا  
فآه من لوعة مشبوبة وجوى  
قالت وعبرتها مخلوطة بدم  
لا تطلب النطق منى بالسلام فما  
فظلت ملتثا من صحن وجنتها  
وطاوبا في الحشى منها رسيس هوى  
وأشدد وهو في الرملة وأرسل بها إلى بعض أهله في القاهرة :

أنتم في المنام حللى وأنتم  
كل عضو منى إليكم مشوق  
لم أفارقكم ولكن جسمى  
فهنيئا لكم وفانى عليكم  
كلما حثنى اشتياقى إليكم  
قلت لبيك أنت نعم المنادى  
في انتباهى سؤلى وأنتم مرادى  
زائد شوقه على الأبعاد  
بان عنكم وحل فيكم فؤادى  
وهنيئا للعين طول السهاد  
قلت لبيك أنت نعم المنادى

وكان الأمير تميم في مصر يشارك المصريين لهوهم ويخرج إلى متزهاتها ،  
ويعبث في أديرتها ، وأنشد في ذلك كله شعرا — سنتحدث عنه في فصل آخر من  
هذا الكتاب — وشعره إن دل على شئ ، فأنما يدل على رقة شعوره ، ورقة  
العاطفة وصدقها . وتوفى هذا الشاعر سنة ٣٧٤ هـ .

## الفصل الثالث

### الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيراً ، وكان الوزير يعقوب ابن كلس أول وزير في الدولة الفاطمية ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة لقبه العزيز بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب ، فعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب <sup>(١)</sup> ، فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلس في هذه الدولة الفتية إذ ذاك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه ، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلس أحد العلماء المبرزين ، وكيف كان يلقي علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه ، ويتناقشون بين يديه ، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد ، يعطي ويجزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله ويكثر من مدحه . مدحه أبو الرقعمق وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع ، والامير تميم بن المعز وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين فقد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي ، وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر ، فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك أولاً : عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على محو كل أثر علمي أو أدبي للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين ، وثانياً : عند المؤرخين والكتاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فأبوا أن يرووا شيئاً من شعراء مصر الفاطمية ، وثالثاً : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة فأطاحوا بحضارتين من أرق الحضارات التي شاهدها العالم وشاهدها تاريخ الفكر البشري وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة أخرى تقوم مقام

(١) خطط القرظي ج ٣ ص ٨ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٣ .

هاتين الحضارتين ، وكان الأتراك شديدي التعصب للذهب السني فأنزلوا نعمتهم على كل ما هو شيعي ، أضاف إلى ذلك كله المجاعات الكثيرة والاضطرابات العديدة التي سببت محنا عديدة لمصر ووصفها المقرئ في كتابه ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم ، وهكذا تضاعفت قوى عديدة لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمي ، حتى إن الذي بقي من هذا كله أصبح ضئيلا تافها بالنسبة لما كان في عهدهم الزاهر ، فقد بق لنا جزء من قصيدة لأبي الرقعمق في مدح ابن كلس وهي :

|                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| لم يدع للعزير في سائر الآر | ض عدوا إلا وأخذ ناره     |
| فلهذا اجتياه دون سواه      | واصطفاه لنفسه واختاره    |
| لم تشيد له الوزارة مجدا    | لا ولا قيل رفعت مقداره   |
| بل كساها وقد تخرمها الدهر  | جلالا وبهجة ونضاره       |
| كل يوم له على نوب الدهر    | وكر الخطوب بالبذل غارة   |
| ذو يد شأنها الفرار من البخ | ل وفي حومة الوغى كراهه   |
| هي فلتت عن العزير عداه     | بالعطايا وكثرت أنصاره    |
| هكذا كل فاضل يده تسمى      | وتضحى نفاعه ضراره        |
| فاستجره فليس يأمن إلا      | من تفيا بظله واستجاره    |
| فاذا ما رأته مطرقا يع      | مل فيما يريد أفكاره      |
| لم يدع بالذكا والذهن شيئا  | في ضمير الغيوب إلا ناره  |
| لا ولا موضعا من الأرض إلا  | كان بالرأى مدركا أقطاره  |
| زاده الله بسطة وكفاه       | خوفه من زمانه وحذاره (١) |

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح الوزير ، ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمي كلما وسعه فنه ومواهبه في الشعر فهو لم يستطيع أن يغفل الإمام من قصائده ، وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرا قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه . وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون

للووزير حتى يتقربوا به للإمام ، فدح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهي الاتصال بالإمام ، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر الفاطمي ، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسيرون مرافق البلاد ، ويختارون الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر وزراء ذلك العهد من رجال القلم أمثال الجرجاني واليازوري وابن المغربي والبايلي وغيرهم من الكتاب . ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم في الوزراء وفي مدحهم فن الشعراء من هجا الوزراء كالذي رأيناه من هجاء ابن كلس وهجاء أبو محمد القاسم الرسي بقوله .

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مدلس

فإننا أردناه لكافور شربة فزاد على تقريرنا ألف مجلس<sup>(١)</sup>

وكذلك روى أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير علي بن أحمد الجرجاني وزير الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان هذا الوزير أقطع البيدين بسبب خيانة ظهرت عليه أيام الحاكم ، فلما ولي الوزارة استعمل العفاف والأمانة ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه :

يا أحقما إسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق

أأقت نفسك في الثقا ت ، وهبك فيما قلت صادق

فمن الأمانة والتقى قطعت يدك من المرافق<sup>(٢)</sup>

وقال الشاعر الحسن بن خاقان في هجاء الوزير الفلاحى وزير المستنصر .

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومد يد نحو العلا متكلف

فلو كان هذا من وراء كفاية عذرنا ولكن من وراء تخلف<sup>(٣)</sup>

ونحن نعلم أن الفلاحى كان يهوديا وأسلم ، وأن أبا سعد التستري مدبر

الدور إذ ذاك كان يهوديا ولذلك قال أحد الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك<sup>(٤)</sup>

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦٧ .

(١) اليقظة ج ١ ص ٣٣٠ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٣ . (٤) المصدر نفسه



ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر ، وحلت بالبلاد  
نكبة الشدة العظمى ، اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف وأن يتخذ  
منهم وزراء له ، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف  
الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهاذى دعاة المؤمنين أبو نجم بدر  
الجمالى ، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ ولكنه لم يلبس خلعة الوزارة إلا  
سنة ٤٦٨ هـ ، وصار صاحب الكلمة النافذة في البلاد التي كانت خاضعة للفاطميين ،  
وأصبح الإمام الفاطمى شبه أسير في يدي الوزير ، وظل بدر الجمالى في منصبه  
إلى أن توفى سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمى بأشهر ، فتولى الوزارة بعده ابنه  
القاسم شاهنشاه الأفاضل ، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى الذرى  
حتى إنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ لم يعبأ بعقيدة من أهم عمائد الفاطميين في  
الإمامة ، وهى النص على من يلى الإمامة ، إذ الإمام لا بد أن ينص قبل وفاته  
على خليفته ، وأن يبلغ ذلك إلى حجته وحجج الجزائر ، ولكن الأفاضل بن  
بدر الجمالى أنى أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص وهو نزار بن المستنصر  
وجعلها إلى المستعلى بالله وهو ابن أخته وكان صغير السن ، وبذلك انقسمت  
الدعوة إلى فرعيها النزارية والمستعلية ، وكان هذا الانقسام من أهم الأسباب التي  
أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية ، والخلافة الفاطمية ، وأضعفت هيبة الإمام  
بين الناس وشك في إمامته بعض الأتباع والأشباع ، ومهما يكن من شىء فقد  
أصبحت الوزارة هى القوة المحركة للبلاد كلها فاتجه الشعراء إلى الوزراء  
يمدحونهم ويأخذون هباتهم وصلاتهم ، وتشبه الوزراء في بذخهم بالآئمة  
فأسرفوا في كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معا ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أهبة  
الملك وألقابه ، واتخذوا لأنفسهم حاشية هى أشبه شىء بحاشية الملوك والسلاطين ،  
وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بنى العباس والآئمة الفاطميون  
إبان قوتهم وسلطانهم ، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الآئمة إلى مدح الوزراء .  
وكان من الوزراء من ينشد الشعر ، فالأفاضل بن بدر الجمالى كان شاعرا ،  
ومن شعره قوله فى غلامه تاج المعالى :

أقضيبي يميس أم هو قد وشقيق يلوح أم هو خد

أنا مثل الهلال سقا عليه وهو كالبدر حين وافاه سعد (١)

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٠ .

ومن قوله أيضا في جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق ،  
وكان شديد الغيرة على نسائه ، فلما جرى له برأسها قال :

نظرت إليها وهي تنظر ظلها      فنزهت نفسي عن شريك مقارب  
أغار على أعطافها من ثيابها      حذاراً ومن مسك لها في الذوائب  
ولى غيرة لو كان للبدر مثلها      لما كان يرضى باجتماع الكواكب (١)

فهذه الآيات التي بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور وقدرة  
على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة .

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق جيد الشعر ، وكان يثيب على شعر الشعراء (٢)  
وكان شاور وولده الكامل وضرغام ممن ينشدون الشعر - وسنتحدث عنهم  
جميعاً بعد قليل - فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم حاشية  
من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلي ، فكل الشعراء  
من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحهم .

فمن وفد على مصر الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي ، وفد على بدر  
الجمالي ، ويقول علقمة : قصدت بدر الجمالي فرأيت أشراف الناس وكبراهم  
وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ، فلم يصلوا إليه ، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر  
يريد الصيد فخرجت في أثره وأقتت معه حتى رجعت من صيده ، فلما قاربني وقفت  
على تل من الرمل ، وأومأت برقعة في يدي ، وأنشدت :

نحن التجار وهذه أعلاقنا      در ، وجود يمينك المبتاع  
قلت فتشها بسمعك إنها      هي جوهر تختاره الأسماع  
كسدت علينا بالشأم وكلنا      قل النفاق تعطل الصناعات  
فأتاك يحملها إليك تجارها      ومطيبها الآمال والأطعماع  
حتى أناخوها بيبابك والرجا      من دونك الثمار والبياع  
فوهبت ما لم يعطه في دهره      هرم ولا كعب ولا القعقاع  
وسبقت هذا الناس في طلب العلا      والناس بعدك كلهم أتباع  
يابدر أقسم لو بك اعتصم الوري      ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا (٣)

(١) ابن ميسر ص ٦٠ (٢) التكت ص ٥٥ (٣) ابن ميسر ص ٣٠ .

## الأفضل وشعراؤه

وبعد عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاهدها مصر الإسلامية ، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء ، نذكر منهم مسعود الدولة وأبا علي حسن بن زيد ، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب ، والناجي المصري ، وسالم بن مفرج بن أبي حصينة ، ومحمود بن ناصر الإسكندراني ، وسروان بن عثمان اللكي ، وابن البرقي ، وظافر الحداد ، وأميرة بن أبي الصلت ، وغيرهم من شعراء الخريدة . ومن الشعراء الذين ذكرهم أميرة في رسالته الموسومة «بالرسالة المصرية» . وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء ، ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر ، ولعل «الرسالة المصرية» من أقدم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت بمصر في عهد الأفضل ، ومؤلف هذه الرسالة هو أميرة بن أبي الصلت .

### أميرة بن أبي الصلت ورسالته المصرية :

لم يكن أميرة بن عبد العزيز بن أبي الصلت مصريا ، إنما هو أندلسي وفد على مصر في عهد الأمر بأحكام الله ، وأستطاع أميرة أن يتصل بالأفضل ، وكان سبب هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالي - وكان في منزلة قريبة جداً من الوزير - فاتصل به أميرة مادحا وقربه الأمير مختار وكان أميرة يخدمه أيضا بصناعتي الطب والنجوم ، فأنس به تاج المعالي كما آنس منه العلم والفضل ، وكان جمهور المثقفين من المصريين قد التفوا حول أميرة يأخذون عنه العلم والآداب ، فقدمه تاج المعالي إلى الوزير وأثنى عليه ، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كتاب وقته ، واشتدت صلة أميرة بالوزير ، ولكن الحساد من الكتاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أميرة بالأفضل ، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأميرة حتى واطتهم الفرصة ، ذلك أن الوزير قلب ظهر الحن لتاج المعالي واعتقله ، فوجد الكتاب السبيل للنيل من أميرة فوشوا به لدى الأفضل فحبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر ، إلى أن شفح فيه بعض وجوه المصريين ، فأطلق سراحه وسار إلى المغرب واتصل بالمرتضى أبي طاهر يحيى بن تميم

صاحب القيروان وحظى عنده وحسن حاله إلى أن توفي بالمهدية سنة ٥٢٩هـ (١). استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين ، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائعهم ، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عرفت بالرسالة المصرية ، وصف فيها مصر جغرافيا ، وعرض لبعض المدن المصرية ، وتحدث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه ، وروى شيئا مما قيل في النيل من شعر ، وما أنشد في مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه ، فنستطيع أن نعد هذه الرسالة القيمة من السكتب القليلة الممتعة التي وصلتنا عن هذه العصر ، كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية في مصر أو من حفظ لهم شيئا من الشعر من المصريين . أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر في ذلك الوقت ، ولا سيما من كانوا يتعاطون صناعات الطب والتنجم ، يقول أمية عن المصريين : والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفا بها وسكونا إليها ، حتى إنه بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاءها وأنحائها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدد ضرورها إلا في طوابع مختارونها (٢) . ويقول عن أطباء مصر في ذلك العصر : وأكثر أطبائها المزبرقين نصارى أو يهود ، وفي ذلك يقول بعضهم :

أقول للمسلمين طرا تبغون في طها اشتهارا  
هيات حاولتم محالا كونوا إذن هودا، أو نصارى (٣)

وتحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا بعيدين عن الحضرة فقال عن القاضي علي أبي الحسن بن النضر : المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب ، ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى ، وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الأفضل تصرفا وخدمة ، تخاب فيه أمله ، وضاع رجأؤه ، فقال يعاتب الزمان :

(١) راجع ترجمته في عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٢ ومجمع الأدباء ج ٢ ص ٣٦١ وابن خلكان ج ١ ص ٨٠ .

(٢) الرسالة المصرية نسخة فتوغرافية بدار السكتب المصرية (٣) المصدر السابق .

بين التعزز والتذلل مسلك  
فاسلكه في كل المواطن واجتنب  
ولقد جلبت من البضائع خيرها  
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله  
ظنا شبيها باليقين ولم أقل  
ولعائبي بالحرص قول بين  
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم  
وإذا أتى الرزق القضاء على امرئ  
ولعمرو عادية الخطوب وإن رمت  
بادى المنار لعين كل موفق  
كبر الآبي وذلة المتعلق  
لأجل مختار وأكرم متقى  
لا بد أن نفقت وإن لم تنفق  
إن الزمان بما سقاني مشرق  
لو كنت شمت سحابة لم تطرق  
أصل الرجاء بحبل غير الأوثق  
لم نغن فيه حيلة المسترزق  
حظي بسهم تشقت وتفارق (١)

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدر ججاوى المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد ، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل قوص وغيرهما ، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر في أوائل القرن السادس للهجرة .

كان أمية أستاذاً لبعض المصريين ، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره أبو عبد الله الشامي الذي ظل مخلصاً لأستاذه ، وكان يتردد عليه إبان نكبته وسجنه ، وينقل ياقوت عن أبي عبد الله الشامي : وكنت أختلف إليه إذ ذاك فدخلت إليه يوماً فصادفته مطرفاً . فلم يرفع رأسه إليّ على العادة ، فسألته فلم يرد الجواب ، ثم قال بعد ساعة : اكتب . وأنشدني :

وكان لي سبب قد كنت أحسبني      أحظى به ، فإذا دائي هو السبب  
فما مقلم أظفاري سوى قلبي      ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

فكتبت عنه رسالته فقال : إن فلانا تليذي قد طعن فيّ عند الأمير الأفضل (٢) . ويروي ياقوت أيضاً أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن أخذ العلم عن أمية وروى عنه (٣) ، وكان لأمية عدد من الأصدقاء في طبيعتهم ظافر الحداد الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية وحزن أسفروه وبعده عن مصر ، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين ويذكر أمية بالأيام التي قضياها معاً ، والقصيدة هي :

(١) الرسالة المصرية (٢) ياقوت ج ٢ ص ٣٦١ (٣) ياقوت ج ٢ ص ٣٦٥

هو السم لكن في لقائك تريق  
على كل قطر بالمشارك إشراق  
بقلبي عهد لا يضيع وميثاق  
وريقاء كتبها من الأيك أوراق  
وأكثر أخلاق الخليفة إخلق  
ديارك عن داري هموم وأشواق  
جرت ولها ما بين جفني إحراق  
خلال التراق والترائب تشهاق  
فلي منه في صعب النوائب إنفاق  
لجيش خطوب صدها منه إرهاق  
غرور، وأن السكز فقر وإملاق  
وليس له من رق ودك إعتاق  
ومطر د طامى الغوارب خفاق  
طلائح أنضاهها زميل وإعناق  
يلازم أعناق الحمائم أطواق  
كهدي، وثغر الثغر أشنب براق  
من القرب كالصنوين ضمهما ساق  
بها حسدت منا المسامع أحداق  
مفيسد إلى قلب المحادث سبباق  
له كل بحر فائض اللج رقراق  
تضمنها عذب من اللفظ غيداق  
لأبكارها الغر الفلاسف عشاق  
غرام وقلب دائم الفكر تواق  
وأهلوه مشتاق يشم وذواق  
لعائق عذر والمقادير أوهاق  
فإن لم يكن رد على فياغراق  
مفاتيح في أبوابهن وأغلاق

ألا هل لدائى من فراقك إفراق  
فيأشمس فضل غربت ، ولضوئها  
سقى العهد عهدا منك عمر عهده  
يحدده ذكر بطيب كما شددت  
لك الخلق الجزل الرفيع طرازه  
لقد ضاء لنى يا أبا الصلت مذنأت  
إذا عزنى إطفأؤها بمدامعى  
سحائب يحدوها زفير يجره  
وقد كان لي كنز من الصبر واسع  
وسيف إذا جردت بعض غراره  
إلى أن أبان البين أن غراره  
أخى، سيدى، مولاي. دعوة من صفا  
لئن بعدت ما بيننا شقة النوى  
ويسد إذا كلفتها العيس قصرت  
فعدنى لك الود الملازم مثل ما  
ألا هل لأيامى بك الغر عودة  
ليالى يديننا جواب أعادنا  
وما بيننا من حسن لفظك روضة  
حديث، حديث كلباطال، موجز  
يزجيه بحر من علومك زاخر  
معان كأطواد الشوايح جزلة  
به حكم مستنبطات غرائب  
قلو عاش رسطاليس كان له بها  
فيا واحد الفضل الذى العلم قوته  
لئن قصرت كتبى فلا غرو إنه  
كتبت وآفات البحار تردها  
بحار بأحكام الرياح فإنها

ومن لى ان أحطى إليك بنظرة فيسكن مقلق ويرقأ مهراق (١)  
فهذه القصيدة التي بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبي الصلت إن  
دلت على شيء فأنما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وفاء وإخلاص  
وود ، وما كان عليه أمية من علم وفضل ، وما كان عليه الصديقان من  
صفاء ووفاء .

أما علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، فيقول القفطى : « ودخل  
مصر في أيام أفضلها فلم ينل منها إفضالا ، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالا (٢) ؛  
ولكنى أشك في قول القفطى وأزعم أن الأفضل قرب أمية إليه . وأجزل له  
العطاء . فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل ،  
وكان الأفضل يحزل له النوال . فمن شعر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدها  
يذكر تجرده العساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضوع  
المعروف بالبصة ، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قوما من الأجناد وغيرهم  
أرادوا الفتك بالأفضل ، فوقع على خبرهم ، وقبض عليهم وقتلهم ، والقصيدة هي :

|                               |                                |
|-------------------------------|--------------------------------|
| هي العزائم من أنصارها القدر   | وهي الكتاب من أشياعها الظفر    |
| جردت للدين والأسياف مغمدة     | تتيفا تفل به الأحداث والغير    |
| وقمت إذ قعد الأملاك كلهم      | تذب عنه وتحميه وتنتصر          |
| بالببيض تسقط فوق البيض أنجمها | والسمر تحت ظلال النقع تشتجر    |
| بيض إذا خطبت بالنصر ألسنها    | فمن منابرها الأكباد والقصر     |
| وذبل من رماح الخط مشرعة       | في طولهن لأعمار العدى قصر      |
| يغشى بها غمرات الموت أسدشرى   | من الكاة إذا ما استجدوا بتدروا |
| مستثمين إذا سلوا سيوفهم       | شبهتها خليجا مرت بها غدر       |
| قوم تطول ببيض الهند أذرعهم    | فما يضر ظباها أنها بتر         |
| إذا انتضوها وذبل النقع فوقهم  | كالشمس طالعة والليل معتكر      |
| ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا   | كأنما الدم راح والظبا زهر      |
| وإن هم نكصوا يوما فلا يحجب    | قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر |

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٤ ( طبعة مصر ١٨٨٢ م ) .

(٢) أخبار الحسكاه ص ٥٧ ( الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ م ) .

العود أحمد والأيام ضامنة  
وربما ساءت الأقدار ثم جرت  
الله زان بك الأيام من ملك  
الله بأسك والألباب طائشة  
وللعجاج على صم القنا ظلل  
إذ يرجع السيف يبدى خده علقا  
وإذ تسد مسد السيف منفردا  
أما يهولك ما لاقيت من عدد  
هي السياحة إلا أنها سرف  
الله في الدين والدنيا فإلهما  
ورام كيدك أقوام وما علموا  
هيئات أين من العيوق طالبه  
إن الأسود لتأني أن يروعا  
أمر نوره ولو هموا به وقفوا  
فاضرب بسيفك من ناواك منتقيا  
ما كل حين ترى الأملاك صاحقة  
ومن ذوى البغي من لا يستهان به  
إن الرماح غصون يستظل بها  
وليس يصبح شمل الملك منتظما  
والرأى رأيك فيما أنت فاعله  
أضحى شهنشاها غيئا للندى غدقا  
الطاعن الألف إلا أنها نسق  
ملك تبوأ فوق النجم مقعده  
يرجى نداءه ويخشى عند سطوته  
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد  
ولا بصرت بشمس قبل غرته  
يا أيها الملك السامى الذى ابتهجت

عقبى النجاح ووعده الله ينتظر  
بما يسرك ساعات لها آخر  
لك الحجول من الأيام والغرر  
والخيل تردى ونار الحرب تستعر  
هى الدخان وأطراف القنا شرر  
كصفحة البكر أدمى خدها الخفر  
ولا يصدك لا جبن ولا خور  
سيان عندك قل القوم أو كثروا  
هى الشجاعة إلا أنها غرر  
سواك كهف ولا ركن ولا وزر  
أن المنى خطرات بعضها خطر  
لو كان سدده منه الفكر والنظر  
وسط العرين ظباء الربرب العفر  
كوقفة العير لاورد ولا صدر  
إن السيوف لأهل البغي تدخر  
عن الجرائر تعفو حين تقدر  
وفى الذنوب ذنوب ليس تغتفر  
وما لمن سوى هام العدى ثمر  
إلا بجيت ترى الهامات تنتثر  
وأنت أدري بما تأتى وما تذر  
كل البلاد إلى سقمياه تفتقر  
والواهب الألف إلا أنها بدر  
فكيف تطمع فى غاياته البشر  
كالدهر يوجد فيه النفع والضرر  
من قبله يهب الدنيا ويعتذر  
إذا تجلى سناها أغدق المطر  
به الليالى وقر البدو والحضر



جاءتك من كلم الخاكي بحبرة      تطوى ليهجتها الأبراد والحبر  
هي اللآلىء إلا أن ناظمها      طى الضمير ومن غواصها الفكر  
تبقى وتذهب أشعار ملفقة      أولى بقائلها من قولها الحصر  
ولم أطلبها لأني جد معترف      بأن كل مطيل فيه مختصر  
بقيت للدين والدنيا ولا عدمت      أجياد تلك المعالي هذه الدرر<sup>(١)</sup>  
ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو في سجنه بقصيدتين إلى الأفضل  
مدحه بهما . الأولى لامية مطلعها :

الشمس دونك في المحل      والطيب ذكرك بل أجل  
والثانية بائية مطلعها :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا      وكفى بها غزلا لنا ونسبيا<sup>(٢)</sup>  
وفي هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل، وأبأدى الأفضل  
عليه ، ومدائح أمية فيه ، ويعتذر إليه من أقوال الوشاة والحاسدين الذين أغروا  
الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه ، فثل هذه الآيات التي أنشدها أمية  
في الاعتذار عن وشاية الواشين ، تدل على أن صلة الوزير بالشاعر كانت صلة  
قوية ، وأن الشاعر كان مقربا للوزير فحسده الناس ، وأن الشاعر مدح الوزير  
فأعطاه الوزير صلوات ، ومع ذلك نرى القفطى يدعى أن الوزير لم يعط الشاعر  
شيئا ، ويخيل إلى أن القفطى اتهم الأفضل بذلك لأنه حبس الشاعر مدة طويلة .  
ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر ، اتصل فيها بالحياة  
المصرية . وشارك المصريين في أعيادهم وحفلاتهم . وأنشد في ذلك شعرا  
حفظ بعضه وضاع أكثره . فما حفظ من ذلك قوله في النيل من قصيدة كتبها  
إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا      لازلت تحيي السرور والطربا  
ألقت بين الضدين مقتدرا      فن رأى الماء خالط اللهبيا !!  
كأنما النيل والشموع به      أفق سماء تألقت شهبيا  
قد كان من فضة فصار سما      وتحسب النار فوقه ذهبيا<sup>(٣)</sup>

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) الرسالة المصرية .

(٣) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٢ .

وخرج إلى المتزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة والشعراء خاصة، ووصف بعضها بالثر والشعر، فمن ذلك قوله في بركة الحبش :  
 واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها  
 أحسن بساط ، واستظلنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات  
 الأقداح شمس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب  
 الأصيل على لجين المساء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بعضنا  
 (ويقصد نفسه) :

|                             |                         |
|-----------------------------|-------------------------|
| والأفق بين الضياء والغيش    | لله يومى ببركة الحبش    |
| كصارم في يمين مرتعش         | والنيل تحت الرياح مضطرب |
| فنحن من نسجها على فرش       | قد نسجتها يد الغمام لنا |
| ديج بالنور عطفها ووشى       | ونحن في روضة مفوقة      |
| من سورة الهم غير متعش       | فعاطنى الراح إن تاركها  |
| فهن أشقى لشدة العطش         | واسقنى بالكبار مترعة    |
| دعاه داعى الصبا فلم يطش (١) | فأثقل الناس كلهم رجل    |

وبالرغم من هذه الآيات التي تدل على أن أمية نعم في مصر بطبيعتها وهوها،  
 وقدره المصريون لعله وأدبه ، فخطى بصداقة عدد كبير منهم ، فإنه خرج من  
 مصر غاضبا يهجو مصر والمصريين، شأنه في ذلك شأن دعبل الخزاعي ، وأبي تمام  
 والمنتبي وغيرهم من ذوى الأطماع التي لا تقف عند حد ، فهؤلاء الشعراء وفدوا  
 على مصر لقصد النوال والعطاء من أمراء مصر، فأعرق هؤلاء عليهم ما وسعهم ،  
 ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا العطاء السخي ، وويل لمصر والمصريين  
 إذا لم يصلوا إلى مطامعهم ، فيها هو ذا أمية يهجو المصريين جميعا بقوله :

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدا يسلى من الهم أو يعدى على النوب  
 فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كانت مواعيدهم كالآل في الكذب (٢)  
 نعم هكذا زعم أمية ، كما زعم دعبل وأبو تمام والمنتبي من قبل ، فصر  
 التي أكرمت هؤلاء الشعراء فدحوها هي مصر التي هجوها بعد أن رحلوا عنها .

(١) الرسالة المصرية ، وخطط المقرئى ج ٢ ص ١٥٥ ومعجم الأدباء .

(٢) الفطلى ص ٥٧

أبو علي الأنصاري :

قلنا إن عددا كبيرا من شعراء مصر اتصل بالأفضل بن بدر الجمالي ، وأنشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم ، فن هؤلاء الشعراء أبو علي حسن ابن زيد الأنصاري الذي أثنى عليه القاضي الفاضل بقوله : وإنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله<sup>(١)</sup> ، ويقول عنه صاحب الخريدة : وله قصيدة في مدح أفضلهم يصف خيمة الفرح ، يدل إحسانه فيها على أن بحره طامى اللبج ، ودره نامى البهج ، واقتبس منها قوله :

|                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>وأبدت العجز منها هذه المهم<br/>ويقظة ما نراه منك أم حلم ؟<br/>تسمو علوا على أفق السها الخيم<br/>في مارن الدهر من تيه بها شمم<br/>أن احتوتك وأنت الناس كلهم<br/>حتى ليبصر علما أنها علم<br/>أضحت تجاورها الآساد والأجم<br/>لما تحقن منها أنها حرم<br/>مصور ، وكلا الجيشين مزدحم<br/>فقدم منهم فيها ومنهمزم<br/>فليس تنزع عنها الحزم واللجم<br/>فكلهم لغمار الحرب مقتحم<br/>فقد تسامت الآسياف والقمم<br/>لا يستطيل على أعمارهم هرم<br/>للفرقدين وفي سمعهم صمم<br/>وقد همت فوقها من كفك الديم<br/>أصبحت فألا به تستبشر الأمم<br/>وكم له نعم في طيبها نعم</p> | <p>مجدا فقد قصرت عن شأوك الأمم<br/>أخيمة ما نصبت الآن أم فلك<br/>ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن<br/>حتى أتيت بها شماء شاهقة<br/>إن الدليل على تكوينها فلسكا<br/>يد من في بلاد الصين ناظره<br/>تري الكناس وآرام الأطباء بها<br/>والطير قد لزمت فيها مواضعها<br/>لديك جيش ، وجيش في جوانبها<br/>إذا الصبا حركتها ماج موكبها<br/>أخيلها خيلك اللاتي تغير بها<br/>علت أبطالها أن يقدموا أبدا<br/>آمنتهم أن يخافوا سطوة لردى<br/>كأنها جنة ، فالقاطنون بها<br/>علت نخلنا لها سرا تحدته<br/>إن أنبت أرضها زهرا فلا يحجب<br/>يا خيمة الفرح الميمون طائرها<br/>ومنها يقول في مدح الأفضل :<br/>ما قال لا قط مذشدت تمامه</p> |
|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

(١) الخريدة ص ١١١ .

لو كنت شاهد شعري حين أنظمه      إذن رأيت المعالي فيك تختصم  
أزرتك اليوم من فكري بحبرة      في ناظر الشمس من لآلائها سقم  
تري النجوم للفظي فيك حاسدة      تود لو أتها في المدح تنتظم  
ولكن هذا الشاعر النابه ، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات ، لقي حتفه بسبب حسد الشعراء له ، ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن ابن الحافظ ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصاري ودسهما في رقاعه ثم سعى به إلى ابن الحافظ ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري أمر بقتله ، ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء ، ولا طول خدمته في ديوان المكاتبات ، فإن هذه الأبيات التي رويناها له في وصف الخيمة ومدح الأفضل إن دلت على شيء فإِنما تدل على أن للشاعر خيالاً مخلصاً ومقدرة مطاوعة للقرىض مع حسن ديباجة .

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء ، والويل كل الويل للشاعر الذي لا يجعل شعر مدحه لهم ، فهو يبعد ولا يلتفت إليه ، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر ، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بابن مكنسة أبي طاهر إسماعيل بن محمد ، فقد انقطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من النصارى يعرف بأبي مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، ولما توفي هذا العامل رثاه الشاعر بقوله :

|                      |                      |
|----------------------|----------------------|
| طويت سماء المكرمات   | وكورت شمس المديح     |
| ماذا أرجى في حياتي   | بعد موت أبي مليح     |
| ما كان بالنسكس الدني | من الرجال ولا الشحيح |
| كفر النصارى بعد ما   | عقدوا به دين المسيح  |

فلما ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به ، ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكنسة في أبي مليح ، فلم يقبل مدائح ، حتى يش الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول :

|                      |                   |
|----------------------|-------------------|
| مثلي بمصر وانت ملك   | يقال ذا شاعر فقير |
| عطاؤك الشمس ليس يخفي | ولمّا حظي الضير   |

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذين مدحهم أمية بن أبي الصلت

في رسالته المصرية وأثنى عليه بقوله : « ومن شعرائها المشهورين أبو طاهر إسماعيل ابن محمد المعروف بابن مكنسة ، شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، يفتن في نوعي جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وجزله ، (١) ، فجع ذلك كله لم يوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل ، فظل بعيدا عن شعراء الوزارة .

ولعل ابن مكنسة كان أحسن حظا من الشاعر علي بن عباد الإسكندري ، فقد كان هذا الشاعر منقطعا لمدح الوزير أبي علي بن الأفضل عند ما كان هذا الوزير مستبداً بالبلاد وبالخليفة ، بل حبس الخليفة الحافظ ، حتى بلغ استبداده حدا لا يطاق ، واستطاع الحافظ أن يتمكن منه وأن يقتله في الميدان ، وتتبع كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم ومنهم هذا الشاعر ، ويروى العماد أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها : « تبسم الدهر لكن بعد تعيس ، وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله :

وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (٢)

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله ، ويقول ابن ميسر إن الحافظ أمر بإحضار الشاعر ، فلما امثل بين يديه قال له : أنشدني قصيدتك . فأخذ الشاعر في إنشادها حتى قال منها في بيت :

« ولا ترضوا عن أنجس المناجيس »

يعني الحافظ وآبائه ، فأمر حينئذ أن يلجمه الغلمان حتى مات بين يديه (٣) ، بل كانت هذه القصيدة سببا في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٣١ هـ ، فقد روى أن القاضي عند ما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضيته طربا ، فلما قتل الوزير صرف القاضي عن عمله وقتل (٤) . وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله : « علي بن عباد الإسكندري ، شاعر كان يجلو غرر المدائح ، وكانت من الوزراء تستعطف أئنة قصائده فيرد عليهم مسردها ، (٥) .

وكان بين شعراء الأفضل من نغم عليه فهجاه ، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالناجي المصري الذي ذكره أمية في رسالته المصرية ، فقد هجا الأفضل بقوله :

(١) الرسالة المصرية . (٢) الحريرة ورقة ٩٨

(٣) ابن ميسر ص ٨١ (٤) المصدر نفسه .

(٥) مسالك الأبصار ج ١٢ ص ٢١٨٩ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلقه  
إن كنت قد نلتها مراغمة فهي على السكب بعدكم صدقه  
فأمر الأفاضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضي<sup>(١)</sup>.  
ظافر الحداد :

على أن عصر الأفاضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء وتفوقهم جميعا في هذا الفن ، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم ، وكان أكثرهم من كتاب الدواوين ، أما ظافر فكان حدادا بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار ، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره ، واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته ، فقد رأينا صديقا لامية بن أبي الصلت ، ويحدثنا ابن خلسكان أن الحافظ أبو طاهر السلفي وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد<sup>(٢)</sup> . واتصل ظافر برجال الدولة فأعجبوا به وبشعره ، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من عامة الشعب في حالة متواضعة من العيش ، ويروى ابن خلسكان قصة تدل على ذلك كله ، تلك هي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسين الآمدي دخل على والي الإسكندرية الأمير السعيد بن ظفر فوجده يقطر دهنا على خنصره ، فسأله القاضي عن سببه فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه ، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فاستدعى ظافرا الحداد فقطع الحلقة ، وأنشد بين يدي الوالي :

قصر عن أوصافك العالم وكثر النوائر والناظم  
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر وهب لظافر الحلقة وكانت من الذهب . ويحيل إلى أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر ، وأن ظافرا الحداد أدرك ما كان يحول بخاطر الأمير ، فاعتتم فرصة وجود غزال مستأنس قد ربض بين يدي

(١) الحريرة ١١٣٠ (٢) ابن خلسكان ج ١ ص ٢٤١ .

الوالى وجعل رأسه فى حجره ، فارتجل ظافر :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد  
وأعجب به إذ بدا جأثما وكيف اطمأن وأنت الأسد

فزاد الحاضرون فى الاستحسان ، وكأنى بظافر وقد طمع فى أن يعترف  
الحاضرون بسرعة بديته وقدرته على الارتجال . فقد التفت حوله فى قاعة المجلس ،  
فوجد شيئا كان على الباب ليمنع الطير من دخولها ، فأنشد :

رأيت ببابك هذا المنيف شباكا فأدركنى بعض شك  
وفكر فيما رأى خاطرى فقلت البحار مكان الشبك (١)

فهذه القصة إن دلت على شىء . فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لتنظيم  
الشعر ، وأن شعره طبيعى لا تكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر بديته ، مما  
جعل الناس فى عصره يحمونه ويعجبون به ، وها هو ذا العباد الأصهبانى يحدثنا عنه  
بقوله : و ظافر يحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره  
بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر ،  
حداد لو أنصف لسمى جوهرىا ، وكان باعتزائه إلى نظم الآلىء حريا ، أهدى  
بروى شعره الروى للقلوب الصادية ربا ، فىا له ناظرا فصيحفا مقلقا جريا (٢) ،  
ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جمع فى ديوان كبير ، ولكن هذا  
الديوان فقد ، ولم يبق من شعره إلا آيات من قصائد . من ذلك قوله :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| لو كان بالصبر الجميل ملاذه   | ما سح وابل دمعته ورداذه    |
| ما زال جيش الحب يغزو قلبه    | حتى وهسى وتقطعت أفلاذه     |
| لم يبق فيه مع الغرام بقية    | إلا رسيس يحتويه جذاذه      |
| من كان يرغب فى السلامة فليكن | أبدا من الحدق المراض عياده |
| لا تحددعنك بالفتور فإنه      | نظر يضرب بقلبك استلناذه    |
| يا أيها الرشأ الذى من طرفه   | سهم إلى حب القلوب نفاذه    |
| در يلوح بفيك ، من نظامه      | خمر به قد جال من نباذه ؟   |
| وقناة ذلك القدر كيف تقومت    | وسنان ذلك اللحظ ما فولاذه  |

(١) ابن خلدكان ج ١ ص ٢٤٢ (٢) الحريرة ورقة (١٦٠)

رفقا بجسمك لا يذوب فيني  
هاروت يعجز عن مواقع سحره  
تالله ما علقك محاسنك امرأ  
أغریت حبك بالقلوب فأذعنت  
مالي أتيت الحظ من أبوابه  
إياك من طمع المنى فعزیزه  
ومنها أيضا :

دالية ابن دريد استهوى بها  
دانوا لزخرف قوله فتفرقت  
من قدر الرزق السنن لك إنما  
فمن هذه الآيات وغيرها مما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره  
سهل طبيعي ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ،  
وقد لاحظ العباد أن ظافرا الحداد كان الحنة ، واستشهد بقصيدته الزائفة الشهيرة :

حكم العيون على القلوب يحوز  
كم نظرة نالت بطرف ذابل  
فخذار من تلك اللواحظ غرة  
يا ليت شعري والاماني ضلة  
هل لي إلى زمن تصرم عهده  
وأزور من ألف البعاد ووجه  
ظني يناسب في الملاحظة شخصه  
والبدر والشمس المنيرة دونه  
لولا تثنى خصره في ردفه  
تجفو غلالته عليه لطافة  
من لي بدهر كان لي بوصاله  
والعيش مخضر الجنب أنيقه  
والماء يبدي في الخليج كأنه

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٣١ ( طبعة رفاعي )



والروض في حلال النبات كأنما  
والزهر يوم ناظره كأنما  
فأقاحه ورق ، وساقط طله  
وكأنما القمري ينشد مصرعا  
وكأنما الدولاب يزمر كلما  
يارب غانية أضر بقولها  
فأجبتها : ما عازني نيل الغنى  
ما خاب من هضم التفضل ماله  
فرشت عليه ديايح وخزوز  
ظهرت به فوق الرياض كنوز  
درر ، ونور بهاره إبريز  
من كل بيت ، والحمام يجيز  
غنت ، وأصوات الضفادع شيز  
أنى بلفظة معدم منبوز  
لكن مظالبة الحميد تعوز  
كرما ووافر عرضه محروز  
فأخذ عليه العباد قوله «عازني» والصحيح «أعوزني» وأخذ عليه قوله «تعوز»  
والصحيح «تعوز» وأخذ عليه قوله «محروز» والصواب «محرز»<sup>(١)</sup> . ولكن نسي العباد  
أن الشاعر مصري ، وقد ذكرنا في كتاب أدب مصر الإسلامية صوراً من اللحن الذي  
وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها ، وقلنا : إن المصريين لا يراعون قواعد الصرف  
والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد ؛ ونحن  
لا نستطيع أن نؤاخذ ظافراً الحداد بهذه الألفاظ التي لم يرع فيها قواعد الصرف ،  
فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي مع معرفته إذا أنشد بيتاً من الشعر لم  
يقم بإعرابه<sup>(٢)</sup> . ومن يتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث فسيجد  
عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التي هي من مقومات الشعر .  
ومهما يكن من شيء فإن حياة ظافر الحداد غامضة ، لعدم وجود ما يكشف  
عنها ، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ .

### شعراء بني رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية

قتل الخليفة الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فكتب خدام  
القصر إلى طلّاح بن رزيك وإلى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الخليفة  
ويستنجدونه على القاتل ، وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه ، ولعب الشعر دوراً

(١) الخريدة ورقة ٨٧ وكتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب للشهاب المجازي  
ص ٧٥ (طبع بمبای بالهند) .

(٢) الفهرست لابن النديم ٧٩

هاما في دعوة طلائع للأخذ بثأر الخليفة ، فقد كانت قصيدة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليلس التي أرسلها إلى طلائع بن رزيك من أشد الرسائل التي وصلت إليه أثرا في نفسه ، فطلّاع كان شاعرا مجيدا ، ويصفه ابن خلكان بقوله : « كان فاضلا سمحا في العطاء ، سهلا في اللقاء ، محبا لأهل الفضائل ، جيد الشعر ، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين <sup>(١)</sup> ، ولذلك كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل .

فمن هذه القصيدة قول الجليلس :

|                              |                                       |
|------------------------------|---------------------------------------|
| دهنتي عن نظم القريض عوادى    | وشف فؤادى شجوه المتماهى               |
| وأرق عيني والعيون هوا جمع    | هموم أفضت مضجعي ووسادى                |
| بمصرع أبناء الوصى وعترة الذئ | بي وآل «الذاريات» و«صاد»              |
| فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم    | وما لهم من منعة وزياد                 |
| أولئك أنصار الهدى وبنو الردى | وسم العدا من حاضرين وباد              |
| لقد هد ركن الدين ليلة قتله   | بخبير دليل للنجاة وهاد                |
| تدارك من الإيمان قبل دثوره   | حشاشة نفس آذنت بنقاد                  |
| وقد كاد أن يطغى تألق نوره    | على الحق عاد من بقية عاد              |
| فلو عاينت عينك بالقصر يومهم  | ومصرعهم لم تكسحل برقاد <sup>(٢)</sup> |

جاء طلائع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة واستولى على الوزارة . وإذا قلنا الوزارة فينما نقصد أنه تولى الحكم الفعلى في البلاد ، ولذلك لقب بالملك الصالح . وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعباد والشعر والشعراء ، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه ، ونقل العماد عن خطبة ديوان الصالح : « فقد نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعد ما ركدت ، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوه بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخير والقمر ، كانت أوقاته معمورة بالنهى والأمر <sup>(٣)</sup> ، ووصفه عمارة اليمنى بقوله : « فكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف ، وتميز عن أجلاف الملوك الذين

(٢) النجوم ج ٥ ص ٢٩٢ .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) الحريرة ورقة ٣٢ ب

ليس عندهم إلا خشونة مجردة ، وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جلسيه ،  
ويبسط أنيسه (١) . و يروى عمارة قصة وفوده على مصر أول مرة ، وكيف  
دخل متسكرا في زى رسول من قبله على الأجل ابني الهيجاء صهر الملك الصالح ،  
وطلب إليه ان يحمل عنه مئونة السجود عند السلام على الخليفة والوزير ، فسأله  
أبو الهيجاء عن عمارة فقال له : هو فقيه وعنده طرف من الأدب ، فقال : تعنى  
شاعرا ! قال : نعم . قال : هذه نقيصة في حقه . فلما كان في اليوم التالي استدعى  
أبو الهيجاء للغداء عند الصالح ، فقال أبو الهيجاء : هندی رسول صاحب مكة ،  
وكنت أظنه عاقلا وإذا هو ناقص ؛ فقال له الصالح : وبأى شيء عرفت ناقصه ؟  
قال : لسكونه يحسن شيئا من هذا السحت الذي تعلمه أنت والجلس ابن الزبير .  
قال الصالح : لعله شاعر ؛ قال : نعم . قال الصالح : هاته ، هات الرجل ، ثم أنشد :  
إن الذي تكرمون منه      ذاك الذي يشتهي قلبي (٢)

فهذه القصة إن دلت على شيء . فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن رزيك  
كان مولعا بالشعر مقربا للشعراء ؛ ومن عجب أن يجتمع في بلاطه أكبر أعيان  
أهل الأدب مثل الجليس والموفق بن الخلال وابن قادوس والمهذب بن الزبير  
والرشيد بن الزبير وغيرهم الذين وصفهم عمارة بقوله : وما من هذه الحلبة أحد  
إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، وما زلت  
أحذو على طرائقهم ، وأعرض جزعى في سوابقهم ، حتى أبتوني في جرائدكم (٣) ،  
فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون في مجلس الملك الصالح يتناشدون الشعر ، ويتناظرون  
في بعض المسائل العلية والأدبية ، ويستمعون إلى شعر الملك الصالح ، وفي ذلك  
يقول صاحب النجوم الزاهرة : « وجعل له مجلسا في أكثر الليالي يحضره أهل  
الأدب ، ونظم هو شعرا ودونه ، وصار الناس يهرهون إلى نقل شعره ، وربما  
أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير (٤) ، ويظهر أن الملك الصالح  
كان ينشد القصيدة أو المقطوعة ، ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن  
الزبير ، وعلى غير المهذب ممن كان يتوسم فيهم مقدرة وكفاية على تثقيف الشعر ،  
إذ يحدثنا عمارة النبي : « ودخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست

(٢) النكت من ١٢٢ .

(٤) النجوم ج ٥ من ٣١٣ .

(١) النكت من ٤٨

(٣) النكت من ٣٥

وخمسين وخمسة قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليلة ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرح . ودخل ثم خرج إلى وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره علمهما في تلك الساعة ، وهما :

نحن في غفلة ونوم وللو ت عيون يقظانة لا تنام  
قد رحلنا إلى الحمام سنينا لبت شعري متى يكون الحمام

ثم قال لي : تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت هما صالحان (١) . فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر في عصره لإصلاح شعره ، وليس في ذلك ما ينقص من قدرته في الشعر ، والمؤرخون يحدوثونا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فروان بن أنى حفصة شاعر هرون الرشيد الرسمي كان يعرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى يعرض شعره على أبي تمام ، وكان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعي أو غيره من الغويين ، فإذا كان الملك الصالح طلائع بن زريك قد استعان بالمهذب أو بعبارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره ، فإن ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر ، فلم يستبح لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه ، ولكن ياقوت ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير : «وقيل إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير (٢) ، ولا أدري من أين استقى ياقوت هذا الخبر ، وربما اشتبه عليه الأمر ، فظن أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذي في ديوان ابن زريك بدلا من أنه كان يتقف هذا الشعر ، وقد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح ، منها :

ولنار فطنته تريك لشعره عذبا يروى غلة الظمان  
وعقود در لو تجسم لفظها ما رصعت إلا على التيجان  
وتزهت عن أن يرى أفوادها لمواضع الأقراط والآذان  
من كل رائقة الجمال زهت بها بين القصائد غرة السلطان  
سيارة في الأرض لا يعتاقها في سيرها قيد من الأوزان (٣)

(٢) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ .

(١) النكت ص ٤٩

(٣) الحريرة ص ١٤١ .

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات ، وإن كان ابن الزبير قد  
غالى فى وصفه له ، ولكنه كان يمدح صاحب الملك . ومهما يكن من شئ . فإن  
المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مكثرا من قول الشعر ، حتى جمع شعره  
فى ديوان من جزأين ، ولكن الذىبقى لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة ،  
من ذلك قوله يتغزل :

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى أعطافه النشوات من عينيه  
ماضى اللجأظ كأنما سلت يدي سيقى غداة الروح من جفنيه  
قد قلت إذ خط العذار بمسكة فى خده ألقبه لا لاميه  
ما الشعر دب بعارضيه وإنما أهدابه نفضت على خديه  
الناس طوع يدي وأمرى نافذ فيهم وقلبي الآن طوع يديه  
فأعجب لسلطان يعم بعدله ويجور سلطان الغرام عليه  
والله لولا اسم الفرار وأنه مستقيم لفررت منه إليه (١)  
ويحدثنا العباد فى الخريدة أن أبا الحسن على بن قيسر أثنى فى الملك الصالح  
قصيدته التى أولها :

لا فرق بين خياله ووصاله فى سرد ماظله وفى تحقيقه  
والتي منها :

والله ما للشمس فى إشراقها وضياء بهجته كبعض شروقه  
لا تجعل الهجران بعض عقوبتى فكلف السلوان غير مطيقه  
بلغ إلى الملك الهام أمانة تبليغها للجر من توفيقه  
حتم حظى فى الحضيض وإنه فى الفضل عند الناس فى عيوقه  
مثل بمصر وأنت مالك رقه مثل العقاب مفردا فى نيقه  
ولقد أشاع الناس أنك فى الورى من ليس ينفق باطل فى سوقه  
أبطل بنور العقل سلطان الهوى واعمل بكل الجهد فى تطليقه  
فأجابه الصالح بقصيدة منها :  
نفق التأدب عندنا فى سوقه وبدا اليقين لنا بلمع بروقه

أهدى لى القاضى الفقيه عرائسا  
فاجلت طرفى فى بديع رياضه  
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت  
أدب سعى منه إلى غاياته  
ولقد علمت بأن فضلك سابق  
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان فى  
وأرى الزمان جرى على عاداته  
والشوق فى قلبى تضرم وهجه  
والدمع من عينى مسح، فهل يرى  
نزهت فى بستان نظمك ناظرى  
أنت امرؤ من قال فىك مقالة  
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي  
وكذا الكريم فمهمل لأموره  
هذا النجاح فكل ماقد رمته  
قد عم فانظر منه فى تحقيقه (١)

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التى بقيت لنا من شعر الصالح أن ندرك  
ان الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني اكثر من عنايتهم باللفظ،  
وأنة لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات، ولكن  
التشبيهات تأتى فى شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع، ولم يكن الصالح  
شاعراً فحسب، بل كان من علماء المذهب، ويقول المقرئى: إن له قصيدة سماها  
الجوهرة فى الرد على القدريّة، وإنه صنف كتاباً سماه الاعتقاد فى الرد على أهل  
العناد، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه، وهو كتاب يبحث فى إمامة على بن أبى  
طالب والأحاديث النبوية التى وردت فيه (٢). وتوفى الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ  
وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزىك بن الصالح وكان شاعراً مثل أبيه،  
ناقدا للشعر عارفاً بجيده من رديته، ويقول عمارة عنه: وأما فهمه فكان يعرف  
جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه (٣).

(١) الحريدة ورقة ٦٩ ب.

(٢) خطط ج ٤ ص ٨٢.

(٣) النكت ص ٥٥.

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال:

لا يقولون جاهل بالقوافي ذهب الناقد السميع البصير  
فالمرجى أبو شجاع عليم بمقادير أهل من خبير (١)

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله ، لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل ، يقول عمارة: « ومن محاسن أيامه وما يؤرخ عنها ، بل هي الحسنة التي لا توازي ، واليد البيضاء التي لا تجازي ، خروج أمره إلى وإلى الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب واستخدامه . (٢) فكان دقة إحساس الملك الناصر ، وتدوقه للشعر والكتابة الفنية . ومعرفته للجيد من الشعر والنثر جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة ، ولولا ذلك لظل القاضي الفاضل مغمورا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الخطوة فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم . فلا غرو أن رأينا عمارة اليمني يرفع من شأن هذا الكشاف ويعدده الحسنة التي لا توازي واليد البيضاء التي لا تجازي ، ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له ، وموقف القاضي الفاضل منه ، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء ، وتلك الحسنة سيئة .

لم تمهل الأيام الملك الناصر إذ قتل سنة ٥٥٨ هـ . وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام . وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكي في أمر هذه المنازعات وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر ، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضى على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر . لم ينس الوزراء الشعر والشعراء . فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء ، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء . ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغاما قصيدة منها :

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب      دينا أبا حسن يبقى على الحلقب  
أيامك البيض لا تحصى ، وأفضلها      يوم خصصت به في قاعة الذهب

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣

(١) التكت من ٥٢

وفيت للصالح الهادي وقد غدرت به الصنائع من ناء ومقترب  
فقال ضرغام : لو قلت ( بعدت ) كان أصلح من ( غدرت ) . قلت : إنما أردت  
مقابلة الوفاء بالغدر . قال : وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر (١) ولعل هذه  
القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر ، ونفاذ بصيرته في نقده . وفي هذه الأيام  
العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفى كبار شعراء العصر . فالجليس توفى سنة  
٥٦١ هـ وفي هذه السنة عينها توفى المهذب بن الزبير وتوفى الرشيد بن الزبير سنة  
٥٦٢ هـ . ولم يعد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبل . فقد ذكر عماره  
أنه أنشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبس إبان وزارته  
الثانية ، ومن هذه القصيدة :

أسمع بذنا الفتح المبين وأبصر واقصر عليه خطا الهناء وأقصر  
فتح أضاء به الزمان كأنه وجه البشير وغرة المستبشر  
فتح يذكرنا وإن لم نفسه ما كان من فتح الوصي الخبير  
فتح تولد يسره من عسرة طالت ، وأى ولادة لم تعسر  
حملت به الأيام إلا أنها وضعتنا عما عن ثلاثة أشهر

ويقول فيها :

تلقاه أول فارس إن أقدمت خيل ، وأول راجل في العسكر  
هانت عليه النفس حتى إنه باع الحياة فلم يجد من يشتري  
ضجر الحديد من الحديد وشاور في نصر آل محمد لم يضجر  
حلف الزمان ليأتين بمثله حثت يمينك يا زمان فكفر  
يا فاتحاً شرق البلاد وغربها يهنئك أنك وارث الإسكندر

يقول عماره : وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوت عزمي على  
الاستعفاء من عمل الشعر ، لأن الناس فيما تقدم كانوا يغنون الشعراء بما ليس يفوقها  
جودة . (٢) وبالفعل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاء عماره من قول الشعر .  
وأمر أن ينقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، لأن التكسب بالشعر  
والنظاير به أصبح نقيصة في حقه . فسأله شاور : فما منعك أن تستعفى في أيام الصالح

(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ وما بعدها .

(١) التكت ص ١٤٦ .



وابنه ؟ قال عمارة : كانت لى أسوة وسلوة بالشيخ الجليس بن الحباب وبابن الزبير الرشيد والمهذب ، وقد انقض الجليل والنظراء ، قال : تعق ، ثم أمر بإنشاء سجل باعفاته (١) ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعرا فى الحوادث التى كانت فى هذه الأيام ، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، فقد أنشد عدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على الصليبيين وبنصره لآل بيت الرسول ، ويشبهه جيوش صلاح الدين بأنصار النبي (ص) فهو يقول مثلا :

|                               |                                  |
|-------------------------------|----------------------------------|
| لك الحسب الباقي على عقب الدهر | بل الشرف الراقى إلى قمة النسر    |
| كذا فليكن سعى الملوك إذا سعت  | بها المهمم العليا إلى شرف الذكر  |
| نمضتم بأعباء الوزارة نهضة     | أقلتم بها الأقدام من زلة العثر   |
| كشفتم عن الإقليم غمته كما     | كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر    |
| حميت من الإفريج سرب خلافة     | جرىتم لها مجرى الأمان من الذعر   |
| ولما استغاث ابن النبي بنصركم  | ودائرة الأنصار أضيق من شبر       |
| جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجا | وما اشتقت الأنصار إلا من النصر   |
| كتائب فى جيرون منها أواخر     | وأولها بالنيل من شاطئ مصر        |
| طلعتم فأطلعتم كواكب نصره      | أضاءت مكان الدين ليلا بلا فجر    |
| وآبت إليكم يابن أيوب دولة     | تراسلكم فى كل يوم مع السفر       |
| حمى الله فيكم عزمة أسدية      | فككتم بها الإسلام من ربة الأسر   |
| أخذتم على الإفريج كل ثنية     | وقلتم لا يدي الخيل مرى على (مرى) |
| لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم  | عبرتم ببحر من حديد على الجسر     |
| طريق تقارعت عليها مع العدى    | ففزتم بها والصخر تقرع بالصخر     |
| وأزعجه من مصر خوف يلزه        | كما لز مهزوم من الليل بالعجر     |
| وكم وقعة عذراء لما افتضضتها   | بسيبك لم تترك لغيرك من عذر       |
| وأيديكم بالبأس كاسرة العدى    | ولكنها بالجود جارة الكسر         |
| أبوك الذى أضحى ذخيرة مجدكم    | وأنت له خير النفائس والذخر       |
| ومن كنت معروفاً له فاستفزه    | بمثلك تيه فهو فى أوسع العذر      |

توقره وسط الندى كرامة  
وتخلفه حربا وسلبا خلافة  
وكم قت في بأس وجود ورتبة  
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم  
يد لا يقوم المسلمون بشكرها  
بكم آمن الرحمن أعظم يثرب  
ولورجعت مصر إلى الكفر لانطوى  
ولكن شدتم أزره بوزارة  
فهنيتم فتحا تقدم جله  
وما بقيت في الشرك الا بقية  
وعند تمام الملك آتى مهنتا  
ولولا اعتقادي أن مدحك قرينة  
لما قلت شعرا بعد إعفاء خاطري  
فأوص بي الأيام خيرا فانها  
وجائزتي : تسهيل إذني عليكم

وتحمل عنه ما يؤود من الوقر  
تؤلف أصدادا من الماء والحجر  
بما سره في الخطب والدست والشعر  
لنعمتكم بالمستحق من الشكر  
لكم آل أوب إلى آخر الدهر  
وآمن أركان الثنية والحجر  
بساط الهدى من ساحة البر والبحر  
غدا لفظها يشفق من شدة الأزر  
وبشر أن الكل يتلو على الإثر  
تمتها في ذمة البيض والسمر  
وملتمسا أجر الكهانة والزجر  
أرجى بها فيل المثوبة والأجر  
ولى سنوات منذ تبت عن الشعر  
مصرفة بالنهى منك وبالأمر  
وملتماكم لى بالطلاقة والبشر (١)

ولما قتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة وجدنا بعض الشعراء  
يعرضون في أشعارهم بالوزير المقتول ، بل يهجونه أقبح هجاء ، فالشاعر حسان  
عرقلة - ولم يكن مصرياً وإنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر وأشد شعرا في الحوادث  
التي جرت في هذه الأوقات - قال لما قتل شاور وتولى شيركوه قال :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة  
كان ابن شاذى والصلاح وسيفه  
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه  
بغى وطغى حتى لقد قال قائل  
فلا رحم الرحمن تربة قبره  
له شيركوه العاضدى وزير  
على لديه شبير وشبير  
وشاور كلب للرجال عقور  
على مثلها كان اللعين يدور  
ولا زال فيها منكر ونكير

(١) كتاب الروضتين ج ١ ص ١٦٣ (طبعة مصر سنة ١٢٨٧) .

وقال في قصيدة أخرى :

إن أمير المؤمنين الذي مصر حماه وعلى أبوه

نص على شاور فرعونها ونص موساهما على شيركوه (١)

وما كادت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون ملوكهم ويقدمون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر، وستحدث عن ذلك في كتابنا عن الأيوبيين، ويكفي أن نأتي الآن بمثال لهذه الأشعار، فقد قال أحد الشعراء يمدح الأيوبيين :

ألستم مزبلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر، إن هذا هو الفضل

زنادقة سبعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل

يسرون كفرا يظهرون تشيعا ليستروا شيئا وعمهم الجهل (٢)

وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء . فالشعراء كانوا يلتمسون الأحداث لمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم حتى دالت الدولة الفاطمية .

المهذب بن الزبير:

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المهذب، كان من أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان. وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر، رحلا من أسوان إلى القاهرة، وما زالا يرتقيان في مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء. أما المهذب فقد قدمه القاضي الجليس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيق فحظي عنده وحصل له من الملك مال جهم لم ينل غير المهذب منه أحد مثله، وأوفد المهذب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن، وهناك أتاحت له فرصة جمع كتب الأنساب اتخذها مصدرا لكتاب كبير صنفه في عشرين مجلدا هو «كتاب الأنساب» اطلع ياقوت الحموي على بعض أجزاء منه فوصفه بقوله وفوجده مع تحقيق هذا العلم، وبحثي عن كتبه، غاية في معناه لا مزيد عليه، يدل على جودة قريحته مؤلفه وكثرة اطلاعه، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري وأوجز في بعض أخباره عن البلاذري، إلا أنه إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره لا يتركه حتى

يعرفه بجمده من إيراد شيء من شعره وخبره<sup>(١)</sup> يجمع ابن الزبير بين العم والشعر .  
وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير  
لتقويمه وإصلاحه . قبل عرضه على الناس ، ووصف العاد شعره بقوله « محكم الشعر  
كالبناء المشيد وهو أشعر من أخيه وأعرف بصناعته وإحكام معانيه . . ولم  
يكن في زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، ومحل في الفضائل أكثر »<sup>(٢)</sup> .  
ووصف المهذب شعره مرة وهو يعرض بابن الصياد الملقب بالمفيد الشاعر :  
فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة      ولكنها عن يمينه ليس تبرح  
ليهنك ، لا هנית ، أن قصائدني      مع النجم تسرى أومع الريح تسرح  
وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك ، وكان الوزير يفرى الشعراء  
بعضهم ببعض ويسر للاستماع إلى نقائص الشعراء وأهاجيهم :

يا أيها الملك الذي أوصافه      غرر تجلت للزمان الأسفع  
لا تطمع الشعراء في فإنني      لو شئت لم أجن ولم أتخشع  
إن لم أكن ملء العيون فإنني      بالقول يابن الصيد ملء المسمع  
فليمسكوا عنى فلولاً أنى      أبقى على عرضي إذ لم أجزع  
وأهم من هجوى لهم مدح الذي      رفع القريض إلى المحل الأرفع  
ولو أنه ناجى ضميري في الكرى      طيف الخيال برية لم أهيجع  
وإذا بدا لي الهجر لم أر شخصه      وإذا يقال لي الخنالم أسمع  
والناس قد علموا بأنى ليس لي      مذكنت في أعراضهم من مطمع<sup>(٣)</sup>

فنحن أمام شاعر عف اللسان ، محترم لنفسه بابتعاده عما يعرضه إلى هجاء  
زملائه ، وإذا عرض لأحد الشعراء فيما يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية  
فن الشعر ، فقد كان المهذب شاعرا من قول شعراء العربية . ولا أغالى إذا قلت  
إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربي ، لم تنجب من  
أبنائها شاعرا له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد وصلت  
إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله ، فمن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي

(٢) الحريرة ورقة ١٣٨ .

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٩

(٣) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب .

العين عند ما قبض على أخيه الرشيد ، بمدحه ويستعطفه ، حتى أطلق سراح أخيه ،  
ففيها يقول :

يا ربيع أين ترى الأحبة يَمُوموا      هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا  
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما      يسرى إذا جن الظلام الأنجم  
وتعوضت بالأنس روحى وحشة      لا أوحش الله المنازل منهم  
لولاهم ما قمت بين ديارهم      حيران أستاف الديار وألثم  
أمنازل الأحباب أين هم وأرى      من الصبر من بعد التفرق عنهم  
يا ساكنى البلد الحرام وإنما      فى الصدر مع شحط المزار سكنتم  
يا ليتنى فى النزولين عشمية      بمنى ، وقد جمع الرفاق الموسم  
فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة      منكم إذا لى الحجيج وأحرموا  
إنى لأذكركم إذا ما أشرقت      شمس الصحنى من نحوكم فأسلم  
لا تبعثوا لى فى النسيم تحية      إنى أغار من النسيم عليكم  
إنى امرؤ قد بعث حظى راضيا      من هذه الدنيا بحظى منكم  
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا      منكم وزهدت إلا فيكم  
ورأيت كل العالمين بمقلة      لو ينظر الحساد ما نظرت عموا  
ما كان بعد أخى الذى فارقت      ليبوح إلا بالشكايه لى فم  
هو ذاك لم يملك علاه «مالك»      كلا ولا وجدى عليه «متمم»  
أقوت معانيه وعطل ربعه      ولربما هجر العرين الضيغم  
ورمت به الأهوال همه ماجد      كالسيف يمضى عزمه ويصمم  
يا راحلا بالمجد عنا والعللا      أترى يكون لكم إلينا مقدم  
يفديك قوم كنت واسط عقدهم      ما إن لهم منذ غبت شمل ينظم  
لك فى رقابهم وإن هم أنكروا      منن كأطواق الحمام وأنعم  
جهلوا فظنوا أن بعدك معتم      لما رحلت وإنما هو مفرم  
فلقد أقر العين أن عدك قد      هلكوا بيغيهم وأنت مسلم  
لم يعصم الله ابن معصوم من الآ      فات ، واخترم اللعين الأخرم (١)

(١) الأخرم هو صاحب الدعوة الدرزية التى ظهرت أمام الحاكم ونادت بالوحيته .

واعترضت بعدهم بأكرم معشر  
 فلعمر بجدك إن كرمت عليهم  
 أقيال بأس خير من حملوا القنا  
 متواضعون ولو ترى ناديتهم  
 وكفاهم شرفا ومجدا أنهم  
 هو بدر تم في سماء علام  
 ملك حماه جنة لعفاته  
 أتى عليك بما مننت وأنت من  
 فاغفر لي التقصير فيه وعده  
 مع أنتى سيرت فيك شواردا  
 تغدو وهوج الذاريات رواكد  
 وإذا المآثر عددت في مشهد  
 وإذا تلا الراون محكم آياها  
 وكفى برأى إمام عصرك ناقضا  
 بدهوا لك الفعل الجميل وتمموا  
 إن الكريم على الكرام مكرم  
 وملوك قحطان الذين هم هم  
 ما استطعت من إجلالهم تسكلم  
 قد أصبح الداعي المتوج منهم  
 وبنو أبيه بنو ربيع أنجم  
 لكنه للحاسدين جهنم  
 أوصاف بجدك يا مليكا أعظم  
 مع ما تجود به على وتنعم  
 كالدر بل أهى لدى من يفهم  
 وتبيت تسرى والكواكب نوم  
 فبذكرها يبدأ المقال ويختم  
 صلى عليك السامعون وسلوا  
 ما أحكم الأعداء فيك وأبرموا (١)

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الزبير كان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديوانه، وأنه كان من الشعراء الذين لم يخذعوا بهرج اللفظ، ولم تهرهم زينته، حقيقة قد لم ببعض مقابلات بدعية ولكنه لم يسرف فيها لإسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البدعية، فأفراطوا فيها إفراطا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته، وأخلوا بالمعنى في سبيل اللفظ؛ ولناخذ مثلا آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك، لنستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن شعراء فحول الأمويين والعباسيين:

أقصر فديتك عن لومي وعن عدلى  
 من كل طرف مريض الجفن تشدنا  
 أو لا، نخذلى أمانا من يد القتل  
 الحماظه رب رام من بني ثعل،  
 وفر بما صحت الأجسام بالعلل،  
 وهو السقيم، شفا

إن الذي في جفون البيض إذ نظرت  
كذلك لم يشتهه في القول لفظهما  
وقد وقفت على الأطلال أحسبها  
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل  
وكل بيضاء لومست أناملها  
تغنى من الدر والياقوت لبستها  
بالخذ مني آثار الدموع كما  
كأن في سيف سيف الدين عن خجل  
هو الحسام الذي يسمو بحامله  
إذا بدا عاريا من غمده خلعت  
وإن تقلد بحرا من أنامله  
من السيوف التي لاحت بوارقها  
ومنها:

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت  
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأ  
يشكو مصائب أيام قد اتسعت  
يرجوك في دفعها بعد الإله وقد  
فما تخاف الردى نفس، وكم رضيت  
إني امرؤ قد قتلت الدهر معرفة  
إن يروء الصبا عودى فقد عجمت  
تجاوزت في مدى الأشياخ تجر بتي  
وأول العمر خير من أواخره  
دوني الذي ظن أني دونه فله  
والبدر يعظم في الأبصار صورته  
ما ضر شعري أني ما سبقت إلا  
فإن مدحي لسيف الدين تاه به

أعداك غير صليل البيض في القل  
نصار لولاك لم ينطق ولم يقل  
فضاق منها عليه أوسع السبل  
يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل  
بالعجز خوف الردى نفس فلم تبيل  
فما أبيت عل بأس ولا أمل  
مني طروق الليالي عود مكتهل  
قدما وما جاوزت بي سن مقبيل  
وأين ضوء الضحى من ظلمة الأصل  
تعاظم لينال المجد بالجبل  
ظنا ويصغر في الأفهام عن زحل  
أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل  
زهوا على مدح سيف الدولة البطل<sup>(١)</sup>

ولعلك تلاحظ في هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر في البيت الثاني إشارة  
أمرى القيس إلى بني ثعل وقول امرى القيس:

رب رام من بني ثعل مخرج كفيه من ستره  
وكيف ضمن ابن الزبير في البيت الثالث عجز بيت المتنبي من قوله:  
لعل عتبك محمود عواقبه فرما سحت الأجسام بالعلل

والشاعر في هذه القصيدة ، بل في كل قصائده التي وصلت إلينا من ديوانه الذي  
فقد ، يظهر شاعرية حول الشعراء ، تلك الشاعرية الطبيعية التي يصدر عنها  
هذا الشعر الجزل الرصين الذي لا نجد له مثيلاً بين شعر مصر الفاطمية ، ولعل  
ذلك يرجع الى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ في القاهرة أو الفسطاط ، ولكنه  
نشأ في أسوان ، وتطبع هناك بالبيئة التي أحاطت به ، فهي محافظة أكثر من بيئة  
القاهرة ، وهي إلى البداوة أقرب ، لبعدها أولاً عن بقية بلاد القطر ، وليبتها  
الجغرافية التي جعلت منها بلداً يتميز بجو خاص ، وتربة هي مزيج من أقسام  
صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون في هذا البلد أو ينشأون  
فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضرة ، فلعل هذا هو السبب  
في أن نرى شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصينا جزلاً لا نجد فيه طراوة  
شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولانعومة شعر الأمير تميم أو إبراهيم الرسي  
أو حيدرة العقيلي ، ولا شعبية شعر ظافر الحداد .

أصيب هذا الشاعر في أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان يرثا منها  
فقد حبسه شاور ظلماً بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب إبان  
حصار الاسكندرية ، فأخذ المهذب يستعطف شاور ، ويرسل إليه الأشعار في مدح  
ابنه الكامل بن شاور ، فمن ذلك قوله :

|                               |                                 |
|-------------------------------|---------------------------------|
| إذا أحرقت في القلب موضع سكنها | فمن ذا الذي من بعد يكرم مثواها  |
| وإن نزلت ماء العيون بهجرها    | فمن أي عين تأمل العيس سقياها    |
| وما الدمع يوم البين إلا لآلئ  | على الرسم في رسم الديار نثرناها |
| وما أطلع الزهر الربيع وإنما   | رأى الدمع أجياد الغصون خلاها    |
| ولما أبان البين سر صدورنا     | وأمكن فيها الأعين النجل مرماها  |



عددنا دموع العين لما تحدرت      دروعا من الصبر الجميل نزعناها  
ولما وقفنا للوداع وترجمت      لعيني عما في الضئير عينها  
بدت صورة في هيكل فلواننا      ندين بأديان النصرى عبدناها  
وما طربا صغنا القريض وإنما      جلا اليوم مرآة القرائح مرآها  
ليالى كانت في ظلام شببتي      سراى وفي ليل الذوائب مسراها  
تأرج أرواح الصبا كلما سرى      بأنفاس ريا آخر الليل رياها  
ومهما أدرنا الكأس باتت جفونها      من الراح تسقيننا الذى قد سقينها  
ومنها :

ولولم يجد يوم الندى في يمينه      لسائله غير الشيبية أعطاها  
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها      سياسة من قاس الأمور وقاساها  
ومن كلف الأيام ضد طباعها      فعاین أهوال الخطوب فعاناها  
عسى نظرة تجلج بقلبي وناظرى      صداه فإني دائما أتصداها (١)  
فأطلقته هذه الأشعار من سجنه ، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه .

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان ، ويتألم لأخلاق الناس حوله ،  
فهم سواسية في اللؤم . وكان يتطلع إلى المجد ، فهو يفخر بنفسه ، ويفخر بشعره ،  
فهو يقول في إحدى قصائده :

تشابه الناس في خلق وخلق      تشابه الناس والأصنام في الصور  
ولم أبت قط من خلق على ثقة      إلا وأصبحت من عقلى على غرر  
لا تخدعنى بمرئى ومستمع      فما أصدق لا سمعى ولا بصرى  
وكيف آمن غيرى عند نائبة      يوما إذا كنت من نفسى على حذر  
تأبى المسكارم والمجد المؤثر لى      من أن أقيم وآمالى على سفر  
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من      شمس وأسير فى الآفاق من قمر  
وسوف أرمى بنفسى كل مهلكة      تسمى بها الشهب إن سارت على خطر  
إما العلا وإليها منتهى أملى      أو الردى فإليه منتهى البشر (٢)

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦١ .

(٢) الحريرة ٤٩ ب .

ويقول مرة أخرى :

ومن نكد الأيام أنى كما ترى      أكابد عيشا مثل دهرى أنكدا  
أمنت عداقى ثم خفت أحببى      لقد صدقوا إن الثقات هم العدا (١)  
وقد توفي هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ .

القاضى الرشيد بن الزبير :

أما ثانى المهديين الأخوين الشعارين فهو أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير  
الغسانى ، وكان الرشيد أعلم من أخيه ، وأخوه أشعر منه ، ففسد ضرب الرشيد  
بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى  
والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها : كتاب « منية الأملى » ، وبلغه  
المدعى ، وكتاب المقامات . ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب « جنان الجنان » ،  
وروضة الأذهان ، الذى تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها ، وجعله  
ذيلًا على يتيمة الدهر للثعالبي ، وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد الأصفهاني  
أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الحريرة . وللرشيد عدة كتب أخرى  
منها كتاب « الهدايا والطرف » ، وكتاب « شفاء الغلة فى سمات القبلة » ، وبمجموعة  
رسائله ، وديوان شعره ، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم ،  
ويحدثنا العماد أن محمد بن عيسى اليميني أخذ عن الرشيد باليمن علم الهندسة (٢) ،  
ولكن الرشيد عرف بالشعر أكثر مما عرف بهذه العلوم ، حتى قيل إن سبب  
تقدمه فى الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر ، وحضر المآتم مع  
الشعراء ، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التى مطلعها :

ما للرياض تيميل سكرًا      هل أسقيت بالمزن خمرا

إلى أن وصل إلى قوله :

أفكر بلاء بالعراق      وكربلاء بمصر أخرى

فضح القصر بالبكاء ، وانثالت عليه العطايا ، ومن ثم بدأت صلته بالقصر  
والوزراء ، ثم أوفد مبعوثًا إلى اليمن ، ولا ندرى الأمر الذى من أجله أوفد  
إليها ، وإن كان صاحب كتاب الفترات والقرانات يشير إلى أن الرشيد لم يكن

(٢) الحريرة ١٣٦ .

(١) الحريرة ٤٩ ب .

رشيدا في بعثته ، ولعل هذه إشارة إلى ما روى أن الرشيد قد قضاه اليمن ولقب  
هناك « بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن » ، وأنه مكث هناك عامين ، فقيل إنه  
مدح الأمير علي بن حاتم الهمداني بقصيدة منها :

لقد أجديت أرض الصعيد وأقحطوا      فلست أنال القحط في أرض قحطان  
وقد كفلت لي مأرب بمآربي      فلست على أسوان يوما بأسوان  
وإن جهلت حتى زعائف خندف      فقد عرفت فضلي غطارف همدان

حسده داعي عدن وكتب بهذه الأبيات إلى مصر ، فكانت هذه الأبيات  
سببا في غضب أولى الأمر بمصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعدن ، فأخذ الرشيد  
وحبس ثم صفح عنه . وقيل بل إن السبب غير ذلك ، وذلك أن نفسه سمت إلى  
مرتبة الخلافة في اليمن فسعى فيها ، وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت له السكة  
فنقش على وجهه « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، وعلى الوجه الآخر : « الإمام  
الأجد أبو الحسن أحمد ، فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلا ، ثم أفرج عنه .  
ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية ، فإن الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم  
وعقل لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعى الإمامة في الوقت الذي أنكرت فيه إمامة الحافظ  
والفائز والظافر والعاقد ، ودعى فيه للإمام المستور ولقائم القيامة ، ثم إن  
مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الأمر بأحكام  
الله ، فكيف يدعى الرشيد الإمامة في اليمن ، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة  
وأهمها أن يكون الإمام من نسل النبي ، وأن يكون الإمام قبله قد نص عليه ،  
ولعل القائمين بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من الغيباء والبله لدرجة العفو  
عن مثل هذا الرجل الدعوى ، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك  
وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر تعصبا للذهب والإمامة ، لهذا كله  
أرى أن الرشيد إنما أمسك وسجن بسبب حقد داعي عدن عليه . وقد رأينا  
قصيدة أخيه المهذب التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد ، فلم  
نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة ، وقد علم الرشيد بأمر هذه  
القصيدة ، فأجاب أخاه بقصيدة هي :

ياربع ، أين ترى الأجابة يمموا      رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم  
وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم      وضيء نور الشمس ما لا يكتم

وتبدلوا أرض العقيق من الحى  
 نزلوا العذيب ، وإنما فى مهجتي  
 ما ضرهم ، لو ودعوا من أودعوا  
 هم فى الحشا إن أعرقوا أو أشاموا  
 وهم بحال الفسكر من قلبي وإن  
 أحبابنا ، ما كان أعظم هجركم  
 غبتم فلا والله ما طرق السكرى  
 وزعمتم أنى صبور بعدكم  
 وإذا سئلت بمن أهيم صباية  
 النازلين بمهجتي وبمقتاتي  
 لا ذنب لى فى البعد أعرفه سوى  
 فأقت حين ظعنتم وعدلت لما  
 جرتم وسهدت لما نتم  
 يا محرقا قلبي بنار صدودهم  
 أسعرتم فيه لهيب صباية  
 يا ساكنى أرض العذيب سقيتم  
 بعدت منازلكم وشط مزاركم  
 لا لوم للأحباب فيما قد جنوا  
 أحباب قلبي أعمروه بذكركم  
 واستخبروا ريح الصبا تخبركم  
 كم تظلمونا قادرين ، وما لنا  
 ورحلتم ، وبعثتم ، وظلمتم  
 هيئات لا أسلوبكم أبداً وهل  
 وأنا الذى واصلت حين قطعتم  
 جار الزمان على لما جرتم  
 وغدوت بعد فراقكم وكأنى  
 ونزلت مقهور القواد ببلدة  
 فى معشر خلقوا شخوص بهائم

روت جفونى أى أرض يمموا  
 نزلوا ، وفى قلب المتيم خيموا  
 نار الغرام ، وسلموا من أسلموا  
 أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا  
 بعد المزار فصفو عيشى معهم  
 عندى ، ولكن التفرق أعظم  
 جفنى ولكن سح بعدكم الدم  
 هيئات لا لقيتم ما قلت  
 قلت : الذين هم الذين هم هم  
 وسط السويدا والسواد الأكرم  
 أنى حفظت العهد لما ختم  
 لما جرتم وسهدت لما نتم  
 رفقا ففيه نار شوق تضرم  
 لا تنطقى إلا بقرب منكم  
 دمعى إذا ضن الغام المرزم  
 وعمودكم محفوظة منذ غبتم  
 حكمتهم فى مهجتي فتحكموا  
 فلطالما حفظ الوداد المسلم  
 عن بعض ما يلقى القواد المغرم  
 جرم ولا سبب ، لمن تنظلم  
 ونأيتم ، وقطعتم ، وهجرتم  
 يسلو عن البيت الحرام المحرم  
 وحفظت أسباب الهوى إذ ختمتم  
 ظلما ، ومال الدهر لما ملتم  
 هدف يمسر بجانيه الأسهم  
 قل الصديق بها وقل الدرهم  
 يصدأ بها فكر اللبيب ويهم

إن كورمو، لم يكرموا ، أو علموا لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا  
لا تنفق الآداب عندهم ولا الإحسان يعرف في كثير منهم  
صم عن المعروف حتى يسمعون هجر الكلام فيقدموا ويقدموا  
فأله يغني عنهم ، ويزيد في زهدى لهم، ويفك أسرى منهم (١)  
فهذه القصيدة التي أجاب بها عن قصيدة أخيه ، والتي قالها الرشيد وهو أسير  
في اليمن ، تؤيد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه إنما هي قصة  
موضوعة ، فالرشيد لم يشر إليها ولم يعتذر عنها، وإنما يتحدث عن أعدائه الذين  
لم يقدرُوا شعره ، فلم تنفق الآداب عندهم ، ولم يقدرُوا إحسانه إليهم ، فهم  
صم عن المعروف ، وهم ، شخوص بهائم . فالرشيد لم يكن بالرجل الذي يطلب  
الإمامة لنفسه ، ثم يقول مثل هذا القول .

كان الرشيد كما وصفه ياقوت : على جلالته وفضله ومنزله من العلم والنسب  
قبيح المنظر أسود الجلده جهم الوجه سميج الخلقه ذا شفة عليظة وأنف مبسوط  
كخلقه الزوج قصيرا (٢) فكان ذلك سببا في تهكم شعراء مصر به ، فقد قيل : إن  
الرشيد ولى على المطبخ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك :

يولى على الشيء أشكاله فيصبح هسدا لهذا أبا  
أقام على المطبخ ابن الزبير فولى على المطبخ المطبخا (٣)

وما يروى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء  
والفضلاء ؛ فألقى الصالح مسألة في اللغة فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد ؛  
فأعجب به الصالح ؛ فقال الرشيد : ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فيها .  
فارتجل الشاعر ابن قادوس :

إن قلت : من نار خلقت ، وفقت كل الناس فهما  
قلنا : صدقت ، فما الذى أطفأك حتى صرت لقا

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله :

ياشبه لقمان بلا حكمة وخامرا في العلم لا راسخا  
سلخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى الأسود السالخوا

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٢ .

(٢) الحريدة .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٨ .

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت نقش صورة  
الشيطان على الخاتم. ولعل سواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب التي جعلته  
يكثر من ذم الدهر والناس ، وأن يظهر في شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان  
وغدرهم به ، فقد أنشد وهو في اليمن :

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما      ظننت بأني قد ظفرت بمنصف  
فإنك قد قلدتني كل منة      ملكت بها شكرى لدى كل موقف  
لأنك حذرتني كل صاحب      وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي<sup>(١)</sup>  
وأنشد مرة أخرى وهو في مصر :

تواصى على ظلمي الأنام بأسرهم      وأظلم من لا قيت أهلى وجيرانى  
اكل امرى شيطان جن يكيدنه      بسوءولى دون الورى ألف شيطان<sup>(٢)</sup>

اتصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه، وولى سنة ٥٥٩ هـ  
النظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية ، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي  
أثناء محاصرته بالإسكندرية ، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه ، فاقتفى الرشيد  
بالإسكندرية ، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلافس هذه الأبيات :

تدائيت دارا والوصول نسوع      تخلك ذو الود الوصول قطوع  
حجبت ولم تحجب محاسنك التي      تأتق منها يا غمام ربيع  
وضيعت في صون فضعت وهكذا      يسان فتيت المسك وهو يצוע  
وإنك والبيت الذى قد عمرته      لكالقلب قد ضمت عليه ضلوع  
وما أنت إلا العضب لازم جفنه      لينضى بكف إذ يروق يروع  
سيفتق عن زهر بديع كاهه      فماذاك من صنع الإله بديع  
وتسفر عن صبح شريق دجنة      ولا سيما قد كان منه طلوع  
كأنى بها يا بن الكرام مغيرة      لها فوق هاتيك الربوع ربوع  
بحيث تريك البر كالبهر ذبل      ويبيض ويبيض أشرفت ودروع  
وفرسان حرب لا البعيد عليهم      بعيد ولا العالى الرفيع رفيع  
بذلك لا تعجب ، فإنى قائل      وإنك فى الشهر الأصم سميع<sup>(٣)</sup>

(٢) المصدر نفسه

(١) الحريدة ورقة ٣٦ ب

(٣) ديوان ابن قلافس ص ٦٥

وظل الرشيد محتفياً إلى أن قبض عليه وأشهر على جمل وعلى رأسه طرطور ووراءه من ينال منه ، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :

إن كان عندك يا زمان بقية مما تهين به الكرام فهاهما  
ثم صلب شنقا ودفن حيث شئت . ومن غريب الاتفاق أن يدفن شاوور بعد  
أيام قليلة في نفس المكان الذي دفن فيه الرشيد . ورثى الجليل بن الحباب صديقه  
الرشيد بقوله :

ثروة المكرمات بعدك فقير ومحل العلاء ببعدهك قفر  
بك تجلى إذا حللت الدياجي وتمر الأيام حيث تمر  
أذنب الدهر في مسيرك ذنبا ليس منه سوى إيابك عذر<sup>(١)</sup>

القاضي الجليل :

هو أبو المعالي عماد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي  
الجليل السعدي ولقب بأمين الدين<sup>(٢)</sup> ، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقتدى  
بهم عمارة اليمنى في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك ، والاثنان الآخران هما  
ابنا الزبير المهذب والرشيد ، ولكن يخيل إلى أن الجليل كان أقل الثلاثة جودة  
في الشعر ، وأقلهم إنتاجاً في القريض . وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع  
الموفق بن الخلال أيام الفائر<sup>(٣)</sup> ، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام ابني الزبير ،  
وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر  
الخليفة الظافر ، والقدماء يذكرون أن الجليل له المعاني المبدعة في شعره ، ومثلوا  
لذلك بقوله :

ومن عجب أن الصوارم في الوغى تحيض بأيدي القوم وهي ذكور  
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً والأكف بجور<sup>(٤)</sup>

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتى بها في البيت الأول ،  
فإن لا أعجب بها كما أعجاب القدماء ، وإن كنت أعجب بالبيت الثاني . ومن مقطوعاته  
التي حفظت لنا قوله يتهمك بطبيب :

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥١ .

(٢) مسالك الأبصار لابن فضل الله ج ١٢ ص ٢١٨٧ نسخة حطية بدار السكتب المصرية

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨ (٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧١

وأصل بليتي من قد غزافي  
طيبيب طبه كغراب بين  
أتى الحمى وقد شاخت وبأخت  
ودبرها بتديير لطيف  
وكانت نوبة في كل يوم  
سم قوله في مدح طيبيب :

يا وارثا عن أب وجد  
وحاملا رد كل نفس  
أقسم لو قد طببت دهرا  
فضيلة الطب والسداد  
همت عن الجسم بالبعاد  
لعاد كونا بلا فساد (٢)

وكان الجليس من كبار رجال الدولة ، ولقب بالجليس لانه كان جليس الخلفاء  
مقربا إليهم ، فلا غرو أن رأينا شعراء عصره يلوذون به وينشدونه مدائحهم فيه ،  
فقد مدحه ابن قلاؤس بعدة قصائد منها قوله :

عفا طربي إلى عافى الرسوم  
وكننت أبا المنازل والقيافي  
أميل إلى سلافة بنت كرم  
هدتنا للسرور نجوم راح  
وكف الصبح يلقط ما تبدى  
فإن توجت راحي كأس راح  
ولما أقفرت أوكار وفري  
إلى القاضى الجليس استنجدتها  
فقال لها لسان الدهر : هذا  
تقسم بين شمس ضحى وبحر  
وجلى ظلمتى خطب وجنب  
وملك حاسديه فجاذبته  
فلا روى الغام ربى الغميم  
فصرت أبا المدامة والنديم  
وأدنو من سوائف أم ريم  
بها قذفت شياطين الهموم  
يحيد الليل من درر النجوم  
فشرب الإثم أولى بالاثم  
عمرت بعزمتى أكوار كوى  
أزمة نجدة وحدات خيم  
تمام الفضل أودع في تيم  
هداية قاصد وغنى عديم  
برأى يجرب وندى عميم  
خلائقه إلى الطبع الكريم

(٢) المصدر نفسه

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦



عجبت لوجهه ولراحتيه      سنا شمس تبدي في غيوم  
ومطلب مداه كما فقلنا      أليم العيش أولى بالثيم  
وقافية أهرز بها إذا ما      نطقت معاطف الطرب الرميم  
تسير وإن أقام بها ثناه      وأعجب ما ترى سفر المقيم<sup>(١)</sup>

ومدحه رضى الدولة أبو سليمان داود بن مقدم الذى أنشد قصيدة فى وصف  
حاله ومدح فيها الجليس ، ومنها :

وقد بكرت تلوم على خمولى      كأن الرزق يحلبه خيالى  
تقدر أنى بالحرص أحوى الـ      ثراء وذاكم عين المحال  
تقول إذا رأيت لإرشاد قولى      هبلت ألا تهب إلى المعالى  
ومن لم يعشق الدنيا قديما      ولكن لا سبيل إلى الوصال  
ولو أدليت دلوك فى دلاء      متحت به من الماء الزلال  
وكم أدليت من دلو ولكن      بلا بلل يرد على قذالى  
ولا أنا بالكفاف النزر راض      ولا أنا عن طلاب الكثر سال  
ولكن ذاك من قبل اعتمادى      على عبد العزيز أبى المعالى<sup>(٢)</sup>

كما مدحه الشاعر عمارة اليمنى بعدة قصائد .

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان مولعا  
بهجاء القاضى الجليس ، كثير التهكم بأنفه الكبير ، حتى قيل إن ابن الصياد أنشد  
أكثر من ألف مقطوعة فى أنف الجليس<sup>(٣)</sup> ، إلى أن انتصر له الشاعر أبو الفتح  
ابن قادوس الذى هجا ابن الصياد بقوله :

يا من يعيب أنوفنا الشـ      م التى ليست تعاب  
الأنف خلقة ربنا      وقرورك الشم اكتساب<sup>(٤)</sup>

وتوفى الجليس سنة ٥٦١ هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد ، وقيل إنه  
لما مات ابن الحباب شتم به المهذب ومشى فى جنازته بثياب مذهبة فاستقبح الناس

(٢) الحريدة ورقة ٩٩ ب

(٤) المصدر نفسه

(١) ديوان ابن فلاقس ص ١٠٠

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٧

أفعله ونقص بهذا السبب (١) ، ورثي الجليس عدد من الشعراء منهم ابن قلايس ،  
فمن قوله يرثي الجليس ويمدح ابنه :

علينا ، وقدمات الكمال ، التساويا  
وقمنا نرجي في المصاب مواسيا  
وبما شجنا أن المعالي تجددت  
سألت ، فقالوا مصرع لو علمته  
فحين احتوت كف المنون على المنى  
ومن يسأل الركبان عن كل غائب  
ولما سرى بي نحوه الوجد قاعداً  
وسيرت منها بالنوادي نوادبا  
وعضب جدال فليل الدهر حده  
ونور هدى أسرى به خابط الهوى  
لمنعاه قام الرعد بالجو نائحا  
وأسبلت الظلماء نور غدائر  
تخرمه الدهر المخاتل صائدا  
ولو رامه شاكي السلاح محسدا  
وهيات جر الدهر من قبل «جرهما»  
وكدر ندماني «جذيمة» بعد ما  
جليس أمير المؤمنين أقتها  
وقد كنت أجلوها عليك تهاننا  
ولولا سليلك اللذان توارثا  
هما ألبساني عنك ثوب تصبر  
سقى الرياح الغادي ضريحك صوبه  
ولا برحت فيك القلوب عقيرة

فيا حسنات الدهر عدن مساويا  
فأعوزنا لما عدمنا موازيا  
ولم تنتصر فيها الحكمة العواليا  
فأيقنت لسكنى خدعت فؤاديا  
تقلص عن يأمى جناح رجائيا  
فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيما  
ولم أستطع عقرا عقرت القوافيا  
شوائد بالذكر الجميل شواديا  
وما كان إلا قاضب الحد قاضيا  
فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا  
وبالبرق ملظوما وبالغيث باكيما  
إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا  
تخلف حتى الرى في الماء صاديا  
لراح كما لا يشتهي عنه شاكيما  
وشد على «عاد» و«شداد» عاديا  
أقاما زمانا يشربان التصافيا  
لفقدك فاسمع صالحات بواقيا  
فوا أسفاً كيف استحالت تعازيا  
حلاك ملأت الخافقين مرثيا  
وأعلاق قلبي باقيات كما هيا  
وإن كان يسقى الرائحات الغواديا  
تسيل بأسراب الدماء المآقيا (٢)

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٢) ديوان ابن قلايس ص ١١٥ .

### عمارة النبي

هو الشاعر الذي يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمي ، بالرغم من أنه لم يكن مصريا ، ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم ، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وأنشد قصيدته التي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم      حمدا يقوم بما أولت من النعم  
فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته ، فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم ، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليلي وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء وابن قادوس والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ومكث عمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠ ثم عاد إلى مكة ومنها رحل في صفر سنة ٥٥١ إلى وطنه الأصلي اليمن ، وفي هذه السنة ذهب لتأدية فريضة الحج ، فطلب منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى ، فجا. إلى مصر حيث أمضى ما بقي من سني حياته .  
اتصل عمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيق حتى انقضت الدولة الفاطمية ، لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان ، وبعد شعر عمارة من السجلات والوثائق التي تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التي أدت إلى زوال الدولة الفاطمية ، فإن الجزء الذي بقي لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد في كل حادثة ألمت بمصر في هذه السنين ، فقد كان يمدح الوزراء الذين كان يبدعهم مقاليد الأمور ، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة ، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح ، كما أنه وجد منها مادة لكتابه «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية ، كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم . ونحن نعلم أن عمارة كان سني المذهب ، بل كان متعصبا لمذهبه ، ولم يتحول عن هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يعتنق مذهب الفاطميين ، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثر بما كان يجري في مصر ، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة بعقائد الفاطميين ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما قبل . ونستشهد الآن بقصيدته

النونية التي قالها في رثاء أهل البيت في عاشوراء ، وضمنها مدحا للملك الصالح ، وهي القصيدة التي أولها :

شأن الغرام أجل أن يلحاني  
أنا ذلك الصب الذي قطعت به  
ملئت زجاجة صدره بضميره  
غدرت بموثقها الدموع فغادرت  
عنفت أجفاني فقام بعزرها

وفيها يقول عمارة :

يا صاحبي وفي بجانبه الهوى  
قبضت على كف الصباية سلوة  
أمسى وقلبي بين صبر خاذل  
قد سهلت حزن الكلام لنادب  
فابذل مشايعة اللسان ونصره  
واجعل حديث بنى الوصي وظلمهم  
غصبت أمية إرث آل « محمد »  
وغدت تخالف في الخلافة أهلها  
لم تفتنح أحلامها بركوبها  
وقعودهم في رتبته نبوية  
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم  
فأنى « زياد » في القبيح زيادة  
حرب بنو « حرب » أقاموا سوقها  
لهني على نفر الذين أكفهم  
أشلائهم مرق بكل ثنية  
مالت عليهم بالتماليء أمة  
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم  
ما كان أولاهم به لو أيدوا

رأى الرشاد فما الذي تريان  
تمهى النهى عن طاعة العصيان  
وتجلد قاص وهم دان  
آل الرسول نواعب الأحزان  
إن فات نصر مهند وستان  
تشبيب شكوى الدهر والحذلان  
سفها وشتت غارة الشنآن  
وتقابل البرهان بالبهتان  
ظهر النفاق وغارب العدوان  
لم يبئنا لهم « أبو سفيان »  
أخذوا بثأر الكفر في الإيمان  
تركت « يزيد » يزيد في النقصان  
وتشبهت بهم بنو « مروان »  
غيث الورى ومعونة اللفهان  
وجسومهم صرعى بكل مكان  
باعت جزيل الرج بالخسران  
بالنص فيه شواهد القرآن  
بالصالح المختار من « غسان »

أنساهم المختار صدق ولانته كم أول أرنى عليه الثاني (١)  
فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جارى القوم في عاداتهم ،  
وفي أشعارهم ، فهو لم يتشيع ، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء  
مصر في رثاء أهل البيت في أيام ماتمهم ، وشارك المصريين في احتفالاتهم ، فله  
عدة قصائد في كسر الخليج ، من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسمائة  
في مدح العاضد :

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر      ووارث علم النمل والنحل والحجر  
وفيها يقول :

تمل أمير المؤمنين مواسما      تزورك من صوم شريف ومن فطر  
يوصلها سعد بجمدك مقبل      فعام إلى عام وشهر إلى شهر  
ركبت إلى كسر الخليج وإنما      ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر  
ولما رأيت البر بحرا من الظبا      تعجبت من بحر يسير إلى نهر  
غدوت بفتح السد في زحف أرعن      يسد هبوب الريح بالأسل السمر  
يرد ظلام النقع فجرا كأنما      أسنته مطبوعة بسنا الفجر  
كأن على البيداء منه صحيفة      كتائبها سطر يضاف إلى سطر  
إذا خفقت أعلامه وبنوده      رأيت عليها غرة العز والنصر  
وقد خلع التأيد فوقك حلة      تطرز بالإحسان والعدل والبر  
أوارث مجد الحافظ بن محمد      وحافظ حكم الله في محكم المذكر  
إذا ما استجاب الله صالح دعوة      فتعك الرحمن بالناصر الذخر (٢)

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر  
الفاطمي ، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره ، بل بلغ به تأثره  
بالفاطميين إلى أن يريتهم ويثنى عليهم في الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين  
وشتم بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة ، فعارة النبي السني المذهب  
كان وفيها لهم الوفاء كله ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

رمىت يادهر كنف المجد بالشلل      وجيده بعد حسن الخلى بالعطل  
وفيها يقول ، بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشأتهم :

(١) النكت من ٣٦٣ وما بعدها      (٢) المصدر نفسه من ٢٣٥

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم  
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ  
ولا رأى جنة الله التي خلقت  
أتمنى وهداق والذخيرة لى  
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم  
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت  
باب النجاة هم دنيا وآخرة  
نور الهدى ومصايح الدجى ومحل  
أئمة خلقوا نورا فنورهم  
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا

فكانت هذه القصيدة ، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين  
لإعادة ملكهم بتولية ابن العاضد سبيا فى القبض عليه معهم وصلبه سنة تسع  
وستين وخمسة ، واتهمه الفقهاء بالكفر ، وقال فيه تاج الدين الكندى الشاعر :

عمارة فى الإسلام أبدى خيانة  
فأسمى شريك الشرك فى بغض أحمد  
وكان خبيث الملتقى إن عجمته  
سليق غدا ما كان يسعى لأجله  
وبايح فيها يبعة وصليبا  
فأصبح فى حب الصليب صليبا  
تجد منه عودة فى النفاق صليبا  
ويسقى صديدا فى لظى وصليبا (٢)

وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه بأموالهم وعظاياهم  
وأكرموا الإكرام كله ، فقابل ذلك كله بوفاء الوفى الأمين .

ابن فلاق :

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن فلاقس  
اللخمي الاسكندرى ، ولقب بالقاضى الاعز ، ولد بالاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ .  
وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبى طاهر السلفى وعن غيره ، ثم رحل عن  
مصر إلى اليمن فدخل عدن سنة ٥٦٣ هـ متكبسا بشعره فمدح بها ياسر بن بلال ،  
ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥ هـ ، ومدح بها القائد أبى القاسم بن الحجر ، وصنف  
باسمه كتابا سماه ، الزهر الباسم فى أوصاف أبى القاسم ، وشاء العودة إلى مصر

توفي بعيناب سنة ٥٦٧ هـ (١). فالشاعر كان يتجر بشعره ويرحل إلى الممدوحين بقصد الكسب، مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نوالهم. مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

في مرتقى الوحي تعلق مرتقى الأمل  
لا تنتجع للأمانى بعده دولا  
وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت  
لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته  
فافسح رجاءك واطلب فسحة الأجل  
فقد تأملت منه واهب الدول  
للناس أيامه عن صفوة الرسل  
لعاد واهي قرون الرأس كالوعل (٢)

ومدح الوزير شاور، وعرض بشيركوه بقوله:

عارض الصفع في يدك الصفاحا  
فرفعت الجناح عن جارم الذ  
ووضعت السلاح حين أراك ال  
أى ثغر سما إليه أبو الفت  
بخيول طارت بأجنحة النص  
وكاة غر قد اقتطعوا اللب  
ورماح تجنى فتجنك في الحر  
وظي تقطع الترائب مهما  
شاركت شيركوه في النفس والما  
طلب الأمن فاستجيب ومايه  
بعد ما ضيق الحمام عليه  
وأقامته كالجدور حماة  
فليطل بعدها الفخار فقد را  
يا معل الظبا البواتر ضربا  
فيك لله والخليفة سر  
ذاك أعطاك آية النصر تصر

ورأى البأس أن تطيع السماحا  
تب بعفو خفضت منه الجناحا  
مزم والرأى إن وضعت السلاحا  
ح فلم يتدر إليه افتاحا  
ر فراحت بها تبارى الرياحا  
ل وساقوه في العجاج صباحا  
ب شقيقا ما كان قبل أفاحا  
ألقحت بالضراب جبا لقاحا  
ل وصاحت به فصاحا فصاحا  
رف منك الطلاب إلا النجاحا  
سبلا غودرت لديه فساحا  
ضربت بالقنا عليه القداحا  
ح طليقا ليضكم حيث راحا  
ترك المجد والمعالي صحاحا  
أوضحاه لمبصر إيضاحا  
يحا وهذا أعطاك ملكا صراحا (٣)

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٦

(٢) ديوان ابن فلاقس ص ٨٨

(٣) ديوان ابن فلاقس ص ٢٥

ومدح الكامل بن شاور والقاضي الجليل والقاضي بن خليف والحافظ  
السلفي وابن مصال والقاضي الفاضل وغيرهم من رجال مصر ، فمن مدائح الكامل  
ابن شاور قوله :

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| حمد السرى من كنت وجه صباحه  | من بعد ذم غدوه ورواحه      |
| ورأى النجاح مؤمل ألحقته     | من حسن رأيك فيه ظل جناحه   |
| وأما وعزمك وهو أنهض فانك    | لقد انبرى والصفح تلو صفاحه |
| وبديع مدحك وهو أينق متجر    | لقد اغتدى والعز من أرباحه  |
| فالدهر بين فريده وفرنده     | متقلد بنجاده ووشاحه        |
| بأس تورد في خدود شقيقه      | وندى تبسم في ثغور أفاقه    |
| والكامل المسعود في آفاقه    | بدر جلا الإسماء عن إصباحه  |
| بمناقب سمت النجوم لنيلها    | فاستخدمتها في رموس رماحه   |
| ومواهب عان السحاب معينها    | فاستغرقت في بحور سماحه     |
| يا آل شاور أتم دون الورى    | للك كالأرواح في أشباحه     |
| وإلى معاليكم إشارة خرسه     | وعلى أياديكم نساء فصاحه    |
| لم لا يكون الشكر عندك منتجا | ونداك قوام بأمر لقاحه (١)  |

ولكنه كان مولعا بالأسفار وركوب البحر ، ولذلك يقول :

والناس كثر ولكن لا يقدر لى  
ولا مرافقة الملاح والحادى (٢)  
ويقول : فى مدح ياسر بن بلال الداعى بمدينة عدن ، وكان قد فارقه ،  
ولكن سفينه غرقت فعاد إليه مرة أخرى ، وأنشده هذه القصيدة يصف فيها  
غرقة ، ويتحدث عن ولعه بالأسفار :

|                      |                      |
|----------------------|----------------------|
| سافر إذا ما شئت قدرا | سار الهلال فصار بدرا |
| والماء يكسب ما جرى   | طيبا ويخبث ما استقرا |
| وبنقلة الدرر النقي   | ة بدلت بالبحر نحرا   |
| وصلا إذا امتلأت يداك | فإن هما خلتا فهجرا   |
| فالبدر أنفق نوره     | لما بدا ثم استسرا    |
| حركات عيسك ما أردت   | مهاد عيشك أن يقرا    |

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧

(١) الصدر نفسه ص ٢٧



إما ترينى شاحب الـوجنات قد ألبست طمرا  
فوقائع الأيام تخـرج أهلها شعثا وغبرا  
مدت إلى الأربعو ن يدا وقد قمقرت عشرا  
واستحدثت فى لمتى نقطا فهلا كن حبرا  
ما قلت أف فيها شرر بأف يعود جمرا  
وكففاك أنى إن نظر ت لها نظرت النجم ظهرا  
كان الشباب الغض لىـلا فاستنار الشيب لجرا  
ولئن تقلب نى الزما ن كما اشتهى بطننا وظهرها  
فبما قتلت صروفه وقتلته جلدا وخبرا  
غاض الوفاء وفاض ما . الغدر أنهارا وغدرا  
فانظر بعينك هل ترى عرفا، وليس تراه نكرا  
خلق جرى من آدم فى نسله وهلم جرا  
ومروعى بالبحر يحسب أننى أرتاع بجرا  
أوما درى أنى بتسـهيل المصاعب منه أدرى  
أعددت نظرة «ياسر» نحوى وسوف تعود يسرا  
من صرف الأقدار فى أيامه كسرا وجبرا  
واستخدم الأيام فى أحكامه نهيا وأمرا  
واتاشنى فى نظرة أولى سيتبعها بأخرى  
فالسحب ترشح إذ جرت فى إثره بالجهد قطرا  
والرعد رجع جاهدا أنفاسه تعبنا وهرا  
غرس الصنائع فى الرقا ب فأنبتت حمداً وشكرا  
يقظان إن نهته عمرا أو استنجدت عمرا  
ولرب طرة معرك سوداء أعدته طرا  
أمرى إلى أبطالها فأبادهم قتلى وأسرى  
من كل مئشع على نهر الدلاص الرعف نهرا  
جروا الذوائب والذوا بل خلفهم بيضا وسمرا  
فالسيف يقرع بينهم بثقيفه ، والضيف يقرى

ياراويا عن شخصه      خبرا ولم يعرفه خبرا  
والثم بنان يمينه      وقل السلام عليك بحرا  
وغلظت في تشبيها      بالبحر ، اللهم غفرا  
أو لست نلت بذا ندى      جما ، ونلت بذاك فقرا  
بنوافذ ترنو الريا      ح لها بطرف الحقد شزرا  
لا زال ينظر عودها      بنداها لدن المتن نصرا<sup>(١)</sup>

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البديعية في شعره ،  
بخلاف بعض الشعراء الذين عاصروه أمثال المهذب والرشيد والجليل وغيرهم ،  
وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألموا بالمحسنات البديعية ، ولكنهم لم يتعمدوها كما  
تعمدها ابن فلاقس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه المقابلات  
والتوريات وغيرها من ألوان الزينة اللفظية .

\* \* \*

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعراء ،  
في العصر الفاطمي ، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم ويأخذون  
عطاياهم ، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء أنفسهم إبان سطوتهم وقوة ملكهم ،  
ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع  
المتفرقة أو القصائد الناقصة ، ومع ذلك فالذي بقي لنا من الشعر يدلنا على أن  
نهضة الشعر كانت قوية ، وأن تياره كان جارفا ، وأن عدد الشعراء المجيدين  
تضاعف بحيث يخيل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينشد الشعر ، وأن  
كتاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء ، ويكفي أن نلقى نظرة على مجاميع  
الشعر ، أمثال اليتيمة والدمية والحريفة ، أو كتب التراجم ، لنندرك أن عددا كبيرا  
جدا من المصريين أنشد الشعر ، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر  
أن تبرز غيرها في مضمار القريض .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧ وديوان ابن فلاقس ص ٤٨ .

## الفصل الرابع

### الشعر والحروب الصليبية

يخيل لكل من يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن ، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة و لين ، ألم يتحدث المؤرخون عن النعيم الذي كان في العصر الفاطمي ، والترف الذي كان يرفل فيه المصريون ، والحياة الناعمة اللينة التي كان يحياها الناس ؟ ولكن المؤرخين أنفسهم تحدثوا أيضا عن لون آخر من الحياة ، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا ، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب ، ويتحينون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت لتل عرش العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب ، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين العتيد — أعني الروم — ودول جنوب أوروبا التي كان يهددها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشنكون في حروب صعبة المراس ، هي التي عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية . أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية في مصر وفي ممتلكاتها ، وحروب بين الأمراء لتولى الوزارة . فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ، وسجل الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم ، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بأنه عندما هزم هفتكين الشرائي التركي — مولى معز الدولة البويهى — في دمشق ، ثم طلب العفو من العزيز ، فوصف تميم هذا الحادث بقوله :

|                         |                        |
|-------------------------|------------------------|
| وإنا لقوم نزوع الزمان   | ولسنا نزاع إذا ما سطا  |
| ومنا الإمام العزيز الذي | به عاد سيف الهدى منتضى |
| سعى للشأم وقد أصبحت     | بها الحرب نزاعة للشوى  |

فكشفت من ليلها ما سجا  
ولما تقابلت الجحفلان  
ولم يبق في الصف من قاتل :  
وقد ولغت في الصدور الرماح  
وغنت على البيض البيض الذكور  
كأن الرماح سكارى تجو  
فلولا الإمام العزيز الذي  
فسكن عارض شؤبونها  
بدا لم دارعا في العجاج  
يكر ويبسم في موقف  
ولم يخذل السيف منه يدا  
يقود إلى الحرب من جنده  
فلو فدت الحرب قوما ، إذن  
فلم تصدر الرمح حتى انثني  
ولم يحمل الموت حتى حملت  
فما انفرجت عنك إلا وأنت  
بجاءك منهم ملوك الرجال  
ولاذوا بعفوك مستأمنين  
ولما رأى فتحها هفتبكين  
تولى لينجو فحفت به  
ولو طلب العفو قبل الهروب  
ولكنه اعتاد فيها الإباق  
ورام الخلاص وكيف الخلاص  
ولم يك كفؤك في حربه  
وقد هزم الأسد حتى انتهك  
فراح وحشو حشاه أسي  
أريتهم وقعات تزيد

وقوم من زيفها ما التوى  
وعاد كجنح الظلام الضحى  
هلم ، ولا من مجيب : أنا  
وصلت لبيض السيوف الظلى  
غناء يعيد الفرادى ثنى  
ل بها الخيل في النقع قب الكلا  
تداركها وهي لا تصطلى  
وأمسك من سجله ما انهمى  
كصبح بدا طالعا في الدجى  
عبوس الكاة به قد بدا  
ولم يسكن الروح منه حشا  
أسود رجال كأسد الشرى  
لفدتك صارخة بالعدا  
ولم تغمد السيف حتى انفرى  
ولولاك ما خاب ذاك اللظى  
بها الفارس الملك المتقى  
وفدتك منهم ذوات اللمى  
ولم يجدوا غيره ملتجا  
عليه وأخلفه ما رجا  
جيوشك واستوقفته الربا  
لكنت له غافراً ما مضى  
وليس الفتى كل يوم فتى  
وقد بلغ الماء أعلى الزبي  
وإن كان في بأسه المنتهى  
فلما رآك غدا لا يرى  
وقد ملئت مقلته عى  
على وقعات الدهور الألى

بيغداد من ذكره جولة      تذود عن المارقين الكرى  
فأنفس ديلها تغتدى      وتمسى على مثل جمر الغضى  
إذا سمعوا بالإمام العزيز      أساءوا الظنون وحلوا الحبا  
يخافون من بأسه وقفة      تدور عليهم بقطب الرحي  
ينادى «بويه» بنيه بها      ويندبهم وهو رهن البلي<sup>(١)</sup>

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون وأن نمر بالأشعار التي أنشدها شعراؤهم في وصف تلك المعارك، لتحدث عن شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون، وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي، ووقفت أمام مسيحي أوروبا تكافح وتناضل طوال هذه القرون، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوربيين، وجعلت آمالمهم وأحلامهم قصوراً بنيت في الهواء.

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٥٤٩ هـ في عهد المستعلي ووزيره الأفاضل ابن بدر الجمالي، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية، ونكتفي بأن نذكر أن الأفاضل استهان بأمر هذه الحركة في أول الأمر، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تخاذله وتهاونه، بيد أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعرة النعمان سنة ٥٤٩١ هـ وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس، فاضطر حينئذ إلى أن يعي جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر، ولكن جيوشه هزمت أمام الصليبيين سنة ٥٤٩٢ هـ بجوار بيت المقدس، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان ثم إلى العودة إلى مصر. على أن شعراء الأفاضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين، بل سببها ثورة بعض الجنود على الأفاضل وتأمرهم للفتك به، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يعتذرون عن الأفاضل وعن انهزامه في هذه الحرب الصليبية الأولى. وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود، كما أن الشاعر يصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالذود عن الدين ونصرة

(١) ديوان الأمير تميم.

المسلمين ، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي  
دهمهم ، فهو يقول :

جردت للدين ، والأسياف مغمدة      سيفاً تفل به الأحداث والغير  
وبعد أن تحدث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب ، أخذ  
في الاعتذار عن هزيمته ، وتوعد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم والانتصار عليهم :

وإن هم نكصوا يوماً ، فلا عجب      قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر  
العود أحمد والأيام ضامنة      عقبي النجاح ووعده الله ينتظر  
وربما سامت الأقدار ثم جرت      بما يسرك ساعات لها آخر

ونقل المقرئ عن ابن الطوير أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد  
الفرنج ، فوصل إلى عسقلان ، وزحف عليها بذلك العسكر ، فخذل من جهة عسكره ،  
وهي نوبة النصبة ، وعلم أن السبب في ذلك من جنده ، وكان عند الفرنج شاعر  
منتجع إليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح      فله درك من صنجل  
وما سمع الناس فيما روه      بأقبح من كسرة الأفضل  
فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر (١) .

وعاد الأفضل إليهم ، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكرة ، ولكنه لم ييأس  
من الظفر ، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولى الملك الصالح طلائع بن  
رزك ، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج ، فكان ينتصر حيناً وينهزم حيناً  
آخر ، وسجل شعراؤه هذه الحروب ، فن ذلك قول شرف الدولة ابن جبر  
أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المعارك التي خاضها ابن رزك ضد الفرنج :

أطنى ابن رزك لهيب ضرامه      والبيض تحطبت في الرءوس فتسمع  
وكتائب للشرك كنت إزاءها      متعرضاً فانفض ذاك الجمع  
ولكم صرعت من الفرنج سميدعاً      بلقائه لك قيل : أنت سميدع (٢)

وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزك ، ولم يذكر العباد الواقعة التي  
كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها :

وتلقى الدهر منه بليث غاب  
تخال سيوفه إما انتضاها  
وتحسب خيله عقبان دجن  
إذا قدحت بجنح الليل أورت  
وإن صبحت مع الإصباح عدواً  
كان الشمس حين تثير نقعا  
وما كشفت بدور الأفق إلا  
وما اضطربت رماح الخط إلا  
وما تندق يوم الروح حتى  
عجبت لها تصافح من يديه  
ويوردها ولا تحظى برى  
وهل يشقى لها أبداً غليل  
إذا لقيت عيون الروم زرقا  
تخال البحر مد به خليج

غدت ممر الرماح له عرينا  
جداول والرماح لها غصونا  
يرحن مع الظلام ويقتدينا  
سنا يغشى عيون الناظرينا  
أثارت للعجاج به دجوننا  
تحاذر من سواه أن تدينا  
أسي إذ ابصرت منه الجبيننا  
مخافة أن يحطمها مبيننا  
يدق بها الكواهل والمتونا  
وتوصف بالظا ، بجرأ معينا  
نظافا من دروع الدارعينا  
وقد شربت دماء الكافرينا  
حسبت نصالها تلك العيوننا  
إذا ما مد بالقضب اليميننا (١)

ومرة أخرى ذكر العماد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣ هـ لحرب الصليبيين ، وانتصر الأسطول ، فأنشد المهذب يمدح الصالح ويصف الأسطول . ومن هذه القصيدة ندرك أن الموقعة كانت بالقرب من العريش :

أعلمت حين تجاوز الحيان  
لما أبوا ما في الجفان قريتهم  
وثلث في يوم العريش عروشههم  
أجأتهم للبحر لما أن جرى  
مدح الوري بالبأس إذ خضبوا الظبا  
ولانت تخضب كل بحر زاخر  
حتى يرى دمهم وخضرة مائه  
وكان بحر الروم خلق وجهه  
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما

أن القلوب مواعد النيران  
بصوارم سلت من الأجفان  
بشبا ضراب صادق وطعان  
منه ومن دمهم معا بجران  
في يوم حربهم من الأقران  
من تجاوب بالنجيع القاني  
كشقاتق نثرت على الريحان  
وظفت عليه منابت المرجان  
لم يأت في حين من الأحيان

أحجب إلى بها شواني أصبحت  
شبهن بالغربان في ألوانها  
وقرتها عدد القتال فقد غدت  
حرب عوان حكمتك من العدى  
وأعدت رسل ابن القسيم إليه في  
والفأل يشهد باسمه أن سوف يف  
وأراك من بعد الشهيد أبا له  
وهو الذى مازال يفعل في العدا  
قتل البرنس ومن عساه أعانه  
وأرى البرية حين عاد برأسه  
فليهنه أن فاز منك بسيد

من فتكها ولها العداة شواني  
وفعلن فعل كواسر العقبان  
فيها القنا عوضا من الأشطان  
في كل بكر عندهم وعوان  
شعبان كيا يلام الشعبان  
دو الشام وهو عليكما قسمان  
وجعلته من أقرب الإخوان  
ما لم يكن ليعد في الإمكان  
لما عسا في البغي والعدوان  
مر الجنا يبدو على المران  
أوفى برتبته على كيوان (١)

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون في كتبهم ، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين ، تلك هي علاقة الملك الصالح ابن رزيق بنور الدين زنكي بإبان الحروب الصليبية ، فالشاعر هنا يذكر نور الدين مرة يذكره ( بابن القسيم ) أى ابن قسيم الدولة أتابك زنكي ، ويذكره مرة ثانية باللقب الذى عرف به وهو ( الشهيد ) ، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذى كان بين الملك الصالح وبين نور الدين ، ويقضى هذا الاتفاق على أن يواصل الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام ، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين ، هذا الاتفاق الذى أشار إليه المهذب في هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين ، ويغلب على ظنى أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التى كانت بين الشاعر والملك الصالح لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذى كان بين العاهلين .

وفي عهد الملك الصالح طلائع بن رزيق ، كان الصليبيون يمعنون في شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان ، ووردت الأنباء بأن عسكر المصريين استولوا على عسقلان ، وقتلوا ما بها من عسكر الفرنج ، وسر المصريون بذلك الانتصار سرورا عظيما نلح أثره في قصيدة الملك الصالح التى أرسلها إلى أسامة

(١) الحريدة ورقة ٤٠ وما بعدها .



ابن منقذ صاحب حصن شيزر وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم  
وتستنزل الأعداء من طول عزهم  
وتغزي جيوش الكفر في عقردارها  
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم  
نذرنا مسير الجيش في صفر فما إذ  
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا  
فما هاله بعد الديار ولا ثنى  
يبارى خيولا ما تزال كأنها  
يسير بها «ضرغام» في كل مأزق  
وواجههم جمع الفرنج بحملة  
وما زالت الحرب العوان أشدها  
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت  
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر  
فقولوا «لنور الدين» لا فل حده  
تجهز إلى أرض العدو ولا تن  
فما مثلها تبدي احتفالا به ولا  
فعندك من أطفاف ربك ما به  
أعادك حيا بعد ما زعم الورى  
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها  
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر  
فقم واشكر الله الكريم بنهضة  
فنحن على ما قد عهدت نروعهم  
وغاراتنا ليست تفر عنهم  
فأسطولنا أضعاف ما كان سايرا

وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم  
وليس سوى سمر الرماح سلام  
ويوطأ حماها والأنوف رواغم  
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم  
ثنى حتى انثنى وهو غانم  
مفاوز وخذ العيس فيهن دائم  
عزيمته جدد الظا والسيام  
إذا هي ما انقضت نسور قشاعم  
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم  
تمون على الشجعان فيها الهزائم  
إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم  
رهوس وحزت للفرنج غلاصم  
ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم  
ولا حكمت فيه الليالى الغواشم  
وتظهر فنورا إن مضت منك (حارم)  
يعض عليها للبلوك الأباهم  
علنا يقينا أنه بك راحم  
بأنك قد لا قيت ما الله حاتم  
وحلت بها تلك الدواهي العظام  
فسيقت سبايا واستحلت محارم  
إليهم فشكر الله للخلق لازم  
ونحلف جهدا أننا لا نسالم  
وليس ينجى القوم منا الهزائم  
إليهم فلا حصن لهم منه عاصم (١)

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة :

يا سيديا يسمو بهم      ته إلى الرتب العلية  
أنت الصديق وإن بعد      ت وصاحب الشيم الرضية  
يهنيك أن جيوشنا      فعلت فعال الجاهلية  
سارت إلى الأعداء من      أبطالها مائتا سريه  
فتغير هذى بكرة      وتعاود الأخرى عشية  
فالويل منها للفرنج      فقد لقوا جهد البلية  
جاءت رموسهم تلوح      على رؤوس السميرية (١)

وفي قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعة بين الملك الصالح والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سماه ابن الصياد « بأرناط » واسمه الصحيح

« رينولد » Renauld .

قال ابن الصياد :

عن سيف دين الله سل « أرناط »      حيث المنية كأسها يتعاطى  
والمشرفية قد حكمت في جيشه      في العل والنهل القظا الفراطا  
قد سام طير الكفر منه منسرا      أشغى وعابن مخلبا عطاطا  
هو ملبس جيش العدا في الحرب من      حلل النجيع مجاسدا ورياطا  
فيأاده تشكو مزاحمة القنا      وترد خرصان الرماح سياتا  
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا      من دينه الأطراف والأوساطا  
كم قد أنار من الأسنة أنجبا      لما أثار من العجاج عطاطا  
فتخاله ملكا رمى بشبابه      في الروح شيطان الحروب نشاطا (٢)

ويحدثنا عمارة اليميني في النسكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون مصر ووصلوا إلى إقليم الحوف ، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل الناصر خلفهم ، وطاردهم إلى أنى عروق من إقليم فلسطين ، وعاد بجيوشه منتصرا إلى بلبس ، ففرق في الجيش مالا كثيرا ، وخلع على الأعيان . ويذكر عمارة أن له ولغيره من شعراء مصر شعرا في هذه الموقعة ، ولكن لم يصل إلينا من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لعمارة منها قوله :

(١) الروضتين ج ١ ص ١١٦ . (٢) الحريدة ورقة ٦٧ .

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره  
متوج تشرق الدنيا بطلعته  
عليه إن جل خطب أوطرا وطر  
وتخجل الشمس مهما لاح والقمر  
فللنواب عن سكانه سفر  
إذا أقامت على ثغر صوارمه  
ومنها قوله :

أغاث أعمال «بليس» وأمنها  
وحين أبليت عدرا في اللحاق بهم  
وقال : عزمك لما أن ألح ولم  
إن ينج منها وأبو نصر ، فعن قدر  
وعدت نحو مقر العزم في عصب  
وللصوارم في أجفانها أسف  
من بعد ما غالها الإشفاق والحذر  
والنصر يقسم لا فاتوك والظفر  
تلح له منهم عين ولا أثر  
نجا وكم قدرة قد عاقها القدر  
يفنى بها الأكثران : الرمل والمطر  
تكاد من حره الأجفان تستعر (١)

هذا الشاعر الذي مدح الوزير بانتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجا من هذه الموقعة (عن قدر) ، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يقتل فيها ابن الوزير ، ولكن القدر فقط هو الذي أنجاه من خطر محقق . ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة في مدح الملك الصالح ، وفيها ذكر لهذه الموقعة ، منها قوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد  
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعا  
ديارهم لم ينجهم منك مهرب  
لجاءتك يا ليك الشرى تتغلب  
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم  
ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب  
وذلك قال صادق أن عزهم  
بسيبك ياسيف الهدى سوف يسلب (٢)

وهذه الموقعة هي إحدى الغلطات الثلاث الذي كان يعدها الصالح نفسه ، إذ روى ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات خروج الملك الصالح إلى بلبس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار ، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويستأصل شأفة الفرنج (٣) . وفي هذه الموقعة نفسها قال عمارة أيضا في مدح الملك الناصر بن الصالح :

(١) النكت ص ٥٤ وما بعدها و ص ٢٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٧٦ .  
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

رأيتك لم تقنع بمنصبك الذي  
فباشرت مكرهه الوغى في مواطن  
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه  
كأنك خلعت السلم نقصا على العلى  
ولما تشكى الخوف حيفا على الهدى  
نهضت إلى الإفرنج تزجي كتابها  
فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم  
وأبتعتهم ركضا على كل ساج

والمؤرخون يذكرون قصة شاور واستنجاده بالصليبيين ضد أسد الدين  
شيركوه وصلاح الدين ، ففي موقعة بلبيس التي انتصر فيها شاور والفرنج قال  
عمارة يمدح شاور ويعرض بالفرز :

ولقد دفعت إلى ثلاث نواب  
من معشر تغدو السباحة والندى  
فعصابة غزية غادرتها  
وعصابة رومية عاشرتها  
وعصابة مصرية بك أصبحت  
وتداركت بلبيس منك عواطف  
أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى  
بلد لو أنهدمت قواعد سوره  
أبقيتها للمسلمين وإنه

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين ، ولولا هذا الاتفاق لاستولى الفرنج  
على بلبيس ، ولدثر الدين في هذا البلد ، ولذلك لم يهجم الصليبيين في هذا الشعر  
وإن كان عرض بهم تعريضا خفيفا ، ونستطيع أن نعرف رأي عمارة في الإفرنج  
إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير ، بل هي أبيات صادرة عن  
عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والنكبات التي جرت بها سياسة شاور على البلاد ،  
فهو يقول :

بارب إني أرى مصرا قد انتبهت لها عيون الأعدى بعد رقدتها  
فاجعل بها ملة الإسلام باقية واحرس عقود الهدى من حل عقدتها  
وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقدتها (١)  
وفي مديحه لصلاح الدين وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على  
الصلبيين بقيادة مري، يقول عمارة :

حمى الله منكم عزيمة أسدية فككتم بها الإسلام من ربقة الكفر  
لئن نصبوا في البر جسرا فإنيكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر  
طريق تقارعت عليها مع العدى ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر  
أخذتم على الإفريج كل ثنية وقلتم لا يدي الخيل مري على «مري»  
وأزعجه من مصر خوف يلزه كالز مهزوم من الليل بالفجر (٢)

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم الإسلامي  
عدة قرون، ولم ير العصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن فقط، ومع  
ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعارا حماسية يمدحون  
شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من فلسطين، أعلى حين  
بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة عدم اكتراث، وقد  
سجل المصريون في هذه الحروب جهودا كثيرة سجلها الشعراء الفاطميون في  
شعرهم، كما سجلها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك في العصور التالية لهذا  
العصر الذي تؤرخه الآن.

# الفصيل النجاشي

## الفكاهة والمجون

رأينا في كتاب « أدب مصر الإسلامية » كيف تطورت الحياة في مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، وكيف كثر المجون واللغو بتأثير التطور الذي حل بالبلاد ، ولكن مصر في العصر الفاطمي تطورت تطورا آخر ، فقد كانت حياة المرح واللغو على أشدها بالرغم مما ألم بمصر في هذا العصر من كوارث ونكبات ، وكانت أعياد الفاطميين ومواسمهم التي ابتدعوها تزيد في لهو الشعب ومجونه . أضف إلى ذلك ما كان يحدث في مصر في أعياد الأقباط التي شارك المسلمون في إحيائها والاحتفال بها ، فقد كان الفاطميون يحتفلون « بعيد الميلاد ، ويفرقون فيه على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتّاب وغيرهم الجلمات من الخلاوة القاهرية والمثارد التي فيها السמיד وقربات الجلاب وطمأفير الزلايية والسملك المعروف بالبوري<sup>(١)</sup> . وينقل المقرئ عن المسبجى أنه في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فضربت الحيام والمضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ بزجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والمهلون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف<sup>(٢)</sup> . وقال : إنه في سنة ٤١٥ هـ نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ، وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيدا كثيرا<sup>(٣)</sup> . ونقل المقرئ عن ابن المأمون أنه في غطاس سنة ٥٢٧ هـ فرق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم<sup>(٤)</sup> . وفي خميس العدس كانت تضرب خمسمائة دينار فتعمل خرايب تفرق في أهل الدولة<sup>(٥)</sup>

(١) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٥ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٧ . (٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه . (٥) المصدر نفسه .

وفي يوم النوروز كان اللعب بالماء ووقود النيران ، ويقول ابن زولاق في سنة ٥٣٦٤ هـ : وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام أظهروا فيها السماجات (١) . ويروي ابن المأمون أنه حل موسم النوروز في سنة ٥١٧ هـ ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز من ثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم (٢) . فالفاطميون كانوا يشاركون المسيحيين في أعيادهم ومواسمهم ويحتفلون بذلك احتفالاً يكاد يكون رسمياً ، فلا شك أن الشعب كان يحتفل بذلك كله ، مع ما كان للمسلمين من أعياد خاصة بهم . كما كان في مصر أيام ليست دينية ، إنما هي مصرية يساهم فيها المسلمون وغير المسلمين مثل يوم فتح الخليج مثلا ، وقد وصف الرحالة ناصرى خسرو ما شاهده في هذا اليوم ، وختم حديثه بقوله : « وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة » (٣) . ووصف المسيحي ما كان في يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان ثالث الفتح ، أى فتح الخليج ، بقوله : فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم ، وركب أمير المؤمنين — يعنى الظاهر — في مركبه إلى المقس وعليه عمامة مشرب مفوطة بسواد وثوب ديبق من شكل العمامة ، ودار هناك طويلا وعاد إلى قصره سالما ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن في قفاف الجمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره (٤) . فكل هذه الأعياد التي كانت في العصر الفاطمي أدت بمصر إلى الاندفاع نحو حياة كلها فرح وحبور . أضف إلى ذلك كله ما كان عليه ثراء مصر في هذا العصر وبذخ الخلفاء والأمراء . وقد لمس ناصرى خسرو هذا الثراء فذكر أن أهل مدينة مصر ( ويقصد الفسطاط ) كانوا في غنى عظيم حين كنت هناك (٥) ، فهذا الثراء جعل المصريين يتأنقون في ملابسهم ومسكنهم

(٢) المصدر نفسه .

(١) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٣) سفر نامه (ترجمة يحيى الخشاب) ص ٥٥ . (٤) المخطوط ج ٣ ص ٢٣٥

(٥) سفر نامه ص ٦٢ .

وما كلمهم ، ويتباهون بذلك كله ويتنافسون عليه . وقد حدثنا المؤرخون عن ذلك كله بصور مختلفة هي أقرب إلى الصور التي تحدثنا عنها القصص . ومع ذلك فإن ما بقي لنا من آثار الفاطميين يدل على أن ما ذكره المؤرخون لم يكن من وحي الخيال إنما كان من الواقع المشاهد (١) .

كانت هذه الحياة المرححة في مصر وثوراء المصريين من أشد العوامل على تطور الحياة في مصر الفاطمية ، وذلك أن حياة اللهو انتشرت واشتد تيارها ، فحاض غمارها المصريون ، وقد وصف «أبو الصلت» أخلاق المصريين التي شاهدها فقال : «أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهمك في اللذات» (٢) .

وفي حديث المقرئ عن خزائن البنود قال عن الظاهر لإعزاز دين الله : «وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة ، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغاني ، وفي زمانه تأثق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ الأغاني والرقاصات ، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة» (٣) .

ويحدثنا المقرئ أيضا أن الحاكم ألزم الناس بالوقيد ، فاستكثروا منه في الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس في القاهرة ومصر طول الليل في بيع وشراء ، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة ، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل ، وعظم الازدحام في الشوارع والطرقات ، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات في الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلثمائة (٤) .

ويروي المقرئ : قال إبراهيم بن الرقيق في تاريخه : حدثني محمد الكهني ، وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان الشرق ، قال : ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والعزف ، وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متزها ، فيضربون عليها المضارب

(١) راجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكي حسن

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٧٨

(٣) الخطط ج ١ ص ٧٧

(٤) الخطط ج ٣ ص ١٧٦



الجليلة والسرادات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات الممالك والمحركات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكحون وينعمون (١) .

وظهر أثر ذلك كله في الشعر ، وكان شعر مصر الفاطمية أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة الساخنة ، فوصف الشعراء مجالس الشراب واللهو ، وتغزلوا بالذكر حيناً وبالوث حيناً آخر ، وتهادوا الجوارى والغلمان ، ودعا بعضهم بعضاً للاستمتاع بلحظات يختلسونها للهوهم ومجونهم ، وخرجوا إلى الأديرة يتقهون فيها اللذات ، واشترك الشعراء في ذلك كله حتى لانستطيع أن نجد شاعراً لم يأخذ بنصيب من حياة المجون ، إلا إذا استثنينا المؤيد في الدين الذي لم يعرف عنه نخس في القول ، ولم يسهم في هذه الحياة مثل غيره من الشعراء ، بل هو القائل :

قد شيبت منى العذار العفه      مازلت من ميزانها في الكفه  
ما شاق قلبي وتر أو زهر      ولم تدب في عروقي خمر  
عبادتي كل الزمان عادتي      ماملكت يد الهوى مقادتي (٢)

أما غير المؤيد من الشعراء فقد كانوا جميعاً يشتركون في المجون واللهو . وها هو ذا الشاعر أبو الرقعمق يعرض في مجونه بالمذاهب الدينية ، ويصرح بأجزاء من الجسم في قصيدة يمدح بها الإمام العزيز :

أظن ودادها من غير نيته      وهل هي فيه إلا مدعيه  
فتاة لا تمل عذاب قلبي      ولا تخليه وقتاً من أذيه  
ولا ذنب له إلا التواني      لمن في الحب ليست بالوفيه  
ويعجبنى التمتع والتشاجي      من الخود الممنعة الشجيه  
فوا أسفاه على حر يعزى      أفا رزء على عظم الرزبه  
وذلك أن أرى فيه رطل      وما في حرها إلا وقبه  
ومن بعث المدام فليس بد      ولا تك غير بكر بابليه  
فثم هناك حر شافعي      عظيم الشأن وأست مالكيه  
ونفسي غير مائلة إليها      لأحوال مقبحة بذيه

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) القصيدة المسطحة من ديوان المؤيد في الدين .

وجملة أمرنا أنى بغى  
أحب دنوها وتحب قرني  
وما لاقيتها إلا تلاقى  
وهذا الرأي لأرأى سواه  
ولا عيش سوى تقلاب بظر  
على أنى أقول بكل شيء  
ولا أوى على أحد يرانى  
ولكننى أقول بمدح قرم  
وأيضاً فهى فاجرة بغيه  
وهذا لا يكون بلا بليه  
مبالانا بإسقاط التقيمه  
فلا تحفل بأقوال الرعيه  
وثقب من صبي أو صديه  
سوى نيك العجوز القزمليه  
يعين النقص والحال الدينه  
تفرد بالعلا دون البريه (١)

ويستمر أبو الرقعمق في مدح العزيز بمد أن قدم للبدح بهذا المجون، وربما كان أبو الرقعمق من أشد الشعراء إمعاناً في الخماقة والفجس في الشعر، فقد اتخذ لنفسه هذه الطريقة العجيبة في الشعر حتى عرفت به، فهو يشبه ابن الحجاج في هذه الناحية، ولكن أبا الرقعمق إذا شاء أن يترك هذه الخماقات في الشعر، وأن يعود إلى الجد، فهو يأتي بشعر جيد لا ياباه السمع ولا يزوى عنه أهل الفضل، فهو يقول مثلاً:

ليلي بتيس ليل الخائف العاني  
أقول إذ لج ليلي في تطاوله  
لم يكف أنى في تنيس مطرح  
حتى بليت بفقدان المنام فما  
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم  
ولاحنت إلى نجران من طرب  
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت  
ليالى النيل لا أنساك ما هتفت  
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت  
مع سادة نجب غر غطارفة  
وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى  
تفى الليالى وليلى ليس بالفانى  
بالليل أنت وطول الدهر سيان  
مخيم بين أشجان وأحزان  
للنوم إذ بعدوا عهد بأجفانى  
إلا تذكرت أيامى بعان  
إلا تكسفتى شوق لنجران  
إلا مواطن أطراى وأشجاني  
ورق الحمام على دوح وأغصان  
قطعتن وعين الدهر ترعاني  
في ذروة المجد من ذهل بن شيبان  
وإن أردت غناء منه غناني

سقيته وسقاني فضل ريقته      وجاد لي طرفه عفواً ومثاني  
مازلت أجنى بلحظي ورد وجنته      وأستغفر على تفاح لبنان  
ما زال يأخذها صفراء صافية      حتى توسد يسراه وخلاني  
الله يعلم ما بي من صبابته      وما على جناه طرفه الجاني  
كم بالجزيرة من يوم نعمت به      على تصاحب نايات وعيدان  
سقيا ليلتنا بالدير بين ربا      باتت تجود عليها سحب نيسان  
والطل منحد والروض مبتسم      على أصفر فاقع أو أحمر قاني  
والزرجس الغض منهل مدامعه      كأن أجفانه أجفان وسنان (١)

فإذا قارنا بين هذه القصيدة وبين قصائده الأخرى التي يظهر فيها الحق نجد أن الشاعر كان له لونان من الشعر، ذلك اللون الذي يظهر فيه مجونه وحماقته، ولون آخر هو الذي يظهر فيه الجد، ولكن أبا الرقعمق عرف بالمجون أكثر مما عرف بالجد، وقد ذكرنا لونا من شعره الماجن في مقدمة المدح، وله في ذلك عدة قصائد منها القصيدة الرائية المعروفة التي مطلعها:

كتب الحصور إلى السرير      أن الفصيل ابن البعير

وفي أشعاره المساجنة يتحدث الشاعر عن تصافع الشعراء الماجنين، وهذه ظاهرة بدأت في الشعر المصري في العصر الإخشيدى واستمرت إلى أوائل العصر الفاطمي، فقد كان الشعراء يذكرون في قصائدهم هذا اللون من المزاح بينهم ويتنادون به، وكان أكثرهم ذكراً للتصافع هو الشاعر كشاجم وأبو الرقعمق، فأبو الرقعمق يقول في إحدى قصائده يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين:

ولكم بتنا على طرب      وروى عن القوم تستلب  
وكثوس الصفع دائرة      ملؤها اللذات والطرب  
وانتخبناها وهامهم      وأكف القوم تصطخب  
وكان الصفع بينهم      شعل النيران تلتب (٢)

ويقول في قصيدة أخرى:

ولا أترك في مصر      لذكر الحق من أثر

فمن بعدى لطيبه في النظم وفي النثر  
ومن يلعب في الرأس من العصر إلى العصر  
ومن من شدة الصفع له رأس بلا شعر  
ومن هامته أقوى على الصفع من الصخر  
إذا أمراني الصفع تحشأت من الدبر  
وهيات ترى صفعا لغيري أبدأ يمرى (١)

ويقول في قصيدته الرائية المشهورة :

لا تنكرن حماقاتي لأن بها لواء حمق في الآفاق منشور  
ولست أبغى بها خلا ولا بدلا هيات غيرى بترك الحق معذور  
لا عيب في سوى أنى إذا طربوا وقد حضرت يرى في الرأس تفجير  
والأخدعان فما زال يرى بهما لكثرة المزح توريم وتحمير  
وذا الفعال مع الأعراض مطرد صفع ونقع وتيسير وتيسير (٢)

فالشاعر في هذه المقطوعات يظهر حماقاته ومجونه ، وهذا المزاج الثقيل الذي كان بين الماجنين ظهر في العصر الأخشيدى وأوائل العصر الفاطمي ، ويخيل إلى أن هذا المزاج أتى به الشعراء الوافدون على مصر ، فكشاجم أحد أبطال التصافع لم يكن مصريا ، وأبو الرقعم لم يكن مصريا ، ولم أجد في شعر المصريين الذي وصلنا هذا النوع من المزاج ، ولكن كشاجم وأبا الرقعم تحدثا عنه في أشعارهما التي أنشدها في مصر ، ولعلهما كانا يعيثن في شعرهما بذكر هذا المزاج ، وإذا ذكر شعراء مصر الصفع فإنما يكون ذلك في الهجاء ، فالشاعر صالح بن مؤنس الذي كان يعيش في عصر أبي الرقعم هجا زميله الشاعر ابن أبي الجوع فقال :

وقال قوم قد غدا شاعرا والشعر لا يعرف للمفحم  
فقلت لا لوم على مثله من أخذ الصفع قفاه حمى  
أنا الذي ألبسته حسرة بما جرى من ذكره في فمي  
والله لا يجهل من بعدها وفي قفاه للردى ميسمى  
أبين به من ميسم واضح يضىء كالغرة في الأدم (٣)

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٩ .

(١) البيهقي ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٠ .

فالصنع في هذه الآيات ليس للزاح كالذي رأيناه في شعر كشاجم أو في شعر أبي الرقعمق ، إنما هو في معرض الهجاء .

كان أبو الرقعمق أستاذاً لمدرسة في شعر الهزل والمجون ، وسنرى أن صريع الدلاء وابن مكنسة وغيرهما ساروا على نهجه .

وفي هذا العصر الذي كان فيه أبو الرقعمق ، عاش عدة شعراء مثلوا في مصر جماعة أبي نواس في العراق ، فقد كان هؤلاء الشعراء يجتمعون وينشدون أشعارهم ويتبارون في النشيد وهم أبوصفون ويلهون ، لجماعة كانت تضم صالح بن رشدين وعبد الله بن أبي الجوع ومحمد بن الحسن اليمني والحسن بن محمد الشهواجي وصالح ابن علي بن مؤنس وابن أبي الزلازل وأبا تميم سليمان بن جعفر وأحمد بن عبد الله ابن أبي العصام وغيرهم من شعراء ذلك العصر . وكانت هذه الجماعة على صفاء أحياناً وفي خصام أحياناً أخرى . وكان أكثر هؤلاء الشعراء يتغزلون في صالح ابن رشدين ، أحد أئمة الكتاب في الديوان ، ولقي المتنبي في مصر ، وروى شعره ، كما كان شاعراً بارعاً جيد المعاني ، ففيه يقول صالح بن مؤنس :

بك يا صالح أرضى عن زمانى حين أسخط  
فأدم لى الوصل إني بك فى العالم أغبط  
أنت والرحمن مذ كنت على قلبى مسلط  
ومصيب أنا فى الحب ومن بعدى يغلط

يا جواداً فى لهاه بنده أتبسط (١)  
وفيه يقول محمد بن الحسن اليمني :

فاضح الغض النصير كاسف البدر المنير  
أنت عندى فى حياتى ومماق ونشورى  
ما سرور غاب عنه (صالح) لى بسرور (٢)

وأشده فيه ابن أبي الجوع :

يا أطيب الناس ريحا وأطيب الناس راحا  
ومن به أتصدى الأ طراب والأفراحا

هات اسقنى ، أو ترانى لا أعرف الأقداحا  
واحفظ على فؤادى من أن يطير ارتياحا  
لو كنت كاسمك يا صاح لح اعتمدت الصلاحا  
لكن أبى الله إلا أن تفسد الأرواحا (١)

ويطول فى الأمر لو ذكرت كل الأشعار التى بقيت لهذه الجماعة فى صالح  
ابن رشدين ، وكان هؤلاء الشعراء يقصفون ويلهون ويدعو بعضهم بعضا على  
الشراب والقصف وسماع الموسيقى والغناء ، ويتهادون الجوارى . وقد روى  
الثعالبي أن القائد أبا تميم سليمان بن جعفر كتب إلى صالح بن رشدين رسالة  
يستدعيه فيها إلى الشراب فامتنع عليه ، وكتب له هذه الآيات :

يا أيها القائد الجليل ومن أصبح بالمكرمات يفتخر  
آليت لا أشرب المدام وإن كانت ذنوب المدام تغفر  
يكفى أبا العقل أن سورتها تجنى على عقله ويعتذر  
فكتب إليه القائد أبو تميم :

أبا على حاشاك يا أملى من أن أراك الغداة تعتذر  
قلبي إذا غبت ساعة قلتي يكاد شوقا إليك يستعر  
فسر إلينا فوقتنا حسن ساعد فيه السحاب والمطر (٢)

ويروى أيضا أن ابن رشدين قال : حضرت عند القائد أبا تميم فى ضيعة له  
فلما عمل فينا الشراب نظرت إلى جارية له تسمى عبدة ذاهبة جائية ، فحملنى النبيذ  
أن أخذت رقعة وكتبت فيها إليه :

صالح لا يزال يطلب عبده من كريم يصفى الأخلاء وده  
قد بثت الغداة وجدى وحبى من ولى يولى لمولاه مجده  
فإذا شئت أن أرى لك عبدا ففضل أبا تميم بعبده  
فقرأها ، وأمسك ، وتماديت فى الشرب معه ، ثم نهضت إلى منزل أنزلنى فيه  
بقربه ، فلما استقرت فى أنفذى الجارية ومعها درج فيه طيب كثير وعاميا ثياب  
رفيعة حسنة ورقعة فيها شعر :

قد بعثنا أبا على بعبده وقضينا بذلك حق الموده

(١) المصدر السابق ص ٣١٤ . (٢) المصدر السابق ص ٣١٩ .

وحمدناك إذ خطبت إلينا أسأل الله أن يهنيك حمده  
فاتخذها فأنت أكرم كنفه وهي ما عشت كما سمها لك عبده (١)  
ويروى ابن سعيد في المغرب أن أبا علي أحمد بن صدقة الكاتب أرسل إلى  
صالح بن رشدين :

بالله يا صالح قم مسرعا إلى عقار ادركت تبعاً  
وساعد الليلة في شربها وخذ من السكر لها مصرعا  
فقد بذلنا لك أرواحنا كما رأيناك لها موضعاً  
فجاوبه صالح :

ياسيدا يسمع ما قد دعا خذني كما أزمته مسرعا  
منادما ما شئت أعملها كما سأ ترىنا للسنا مطالعا  
نشرها حتى ترى الهم لا يهدى ولا يدري لنا موضعاً (٢)

ومن الجماعات التي كانت في أوائل العصر الفاطمي جماعة الأمير تميم والرسى  
والعقيل وغيرهم ، وكلهم عرف بالمجون والفحش ، وقد ذكرنا أن المعز منع الإمامة  
من ابنه الأكبر الأمير تميم لمجونه وفسقه ، انظر إليه وهو يقول :

وشادن شرط الصبا مرهف قرّة عين من تمناء  
كأنما الحسن رأى وجهه إليه محتاجاً فأغناه  
وانتشرت بالغنج ألقاظه وانكسرت باللحظ جفناه  
ولاح برق الثغر من مبسم المسك والقهوة بجناه  
وبتل الأرداف فاستثقلت وأرهف الخصر وأضناه  
زرنا به منزل خماره والليل في صبح برياه  
وقد علا الأفق هلال بدا كعطفة الحاجب مخناه  
حتى إذا الخمار أصغت إلى صحبنا في المشي أذناه  
قام إلينا بجلا شاغلا بالراح يمناه ويسراه  
ماسل من إبريقه قهوة أشرق منها ليل مغناه  
حتى إذا سمناه في بيعها قطب غيظا حين سمناه

وقال ما استام بها ماجد      قبلكم فيما علمناه  
دونكموها وزنوا مثلها      درا وتبرا ، ووزناه  
فغاب عن الحاظنا ساعة      ثم وافانا ودناه  
فقام بالكأس هضم الحشى      لولا قناه لشربناه  
كانه في كفه حده      لكنها في السكر عيناه  
إذا سقى ندمانه كأسه      أشمه فاه وغناه  
ولم تنكحه غير الحاظنا      ياكاشحا قد زاد معناه  
فإن تداخلك بنا ظنة      فقد على رغمك نكناه  
ولم نزل في بيت خمارها      نشرها شهرا ومشاها  
إذا أشاب الصبح رأس الدجى      وهزنا الساقى أجبناها  
نخنو إذا نادى إليه كما      يخنو إلى الوالد أبناءه  
وإن بدامن صاحب بعض ما      بأتى به السكر عذرناه (١)

ثم اقرأ قوله وفيها يذكر مجونه في دير القصور :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله      ولا تتأذى النفس منه ولا القلب  
إذا قلت : دلاء في قصة لم يقل : « بلى »      وإن قلت هاك الكأس ، قال مبادرا  
سريع إذا لبي ، صبور إذا دعا      يهون عليه في رضى خله الصعب  
غدوت به يوما إلى بيت حانة      وللغيم دمع ما يكف له سكب  
وقد نفحت ربح الصبا بمنافس      عبيرية الأنساب طاب لها الترب  
فأفضى بها الإدلاج بعد تعسف      إلى زولة شمطاء منزلها رجب  
مدثرة ، أما أبوها فقيصر      وحسبك ملك جده قيصر حسب  
قصيرية ديرية هرقلية      تقاصر منها الحظ واحدوب الصلب  
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا      وفي يدها نجم يحيط به قعب  
فقلت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا      وقل لكم منى البشاشة والرحب  
من انتم ؟ فقلنا عصبه من بنى الصبا      دعاهم إليك القصف والعزف واللعب  
فقلت : على اسم الله حطوا رحالكم      فعندى الفتاة الرود والأمرد الرطب

(١) ديوان الأمير نجم (مخطوط).



وراح نفي اقتداءها طول عمرها  
أرق إذا رقرقتها في زجاجة  
كأن سراجا في ترائب دنها  
فقلنا لها : كيلى لنا وتعجلى  
بجاءت تبحر الزق نحوى كأنه  
فلما مزجناها بدا فوق رأسها  
وطافت بها هيفاء مهضومة الحشا  
تمایل ردفاها وأدرج خصرها  
شكا كشحها الزنار مما يجعيه  
أغار على أعطافها كلما اثنت  
أحلت لى الصبهاء تقبيل وجهها  
كأنى وقد أضجعتها وعلوتها  
وما فض لائى صادها بجناية  
فلما أغاظتنى بإظهار كفرها  
وضرجت نخذيها دما بمصمم  
فما هرحت حتى أنابت وأسلت  
أبا حسن ، هات المدامة واسقنى  
كأن الثريا في ملاءة جرها  
سلام على دير القصير ومرحبا  
فكم لذة فيه قضيت وغلة  
منازل يستن الصبا في عراسها  
والأمير تميم هو الذى يقول في إحدى مقطوعاته :

دع مقال العاذلات واله عن سعى السعاة  
واشرب الراح وشبها بالثنايا العطرات  
وانتقل إن شئت تفاع رياض الوجنات  
أنا ما بين نداما ي وراحي وسقاتي

عمل لا أعرف الصحو ولا وقت الصلاة  
فإذا نومنى السكر على تلك الهبات  
لم ينهني سوى حسنة مثاني الغانيات  
وغناهن سحيراً : واستغنيها بحياقي (١)

فهذا الشاعر الماجن لم يتورع عن التهمك بالدين المسيحي طوراً وبالدين الإسلامي  
طوراً آخر ، حتى يخيل إلينا من شعره الذي وصلنا في المجون أنه رجل عاش للذاته  
وجوره ، ولم يفكر إلا في قصفه وهواه ، حتى إنه في شعره الذي كان يمدح  
فيه أباه الإمام المعز أو أخاه الإمام العزيز كان يقدم لمداخه بالغزل حيناً وبشعر  
ماجن حيناً آخر ، مع أنه كان يمدح شخصاً أخص ما يمتاز به هو صفته الدينية ،  
ولكن نجد في ديوان تميم بعض قطع في الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق  
إيمان عن شعر أشد الشعراء تمسكاً بالدين وأشدهم خوفاً من عذاب الآخرة ، فهو  
يقول مثلاً :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا في غفلة عما وراء الممات  
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات  
من شك في الله فذاك الذي أصيب في تمييزه بالسبات  
يحيثهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة (٢)

ويقول مرة أخرى :

أفئيت دهرك تتقي فيه الحوادث والمصائب  
ولو اتقيت معاصي الرحن فيما أنت راكب  
لأمنت من نار الجحيم وفي الحياة من المعائب  
إن لم تراقب من له حكم عليك فن تراقب (٣)

فالأمير تميم شأنه في مجونه وزهده شأن كثير من بني البشر الذين يعصون الله ،  
ولكنهم في الوقت نفسه يخافون عقابه ، فهو لاء لهم شخصيتان : شخصية الماجن  
اللاهي وشخصية الزاهد المتعبد ، ولكن الأمير تميم كان يقلب عليه المجون حتى  
عرف به .

(١) ديوان الأمير تميم . (٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

أما أصدقاؤه الذين كان يقصف ويلهو معهم ، ففعل أشدهم صلة به هم ولدا الرسى : أبو إسماعيل الرسى وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسى ، وهؤلاء جميعا من الأشراف العلويين الذين وفدوا على مصر قبل العصر الفاطمي واستقروا بها ، وكان لبنت الرسى نقابة الطالبين في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين ، وكان هؤلاء جميعا من شعراء مصر ، ويتحدث صاحب المغرب عن الحسين بن إبراهيم الرسى فيقول : « وهذا الشريف الرسى هو الذي كان بيده وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه في بسايتنه وفرجه » (١) ويروي الثعالبي للرسي أبياتا في الدعوة إلى الله منها :

شم النسيم لذيذاً من قبل ألا تشمه  
وأصرف عن القلب ما أسطه ت بالمسرة همه  
وغالط الدهر إن كذت لست تملك حكمه  
وقد نصحتك جهدى فلا تصم وتكتمه (٢)

وهذا الشاعر هو الذي كتب إليه الأمير تميم يصفه بقوله :

يا شاعراً جل عن أن يقاس به الشعراء  
و يا ظريفاً بليغاً أرى على البلغاء  
قد جاء شعرك يشفي قاريه من كل داء  
كالترب بعد بعد والوصل بعد جفاء  
وأنت للنفس أشهى من الغنى والبقاء

كان بنو الرسى يكتبون الأمير تميم بالشعر كلها بعد عنهم . وكانوا يكتبونه يستهدونه بعض الطرائف أو يدعونه إلى الشراب ، ويصرح الأمير تميم في إحدى قصائده إلى الحسين بن إبراهيم الرسى أن الإخاء بينهما قوى وثيق لأنهما متفرعان من أسرة واحدة :

وليس الإخاء الذي بيننا يبدع إذا ما استوى وانعقد  
لأنا إلى والد واحد تفرعنا حين ندعى وجد  
وكان إذا تأخر الرسى عن مكاتبته يرتاع الأمير تميم ويسأل عن سبب هذا الانقطاع ويرسل إليه يعاتبه ، من ذلك قول تميم من قصيدة طويلة :

أبا عبد الإله ووجه ودي مزال عن أسرته القناع

(٢) البنية ج ١ ص ٣٣١ .

(١) المغرب ص ٨٥ .

علام وأنت فيما صح عندي      صديق ما لخلته انصداع  
تأخرت الرسائل منك عنى      وأبطلت عن تعاهدى الرقاع  
أسهوا يا ابن إبراهيم عنى      فأسهو أم أعاتب أم أراع  
ومثلك لا يبيع أبا بيخس      على حال ومثلى لا يباع  
ولسنا نلتق لقيما اجتماع      فيغنيننا عن الكتب اجتماع  
ولكن تعرب الأقلام عنا      إذا افترقت بشخصينا البقاع  
وأكثر حظنا فى البعد أنا      أمنا أن يروعنا الوداع  
فأجابه الرسى بقصيدة منها :

عدلت عن المقال إلى السماع      يضيق عن الجواب مدى ذراعى  
أميرى ظلت فى نعم جسمام      رتاع أو شبهات الرتاع  
أعهدى كالسراب لدى الموالى      وقطر مودقى حلف انقشاع  
عتبت على يا ترب المعالى      لتأخىرى موالات الرقاع  
وعادتك التى سلفت إلينا      ستسببنى إلى حسن الطباع

### ابن وكيع التميمى

أما هذا الشاعر الماجن فهو أبو محمد الحسن بن على بن أحمد بن محمد المعروف بابن وكيع التميمى أصله من بغداد ومولده بتيمس (١) ، وذكره الثعالبي فى اليتيمة وقال فى حقه : شاعر بارع وعالم جامع قد برع على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد فى أوانه ، وله كل بدیعة تسحر الأوهام ، وتستعبد الأفهام ، (٢) ويضيف ابن خلكان إلى ما رواه عن الثعالبي أن لابن وكيع ديوان شعر جيد ، وكتابا بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه « المنصف » ولم يعرف عن ابن وكيع انه اتصل بأمرير أو أنه تكسب بشعره ، وكل شعره الذى وصلنا فى وصف الطبيعة وفى المجون ، فن قوله فى المجون والطبيعة معا :

جانبت بعدك عفتى ووقارى      وخلعت فى طرق المجون عذارى  
ورأيت إيثار الصباية فى الذى      تهوى النفوس محقق الأعمار  
لا تأمرنى بالتستر فى الهوى      فالعيش أجمع فى ركوب العار  
إن التوقر للحياة مكدر      للعيش فهو تهتك الأستار

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٧ . (٢) اليتيمة ج ١ ص ٢٨١ .

من تابعت أمر المروءة نفسه  
لا تكثرن على إن أخا الحجا  
خوفتني بالنار جهدك دائما  
خوفني كخوفك غير أني واثق  
أقررت أني مذنب ، ومحرم  
انظر إلى زهر الربيع وما جلت  
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعا  
ما شئت للأزهار في صحرائه  
وجواهر لولا تغير حسنها  
من أبيض يقق وأصفر فاقع  
ناحت لنا الأطيوار فيه فأرجمت  
دار لو اتصل البقاء لأهلها  
فانهض بنا نحو السرور فإنه  
فاشرب معتقة كأن نسيمها  
أخفي ديبيا في مفاصل شربها  
أحكامها في العقل إن هي حكمت  
يرضى على الأقدار شاربها الذي  
وكانها والكأس ساطعة بها  
لا سيما من كف أعيد شادن  
فضل الفصون لأنها من غرسنا  
قد غيب الزنار دقة خصره  
متصّر قويت على أسلامنا  
قالوا: أيصنع مثل هذا ربكم  
مع مسمع حلفت له أوتاره  
فطن يحرك كل عضو ساكن  
شدو إذا الحلاء زار حلومهم  
والشدو أحسنه الذي لم يستمع

فنتت من الحسرات والأفكار  
برم بقرب الصاحب المهذار  
ولججت في الإرهاب والإنذار  
بجميل عفو الواحد القهار  
تعذيب ذى جرم على الإقرار  
فيه عليك طرائف الأنوار  
شهدت بحكمة منزل الأمطار  
من درهم بهج ومن دينار  
جلت عن الأثمان والأخطار  
مثل الشموس قرن بالآقمار  
عرس السرور ومآتم الأطيوار  
لم يحفلوا بنعيم تلك الدار  
ما زال يسكن حانة الخمار  
مسك تضسوعه يد العطار  
وأدق إظافا من المقدار  
أحكام صرف الدهر في الأحرار  
ما زال ذا سخط على الأقدار  
ذوب تحلل في عقيق جارى  
يسبي العقول بطرفه السحار  
عند التأمل وهو غرس البارى  
حتى ظنناه بلا زنار  
بالحسن منه حجة الكفار  
ويرى فساد صنيعه بالنار  
ألا تنافر رنة المزمار  
تحريك لسواكن الأوتار  
باعوا بطيب السخف كل وقار  
إلا أطار العقل كل مطار

ذا العيش لانعت المهامه والفلا وسؤال رسم الدار والاحجار  
لا فرج الرحمن كربة جاهل يبكي على الاطلال والآثار<sup>(١)</sup>  
فالشاعر هنا يتهكم بالأديان أيضا ، ولكنه في الوقت نفسه يظهر قدرة  
الرحمن في وصفه لأزهار الطبيعة ، وينعى على الناس أنهم لم يأبهوا بالطبيعة  
ومناظرها البهيجة ويحتم شعره بأن الحياة هي في المجون والتمتع بالرياض ، وليس  
في وصف صحراء وما فيها من رسوم وأطلال ، بل يلعن هؤلاء الذين يكتفون  
بالبكاء على الاطلال والآثار . فنحن أمام شاعر يختلف عن شعراء المجنون الذين  
رأيناهم من قبل ، لأن المجنون عند ابن وكيع مذهب في الحياة ، فهو ليس بحق  
أبي الرقعمق ولا فسق تميم وجماعة صالح بن رشدين ، إنما ابن وكيع يمتاز بهذا  
اللون من فلسفة خاصة في الحياة ، فهو يدعو إلى الفجور ، ولكن في الوقت نفسه  
يتأمل الطبيعة ويفكر فيها طويلا . وقد يستهويه جمالها فتمتلئ بها نفسه ، فيخلع  
عليها هذه الصفات ، ويصورها بهذه الصور الملونة ، فيزداد سرورا ، فإذا به يدعو  
إلى الشراب فيصف الخمر وديبها في المفاصل وسلطانها على شاربها ، ويصف  
الساقى وجماله ومجلس الغناء والموسيقى . تحدث عن كل ذلك في صور متلاحمة  
متابعة وهذه هي الحياة عنده .

وفي قصيدة أخرى يجذ هذه الحياة التي اختارها لنفسه ، ودعا إليها فهو يقول :

|                                |                              |
|--------------------------------|------------------------------|
| علل فؤادك ، والدنيا أعالييل    | لا يشغلنك عن اللهو الأباطيل  |
| ولا يصدنك عن أمر هممت به       | من العواذل لا قال ولا قيل    |
| تغير يوميك يوم أنت فيه إذا     | ميزت في الناس محمود ومعزول   |
| وإن اتوك فقالوا كن خليفتنا     | فقل لهم لأنني عن ذلك مشغول   |
| فإن ذلك أمر مع نفاسته          | ونبيله بفتاء العمر موصول     |
| وارض الخمول فلا يحظى بلذته     | إلا امرؤ خامل في الناس مجبول |
| ولا تبع عاجل الدنيا بأجل ما    | ترجو ، فذلك أمر شأنه الطول   |
| واسفك دم القهوة الصهباء تحي به | روحي فإن دم الصهباء مطلول    |
| يا خائف الإثم فيها حين يشربها  | لا تقنطن فعفو الله مأمول     |
| قم فاسقني النض مما حرموه ولا   | تعرض لما كثرت فيه الأقاويل   |
| من قهوة عتقت في دنها حقبا      | كأنها في سواد الليل قنديل    |

عروس كرم أتت تختال في حلل صفر على رأسها للزج إكليل  
كأنها بأكف القوم إذ جلبت ذوب من الذهب الإبريز محلول  
في فتية جعلوا للهو طاعتهم فما لهم عن طريق اللهو معدول  
جلسهم ليس يروى من حديثهم يوما وبعض حديث القوم بمول  
لا كالذين إذا ما كنت حاضرهم ففي سكوتهم المأمول والسول  
ترى مجالسهم مملوءة لجبا وكل ذلك فضول عنك معزول (١)  
وعلى هذا النحو يسير الشاعر في وصف حياته التي اختارها لنفسه . ولعل  
قصيدته المربعة التي وردت في اليتيمة تدلنا على أن الشاعر كان ماجنا خليعا ،  
وقد شهد على نفسه بأنه « شيخ الملامى والغزل » ، وذلك بقوله في ختام قصيدته  
المزدوجة التي أنشدها في وصف فصول السنة :

دونك هذى صفة الزمان مشروحة في أحسن التبيان  
فأصغ نحو شرحها كي تسمعا ولا تكن لحقها مضيعا  
وارض بتقليدي فيما قلته فإنني أدري بما وصفته  
ولا تعارضني في هذا العمل فإنني شيخ الملامى والغزل (٢)

الشريف العقيلي : شاعر الطبيعة والخمر (٣) .

أما الشاعر الذي خلف ابن وكيع التنيسي في وصف الطبيعة والخمر معا ، فهو  
الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي من ولد عقيل بن ابي طالب  
من رجال النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، فهو شاعر حباه الله بسطة في  
الرزق ، فلم يكلف نفسه مشقة الوقوف على أبواب الأمراء والخلفاء يستجدي  
عطاهم ، ولم يشتغل بخدمة سلطان ، ووهبه الله دقة حس ورقة شعور . فأولع  
بجمال الطبيعة ، وجرى على لسانه شعراً رقيقاً هو ذلك الشعر الذي يصدر عن  
عاطفة قوية وإحساس عميق . وقدأكثر من تسيق متزهاته بجيزة الفسطاط ،  
ولا أشك في أنها كانت آية من آيات عبقريته المحبة للفن والجمال ، كان يزور هذه  
المتزهات ويمتج نظريه بما حوته من أزهار وجداول مياه ، ويشرف على هذه  
المناظر الممتعة ، ويصف مجلسه هذا بشعر جمع في ديوان لم يقدر له أن يصل إلينا ،

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٠ .

(٣) راجع المغرب في حلل المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

ولكن صاحب المغرب أخذ من ديوان ابن حيدرة العقيلي عدة مقطوعات وقال  
عن ذلك : « ثم وقع لي ديوان شعره ، فنقلت منه ما يشهد بعلو قدره ، وهو من  
أئمة المشبهين » . فمن قول ابن حيدرة :

الأرب نهار طرقت فنامه وزهر الدياتجي مثل در مبدد  
فقام وقد أفلقته من منامه إلى الباب يمشى كالأسير المقيد  
ينادي : من السارى إلى ومزعجى فقلت : جواد ذو محل وسؤدد  
حسام على الأعداء ماض غراره وملك لدى ذى الخيلة المتوود  
أتيتك أطوى الأرض شرقا ومغربا . على ضامر الأحشاء كالبرق أجرد  
فقال : وما تبغى ؟ فقلت : مدامة تشتت شمل الهم عن كل مكمد  
فقال : نعم عندى سلافة كرمة كوجنة معشوق الشائل أغيد  
وأبرزها عذراء أحلى من المنى كشمس الضحى أو كاللظى المتوقد  
إذا مزجت أبدت حبايا كأنه من الدر طوق في غلالة عسجد  
فسرت بها وهى الحياة لروضة تروح عليها الغاديات وتغتدى  
كأن البهار الغض فيها مداهن من التبر صيغت في غصون وبرجد  
كأن انتثار القطر والزهر زاهر على الورد دمع فوق خد مورد  
وأطيأرها تغنى النديم إذا شدت على الأيك عن شدة الغريص ومعبد  
ونرجسها بين الشقائق شاخص يردد لحظ المستهام المسهد  
فازلت بالإبريق أقبض روحها من الدن ما بين الربا بتمدد  
وأشربها حتى اثنتيت مجدلا صريعا على شدة الحمام المغرد  
أنا ذاك أعطى اللهو ماعشت مقودى وأعدل عن تفنيد كل مفند (١)

وقوله من قصيدة أخرى :

وخمار دخلت عليه وهنا وجنح الليل مسود الجناح  
على هوجاء تنشر فى الفيسافى لغاما فى الغدو وفى الصباح  
إذا وخذت تحال الريح تحتى وإن كانت أخف من الرياح  
فقال : من الفتى ؟ فأجبت : ضيف تسربل بالمكارم والسباح



فقال : وما تريد فذتك روحى فقلت له : أرح روحى براح  
 فقام إلى دناب مترعات معممة بكافور رباحى  
 وفض ختام أقدامها فلاحت على الظلباء أنوار الصباح  
 وأبرز منه فى الإبريق راحا ألد إلى الأسير من السراح  
 نأن حبابها طل تبنى على ورد جنى فى أقاح  
 وجاء بأهيف عذب الثنايا دقيق الخصر غرثان الوشاح  
 تراه يقيه من أدب وظرف ومن تيه على الفيد الملاح  
 يقول إذا رآه كل لاح : محبك ما عليه من جناح  
 هى الأيام تندرج اندراجا وصرف الدهر ذو وجه وقاح  
 فصل قصفاً بقصف واعتباقا بأفراح ، وهواً باصطباح (١)

فى هاتين المقطوعتين من شعر ابن حيدرة العقيلي نستطيع أن ندرك أن الشاعر كان يجمع بين وصف الطبيعة ووصف الشراب ، ويأخذ من الطبيعة التى أحبها وهام بها صوراً بصورها حباب الخمر فى الكشوس ، فهو فى كل شعره الذى انتهى إلينا لا يصف الطبيعة دون أن يتحدث عن الخمر ، ولا يتحدث عن الخمر إلا إذا تحدث عن الطبيعة ، فهو يقول :

الروض فى ديباجة خضراء والجو فى فرجية دكنا  
 والأرض قد نظم الربيع لجيدها عقداً من الصفراء والحمراء  
 والراح ينثر فى مذاب عقيقتها درر الفواقع جوهرى الماء  
 فأقصد رضا رضوانها بالشرب إن أحببت سكنى جنة السراء (٢)

وقد كان شعر هذا الشاعر سبياً فى أن يتهم المستنصر بالله الفاطمى بالمجانة والفسق ، فقد روى المقرئى أنه كان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد ابن الظاهر فى كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة — وهو موضع نزهة — هيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة ، وربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء ويسقيه من معه ، وأنشده مرة الشريف ابن حيدرة العقيلي فى يوم عرفات :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى إلا بصهباء  
 أدرك حجيج الندامى قبل نعزم إلى من قصفهم مع كل هيفاء

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢ .

(١) المغرب ص ٦٠ .

وعج على مكة الروحاء مبتكراً فطف بها حول ركن العود والناء  
ويضيف المقرئى نقلا عن ابن دحية : فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى  
بنغيات حداء الملاهى وتساقى ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام  
بها سوق الفسوق على ساق ، وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين (١)  
ولعل القصة وضعت على هذا النحو للطعن على الفاطميين ، فلم نعرف عن المستنصر  
أنه كان ماجنا فاسقا ، ولم نعرف أن الشريف ابن حيدرة اتصل بإمام من أئمة  
الفاطميين ، وقد تكون القصة أن المستنصر كان يخرج إلى جب عميره فى عيد  
الأضحى بقصد النزهة ، واتفق أن سمع ابن دحية بهذا الخبر وسمع أبيات ابن  
حيدرة السابقة ، فنسج خياله قصة لهو المستنصر وخروجه على هذا النحو الذى  
وصفه استهزاء بالحج ، ولكن تعصب المؤرخين ضد الفاطميين جعلهم يبدعون  
فى حياكة مثل هذه القصص عنهم . وهكذا كان شعر ابن حيدرة سببا فى هذه القصة .  
وكان ابن حيدرة شاعراً يحب الدعابة ويحيد الفكاهة ، وله عدة مقطوعات منها  
قوله يداعب من خضب شبيهه :

يا من يدلس شبيهه بخضابه  
إن المدلس لا يزال مريباً  
هب ياسمين الشيب عاد بنفسجاً  
أيعود عرجون القوام قضيباً (٢)

وقال مرة أخرى :

قد هجونا وكان غير صواب  
ورميناً بعنبر فى تراب  
وظلمنا الحسام وهو صقيل  
إذ جعلناه فى أخس قراب  
يا لها غلظة ، وإلا فماذا  
ينفع الباز صيده للغراب

وقال :

سألت أبا يوسف حاجة  
فقال : أجيء بها فى غد  
فقد سلط السل من مطله  
فأضنى به جسد الموعد

وبجانب شعره فى المجون والدعابة والطبيعة نرى لابن حيدرة شعراً فى الفخر  
بنسبه إلى آل أبي طالب ، فهو يقول :

من عندنا أتت الحكم وبننا تأدبت الأمم  
ولنا نوال هاطل ينهل من سحب الهمم

(١) المخطوط ج ٢ ص ٣٨٣ . (٢) المغرب ص ٥٥ .

قوم إذا استرفدتهم تركوك من أهل النعم (١)  
ويقول مرة أخرى :

نحن الذين غدت رجا أحسابهم ولها على قطب الفخار مدار  
قوم لغصن ندام من رفدهم ورق ومن معروفهم أثمار  
من كل وضاح الجبين كأنه روض خلائقه له أزهار (٢)  
كان ابن حيدرة يمتاز بتأدية خاصة في فنه الشعري هي تلك الناحية التي أشار  
إليها صاحب المغرب وقال : « إنه كان من أئمة المشبهين ، وكان صاحب المغرب  
أراد أن الشاعر كان من المكثرين من الزينة اللفظية والبيانية في شعره ، ولعل  
هذه الأبيات القليلة التي رويناها له تدلنا على صدق ما ذهب إليه ابن سعيد .

### القليوبى الطائب

ومن يجرى في حلبة ابن وكيع التنيسي وابن حيدرة العقيلي وغيرهما من  
شعراء الجون والطبيعة شاعر كان يكتب في ديوان العزيز بالله الفاطمي والحاكم  
وتوفى أيام الظاهر ، ويروى ابن شاكر عن ابن سعيد أن ابن الزبير وصفه  
بالإجادة في التشبيهات ، وأنه غلا في ذلك فقال : إن أنصف لم يفضل عليه ابن المعتز (٣)  
ذلك الشاعر الكاتب هو علي بن محمد بن أحمد بن حبيب القليوبى الكاتب . قيل  
إنه كان أحد الشعراء الذين مدحوا الأئمة والقواد والكتاب ، ولكن مدائحه  
ضاعت ولم يبق منها شيء ، بل قل إن شعره كله فقد ولم يبق منه إلا عدة أبيات ،  
منها قوله :

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| وصافية بات الغلام يديرها     | على الشرب في جنح من الليل أدمج |
| كأن حباب الماء في وجنتها     | فرائد در في عقيق مدرج          |
| ولا ضوء إلا من هلال كأنما    | تفرق منه الغيم عن نصف دملج     |
| وقد حال دون المشتري من شعاعه | وميض كمثل الزئبق المترجرج      |
| كأن الثريا في أواخر ليلها    | تحيمة ورد فوق زهر بنفسج (٤)    |

ولست أدري ما الذي حدا بهذا الشاعر إلى أن يذكر أسماء الكواكب  
ويتحدث عن النجوم ، وذلك في كل المقطوعات التي بقيت لنا من شعره ، ولعل الشاعر

(١) المغرب ص ٧٨ .  
(٢) (٢) ص ٦٩ .  
(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٦٩ (٤) المصدر نفسه .

كان من المشتغلين بالأرصاد في عصر اهتمت الدولة بها ، فالشاعر يقول مثلا :

نجمت نجوم الزهر إلا أنها  
وكأنما الجوزاء منها شارب  
ويقول من قصيدة أخرى :

وصفراء من ماء السكروم كأنما  
كأن حباب الماء في وجناتها  
قطعت بها ليلا كأن نجومه  
تراها بأفاق السماء كأنما  
ومنطقة الجوزاء تبدو كأنها  
وبانت بعيني الثريا كأنما  
فبت أراعي الفجر حتى تشمرت  
ذبول الدجى عن مائه المتفجر (١)

### قتيل الغواني :

ولقب أيضا بصريع الدلاء وبنز بذي الرقاعتين ، ويسميه ابن خلكان بأبي  
حسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي ، وسماه مرة أخرى بأبي الحسن محمد  
ابن عبد الواحد القصار البصرى ، ولم يحقق أحد الاسمين ، واكتفى بقوله : والله  
أعلم (٢) ، أما ابن شاكر فاكتفى في ذكر اسمه بأن قال : محمد بن عبد الواحد الملقب  
بصريع الدلاء وقتيل الغواني (٣) . ويرى السيوطي أن اسمه علي بن عبد الواحد (٤)  
ويخيل إلى أن اسمه محمد بن عبد الواحد ، لأن ابن خلكان ذكر أنه قرأ ذلك في نسخة  
ديوان شعره . لم يكن هذا الشاعر مصريا ولكنه وفد على مصر سنة اثنتي عشرة  
وأربعمائة من الهجرة ، ومدح الإمام الظاهر ، وعرف بمجونه ، وسلك في شعره  
مسلك أبي الرقعمق في هزله ومجونه ، ومن ذلك قصيدته التي عارض بها مقصورة  
ابن دريد ، وفيها يقول :

من لم يرد أن تنثقب فعاله  
ومن أراد أن يصون رجله  
من دخلت في عينه مسلة  
من أكل الفمحم تسود فمه  
يحملها في كفه إذا مشى  
قلبسه خير له من الحفا  
فأسأله من ساعته عن العمى  
وراح صحن خده مثل الدجا

(١) فوات الوفيات ص ٧٠ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٩ .

(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ . (٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣ .

من صفع الناس ولم يدعهم أن يصفعوه فعليهم اعتدى  
من ناطح الكباش يفجر رأسه وسأل عن مفرقه شبه الدما  
من أكل الكرش ولم يغسله سأل على شاربه ذاك الدوا  
من طبخ الديك ولم يذبحه طار من القدر إلى حيث يشا  
من شرب المسهل في فعل الدوا أطال ترداداً إلى بيت الخلا  
من مازح السبع ولم يعرفه مازحه السبع مزاحاً بجفا  
وألف حمل من متاع تستر أنفع للمسكين من لقط النوى  
والدرج يلقى بالنشا ملصقا والسرج لا يلزق إلا بالغرا  
والذقن شعر في الوجوه نابت وإنما الاست التي تحت الخصا  
من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حد سوا  
فاستمعوها فهي أولى لكم من زخرف القول ومن طول المرا

وقال في آخرها مشيراً إلى ابن دريد :

فتلك كالدر يضئ لونها وهذه في وزنها مثل الحدا<sup>(١)</sup>  
وهذا الشاعر هو الذي أشار إليه أبو العلاء المعري في قوله :  
دعيت بصارع فتداركته مبالغة فرد إلى فعيل<sup>(٢)</sup>  
ولكن هذا الشاعر لم يمكث طويلاً في مصر إذ توفي في السنة التي وفد فيها .

\*\*\*

وفي القرن السادس نرى عدداً كبيراً من شعراء الفكاكة والمجون خلعوا على أنفسهم ألقاباً فكاكية، فالشاعر يحيى بن علي الكندي نزل «بالوضيح» وهو صاحب الأبيات التي يفخر فيها بنسبته إلى مذهب أبي نواس في المجون :

أنا نائب الشرع النواصي دعني وباطيتي وكأسي  
أهوى الغزاة كاعبا وأهيم بالظبي الخناسي  
من كل معتدل رشيق القاد د بمشوق خلّاسي  
متعكرش فإذا اخترت وجدت منحل الأساس  
لكن لإفلاسي جيب ت السامري بلا مساس  
لي منزل لا شيء فيه ه كأنه كيسى ورامى<sup>(٣)</sup>

(١) فوات الوفيات، ص ٢٣٧ (٢) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٥٩ (٣) الحريرة ورقة ١٠٥

والشاعر الفقيه ، ونبذ بالنسب ، ومن شعره :

خلعت رداء التصابي المعارا      وكان بفودي غراب فطارا  
وكم خضت باللؤلؤ ليل الشباب      إلى أن أراقى المشيب النهارا  
لئن كدر الشيب صفو الشباب      وبات برغمي ديارا ديارا  
فلا بأس أن مد لج البعاد      فإن لكل مسيل قرارا (١)

والشاعر محمد بن إسماعيل وعرف بالتاريخ ، ومن بحونه :

ألا فاسقياني ما تدير ثناباه      وما أودعت من مخرها بابل فاه  
ولا تنكرا سكرى بغير مدامة      فسيان عندي ريقه وحمياه  
إذا كان كاسي مترعا من رضابه      ونقل ما تبدى من الورد خداه  
كفاني ريحانا وراحاسلاف ما      حوى ثغره أو أنبتته عذاراه  
غزال يتابع المدامع وردة      وروض القلوب المستهامة مرعاه  
سل البان عنه هل إلى البان أصله      فربي جدياه ودوياه روياه  
فله ما أشجى فؤادا ملكته      وأغراه بالبيض الحسان وأصباه (٢)

ومن شعره :

لاه بغانية وراح      ناه لعاذلة ولاح  
ما زال يشرب كأسه      صرفا على ضرب الملاح  
ما بين زمزمة البنود      وبين وسواس الوشاح  
حتى مضى مسك الدجي      وأنار كافور الصباح (٣)

والشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي سعد ، نبذ بالكاسات ، ووصفه ابن الزبير بقوله : « إنه كان خفيف الروح كثير المجون ، يضحك بنوادره وسخفه المحزون ، (٤) ولكن فقد شعر هذا الشاعر الماجن ، ولم يبق له سوى أبيات في المدح .

والقائد أبو طاهر إسماعيل بن محمد عرف « بآبن مكنسة » وهو يعد من خول الشعراء في أواخر القرن الخامس ، وشهد القرن السادس ، وهو الشاعر الذي ذكرنا أن الأفضل هجره وأبعده لمداخه في أبي المليلح النصراني ، وهو أحد الذين

(١) المريدة ورقة ١٠٦ . (٢) المصدر نفسه .  
(٣) المريدة ورقة ١٠٧ . (٤) المصدر نفسه .

أشاد بذكرهم أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، وكان ابن مكنسة في بعض منزله يذهب مذهب أبي الرقعمق في الحماقة والمجون ، من ذلك قوله :

أنا الذي حدثكم عنه أبو الشمقمق  
وقال عني إنني كنت نديم المتقى  
وكننت كنت كنت كنت من رماة البندق  
حتى متى أبقى كذا تيسا طويل العنق  
بلحية مسبلة وشارب مخلق  
يا ليها قد حلقت من وجه شيخ خلق<sup>(١)</sup>

وفي مقطوعة أخرى يشكو كبره وضعفه :

عشت خمسين بل تزيد رقيعا كما ترى  
أحسب المقل بندقا وكذا الملح سكرًا  
وأظن الطويل من كل شيء مدورا  
قد كبر برّ بربّ بربّ ت وعقلي إلى ورا  
عجبا كيف كل شيء أراه تغيرا  
لا أرى البيض صاريؤ كل إلا مقشرا  
وإذا دق بالحجا ر زجاج تكسرا<sup>(٢)</sup>

وانظر إلى هذه المقطوعة في وصف منزله وضيقه :

لى بيت كأنه بيت شعر لابن حجاج<sup>(٣)</sup> من قصيد سخيف  
سابقتي بنات وردان حتى أنا فيه كفارة في كنيف  
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله ، وهو مثل عقلي الضعيف  
وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحي والأنوف  
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها في الكسوف  
وهو لو كان من حبيجي ونسكى صدنى بفضه عن التطويف<sup>(٤)</sup>  
فإن مكنسة في هذه الأبيات يتحامق كأستاذه أبي الرقعمق ، وذلك بجانب قصائده

(١) الحريرة ورقة ١٩٣ . (٢) المصدر نفسه ورقة ١٩٤ .

(٣) يقصد الحسين بن الحجاج الشاعر العراقي الماجن (٤) الحريرة ورقة ١٩٢ .

التي كان يجد فيها ، فلا نجد أثرا لهذه الحماقات وهذا الهزل وتلك الدعابة ، فهو يقول  
مثلا في إحدى مدائحه :

ملك بكفيه وأسيافه      تقسم آجال وأرزاق  
ذلت لنعماك نفوس كما      ذلت لأسيافك أعناق

ويقول في إحدى مقطوعاته :

أقول وبحرى النيل بيني وبينكم      ونار الآسى مشبوبة بضلوعي  
تراكم علمتم أننى لو بكيتم      على النيل لاستغرقته بدموعي  
وهكذا نرى الشاعر قد ضرب بسهم في جد الشعر وهزله .

ومن شعراء المجون في القرن السادس الشاعر أبو علي حسن بن إسماعيل المعروف  
بالمكربيل ، وكان شاعرا هجاء ، وصفه ابن الزبير بقوله : كان لسانه مقراض  
الآعراض ، بلغ المائة من العمر ، ولم يسمع له في المديح شعر إلا نزر يسير ، ولا قبل  
من أحد جائزة ، ولا امتد أمله إلى نيل رغبة (١) . ومقطوعاته كلها التي وصلت  
إليها في الهجاء المقذع ، فمن ذلك قوله في الشاعر ابن باقى الجزار ، وكان في مقدمة  
الشعراء في عصره :

قالوا ابن باقى شاعر      مقدم فى الشعرا  
قلت نعم قد قدمو      ه عنهم إلى ورا  
كأنما يمضغ فى إنشا      ده الشعر خرا  
وقوله فى ابن باقى الجزار أيضا :

لا تظن أننى أهجوكا      قد كفانى بأن يعيش أبوكا  
وقوله فى بعض علماء عصره :

فهل عندكم من مفخر أو فضيلة      سوى طول أجسام وعرض كام  
طوال بلا طول ، قصار عن العلى      عجبت لنقص منهم وتام  
وقوله :

قولوا لمن يكرمنى فى السلام      بهزة القامة لى والقيام  
أشهى إلى النفس وأحلى من القيام      يا سيدى أن تنام

وعلى هذا النحو كان هجاء هذا الشاعر المنبوز بالمكربيل ، وقد وجد المكربيل  
من الشعراء من يقف له ويهجو ، فالشاعر ابن قتادة المعدل المصرى كان يضطر إلى



الرد عليه ، فكلمها هجاء المكربل أجاهه ابن قتادة ، فمن قوله في المكربل :

مانال خلق في الهجا ما ناله المكربل  
كل الهجاء آخر وهو الهجاء الأول  
لأنه يأخذ من عرضه ويعمل (١)

ومن شعراء المجون في آخر عصر الدولة الفاطمية الشاعر علي بن حسن بن

إسماعيل ، ففي إحدى مقطوعاته المأجنة يقول :

قم قبل تأذين النواقيس واجلُ علينا بنت قسيس  
عروس دن لم يدع عتقها إلا شعاعا غير ملموس  
تجلى علينا باسمها ثغرها فلا تقابلها بتعبيس  
مذهبة اللون إذا صفقت مذهبة اللهم والبوس  
لاغرو ما تأتيه من ريبة لأنها عنصر إبليس  
ليس لها عيب سوى أنها حسرة أقوام مفاليس  
في روضة كانت أزاهيرها كأنها ريش الطواويس  
فاغتم اللذات في دولة صافية من كل تعكيس (٢)

وقوله من مقطوعة أخرى :

وليلة كاعتماض الطرف قصرها وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل  
بتنا مجاذب أهداب الظلام بها كف الملام وذكر الصد والمثل  
وكلنا رام نطقا في معاتبتى سددت فاه بطيب اللثم والقبيل  
وبات بدر تمام الحسن معتنقى والشمس في فلك الكاسات لم تفل  
فبت منها أرى النار التي سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لي  
راح إذا سفك الندمان من دمها ظلت تقهقه في الكاسات من جذل  
فقل لمن لام فيها إنني كلف مغرى بهامثها أغريت بالعدل (٣)

ومن شعراء المجون أيضا الشاعر أبو الغمر الإسناوى محمد بن علي الهاشمي

المتوفى سنة ٥٤٧هـ الذي وصفه العماد بقوله : أشعر وقت زمانه ، وأفضل أقرانه (٤)

(١) الخريدة ورقة ١٠ . (٢) ورقة ١٣٥ .

(٣) ورقة ١٣٦ . (٤) الخريدة ورقة ١٦١ .

وروى له من شعره عدة مقطوعات تدل على رقة الشاعر وعذوبة شعره مع سهولة هذا الشعر، فمن ذلك قوله :

أيها اللائم في الحيا      ب لحاك الله حسبي  
لست أعصى أبداً      في طاعة العذال قلبي

وقوله في غلام لبس في عاشوراء ثوبا من الصوف :

أيا شادنا قد لاج في زى ناسك      فباح بمكنون الهوى كل ماسك  
رويدك قد أدركت ما يعجز الظبا      وأضمرت نيران الجوى المتدارك  
أنحن فتكننا باين بنت محمد      فتأثر منا بالجفون الفواتك  
وقوله وقد أخش في مجونه :

بي شادن هو أدنى      إلى مذ كان مني  
فقد تعجلت قبل المسمات جنة عدن  
به تعففت عما يصمم بالعدل أدنى  
لأنه صان عرضي      عن أن ألوط وأزنى  
وزادني فيه حبا      وصف يطابق فني  
لم يتسع خرقة لي      كلا ولا ضاق عني  
خلقة الظهر منه      صيغت لإصبع بطني

ومن قوله :

الحاظكم تبحرنا في الحشا      ولحظنا يبحركم في الحدود  
جرح بجرح فاحسبوا ذا بدا      فما الذي أوجب جرح الصدود<sup>(١)</sup>  
ومن قوله :

أيا ليلة زار فيها الحبيب      ولم يك ذا موعد ينتظر  
وغاض إلى سواد الدجا      فياليت كان سواد البصر  
وطابت ولكن ذمنا بها      على طيب رياه نشر الشجر  
وبتنا من الوصل في حلة      مظرزة بالتقى والخفر  
وعقلي بهانهب سكر المدام      وسكر الرضاب وسكر الحور

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشاعرة الأندلسية ولادة بنت المستكفي .

وقد أحجل البدر بدر الجبين وتاه على الليل ليل الشعر  
وأعدى نحوى جسم الهوى وأعداه منى نسيم عطر  
فنى معتبر العاشقين ومن حسن معناه لإحدى العبر  
ومن سقى وسنا وجهه أريه السها ويربني القمر  
وله مقطوعة يذم الزمان ويبرم بالناس حوله :

زمان يخلط في فعله كأن به سكرة العاشق

وخلق إذا ما تأملتهم جحدت بهم حكمة الخالق (١)

وقد ذكرنا شيئاً عن دعاة ابن الصياد في أنف ابن الحباب حتى بلغت  
مقطوعاته ألف مقطوعة، ولم رده عنه سوى تعرض ابن قادوس له، وذكرنا  
لكامة الجليس في الطبيب، وهما هوذا ابن قادوس يداعب رجلاً كان يكبر كثيراً  
في الصلاة، فيقول :

وفاتر النية عينها مع كثرة الرعدة والهزه

يكبر سبعين في مرة كأنه صلى على حمزه

ويداعب آخر كان يلوم ابن قادوس على مجونه، فيجيبه بقوله :

ولائم يلومني يريد منى توبتي

يقول لي الموت غدا فقلت هذا حجتى

وانظر إلى هذه الدعاة الطريفة من ابن شمول المقرئ :

تبسمت إذ رأيتني وشيب رأسي يحوم

فقلت شعري ليل والشيب فيه نجوم

فاستضحكت ثم قالت كما يقول الظلوم

يا ليتها من نجوم غطت عليها الغيوم (٢)

وعما يروى أن الطبيب جرجيس الملقب كان بالفيلسوف، كان يزور فصولاً  
طبية فلسفية على الطبيب أبي الخير سلامة بن رحمون، وكان يبرز هذه الفصول  
في معارض ألقاظ القوم وهي لا معنى لها، ثم ينفذها إلى من يسأل أبا الخير عن  
معانيها ويستوضحه أغراضها، فيتكلم أبو الخير عليها ويشرحها دون تيقظ ولا  
تحفظ، فيوجد فيها عنه ما يضحك، ولذلك هجاه أحد الشعراء بقوله :

(١) الحريرة ورقة ١٦٦ . (٢) تاريخ ابن العبري ص ٣٤٨ .

إن أبا الخير على جهله يخف في كفته الفاضل  
عليله المسكين من شؤمه في بحر هلك ماله ساحل  
ثلاثة تدخل في دفعة طلعتة والنعش والغاسل (١)

وللشاعر محمود بن ناصر الإسكندراني . وكان كاتب ابن حديد القاضي  
يداعب طبيبا :

صديقتنا المستطب نادرة قد أخذت منه أعين الناس  
أنياب غول ومشفرا جمل ورأس بغل وذقن نسناس (٢)

ونختم هذه الكلمة بقصيدة الشاعر رضى الدولة أنى سليمان داود بن مقدم ،  
وكان أحد الشعراء الذين عرفوا بالفكاهة وقال عنه ابن الزبير : إنه من أبناء الجند  
بأسفل مصر (أى بالوجه البحرى) إلا أن همته سمحت به من الأدب إلى دوحة يقصر  
عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضرابه وأشكاله ، وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ  
القريحة ، حتى أدرك بغفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثير من أبناء  
عصره فى الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، ووجدت  
حقوقه (٣) ، وفى هذه القصيدة التى نذكرها له يصف حالة ولاية الأقاليم والجنند  
وما كانوا عليه من ظلم وفساد ، ويصور حالة الرشوة التى كانوا يأخذونها من الناس  
وما كانوا يجبونها من الأسواق ، فهى قصيدة تهكمية ، ولكنها تصور حالة العصر  
أصدق تصوير ، فهو يقول فى الأمير ابن كازوك وكان والى الغربية :

أيها المخلص المسكين ومن كفه أيها المخلص المسكين ومن كفه  
هان عنا أهل الحجة واعتصمنا بأهل البغضاء والشنآن  
نحن أشقى بختنا وأتعس حظا إذ قضانا بصفقة الخسران  
إذ رعانا بأبغض الخلق مذكا ن وكانوا لكل قاص ودان  
رجل صيغ من حماشيب بالشر ة خلطا والشؤم والخذلان  
والرياء والبغاء والجهل والإفة لك وسوء الطباع والبهتان  
ما ظننا من قبله أننا نلقى جميع السوءات فى إنسان

(١) الحريرة ورقة ١٢٩

(٢) الحريرة ١٢

(٣) الحريرة ورقة ٩٩

يتلقاك كالحا عابس الوجه  
وله إخوة وأفعالهم في المنا  
حر قلبي على مثولي بالبا  
أيها الأملعي أعوزك الرعي  
أي شيء. غال الكفاة من السكت  
صاحب الخيل والجواشن واليه  
ماله والنكول عن سفر الش  
وطلاب المشارفات وتحقي  
ليس هذا إلا لأن الخراف ال  
والرحيق الذي عهدناه لا ي  
تجلى في الكشوس صرفا مع  
والإجابات للآداب أشهى  
وطلاب الدليل بالرسم أو  
فاتركونا معاشر الجندواعنوا  
والولايات والحمايات والزم  
والمعاصير والسواقي وتسو  
وارتعوا في جزور ذي الدولة اله  
واشغلونا بما فيه يشغل الهر  
بالطحال المسدود أو طرف الر  
واغنموا هدية، كتهوية ال

بقلب خال من الإيمان  
ل فعل الذئاب بالخلان  
ب وقولي لصاحب الديوان  
ن حتى استرعميت بالذئبان  
اب لولا عوائق الحرمان  
ض وبيض الطلي وسمر اللدان  
سام وصددم الأقران بالأقران  
ق بقايا العمال والخزان  
بيض في ريفنا بلا أثمان  
باع إلا بالنقد أو بالرهان  
المجان والمسمعات بالمجان  
للقى من إجابة الديوان  
لى من طلاب البراز للفرسان  
بدرور الأرزاق كل أو ان  
وأخذ الأجمال من كل خان  
يغ الضياع المسورات الحسان  
أي نداها في أطيب اللحمان  
لنفع أو خيفة العدوان  
ثة أو بالمعلاق والمصران  
ركب، وقيمتهم من الحدثنان (١)

## الفصل السادس

### في الغزل

لا أكاد أعرف شاعراً من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد في الغزل ، بشيء الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون ، سواء أكان هذا الغزل في المؤنث أو في الذكر ، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الأقطار الأخرى . فكان شعراء المدح — الذين ألموا بالعقائد المذهبية في شعرهم — يتبعون سنة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل . ولما أراد العماد الأصهباني أن يروي شيئاً من شعرهم ، اكتفى بالمقدمات الغزلية التي افتتحوا بها قصائدهم ، وأبى أن يروي شيئاً من مدح الأئمة .

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي ردها الشعراء من قبل في صفات المرأة وما تمتاز به المعشوقة من فتنة ودلال وسحر ، ولكن الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية ، انظر مثلاً إلى قول أبي الحسن التنيسي الملقب برضى الدولة :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| راح من خمرة الصبا مغتبقا | ثملاً ، أحسن شيء خلقا      |
| تفعل النشوة في أعطافه    | فصل عينيه بأرباب التقى     |
| رشاً قد أقسمت ألحاظه     | ليريقن دما من عشقا         |
| من عذيري من غزال كلما    | سئل الرحمة أبدى حنقا       |
| ورأيت الزرجس الغض وقد    | أخجل الورد بما قد أحدقا    |
| ينهب الناهب من زهرته     | وينود اللس عما بسقا        |
| كم أناديه وذلي شافعي     | وفؤادي يتلظى حرقا          |
| هكذا يجزى بكم من عشقا    | لايحا يسرى وقلبا موبقا (١) |

فالمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة والتي قدم بها للمدح ليست بمجديدة في الشعر العربي ، إنما الجديد في هذه الأبيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها هذه المعاني القديمة .

وانظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل ، وقد أتى بمعان لم يطرقها القدماء في غزلهم :

نظري إليك يزيد في نظري      فعلام تحجيني عن النظر  
يا جملة الحسن التي اقتسمت      منها المحاسن جملة البشر  
لهواك بين جوانحي كتب      قد عنونت بالدمع والسهر (١)

فهذه المعاني التي ألم بها الشاعر في هذه الأبيات لم يطرقها — فيما أعرف — شاعر عربي من قبل ، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر ، ولكن الشاعر المصري جعل لهوى المحبوب في نفسه كتباً عنوانها الدمع والسهر .

ويتغزل الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري ، فيقول في مقدمة إحدى قصائده :

ومفهمف طالت ذوائب فرعه      كالليل فاض على الصباح المسفر  
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به      لي مهجة عن حبه لم تقصر  
وسنان كحل السحر حشو جفونه      ففتورها عن مهجتي لم يفتر  
ملك القلوب بدر سمطي أولو      عذب اللي في غنج طرف أحور  
وبوجنة رقم الجمال رياضها      يبنفسج من فوق ورد أحمر  
كتب العذار على صحيفة خده      هذا بداية حيرة المتحير  
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت      فتن العقول وروض غير المبصر (٢)

ويقول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى :

وإني لأهوى رشاً ساحرا      أعار فتور العيون الظبا  
إذا ما تثنى فغصن نقا      وبدر جلا شعره غيبا  
وزانت عيماه خيلانه      كما يتبع الكوكب الكوكبا  
وبني أسمر ناسبته القنا      يروقك خدا جلا مذهبا

سقى روض خديه ماء الشبا      ب ففتح زهرا به معجب  
تقلد من لحظه صارما      أسال النفوس وما ذنبا  
وملك من حسنه دولة      لطاعتها كل قلب صبا<sup>(١)</sup>

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الآيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء ، ولكنها صور متحضرة ، لا يذكر الشاعر جزءا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه ، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها ، وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله والحياة التي يحياها ، فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفا واقعيا — إن صح هذا التعبير — إنما كان يتحدث دائما عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية ، وهنا نرى فرقا كبيرا بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان ماديا في وصفه ، والشاعر المصري كان عاطفيا ، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية ورفق عاطفة المصريين برقى حياتهم .

ناحية أخرى نراها فيما بقي لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية ، تلك أن المصريين بدأوا يتركون الأوزان الطويلة ، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة أو منهوكة ، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب والتي لا يزال أثرها باقيا في مصر إلى اليوم . انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمرى :

ملك الشوق مهجتي      حبذا من تملك  
قد رماني بحبه      ونهاني عن البكا  
إنما راحة المحب إذا أن أو شكى  
ما أرى السلو عنه ، وإن جاز ، مسلكا<sup>(٢)</sup>

فهذا الشاعر الدقيق الحس ، الرقيق الشعور ، وصف جالة المحب المضنى وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى ، بالرغم من أن المحب نهاه عن البكاء ، فاتخذ هذا الوزن الخفيف ، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد أن تكون من ألفاظ الشعب ، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلا لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير . ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمرى أيضا :

(٢) المصدر نفسه .

(١) المصدر نفسه ورقة ٢٨ .



أنعموا لي بالوصال وارحموا رقة حالي  
لا تذيبوا مهجتي بي من التجنى والدلال  
ليس عذري في هواكم قد بدا لي قد بدا لي  
إنما قصدي رضاكم قد حلا لي قد حلا لي  
وإن اخترتم عذابي لا أبالي لا أبالي (١)

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة ، ولكن الشاعر هنا كان شاعراً مصرياً قبل كل شيء ، وكان يتغزل ، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة .

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الأمري ، فقد كان للبصريين لوانان من شعر الغزل ، اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظاً جزلة ووزناً قوياً طويلاً ، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيته بلا تصنع ، فلا ينتقى الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجرى به لسانه وما تمليه عاطفته ، وقد رأينا طلائع الأمري في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل ، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له ، فهو يقول :

تريد الهوى صرفاً من الضر والبلى لعمر ك ما هذى قضية من يهوى  
إذا لم يكن طرف المحب مسهداً وأدمعه تجرى ، فهذى هي الدعوى  
ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى ألد من المن المنزل والسلوى  
وحق ترى القلب القريح من الهوى يمانعه الصبر الجميل من السلوى  
رعى الله من أعطى المحبة حقها وإن لم يكن فيها من الأمر ما يقوى (٢)

فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عن ما جاء به في مقطوعته الأولى ، فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل ؛ على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة ، فالشاعر مروان بن عثمان اللكي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة الحب حين يقول مثلاً :

ما بال قلبك يستلين      أبه غرام أم جنون  
بحر الحفام بما يجن      فأذهب الشك اليتيم  
حتى متى بين الجسوا      نخ والضلوع هوى دفين  
وإلى متى قلبي المتيم      في يد البلوى رهين  
يا ما طلى بديون قلبي      آن أن تقضى الديون  
شخصت له فيك العيون      وتقسمت فيك الظنون  
وسلبت ألباب الورى      باواحظ فيما فتون  
وقوام أغصان الربا      ض وأين تدركك الغصون  
الحسن في الأغصان فن      وهو في هذا فتون  
من أين للأغصان ذا      ك الفنج والسحر المبين  
أم ذلك الورد الجنى      بخده والياسمين<sup>(١)</sup>

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان السكي التي تظهر فيها  
عاطفة الشاعر في أسلوب أهل مصر الآن ولا سيما في البيت الثالث :

تمسكن منى السقيم حتى كأننى      توهم معنى فى خنى سؤال  
ولو ساحت عيناه عيني فى السكرى      لأشكلك من طيف الخيال خيالى  
سمحت بروحى وهى عندى عزيزة      وجدت بدمعى وهو عندى غالى  
وقد خفت أن تقضى على منيتى      ولم أقض أوطارى بيوم وصال  
وهون ما ألقى من الوجد أنه      صدود دلال لا صدود ملال<sup>(٢)</sup>

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائى يتغزل :

يا حبيب العمر عطفاً فىنى      بهواكم على لظى أتلقى  
إن وصلتكم ، وصلتكم مستهما      عن هواكم وحبكم ما تخلى  
هو عبد الهوى ، وليس يباغى      عتقه فى هوى ولومات قتلا<sup>(٣)</sup>

ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطى :

يا هذه ، رقى على صب دنف      صيره الهجر إلى حد التلف

(٢) ورقة ٧١

(١) الحريدة ورقة ١٢٩ .

(٢) ورقة ٢٥

رقى عليه ، وصلى حباله فإنه عن حبكم لا ينصرف (١)  
وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن علي بن عرام كان من إقليم أسوان  
فإن غزله كان متأثراً بالحياة اللينة التي عرفت بها مصر ، ولا سيما أنه وفد  
على القاهرة ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة ، فأسهم مع غيره  
من شعراء مصر في التغزل في الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية ،  
فهو الذي يقول :

من معيني على اقتناص غزال نافر عن حبائلي رواع  
قلبه قسوة كجلود صخر خده رقة كزهر الباغ  
كلما رمت أن أقبل فاه لدغتنى عقارب الأصداغ  
وقوله أيضا :

لدغتنى عقارب الصدغ منه فسלוه من ريقه درياقا  
إنني عاشق له ، وهو مذكا ن ظلوم لا يرحم العشاقا (٢)  
وقوله :

يا الأثمي في غزال قلبي رهين يديه  
لا تطمعن في سلوى فلا سيل إليه  
لم لامني فيه قوم وعنفوني عليه  
حتى إذا أبصروه خروا سجودا لديه  
فاحفظ فؤادك فالسوت في ظبا مقلتيه (٣)

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن البصريين بهض المعاني المبتكرة ، من  
ذلك قول الأخفش في العذار :

وكأن العذار في حمرة الخد على حسن خدك المنعوت  
صولجان من الزمرد معطوف على أكرة من الياقوت (٤)  
ولكن العباد أخذ على الشاعر أنه ذكر (الخد) مرتين في البيت الأول ،  
مع اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه .  
وكذلك قال القدماء : إن قول أبي القمير الأستاوي في العذار من المعاني المبتكرة

(٢) الحريرة ورقة ١٨١

(٤) ورقة ١٣١

(١) الحريرة ورقة ٢٥

(٣) ورقة ١٨١

وغزال خلعت قلبي عليه فهو باد لأعين النظار  
قد أرانا بنفسج الشعر بدرأ طالعا من منابت الجلنار  
وقدت نار خده ، فسواد الشد مر فيه دخان تلك النار (١)  
وقول أبي الغمر الأسناوى أيضا :

وغزال أبدى لنا الله من بسه تان خديه فى الحياة الجنانا  
قد أرانا قدأ ، وخذأ ، وصدغا ، وعذارأ ، وناظرأ فتانا  
غصنا يحمل البنفسج ، والنر جس ، والجلنار والريحانا (٢)

وقال القدماء أيضا إن قول أبي إسحق إبراهيم بن شعيب من المعانى المبسكرة  
فى التغزل بغلام أسمر :

ياذا الذى ينفق أمواله فى حب هذا الاسمر الفائق  
ما الذهب الصامت مستنكرا ذهابه فى الذهب الناطق (٣)  
وكذلك قول المهذب بن الزبير فى غلام تفرغرت عند الوداع عيناه :  
ومرئح الأعطاف تحسب أنه ربح ، ولكن قد قلبي فده  
إن قلت إن الوجه منه جنة أضحى يكذبني هنالك خده  
ولئن ترقرق دمه يوم النوى فى الطرف منه وما تتأثر عقده  
فالسيف أقطع ما يكون إذا غدا متحيرا فى صفحته فرنده (٤)  
وقول ابن الضيف الداعى فى أمرد التحى :

كنت حيا فى المرد حتى إذا عذرت جاء الممات والتعذير  
مثل سطر العنوان يبدو وتطوى منه فى باطن الكتاب سطور (٥)  
وقول الشاعر علم الدولة مقرب بن ماضى صاحب الواحات :  
أهدى إلى معلى وردأ ولم يك وقته  
فسأته عنه فقا ل من الحدود قطفته  
قبلته وكاننى فى خده قبلته (٦)

ومن الطريف أن العماد الاصفهاني عندما أراد أن يروى شيئا من شعر هذا

---

(١) الخريدة ورقة ١٣٠  
(٢) المصدر نفسه  
(٣) المصدر نفسه  
(٤) الخريدة ورقة ٤٤  
(٥) المصدر نفسه ورقة ٥٧  
(٦) المصدر نفسه ورقة ١٠٥

الشاعر قال : « فن شعره قوله وأنا أكبرها عنه ، ثم روى هذه المقطوعة السابقة ،  
ولأدري ما الذى جعله يكبر هذه المقطوعة عنه . على حين أن ابن الزبير وصفه  
بقوله : « كان قمر الفواضل ، كثير الفضائل ، غمر النائل ، مغناه مرى ذوى  
الآداب من المصريين ، و مترع المسترفدين منهم والمنتجعين ،

وهكذا يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المعانى المبكرة فى الغزل فى الشعر  
المصرى ، وهى معان أخذت من الحياة المصرية التى بلغت شأوا بعيداً فى التقدم  
فى ألوان الحياة المختلفة .

ويقول القدماء إن بعض مقطوعات الغزل كان يتغنى بها المصريون ، ولاغرابة  
فى ذلك ، فإن مقطوعات الغناء عند أكثر الشعوب هى مقطوعات غزلية ،  
وليست مصر بدعا فى ذلك ، ولكن القدماء أرادوا أن يعطونا صورة مما كان  
يتغنى به فى مصر الفاطمية ، فلنتبع القدماء على هذا النحو ، ونقدم عدة صور من  
مقطوعات الغزل التى كان يتغنى بها ، فمن ذلك قول ظافر الحداد :

عتبت ولكننى لم أع وأين ملامك من مسمعى  
وما قدر عتبك حتى يزى ل غراما تمكن من أضلعي  
وما دام لومك إلا وأنت تقدر أن جناني معى  
مضى كى يودع سكانه غداة الفراق ، فلم يرجع  
فؤادى فى غير ما أنت فيه نخذ فى ملامته أودع (١)

وقول الشريف أبى الحسن على بن حيدرة العقيلي وفيه لحن من غنائه :

يا غزالا رضابه سلسبيل هل لعذرى إلى رضاك سبيل  
فوحق الرسول ما قلت شيئا من جميع الذى حكاه الرسول  
ما أرى خلة يخل بها الحسن فماذا يقال أنى أقول (٢)

وقوله أيضا وفيه لحن من غناء غيره :

أعطافه فتنة الفتون وقده غصن الغصون  
ظبي ظبا لحظ مقلتيه لها جفون من الجفون  
يقود إن قاده الثنى كل جنان إلى جنون  
ما صد بعد الوصال إلا أجرى عيوننا من العيون (٣)

وقول ابن حيدرة العقيلي أيضا وفيه لحن من غنائه :

وعذول كان من قولي له لست أستحسن أجفوا حسنا

قال : لو كنت أنا أنت لما رضيت نفسي لجسمى بالضنا

قلت : دعنى عنك ، واصنع ما تشاء ما أنا أنت ولا أنت أنا (١)

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها

القدماء من رواة شعر مصر ، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان

ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية ، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه

المقطوعات .

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند

رؤية الحبيب ، أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته وما يفعله ذلك كله في نفوسهم

إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو

فارقهم إلى مكان آخر ، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء

مصر الفاطمية ، وفي حديثهم عن الفراق ترى لوعة الحب الذي أضناه البعاد

وخشينا عليه من الهلاك .

وها هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد :

فتنت بفاتن الحدق وزاد بهجره أرقى

إذا ناديت من جرع أخذت القلب في طلق

رويدك سوف تلتقاني بلا قلب ولا رفق (٢)

وأنشد ابن معبد الاسكندري :

يا حادى الركب رفقا بالحبيب فقد طار الفؤاد وقل الصبر والجلد

لعل حبي يرى ذلى فيرحمنى بنظرة عليها تشفى الذى أجد

يا ويح من طعنت أحبابه وغدا مخلقا بعدهم أكباده تقدر (٣)

وقال محمد بن وهب :

ولما تنادوا بالرحيل رأيتنى أكفكف دمع العين من كل جانب

وأسأل ربي أن تدم ركابهم عن السير حتى أشتفى بجباتي

(٢) الخريدة ورقة ٩

(١) المغرب ص ٨٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٣

فلم تك إلا ساعة سار ركبهم وسار فؤادى بين تلك الركائب  
فلم أر يوم البين أعظم حسرة وللبين عندى من كبار المصائب (١)  
وأنشد طلائع الأمرى :

ما لقلبي من لوعة البين راق أترانى أحيا ليوم التلاقى  
عزمة لم تدع لجفنى دمعا لا ولا فى الحشا مكان اشتياق  
أطمعونى حتى إذا أمرونى عذبوا مهجتى وشدوا وثاقى  
واستلذوا الفراق حتى كأن لم يعلموا أنه مرير المذاق  
فى سبيل الهوى نفوس أقامت بعد وشك النوى على الميثاق (٢)  
وقال طلائع أيضا :

ما أودعوك مع الغرام وودعوا إلا ليتلف قلبك المشتاق  
قف فاستلم إثر المطى تعللا إن لم يكن لك نحوهن لحاق  
وتنح عن دعوى هواك فإنه إن لم تمت يوم الفراق نفاق (٣)  
وإذن فالغزل فى شعر مصر النماطية صورة أخرى من صور الحياة المصرية  
والعاطفة المصرية التى سميت فبعدت عن المادية التى عرفناها عند الشعراء الأقدمين ،  
وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية .

(١) الحريدة ورقة ٢٤

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٨

(٣) المصدر نفسه

## الفصل السابع

### أغراض أخرى في الشعر

#### التصوف والزهد :

تحدثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية ، ولكن هناك بعض أغراض أخرى لا تقل خطرا في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر عن هذه الأغراض التي تحدثنا عنها من قبل ، فقد ذكرنا شيئا عن هذه الحياة الماجنة التي طغت على مصر حتى خيل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش ، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة الماجنة اللاهية ، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا ، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطرا إلى أن يعيش لوتين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض ، فهو يعيب في حياته ويمجن ويمزح ماشاء له العيب والمجون والمزاح ، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكر في آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ، ويظهر استمساكه بالدين وفضائله وآدابه ، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجنون ، أما الزهد أو التقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضا ، حتى إن شعراء المجنون أنفسهم كانوا ينشدون الشعر في الحث على الزهد والتمسك بأهداب الدين وطلب سعادة الآخرة ، وها هو ذا الأمير تميم الذي عرف بمخونه حتى حرم ولاية إمامة الدعوة بقول في الزهد :

أفريت دهرك تنق في الحوادث والمصائب  
ولو اتقيت معاصي الرحن فيما أنت راكب  
لأمنت من نار الجحيم ، وفي الحياة من المعائب  
إن لم ترأقب من له حكم عليك ، فن ترأقب؟ (١)



ويقول مرة أخرى :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا في غفلة عما وراء الممات  
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات  
من شك في الله فذاك الذي أصيب في تمييزه بالشتات  
يحيبهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة (١)  
فثل هذه الأبيات لاتصدر من شاعر عرف عنه أنه من أشد الشعراء مجونا  
وعبثا ، ولكن طبيعة مصر اضطرتة إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة  
بعد الموت .

وها هو ذا الشاعر ابن حيدرة العقيلي الذي ذكرنا أنه شاعر الخمر في العصر  
الفاطمي ، وأحد شعراء المجون ، يتشد في الزهد ويدعو إلى التقى والورع :  
قد لاح في فودك المشيب ورث من عمرك القشيب  
فكن لداعى التقى مجيبا من قبل تدعى فلا تجيب (٢)  
ونرى القاضى المعروف بالأديب أبى النصر يتشد :

النفس أكرم موضعا من أن تدنس بالذنوب  
ما لذة الدنيا لها ثمنا وإن مزجت بطيب  
فانسبق إلى إعداد زاك هجمة الأجل القريب  
والق الإله على التقى والخوف مزور الجيوب (٣)

ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس :

جهاد النفس مفترض نخذها بأداب القناعة والزهاده  
فإن جنحت لذلك واستجاب وخالفت الهوى فهو الإراده  
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح شكيمتها بمقمة العباده  
عساك تحملها درج المعالى وترفعها إلى رتب السعاده (٤)  
وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنباً إلى جنب مع عاطفة حب المجون  
والشعر المصرى مملوء بالعاطفتين معا .

وقد ذكرنا في كتاب أدب مصر الإسلامية ، أن مصر عرفت التصوف

(٢) المغرب ص ٥٥

(٤) الخريدة ورقة ١٢٧

(١) ديوان الأمير تميم

(٣) الخريدة ورقة ١٢٦

ووجدت فرقة عرفت بالصوفية كان لها أثر في الحياة السياسية في العصر العباسي وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي ، وكان الأئمة الفاطميون يرعون هذه الفرقة ، ويحدثنا المقرئ أن الأمر الفاطمي جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالالوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة التي عليها كل نوع لذيد ولون شهى من الأطعمة والحلوى أصنافاً مصنفة . وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ ومزق مرقعته وفرقت على العادة خرقاً ، وسأل الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقتري خرقه منها ووضعها على رأسه ، فقال الخليفة الأمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : يا شيخ أبا إسحق . قال : لبيك يا مولانا . قال : أين خرقتي ؟ فقال يجيباً له في الحال : ها هي على رأسي يا أمير المؤمنين . فاستحسن الأمر ذلك ، فأمر في الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية . ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار (١) .

ووفد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي ، حدث بالعراق ودمشق وصور ، ثم توجه إلى مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ وكان أديباً شاعراً على طريقة الصوفية ، ولكن شعره فقد ولم يبق منه سوى قوله :  
إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تك محبوباً بها فتحول  
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما تكون ولو في قعر بيت مقفل (٢)

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عرفت بفرقة الكيزانية ، نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكيزاني الفقيه الشافعي الواعظ . ذكره العبادي خريدته ووصفه بقوله : « فقيه واعظ مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بالسنة القبول ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٣

(١) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٣٧٩

ضل بها اعتقاده ، وزل في مزلقها سداه ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، إلى أن قال : «أعاذنا الله من ضلة الحلم ووزلة العلم وعلّة الفهم ، واعتقد أن التنزيه في التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونبيل نبيه» (١) وتوفى ابن الكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ ودفن عند قبر الإمام الشافعي ، واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين ، فقد ذكر العباد : «والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة» (٢) . وظهور هذه الفرقة في مصر واشتهار أمرها على النحو الذي تحدث به العباد وابن سعيد في كتابه المغرب يدلنا على مدى الضعف الذي طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر ، فإننا رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم ، وهذه العقيدة هي أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم ، ورأينا الدعاة يكفرون كل من دان بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم وقالت بالتشبيه ، والنصف عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن يعباوا بسلاطان الفاطميين وعقائدهم التي انتشرت في مصر زهاء قرنين .

كان ابن الكيزاني شاعرا من شعراء الصوفية بمصر ، ولكنه كان ضعيف الشعر حتى قال عنه ابن سعيد : «وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة ، غير مرضى عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسان النظام ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه ، ولم أكتب من ديوانه شيئا تهش النفس إليه ، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيرا ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا يعرف معاني الشعراء المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضني على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدني متمثلا : أنا المعيدى فاسمع بي ولا ترفى» (٣) ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن الكيزاني على هذا النحو ، بالرغم مما ذهب إليه العباد الأصفهانى من الإعجاب بشعر ابن الكيزاني ، فإن المقطوعات التي رويت في الخريدة من شعر ابن الكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في الشعر إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهروا بمصر في العصور التي تلت العصر الفاطمي مثل ابن الفارض وغيره ،

(٢) المصدر نفسه

(١) الخريدة ورقة ٨٩ وما بعدها

(٣) المغرب ص ٩٣ وما بعدها

أو الشعراء الآخرين الذين عاصروه ، وربما كان سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنه كان واعظا يخاطب الشعب والدماء ، فكان يضطر الى اصطناع اللغة التي يفهمها الشعب وتقرّب إلى نفوسهم . فأثر ذلك في أسلوبه ولغته ، فإذا هما يقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعب ، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني .

وهو في بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفا . انظر إليه يقول :

إذا سمعت كثير المدح عن رجل فانظر بأي لسان ظل مدوحا  
فإن رأى ذاك أهل الفضل فارض لهم ما قيل فيه ، وخذ بالقول تصحيحا  
أولا ، فامدح أهل الجهل رافعه وربما كان ذاك المدح مجروحا (١)

وهو في بعض شعره متصوفا يتحدث عن العشق ، ويجرى في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذين نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي ، فابن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين ، وله في ذلك عدة مقطوعات ، منها قوله :

سواء أن تلوما أو تريحا رأيت القلب لا يهوى نصيحا  
أما لو ذقتما صرف الليالي إذن لعذرتما القلب القريحا  
وكانت فرقة الأحباب ظنا فأصبح بينهم خبرا صريحا  
ولو لم ينزلوا سللمات نجد لما استنشقت بالسللمات ريحا  
ولا أهديت للأسماع يوما غناء من حاتمها فصيحجا  
وها أنا قد سمحت بدمع عيني وكننت بدمعها أبدا شحيجا  
وأمكننت المحبة من قيادي وصننت مع النأي ودا صحيجا  
وقد سكن الجوى قلبها صحيجا وقد ترك الهوى صدرا قبيحا (٢)

وقوله أيضا :

أسكان هذا الحى من آل مالك مسألة ما بيننا وجميل  
ألم تعدونا أن تزوروا تكرما فما بال ميعاد الوصال طويل  
وحلتم عن الوعد الجميل ملالة وأنتم على نقض العهود نزول  
وإننا لنستبقي المودة والهوى شهيد لنا إذ ليس عنه نزول

ولا تحسبوا العتي عليكم توجعا  
فيطمع واش أو يلح عذول  
رضينا ، رضينا أن نبيع نفوسنا  
وما عاشق منا بذاك بخيل  
كذلك الهوى ، هذا حبيب معزز  
وهذا محب في هواه ذليل  
ووجد وشوق وارتياح ولوعة  
وهجر وسقم دائم ونحول  
دواعي الهوى محتومة فاصطبر لها  
وإن جار بين أو جفاك خليل  
علنا بوشك البين أول حاله  
وما حضرتنا للوداع عقول  
إذا ما طمعنا أن تقرر ديارهم  
تداركهم بعد الرحيل رحيل (١)

قلنا إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمي ، وكان لها أثر قوى في الصوفية الذين ظهروا بعد انقراض الدولة الفاطمية ، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني فكان له تأثير قوى في شعراء الصوفية الذين كانوا في عصر الأيوبيين ، ففي شعر ابن الفارض مثلا بعض المعاني التي في شعر ابن الكيزاني ، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزاني ، وسأترك المقارنة بين هذين الشعاعين الصوفيين إلى البحث الذي سيكون في كتابنا القادم « أدب مصر في عهد الأيوبيين والمماليك » .

### الوصف :

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر في العصر الفاطمي هو عندي أقرب أغراض الشعر إلى التصوف ، ذلك هو وصف الطبيعة ، فنكلا الغرضين ضرب من ضروب التأمل فيما خلقه الله ، فكثيرا ما يؤدى بشعراء الوصف إلى التصوف ، ولكن شعراء مصر لم يسيروا في هذا المجرى ، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم ، فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسي ينشدون شعرا في الخمر والمجون والطبيعة معا ، وكيف كانوا يؤثرون الشراب في الرياض والمنتزهات ، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمنتزهات أو بوصف السماء وما فيها من مجوم وغيوم وسحب ، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المنتزهات المختلفة التي كثرت في هذا العصر ، يتمتعون بطيب هواها ويمتعون أبصارهم بتنسيقها وجمال زهورها المتنوعة التي عجب الرحالة

ناصرى خسرو من وجود عدد كبير منها في وقت واحد ، فهو يقول : « رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر ، والترجس والترنج والنانج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملسكى والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليج ( الإهليلج ) والرطب والعنب وقصب السكر . . . إلى أن قال :

« وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريفى وبعضها ريفى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا » (١) ، ويقول عن بساتين القاهرة : وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار ، وفي قصر السلطان بساتين لانظير لها ، وقد نصبت السواقي لريها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت منتزهات (٢) ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل ، والأمثال العامية التي يصطنعها الشعب المصرى الآن والتي نقلت إلينا معرفة عن قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم وهم يتأملون طبيعة مصر ويتحدثون عنها ، وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم في الطبيعة ، على أن الشعراء المصريين في العصر الفاطمى لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية ولم يتحدثوا عنها حديثا يودى بهم إلى معرفة الخالق ، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمى وإلى الفلاسفة . واتخذوا لأنفسهم مذهبا فنيا خالصا مصدره جمال الطبيعة ، فإذا بهم يسبقون على المناظر التي وصفوها ألوان الحياة التي يألقونها من ملابس ومأكل ومسكن ، ويحاولون أن ينتزعوا من الطبيعة صورا هي أقرب إلى صور الحياة التي اعتادوها وألوان الزينة التي كان يتزين بها المصريون في العصر الفاطمى ، وها هو ذا ابن حيدرة العقيلي يصور منظرا رآه في إحدى المنتزهات :

|                              |                               |
|------------------------------|-------------------------------|
| الغيم بين مزرر ومحلل         | والقطر بين مسرح ومسلسل        |
| والقضب بين مقرط ومطوق        | ومدملج ومتوج ومكلسل           |
| والنبت بين مزعفر وممسك       | ومخلوق ومعتبر ومصندل          |
| ومدبج ومطرز ومصنف            | ومعرض ومرصع ومثقل             |
| فاشرب على حلال لو أمكن لبسها | كانت تكون من الطراز الأول (٣) |

(١) سفر نامه ص ٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب)

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠ (٣) المغرب ص ٧٤

ويقول مرة أخرى :

أمهات الثمار بين الروابي      تأتهات بلبس خضر الثياب  
وبنات السكروم تجلى بما قد      صاغه الماء من عقود الخياب  
فاله مادام للشقيق خلوق      تنشر السحب فيه مسك ضباب (١)

ويقول في وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس :

عرانس القضب تجلى      على كرامى الروابي  
ومجلس الروض فيه      فرش من العتابي

فابن حيدرة العقيلي وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف الطبيعة كان يتخذ صورته في الوصف مما كان يدور حوله في الحياة اليومية ، وهذه الظاهرة ليست في شعر ابن حيدرة غريب ، بل نراها عند كثير من شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر تميم بن المعز وهو أحد شعراء الطبيعة وصف بركة الحبش وخليج بنى وائل فقال :

كأن البركة الغنا إذا ما      غدت بالماء مفعمة تموج  
وقد لاح الضحى ، مرآة قين      قد انصقلت ، ومقبضها الخليج  
ترى قمر الدجى ، قرا حذاء      طلوعا ماله فيها بروج (٢)

ووصف روضة على شاطئ النيل فقال :

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل      أعلل نفسى فيه بالراح مع صحبي  
لدى روضة عالت رباها كرومها      وجاد عليها النيل من مائه العذب  
كأن سحيق المسك خالط أرضها      فجالت به فيها الرياح مع الترب  
كأن نبات النيل والريح تسمى      بهن طلى خييل مؤتلة شهب  
وطورا تخال الماء في رونق الضحى      متون سيوف لحن مصقولة القضب  
وتحسبه إن محصته يد الصبا      قوازيما يفترن من قلق اللعب (٣)

وقال ابن عباد أحد شعراء الخريدة :

كأنما الأرض من زبرجدة      بدت إليك على غب من السحب  
والأفحوانة هيفا وهى ضاحكة      عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب

(٢) ديوان الأمير تميم

(١) المغرب ص ٥٦

(٣) المصدر نفسه

كأنما شمس من فضة حرست      خوف الوقوع، بمسار من الذهب  
وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير:

أرأيت برقا بالأبارق قد بدا      في أفقه متبسما متوقدا  
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكا      وإخاله شنف الرداء موردا  
فكأنه في الجو كأس ، كلما      فانت نيم البرق صاح وعربدا  
أومرهف كسفت مداوس صيقل      عن منته صدأ ، لكي يروى الصدا  
فأعجب إلى ودق اللجين يسيل من      أفق أحائه البوارق عسجدا  
والؤلؤ للغيث يأخذه الثرى      فيعيده نبثا يخال زبرجدا (١)

وقال ظافر الحداد في يوم برد:

ويوم برد عقوده برد لها سلوك من هيدب المطر  
ينثره الجو ثم ينظم منه الأرض بالزهر كل منتشر  
فهو يحاكي الحبيب في اللون واللطف وعذب الرضاب والخصر  
فالغيم يبكي والزهر يضحك والبروق تبدى ابتسام ذى خفر (٢)  
ويقول ظافر أيضا في متزهات خليج الإسكندرية:

وعشية أهدت لعينك منظرا      جاء السرور به لقلبك وافدا  
روض كمخضر العذار وجدول      نقشت عليه يد الشمال مباردا  
والنخل كالغيد الحسان تزينت      ولبسن من أثمارهن فلاثدا (٣)

وللشعراء المصريين جولات في وصف النجوم ، وفي الحديث عن النهار  
والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة ، فن ذلك منظومة ابن وكيع  
التنيسي التي أوردها الثعالبي في البيئمة ، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه  
وشعوره نحو فصول السنة وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات ، ويقول في مطلعها:

يا سائل عن أطيب الدهور      وقعت في ذاك على الحبير  
سألني أي الزمان أحلى      وأيه بالقصف عندي أولى  
عندي في وصف الفصول الأربعة      مقالة تغني اللبيب مقنعه  
أما المصيف فاستمع ما فيه      من فطن يفهم سامعيه

(٢) الخريدة ورقة ٨٥

(١) الخريدة ورقة ٢٢

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥



فصل من الدهر إذا قيل حضر  
تبصر فيه النبات مقشعراً  
نهاره مقسم بين قسم  
أوله فيه ندى مبعوض  
يلصق منه الجسم بالثياب

ويقول في الخريف :

فصل بكل سوء معروف  
وهو كطبع الموت يبسا وبرد  
فأرضه قرعاء من نباته

ومنها في الشتاء :

حتى إذا ما أقبل الشتاء  
أقبل منه أسد مزير  
لو أنه روح لكان قدما  
يأتيك في إبانه رياح

أما عن الربيع فقال :

جاء إلينا زمن الربيع  
لبرده وحره مقدار  
عدل في أوزانه حتى اعتدل  
نهاره من أحسن النهار  
تضحك فيه الشمس من غير عجب  
لبدره فضل على البسودر  
كجامة البلور في صفائها

وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة .

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد :

كان نجوم الليل لما تبلجت  
توقد جمر في خلال رماد

حكي فوق تمتد المجرة شكلها ، فواقع تطفو فوق لجة وادي (١)  
وقال محمد بن عاصم :

تري صفحة الخضراء والنجم فوقها  
ككف سدوسي بدا فيه درهم  
تري ، وعلى الآفاق أبواب ظلمة  
وأزرارها منها شمال ومرزم (٢)  
وقال المهذب بن الزبير :

وتري المجرة والنجوم كأنها  
تسقى الرياض بجدول ملآن  
لوم يكن نهراً لما عامت به  
أبدأ نجوم الحوت والسرطان (٣)  
وقال ابن وكيع التنيسي :

قم فاستقني صافية  
تهتك جنح الغسق  
أما ترى الصبح بدا  
في ثوب ليل خلق  
أما ترى جوزاءه  
كأنها في الأفق  
منطقة من ذهب  
فوق قبواء أزرق (٤)

وقال تميم بن المعز في الصباح :

وكان الصباح في الأفق باز  
والدجى بين مغليبه غراب (٥)

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح :

غرد الطير فتنبه من نفس  
وأدر كأسك فالعيش خلص  
سل سيف الفجر من غمد الدجى  
وتعري الصبح من ثوب الغلس  
وانجلى في حلة فضية  
ما بها من ظلمة الليل دنس (٦)

أما نيل مصر فكان له شأن مع شعراء مصر الفاطمية ، فإنهم كانوا يكثرون  
من ذكره في شعرهم ، ويفيضون عليه صورهم كلما فاض عليهم بمائه ، وها هو ذا  
الأمير تميم يقول :

يوم لنا بالنيل مختصر  
ولكل يوم مسرة قصر  
والسفن تجرى كالخيول بنا  
صعدا وجيش الماء منحدر  
وكأنما أمواجه عكن  
وكأنما داراته سرر

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤

(٤) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣

(٣) ج ١ ص ٣٦

(٥) ج ١ ص ١٤٤

ويقول مرة أخرى :

أما ترى الرعد بكى واشتكى  
فاشرب على غيم بصنع الدجى  
وانظر لماء النيل فى مده  
ويقول تميم عند زيادة النيل :

انظر إلى النيل قد عبأ عساكره  
كأن خلجاته والماء يأخذها  
كأن تياره ملك رأى ظفرا  
كأن ماء سواقيه لناظرها  
فاشرب مهنى فإن اللهو منبسط  
ويقول ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة  
غابت وألقت شعاعا منه يخلفها  
واللهلال فهل وافى لينقذها  
ولم ينس الشعراء أهرام مصر ، فالشاعر عبدالوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب  
المتوفى سنة ٣٨٧ قال فى وصف الأهرام :

انظر إلى الهرمين إذ برزا  
وكأنما الأرض العريضة قد  
حسرت عن الشديدين بارزة  
فأجابها بالنيل يشبعها  
لكرامة المولى المقيم بها  
ويقول ظافر الحداد :

تأمل بنية الهرمين وانظر  
كعبارتين على رحيل  
وماء النيل تحتهما دموع  
وبينهما أبو الهول العجيب  
لمحبوبين بينهما رقيب  
وصوت الريح عندهما نجيب (٤)

(٢) ديوان ابن قلاقس ص ٧٥

(٤) الغريدة ورقة ٨٥

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ١٠١

(٣) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٥

وقول عمارة اليميني :

خليلي ماتحت السماء بنية تماثل في إتقانها هرمى مصر  
 بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر  
 تنزه طرفي في بديع بنائها ولم يتنزه في المراد بها فكرى<sup>(١)</sup>  
 أما منشآت الفاطميين ومبانيهم فقد ذكرها الشعراء في أشعارهم ، ومنها هذه  
 القصيدة التي أنشدها عمارة اليميني بعد أن دالت دولتهم والتي تحدثنا عنها من قبل  
 وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار ، ولم يبق إلا عدة مقطوعات قليلة في وصف  
 مباني المصريين .

قول على بن يوسف الإيادى يذكر دارا بناها المعز العبيدى بمصر ، وسماها  
 العروسين :

بنى منظرا يسمى «العروسين» رفعة كأن الثريا عرست في قبابه  
 إذا الليل أخفاه بجلجكة لونه بدا ضوءه كالبدرد تحت سحابه  
 تمكن من سعد السعود محله فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابيه  
 ولو شاده عزم المعز ورأيه على قدره في ملكه ونصابه  
 السكان حصى الياقوت والتبر مفرغا على المسك من آجره وترايه<sup>(٢)</sup>

وقال أمية في وصف قصر بناء الأمير على بن الأمير تميم بن المعز :

الله مجلسك المنيف فبابه بموطد فوق السماك مؤسس  
 موف على حبك الحجة تلتقى فيه الجوارى بالجوار الكنسس  
 تتقابل الأنوار في جنباته فالليل فيه كالنهار المشمس  
 عطفت حناياه دوين سمائه عطف الأهله والحواجب والقسى  
 واستشرفت عمد الرخام وظوهرت بأجل من زهر الربيع وأنفس  
 فهوأوه من كل قد أهيف وقراره من كل خد أملس  
 فلك تحير فيه كل منجم وأقر بالتقصير كل مهندس  
 فبدا للحظ العين أحسن منظر وغدا لطيب العيش خير معرس  
 فاطلع به قرأ ، إذا ما أطلعت شمس الحدود عليك شمس الأكوّس

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٧

(١) خطط القرظى ج ١ ص ١٩٥

فالناس أجمع دون قدرك رتبة والأرض أجمع دون هذا المجلس (١)  
ووصف الشاعر على بن محمد النيلى باب زويلة فقال :

يا صاح لو أبصرت باب زويلة لعلبت قدر محله بنيانا  
باب تآزر بالمجرة وارتنى الشعري ولاث برأسه كيوانا  
لو أن فرعوناً رآه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا (٢)  
على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة في تفخيم المباني والمنشآت  
وهكذا نستطيع أن نتتبع هذه العصور المختلفة التي صورها شعراء مصر  
الفاطمية مارأوه في الطبيعة وفي المنزهات ، وهي صور من الحياة المصرية التي كانت  
تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم ، بل ذكر الشعراء الزينات المختلفة  
التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومنتزهاتهم ويغالون في إظهارها إمعاناً  
في الترف والبذخ ، وها هو ذا ابن قلاص يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج ،  
كالذي يتخذها المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخل لولا هذه بأسقات بثار اللهب  
هطل العيث لها من فضة فهي في قنوانها من ذهب  
تلعب السرج على حافاتها وتجاكي أنمسل المرتعب  
ولقد أحسها السنة هزها للسكر خمر الطرب (٣)  
ونرى المصريين يصفون في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم ، فوصفوا الشمعة  
مثلاً ، كما في قول المهذب بن الزبير :

ومصفرة لاعن هوى غير انها تحوز صفات المستهام المعذب  
شجوناً وسقماً واصطباراً وأدمعاً وخفقاً وتسهداً وفرط تلهب  
إذا جمشتها الريح كانت كعصم يرد سلاماً بالبنان المخضب (٤)  
ويقول آخر في الشمعة أيضاً :  
وحقيقة يبضاء تطلع في الدجا صبحاً وتشقى الناظرين بدائها  
شابت ذؤابتها أوان شبابها واسود مفرقها أوان فنائها  
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها (٥)

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤١١ (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥  
(٣) ديوان ابن قلاص ص ١٨ (٤) الحريدة ورقة ٤٩ (٥) المصدر نفسه ١٣٩

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل - أمير شعراء  
المستنصر - القلم والريح بقوله :

يراعان هذا يملاً الطرس حكمة      وذلك يذيق الختف ليثاً غضنفرأ

وإن ظمنا ظنناهما يرذا على      نفوس العدا من غير إذن ويصدرا

فيشرب هذا أسود الليل حالكا      ويشرب هذا قاني الدم أحمرأ (١)

ويصف طلائع الأمرى الخيل بقوله :

جنائب إن قيدت فأسد وإن عدت      بأبطالها فهي الصبا والجنائب

أثارت بأكتاف المصلي عجاجة      دجت وبدت للبيض منها الكواكب (٢)

ويقول ابن الصيف في عدد الفرس :

كم ساج أعددته فوجدته      عند الكريمة وهو نسر طائر

لم يرم قط بطرفه في غاية      إلا وسابقه إليها الخافر (٣)

ويطول في الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية ، فهم لم يتركوا

شيئا دون أن يتحدثوا عنه في أشعارهم ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه من

رقة الشعور ودقة الحس ومقدرة على القريض .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٣٥

(١) المريدة ورقة ٢٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ٣٧

## خاتمة القول في الشعر

رأينا صوراً مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي ، و عرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة ، فنحن نسأل بعد أن رأينا ذلك كله : إلى أي حد وفق شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعرهم ؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى ؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة نرى أن نتحدث أولاً عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته منذ عرف الشعر العربي إلى الآن ، بل ستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي ، وهذه الخصائص هي التي تجعله — مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره — وحدة يشبه بعضها بعضاً ، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي تنشأ الشعر بالعربية ، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة ولم تختلف باختلاف الأقاليم ، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص ، بل ظلت مثلاً علياً للشعراء جميعاً دون أن يصيبها تغيير جوهري .

فمثلاً نجد الشعراء جميعاً منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهلي إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالركة والعدوبة والجزالة والسلاسة ، إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية ، فلا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية اصطنع ألفاظاً توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون ؛ حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتظرف في الشعر باستعمال بعض ألفاظ أعجمية ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن ذلك كان قليلاً جداً بحيث لا نستطيع أن ندعى أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي ، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب ؛ وإذن فقد اشترك الشعراء جميعاً في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم وتباينت بيئاتهم ، فلانستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التي أنشئت بالعربية من

شعر قطر آخر ، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جديعا ، لم يصبها تغيير ، ولن يصبها تغيير .

كذلك نقول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسبابها ، والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم ، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التي عرفها القدماء ، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن هذه الأوزان مهما بعد بهم الزمن عن الشعر القديم ، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة . ورب معترض يقول إن الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال ، وإن المصريين اخترعوا البليق ، وأدخل شعراء الفرس الدويبت والرباعيات في الشعر العربي . وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء ولكن أتى بها المولدون ، فكيف تكون الأوزان إذن مثلا من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل البيئات ! فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة . ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر ، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيروا بعض أشكال الشعر ، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية ، أي أنهم في تجديدهم هذا لم يستطيعوا أن يحميدوا عن المثل القديمة في الشعر العربي ، ومع ذلك كله فلو ذهبنا - جدلا - إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري والدويبت الفارسي تجديد في الوزن العربي - مع أننا لانوافق على هذا الرأي - فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءا يسيرا جدا بجانب الشعر الآخر الذي خلقه الأندلسيون والمصريون والفرس ، والذي حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة ، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعا لم يصبه تغيير إلى الآن .

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية ، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربي التي اتبعتها الشعراء في كل العصور والبيئات وحافظ عليها الشعراء أشد المحافظة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين تزعم أنهم أسرفوا في التجديد ، فالشاعر أبو نواس مثلا الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير ، وكذلك نقول عن المجددين اللفظيين من أصحاب البديع الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي واستخدام ألوان الزينة البديعية ، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر القديم ، فلم يتكروا



قافية غير القافية التي نهج عليها القدماء ، ولا تفعيلات غير التي عرفتها دوائر العروض . ولم يستخدموا ألفاظا غير عربية .

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلا للشعراء ، فلا نستطيع إذن أن نقول إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر أو إن المصريين قلدوا العباسيين واتخذوهم مثلا لهم لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة ، وكذلك لا نستطيع أن نقول إن الأندلس أظهرت شخصيتها بأن وجدت الموشحات ، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلا عليا لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربي حق إدراكه ، ونظروا إلى الشعر نظرة خاطفة فتوهموا أن العباسيين كانوا مثلا للشعر العربي ، ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هاني الأندلسي كان يقلد المتنبي حتى لقب بمتنبي الغرب ؟ ألم يقل القدماء أيضا إن الأمير تميم بن المعز كان يقلد ابن المعتز وينهج نهجه ؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس ، فلم لا يذهب هؤلاء أيضا إلى أن العباسيين كانوا مثلا عليا للشعر العربي ؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه ، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات ، فلم يكن العباسيون مثلا عليا لغيرهم من شعراء الأقاليم العربية .

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعا في هذه الخصائص فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر في الشعر ، فنحن لا نجد لها في الأوزان ولا في القوافي ولا في اللفظ ولا في أساليب الشعر ، بل نجد لها في المعاني التي ذكرها الشعراء وفي الأخيلة الشعرية ، وهنا فقط نستطيع أن نقول إن الشعر المصري صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل ، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا تستطيع أن تنسبه إلى قطر غير مصر .

فن ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلا للأحداث التي جرت في هذا العصر ، حقيقة ضاع جل هذا الشعر السياسي ، ولكننا نستطيع أن نحكم على ذلك بما بقي لنا من آثار هذا الشعر ، وقد ذكرنا شيئا عن شعراء القصر وشعراء الوزراء ، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان الدولة في مثل هذه الأحداث السياسية .

وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون الخليفة أو الوزير .  
ومن البدية أن ما كان ينشد من الشعر السياسي هو صورة لحياة مصر السياسية  
دون غيرها من الأقطار الأخرى .

ورأيانا جانبا من الشعر المصرى فى الزهد والدين بجانب الشعر المصرى فى  
المجون والإباحة ، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصرى يدلان دلالة صريحة  
على ناحية هامة من نواحي الحياة فى الشعب المصرى ، فقد ذكرنا أن الشعب  
المصرى شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين . وأنه شعب يعمل لآخرته ، ولكننا  
فى الوقت نفسه نراه شعبا يميل إلى المجون فى حياته وأنه شعب يميل لدنياه فىأخذ  
بنصيب من متاع الدنيا ، فمصر على هذا النحو متناقضة مضطربة بين متاع النفس  
ومتاع الجسد ، وإذا الشعر المصرى يضطرب أيضا فيمثل الناحيتين من حياة هذا  
الشعب ، ولعل هذه الظاهرة لاتزال ماثلة إلى اليوم فى حياة المصريين وفى شعر  
المصريين ، والذين درسوا الشعب المصرى عجبوا للفكاهة . والدعابة المصرية ، وكيف  
يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة ، والنادرة بعد النادرة ، وهم يضحكون على  
مسمع هذه الفكاهات والنوادر بأصوات عالية ، وذكر السكتاب أن الفكاهة  
المصرية تدل على ذوق المصريين وسرعة بديهتهم وعلى وعى شديد فى تذوقها ، وزعم  
بعض السكتاب أن المصريين أكثر الشعوب حبا للفكاهة وكلفا بإطلاقها وسماعها ،  
وأن الفكاهة تجرى فى دم كل مصرى . ولسكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها فى  
الحديث عن الناحية الجنسية ، وهى تتناول بعض أعضاء الجسم ، حتى إن أشد  
ألوان الفكاهة المصرية إضحاكا هى هذه الفكاهات التى تتحدث عن العلاقة الجنسية  
أو أعضاء الجسم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة لونا  
يميلون فيه إلى المجون ولونا آخر يميلون فيه إلى الدين ، فإذا الشعر المصرى فى كل  
عصوره يمثل هذين اللونين ، وقد رأينا صوراً لها فى الشعر المصرى فى العصر الفاطمى .

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذى تكاد  
تنفرد به ، وأرض خصبة تروى فى أوقات منتظمة جعلت المصريين شعبا يميل  
إلى الهدوء واللين فى كل شىء ، وظهر أثر ذلك فى التفكير عند المصريين ، فنحن  
لا نكاد نجد عند المصريين عمقا فى تفكيرهم وفى دراساتهم المختلفة ، ولعل هذا هو  
السبب فى أننا لا نجد فيلسوفا مصرية ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها فى تاريخ

الفكر البشرى ، ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذى استطاع أن يهضم كل  
المدنيات التى ظهرت ، وعرف كل الدراسات المتنوعة ، بل استطاع أن يمسر  
الشعوب التى وفدت على مصر ، ومع هذه القوة السكامة فى مصر لم ينتج المصريون  
فلسفة خاصة بهم . ورب معترض يقول إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفة  
تباين الفلسفة الهلينية بعض التباين ، ولكن فاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية  
لم يكونوا من المصريين بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم  
على أساتذة مدرسة الإسكندرية ، وقد ذهب بعض مؤرخى مدرسة الإسكندرية  
إلى أن فلوطين من صعيد مصر ، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية ، وظهر  
ذلك فى آرائه التى حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية ،  
ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها فى مصر ، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٣٣  
وأقام إحدى عشرة سنة فى الاستماع إلى الفلسفة اليونانية ، ثم رحل عن مصر إلى  
سوريا والعراق ، وفى سنة ٢٤٥ م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سنى حياته  
إلى أن توفى سنة ٢٧٠ م . فأرا . أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية ، ولكنها كانت  
بتأثير هذه الرحلات التى قام بها ، فمدرسة الاسكندرية بالرغم من استمرارها فى  
مصر عدة قرون لم تؤثر فى المصريين تأثيراً له خطره ، والذى قبله المصريون من  
دروسها هو شئ قريب إلى عقلية الشعب المصرى التى تميل إلى كل شئ بسيط  
لين ، ولذلك لم تمسك مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلاً عقب الفتح العربى ،  
إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين . إلى أن أعاد الفاطميون  
تعاليم المدرسة الاسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ثم خرجت هذه التعاليم  
من مصر بانقراض الدولة الفاطمية ، ولم تعد إليها إلى الآن ، وأغلب الظن أنها  
لن تعود مرة أخرى إلى مصر ، وفى تاريخ الحياة الصوفية فى مصر لم نجد صوفياً  
له فكرة متميزة به ، وإذا قلنا إن ذا النون المصرى كان من أوائل الصوفية الذين  
لهم رأى فى وحدة الوجود فإن تعاليمه لم تزدهر فى مصر ، وإنما الذين حملوا آراءه  
كانوا من غير المصريين ، وذلك كله لأن المصريين شعب يميل إلى الهدوء واللين  
فى حياتهم وفى تفكيرهم ، وذلك من تأثير البيئة المصرية .

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء فتراهم هادئين فى تفكيرهم ، وفى  
ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التى تلائم طبيعتهم ، وظهر فى وصفهم

الطبيعة تلك الصور الهادئة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة ولا عمق المفكرين ، إنما كانت صورهم هي صور الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون .

والمصرى عرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة ، وإذا غاب عن بيئته فهو يحن إليها حينئذ شديدا جدا ولا يلبث أن يعود إليها ، وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون بتصوير هذه البيئة ، ولم يحاول الشاعر المصرى أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله ، ومن هنا كان تصوير الشعر المصرى للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حسية ، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر ، ولا يصور الشاعر شعبا غير شعب مصر ، فليطمن الذين زعموا أن مصر لم تنتج أدبا ، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصرى في العصر الفاطمى ، ثم العصور التي ولت هذا العصر ، وأن الشعر المصرى يصور حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل .

أما أخيلة المصريين في التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم ، فهى أخيلة مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم أيضا ، فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية ، فاستعمل الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمى بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية ، وأن توسع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمغلاة في استخدامها هى ضرورة اضطررتهم إليها حياة العصر الفاطمى نفسه ، حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمى هذه الألوان الحسية في شعرهم وقد تحدثنا عنها في كتابنا « أدب مصر الإسلامية » وأوردنا شيئا من شعر شعراء هذا العصر ، مما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية ، ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالعلو في كل شئ . فقد رأينا علو الفاطميين في الدين ، وعلوهم في اللهو ، وعلوهم في التزين والتجمل ، وعلوهم في الملبس والمسكن : علو في أعياد فرحهم ، وعلو في ذكريات ماتمهم . فظهر هذا العلو في فن الشعر ظهوره في نواحي الحياة المختلفة ، فأسرف الشعراء في العصر الفاطمى في استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم إسراف الفاطميين في حياتهم ، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان

الحسية عن الزينة . ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة  
البديعية أو أنهم لم يسرفوا في استخدامها ؛ بل كانت الزينة البديعية في الشعر العربي أقدم  
عهداً من الفاطميين ، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن  
تقوم دولة الفاطميين في مصر ، فقد فننت الزينة البديعية الناس جميعاً في كل  
البلاد العربية ، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني ،  
وإرضاء الجمهور الذي فتن بها ، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي ، ولم  
يتخلفوا عنه ، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعية ، فسبغوا غيرهم  
في مضماره ، وذلك لما في المصريين من دقة الحس ورقة الشعور وميل إلى  
الفكاهة وخفة الروح ، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي  
يظهر عند غير المصريين من الشعراء ، ولا تلمس جهد الشاعر في الحصول على  
هذه الصور الفنية التي ابتدعها في شعره ، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها  
ما يشاءون دون جهد ، فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تعليلها ،  
وهي صور مصرية وتعليقات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية .  
وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضاً إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضاً ،  
لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية . وهكذا ظهرت شخصية مصر في  
الشعر بارزة واضحة .

# الباب الثاني

## في النثر

### الفصل الأول

#### ازدهار النثر

وأينما في كتابنا «أدب مصر الإسلامية» كيف أسس ديوان الإنشاء بمصر في عهد أحمد بن طولون، وأن أول من ولى هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبدكان الكاتب، وعرفنا كيف استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين، فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر، حتى إن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طيبطب المحرر وابن عبدكان الكاتب، ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (١) وكثر عدد الكتاب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلي بن أحمد المادرائي وابن الداية وإسحق بن نصير العبادي وإبراهيم بن عبد الله النجيري ومحمد بن كلا والروزباري وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فنايتكسبون به، ومؤهلا لتعيين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد، فكثرتنافس الكتاب في تجويد الكتابة وإتقان الصناعة حتى علا منارها وعظم شأنها تولى الفاطميون أمر مصر، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة، فتضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولا بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة

وفي مصر الفاطمية على وجه خاص ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل . ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معا ، فقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء ، بل لا أغالى إذا قلت إن عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء . ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم . ويحدثنا المؤرخون عن هذه الدواوين وعن الكتاب الدين تولوها والتشريف الذى كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمى . من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك (١) . ويذكر المقرئى أن أبا البركات بن أبي الليث متولى ديوان المجلس سنة ٥١٧ هـ كان له باسمه مياومة إدرارا من بيت المال والخزائن ودار التعمية والمطابخ وشون الخطب الشيء الكثير ، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار ومن الضأن رأس واحد ومن الحيوان ثلاثة أطياف ومن الخطب حملة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصرينان وشمامة ، كما كان له فى كل يوم اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفسور خاص وسجن من الأوائل وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز المائدى والسמיד ، وفى كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة مثل ذلك ، وفى كل يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات خروف مشوى وجام حلوى ورباعى عنب ، وكان يحضر إليه فى كل يوم من الاصطبلات بغلة بركوب محلى وبغلة برسم الراجل وفراشين برسم خدمته ؛ ولم يقتصر الأمر عليه وحده بل جعلوا لولده جاريا كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال دقيق وراتبا عشرة دنانير (٢) .

ويقول المقرئى أيضا عن ديوان التحقيق إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع المرتبة والحاجب (٣) ؛ أما صاحب ديوان الإنشاء والمبكاتيات فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم ، وله حاجب من الأمراء .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٩ .

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٣٦

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٢ .

الشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة ، وهى من أخصر  
الدوى ويحملها أستاذى الخليفة<sup>(١)</sup> ، ويحدثنا ياقوت أن رزق ابن خيران كاتب  
الإنشاء فى عهد المستنصر كان ثلاثة آلاف دينار فى السنة ، وكان له عن كل ما يكتبه  
من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شىء<sup>(٢)</sup> .  
فهذا التشريف الذى جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار  
الكتابة فى هذا العصر ، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذى  
رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب وإقبال الناس على التعليم وإجادة  
الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة فى الدواوين ، فكثرت عدد الكتاب وأصبح  
على المتأدب أن يأخذ عن الكتاب طرائقهم وفهمهم ، ويحدثنا القاضى الفاضل  
أنه كان من عادة أرباب الدواوين فى تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء  
الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة ، قال القاضى الفاضل : كان  
فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غصنا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات  
من رأس يرأس مكانا وييانا ، ويقوم لسلطانه بقلبه سلطانا ، وكان من العادة أن  
كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى  
ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع ، فأرسلنى والدى  
وكان إذ ذاك قاضيا بشعر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، وأمرنى  
بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجل يقال  
له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى  
رحب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددته لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت :  
ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى  
هذا بلاغ . ثم أمرنى بملازمته ، فترددت عليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد  
ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة  
ثانية فحللته<sup>(٣)</sup> .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة ، فقد كان

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٤٤ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ (طبعة رفاعى)

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٢



حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عهد الكاتب في هذا العصر ، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عرف بعد ذلك بالقاضي الفاضل أن ينثر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحماسة تهيمته له في الدخول في سلك الكتاب . ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتباً ، بل كان لا بد له من آلات — على نحو ما عبر ابن الخلال — وهذه الآلات هي علوم العربية ، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية ، فلا يقع في لحن نحوي أو لغوي ، أو يتعدد الكاتب عن سنن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم . ولم يقع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب سليمة صحيحة ، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك ، بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية ، فلا غرو أن يقول القاضي الفاضل : « إن فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد كان غصنا طريا ، وإن تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتباً من كتاب الدواوين .

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمي أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتاب ، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجراني واليازورى والبابلي وبنو المغربي وابن المدبر وابن الأنبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب ، وقد بلغوا مرتبة الوزارة ، حتى إن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقاليم ، وأن وزراء الدور الثاني كانوا من أصحاب السيف . وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني ، أو أن الكتاب أصبحوا في مكانة تقل عن مكانتهم الأولى ، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول ، ومنهم من جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مظلمته ، ومنهم من القضاة والدعاة . وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة ، فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكانتهم الممتازة ، والنعم العميمة ، والعطايا الجزيلة ، فلا غرابة إذن أن يقبل الناس على الكتابة ، وأن تزدهر في هذا العصر . أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشد العوامل على ازدهار

الكتابة ، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان ، فتعين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول ، فيه الحضر على تقوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الخنيف ، ثم الإشارة إلى المنصب الذي سيعين فيه الموظف ، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل ، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب ومشورة في تصريف العمل . وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك . وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا ، حتى أصبحت هذه السجلات تأريخا للعصر الفاطمي كله . وكان الكتاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلات ، ويتنافسون في هذا الفن . بلغات هذه السجلات الفاطمية صوراً رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل .

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي ، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلبوا بفن الكتابة ، حتى يصبحوا كتابا في دواوين الفاطميين . وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وتقريب ونعم .

### النثر والأئمة :

وكان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر ، فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية في المسجد الجامع . ويقرأون ما يعرضه عليهم الدعاة من مجالس الحكمة ، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس . فن خطبة المعز لدين الله في عيد الأضحى سنة ٣٤١ هـ .

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الأعز الأقدر ، الخالق المدبر ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملسكوت ، الأحمد الصمد ، الفرد المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات والأرض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذي كل شيء من موات وحى متوجه بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالتوحيد ، والتعظيم والتحميد ، فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله ، وانتهأؤها إلى الغايات دليل على أن لا

غاية له ، وإحاطته بحدودها منى\* بأن لا حد له ، فالضعف والعجز والفقير والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده — جل ثناؤه — بالإلهية والفرדانية والقدرة والربوبية والتام والكمال والأزل والدوام . تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شيء خلقه ، وكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ، ووجبت طاعته ، والسكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته . فصلى الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين ، الذي رفع ذكره وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هاديا للعباد ونورا في البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى به من الضل ، وكثر به من القل ، وأعز به من الذل ، فأأنف به بعد الشتات ، ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين . يا أيها الناس إن الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يهلك سدى ، ولم يجعل عليكم في الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاما منصوبة ، وفروضا مكتوبة ، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق بموا إبراهيم خليل الله ، وقبله محمد رسول الله ، فتقربوا إلى الله بما أمركم به ورتزقكم إياه من هيممة الأنعام ، مقتدين سنة محمد نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : **و لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولن يناله التقوى منكم ، فبال تقوى تقبل الأعمال ويدرك الأمل ، وكبروا الله على ما هداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدى الإبل ، وخير الإبل إنائها ، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن ، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه .** وجلس ثم قام في الثانية ينعي المنصور ويعلم موته ، بعد أن كان موته قد ظل مستورا عدة أشهر :

**و الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر شانا ، وأعظم سلطانا ، وأوضح آيات وبرهانا ، عن أن تنكر العقول توحيدته ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما ، الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذي لا شريك له ولا ند ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، الناقد قضاؤه ،**

السكائن ما يشاؤه ، المتقن كل شئ . صنعا ، الموسع كل شئ . رزقا ، المحيط بكل شئ . علما . أحمداه وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأفوض اليه ، وأتوكل في كل الأمور عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً خيرته من عباده ، ونبيه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعيئه بالإمامة إلى الثقلين ، ليبليح حجة الرب ويوضع بحجة الحق . فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله . وصبر على الكُتُبِارِ مَرِيحِ مكر الكفار ، إلى أن أدال الله للحق على الباطل . والهدى على الأضائل . محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكاها ، وأكملها وأتماها . وأخلدها وأبقاها ، وعلى الأئمة المهديين ، من عترته الكرام الأبرين ، الذين اختارهم للخلافة . وارتضاهم للإمامة . وأدبوصية الرسل حجتهم . وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفصيله إليهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلى أفضل الوصيين . وعلى من أمه سيدة النساء ، خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم . وعلى أميري المؤمنين ، المهدي بالله والقائم بأمر الله سيدي الوري ، وإمامي الهدى ، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين . وأقام بهما دعوة الدين ، وأزهق بحقهما باطل المدعين وأكاذيب المتخرصين ، وقطع بسبوقهما دابر الظالمين ، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهم . اللهم اخصص الإمام الفاضل ، والوصي العادل ، والبر الفاضل . والغيث الواهب . ذا الآيات المعجزات . والعزائم النافذات . الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات . الصابر في البأساء والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء . عبدك ووليك ونجيبك وصفيك أبا الطاهر ، المنصور بك والمتوكل عليك ، والمفوض إليك ، العامل بما يرضيك ويقرب إليك ويزلف لديك . الذي لجفتنا بفقده ، وأوحدتنا ببعده ، وأفردتنا منه وأوحشتنا ، فقبلت دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك وسعة رحمتك . إن القلق وشدة الحرق عليك يا أبتاه ياسيده يا إسماعيلاه يا أبا الطاهراه ، يا بحر علوم الأئمة الطاهرين ، الهداة المهديين ، يا بقية أبناء الرسول ، وأبناء الوصي والظاهر البتول ، يا إمام الأمة ، ومفتاح باب الرحمة ، يا سراج الهدى وشمس الوري ، ومجلى الطخياء ، يا مخصوصا من الله بتعجيل الكرامة ، عظم والله علينا المصاب بك ، وحل البلاء

وعدم العزاء لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك وتعداد مناقبك ، فوحق الذى اختصك بكرامته وحباك بجزيل عطائه وشرفك بأبوة رسوله ، لولا ما أوعزت إلى به وأكدته على من القيام بحق الله ، والذب عن أمة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ومعاطب المحن ، وما تقرر عندي ورسخ في صدري من الجزاء بقدر الوفاء لله ولرسوله ولأئمة الهدى ، لضربت على وجهى سائحا في البلاد قاليا للهاد ، راضيا ببلغة من الزاد ، إلى أن يلحقنى الموت سريعا بك ، فأفوز بقربك ورحمة ربك ؛ لكنى فكرت ونظرت وتدبرت ، فلم أرى وجهها أستوجب به درجتك واللاحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب فتجلدت ، وصبرنى ربى فصبرت ، وغلب على اليقين فأمسكت ، فأقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الرحمن الرحيم له الحمد على ما أبلى ، والشكر على ما أولى . . . الخ (١)

وأكتفى بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي وردت في كتاب « سيرة الأستاذ جوذرى » فهذا الكتاب النفيس تحت الطبع الآن ، ولعلك تلاحظ أن المعز قد أتى في خطبته هذه ببعض العقائد الفاطمية من السهل الآن على القارى أن يدركها ، والمهم الآن أن نلاحظ هذه الصنعة الفنية في أسلوب الخطبة ، فالجمل قصيرة ، وتكاد الجملة تكون على وزن وطول الجملة التي تليها ، والسجع ظاهر فيها ، وينتقل المعز من معنى إلى آخر انتقالا طبيعيا لا تكلف فيه .

وإذا قرأنا توقيعات المعز التي ضمنها القاضى النعمان بن محمد كتابه « المجالس والمسائرات » وتوقيعاته التي أرسلها إلى وليه الأستاذ جوذرى التي جمعها صاحب « سيرة جوذرى » رأينا أن هذه الصنعة الفنية في الكتابة لا تلازم الإمام المعز في توقيعاته ، فقل أن نجد السجع ، ولا هذا التكلف الذى رأيناه في خطبته ، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادى الذى يتحدث به أمام الناس في الشؤون المختلفة مع سلامة أسلوبه وفصيح عبارته ، مثل توقيعه إلى جوذرى رداً على رقعة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد كتابه : « وقفنا على رقعتك ، ومحل محمد محل مثله من صدقت نيتي ، وقدمت في الجميل محبته ، ونحن نحب أن يسبغ الله نعمنا

(١) سيرة الأستاذ جوذرى ( نسخة خطية بمكتبتى ) .

على من لم يعرفنا ، فكيف من لم يعرف إلا بنا ، ونحن نسعف جعفرأ لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله ، (١) .

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز ، فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردى ، بل تنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تنسب إلى المستنصر الفاطمي والتي عرفت « بالرسائل المستنصرية » (٢) . والتي قيل إنها الرسائل التي تبودلت بين المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن ، فؤرخو الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه ، ولكنني — بعد أن اطلعت على هذه الرسائل — أستطيع أن أقول إن أسلوبها أقرب إلى أسلوب المؤيد في الدين داعي الدعوة .

وكذلك نقول عن « رسالة الهداية الآمرية » (٣) التي ينسبها الإسماعيلية إلى الإمام الآمر باحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيظي ناشر هذه الرسالة في نسبتها إلى الإمام الآمر ، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين كانوا في عصر الآمر .

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر ، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت ، وتعددت ألوانها وفنونها . وتطور الكتابة يتبع دائما تطور الحياة العلمية ، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقى في الكتابة ، وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٣) الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى الزنارية تحقيق الأستاذ آصف علي

أسفر فيظلي ( من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند ) .

## الفصل الثاني

### كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي : ولما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي ،<sup>(١)</sup> هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ، ولا غرو في ذلك إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة<sup>(٢)</sup> ، ولما كانته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف<sup>(٣)</sup> كما كان الخليفة يستشيره في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثلول بين يديه<sup>(٤)</sup> ، وقد تحدث ابن منجب الصيرفي — أحد كتابهم — عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الإنشاء ، نلخص أهمها فيما يأتي :

- ١ — أن يكون ذا دين وورع وأمانة .
- ٢ — أن يكون دينه الإسلام .
- ٣ — أن يكون على مذهب الملك .
- ٤ — أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد أحد في عصره يفوقه في هذا الفن .
- ٥ — أن يكون مضطلعا بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .
- ٦ — أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى ، وحافظا للأشعار راويا للكثير منها ،
- ٧ — أن يكون أصيلا في قومه ، رفيعا في حسبه<sup>(٥)</sup> .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .

(٢) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٤ وصبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق .

(٥) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ص ٩٤ وما بعدها .

هذه أم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء ،  
فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان ؟  
يؤسفني أن أقول إن الفاطميين لم يأهوا بهذه الشروط والصفات التي اقترحها  
أحد كتابهم في كتاب قدمه لوزير من وزراءهم ، ولكن ابن منجب كان من  
كتاب القرن السادس للهجرة في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم ،  
ولا سيما قوة الصليبيين ، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام  
دين رئيس الديوان ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسراره من  
يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو خذله الله وأباهه ، (١) . فان وجود  
الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر إلى أن  
يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلماً . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ  
قامت دولة الفواطم في مصر ، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة ،  
كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا  
الديوان من أهل الذمة ، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز  
والرئيس فهد ، كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودي في عهد  
الحافظ . معنى هذا أن الفاطميين لم يأهوا بمذهب الكاتب أو دينه ، بل لا أغالي  
إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيراً ما يستعينون بالذميين في دولتهم ، وهذه  
ظاهرة سجلها المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية ، ولكن ليس معنى ذلك  
أن الفاطميين أبعادوا المسلمين عن الدواوين ، فإن الكثرة الساحقة من كتاب  
الدواوين كانوا من المسلمين ، فاذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي  
وردت في صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين ، فقد جاء في هذا  
الكتاب : « فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور بن نسطوروس النصراني ،  
ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر  
النهركي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين  
ابن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد  
العميدى ، وكتب للامر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة  
الجلبي ، إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسة ، فكتب بعده ولده الأجل

(١) فانون ديوان الرسائل لابن منجب ، ص ٩٥ .



ابو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي ، والقاضي كافي القضاة محمود ابن القاضي الموفق أسعد بن قادوس وابن أبي الدم اليهودي ، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضي الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضي الفاضل البيهقي ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإنشاء القاضي جلال الملك محمود الأنصاري ، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق ابن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١) .

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى ليست عرضاً لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله ، كما أن الذي نراه في كتب التراجم وفي المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى ، إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهر القائد كان يلي ديوان الإنشاء في عهد العزيز (٢) وأنه ظل في منصبه إلى أيام الحاكم ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري ، ثم جاء بعده الكافي ابن عبدون النصراني ، ثم صرف وقرر بدله أحمد بن محمد القشوري الكاتب ، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافي ، وبعده حسين بن طاهر الوزان (٣) . ونفهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك ابن سعيد الفاروق كان له النظر أيضاً في المكاتبات في عصر الحاكم (٤) ، وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (٥) ، ويذكر المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣هـ (٦) ، ويذهب المفريزي إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة (٧) وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدي الحسنی كان على رأس ديوان الإنشاء في عهد الأمر (٨) ؛ وهكذا نستطيع أن نعرف عدداً آخر من الكتاب الذين

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ . (٢) خطط المفريزي ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) اعطاء الخفا ص ٣٠٠ وما بعدها (٤) الولاية والقضاة ص ٦٠٦ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٦) السيرة المؤيدية ( من مطبوعات دار الكتاب المصري ) .

(٧) خطط المفريزي ج ٣ ص ٢٥٧ . (٨) الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندي ، كما نستطيع أن نستخرج أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مذاهبيهم الفنية في الكتابة ، لأن آثارهم فقدت ولم يبق لنا إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكون رأيا صحيحا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب ، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر ، بحيث نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من في كتاباتهم . فأول خصلة من هذه الخصال هي أن الكتاب جميعا التزموا السجع كتاباتهم ، ترى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض صلاح الدين الأيوبي أركانها ، نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي (١) ، وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس (٢) وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم (٣) وفي رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وفي كتابات ابن خيران ، ونستمر في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن الشيخبلاء ، ثم في رسائل القاضي الفاضل .

وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب وهي الاقتباس من القرآن الكريم ، فكانوا أحيانا يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن ، أو يقتبسون بعض معاني القرآن ، متأثرين بهذا كله تأثيرا واضحا في جميع ما خلف لهم من كتابات .

وخصلة ثالثة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم ، فهم يفرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظير : فإذا بك تجد كتاباتهم عبارة عن جمل قصيرة في الغالب ، والجملة تتبع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها ، وينتقل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعدوبة ، فلا ينتقل بك انتقالا فجائيا ، مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته ، كما يدل أيضا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوى جميع الكتاب على أن هذه الخصال التي عرفت في العصر الفاطمي

(١) انماظ الحنفاص ٢٥١ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٣ .

عرفت أيضا في رسائل ابن عبد كان ، فلا غرابة إذا قلنا إن أثر ابن عبد كان في كتاب مصر كان قويا شديداً ، وإن فنه الذي عرف به في العصر الطولوني قد ظهر واصحا في العصر الفاطمي ، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله بما اغتتم في كل شيء في حياتهم . كما أن هذه الحُصَال نفسها هي التي عرفت بها كتابات القاضي الفاضل ، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، والعجب حقاً أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهباً خاصاً عرف به في الكتابة ، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية ، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضي الفاضل ، ونحن نلتمس لهؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا ، لأنهم كانوا تبعاً في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل ، وتناسوا أساتذته وخصائص مذهبهم التي أخذها عنهم ، وجاء المحدثون يتبعون القدماء في أحكامهم دون درس وبحث .

وخصلة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم ، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت ، ويتعمدون دائماً أن يذكروا أن محمداً جد الأئمة فكأنهم كانوا يحاولون لإثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم ، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه ، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين ، بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة ، كانوا يهتمون هذه الكتابات والسجلات ، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتائهم . ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من

ظهورها في رسائلهم. والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان جلالة مولانا الملك في عصرنا الحديث، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة.

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثيراً يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلون بالعقائد ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع مذهبهم الفاطمي، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل ماتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية هي ما كتبه القائد جوهر الصقلي فاتح مصر، وتلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه وعلى إمامه للبصريين، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي ديجتها يراعة هذا القائد، فقد كان جوهر كاتباً للعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب<sup>(١)</sup>، ويحدثنا المقرئزي أن القائد جوهر أكان كاتباً بليغاً، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة رفعت إليه بمصر:

«سوء الاجترام، أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الإنعام، أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب، لأنكم بدأتم فأسأتم، وعدتم فتعدتم، فابتدأوكم ملوم، وعودكم مذموم، وليس بينهما فرجة إلا تقتضي الذم لكم، والإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم»<sup>(٢)</sup>.

(٢) خطاط المقرئزي ج ٢ ص ٢٠٧.

(١) سيرة الأستاذ جوهر (مخطوط).

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهر أ كان على مقدرة وكفاية في فن الكتابة كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب . فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه المعاني المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي ، بل كاد يسود العالم الإسلامي ، فالزينة اللفظية في هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعا .

أما الأمان الذي هو أول نص حفظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه : —  
بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضي أعزه الله — وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، ففرقم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم : فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجهم للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم... الخ .. (١) ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه ، وما على الحكومة الجديدة من تعهدات نحو الشعب المصري ، ويخيل لي أن كاتب هذا النص لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يظهر صناعته الفنية في المزاجية بين الجمل والتزام السجع في كل فقراته ، وإن كان الكاتب حاول أن يرتفع بأسلوبه وأن يجعله أسلوبا أدبيا .

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر رأينا رسالة أخرى للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي ، ونحن لا ندري من الذي كتب هذه الرسالة عن المعز ، فالرسالة التي وصلت لإينا طوبيلة ولكنها ناقصة . ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي ، حتى نستطيع أن نميز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله ، فقد جاء في هذه الرسالة :

(١) اتعاظ الخفاص ١٤٨ ( طبعة دار الفكر العربي ) .

« من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .  
بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأولياء ،  
ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منا . صلوات الله علينا وعلى آباتنا ، أولى الأيدي والأبصار ، في متقدم المدهور والأكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصاهم لأمر الله ، الابتداء بالإعذار ، والانتهاه بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار ، في أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحججة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال الله جل وعز : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، و « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » ، وقوله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، و « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » ، أما بعد أيها الناس ، فإننا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مجاده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعماته ، وحسن بلائته ، ونبغى إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه بمائلة الهوى ، والزبغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آباتنا الراشدين المهديين المنتخبين ؛ الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » ، ليذكر من يذكر ، وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس : إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالسكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ؛ ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار ، فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور ، فعند تكامل الأمر وصحة العزم وإنشاء الله جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلماً ، وحركة وسكوناً . وكان من حكمه السابق في عليه ، ماترون من فلك دوار

وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع من كفيف واطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملبوس ، ودان وشاسع ، وما يبط وطالع ، كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدى به الله من كان له لب سجيح ، ورأى صحيح ، قد سبقت له الحسنى ، فدان بالمعنى ... الخ ، (١)

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية. بحيث نستطيع أن نقول إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتاب الفاطميين ، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين ، فالاصطلاحات الفاطمية (الناطق) و (الوصي) ، ثم حديثه عن خلق الأشباح أى الممثلات قبل خلق العالم ، وأن الأئمة أول الفكرة أى أنهم مثل للعقل الأول ( المبدع الأول ) وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل . كل هذه من المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون ، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد ، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة لحسب ، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، بل هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية وترينا تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور بن يحيى الحسين ابن حوشب الذي وجد قبل عصر المعز ؛ أو كتب القاضي النعمان ، وجمهر بن منصور والروزي الذين كانوا في عهد المعز ، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز. فمؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالاً للبحث في هذه الرسالة الهامة .

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي ، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة . انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة :

فأما أنت أيها الغادر الخائن ، الناكث البائن ، عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ

(١) اتعاظ الحنفاً ص ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي) .

عن دين أسلافه أنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دونى أثرك ، وإنك منى لمنظر ومسمع ، كما قال الله جل وعز « إننى معك أسمع وأرى » ، وما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ، فعرفنا على أى رأى أصلت ، وأى طريق سلكت ، أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة ، وبعمل أبى طاهر قدوة ، أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ، أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم . فأنت تقرأ هذه القطعة فتشعر أنك تقرأ رسالة ابن عبد كان التى كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عند ما ثار على أبيه ، فهذه الجملة القصيرة المسجوعة ، والاقباسات من القرآن الكريم ، وضم الجملة إلى ما يشاء كلها ، كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان ، ونقلها تلاميذه عنه ، واستمرت طوال العصر الفاطمى .

ووصلت إلينا رسالة كتبت فى عهد العزيز بالله ، كتبها إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٣٦٧ هـ ، ونحن لا نعرف أيضا كاتب هذه الرسالة ، ولكن لا شك فى أنها كتبت فى العصر الفاطمى ، لما فيها من الخصائص الفاطمية التى تحدثنا عنها من قبل ، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفنى ، فقد جاء فى هذه الرسالة (١) :

« من عبد الله ووليه نزار أبى المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين ابن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد نبيه ورسوله ، صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار ، الطاهرين المطهرين وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الحكيم ، ذى الطول الكريم ، والمن الجسيم ، والعز المسديد ، والمحال الشديد ، ولئى الحق ونصيره . وماحق الباطل وهيبيره ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين ، لأوليائه المتقين ، وخلقائه المصطفين ، الذابين عن دينه ، والقائمين بحقه ، والدالين على توحيدته ، الحاكم بإعلاء كتبهم ، وإفلاج حججهم ، وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدون فى آياته ، الجاحدين لنعائمه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على

(١) الرسالة بأكملها فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٤ وما بعدها .



من عصاه فحاذه ، وصد عنه فناده ، القاضى بالعواقب الحسنى ، والفوز والنعمى ، لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه فى أمره ، وفوض إليه حكمه ، كل ذلك فضلا منه وعدلا ، وقضاء فضلا ، وهو الحكم العدل الذى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

فأنت ترى فى هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن محمدا جد الإمام العزير ، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذابون عن دين الله . فهذه كلها من المعانى الفاطمية التى لا يقول بها غيرهم ، فإذا مضينا فى قراءة الرسالة رأينا الجزء الأول منها يجرى هذا المجرى الذى رأيناه فى القطعة السابقة ، حتى إذا وصلنا إلى الغرض من الرسالة ، وهو الحرب مع القرمطى رأينا الكاتب يفصل حركات العزير وائتالاته إثر عدوه ، حتى قال الكاتب :

فبعد ما طمع قاده الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من يبسان رحيل من استعجلته البلية ، واستدعته الرزية ، فخل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافرًا بحدود الإسلام ، متجرئا على الله محاربا لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلدا فى حيرته ، مترددا فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه ، إلى أن رحل فنزل بكفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بما حل به من السى المبيد ، والخزى الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة ، ونصب أعلامه المخدولة ، وأقام صفوفه المغلولة ، وأظهر آلة الحرب لإقداما ، وأخفى عن اللقاء إحجاما . . . الخ .

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب فى هذه الرسالة ، التى لا تكاد تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الرسالة السابقة .

وفى عهد الحاكم الذى عرف بنزعاته وتقلباته فى حكمه . كثرت السجلات والأمانات فى عهده ، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير ، ونقل المقرئى عن المسبحى صديق الحاكم وجليسه : « فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة أمر (الحاكم) بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنتظ والبوص والحلزا . فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات ، وتحدثت العوام فى الطرقات ، أنها للكتاب

وأصحاب الدواوين وأسبابهم ، فاجتمع سائر الكتاب وخرجوا باجمعهم في خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابها يدعون ويتضرعون ، ويضجون ويسألون العفو عنهم<sup>(١)</sup> . ويروى المقرئ أيضا أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق<sup>(٢)</sup> ومما أورده المقرئ في صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله . إنكم من الأمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان ، جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا علي خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال ، والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، ليعول عليه إن شاء الله تعالى . وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثائة والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم وتسليما كثيرا<sup>(٣)</sup> . »

كما ورد في صبح الأعشى<sup>(٤)</sup> سجل بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله ، وفي هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التي نراها في كتاب الأمان السابق . ومما جاء في هذا السجل :

« أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، في السر والظهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهي ، وينفصم من الشبهات والشكوى والهوى ، فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وثل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفضلها ، وزاد في سناها ، بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . »

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٣

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ٣٢

(٤) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥

(٣) المصدر نفسه

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذى سطر هذه السجلات وكتب الأمان التى صدرت فى عصر الحاكم ، لأن ديوان الإنشاء فى عهده تداوله عدد كبير منهم بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم فى الديوان ، واستمر الأمر فى غموض ، ولعل أول كاتب فى هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولى الدولة ابن خيران .

#### ابن خيران :

أما هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن على بن خيران ولقب بولى الدولة ، ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولى ديوان الإنشاء بعد أبيه فى عهد الظاهر (١) ، ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : « كان أبوه أيضاً فاضلاً بليغاً ، أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً » (٢) كذلك لا نعرف متى ولى والده ديوان الإنشاء ، ومتى ولى الابن بعده ، ولكن المقرئى يحدثنا فى خطه أن أبا الحسن عمار بن محمد — وكان يلى ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم وهو الذى تولى البيعة للظاهر — قتل فى ربيع الأول سنة اثنى عشرة وأربعمائة ، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران (٣) ، ويخيل إلى أن ابن خيران المذكور فى نص المقرئى هو الأب ، لأن ولى الدولة ظل فى منصبه حتى شاهد عصر المستنصر ، ومع ذلك فنص المقرئى يختلف عن نص ياقوت . إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن الابن حل محل أبيه فى ديوان الإنشاء ، على حين يذهب المقرئى إلى أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذى ولى الديوان بعد ابن خيران ، ولا نستطيع أن نرجح إحدى الكفتين ، لأن المصادر التى بين أيدينا قليلة ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر .

ومهما يكن من شئ فإن ولى الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء للظاهر ثم للمستنصر ، ويحدثنا المقرئى أنه فى سنة أربع عشرة وأربعمائة قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ ( طبعة فريد رفاعى ) .

(٢) المصدر نفسه (٣) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٦٧

خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول ببلداته ، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبين وقاضي القضاة ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يوما مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر البتة ، (١) وإذن فقد كان ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة ٥٤١٤ هـ ؛ ويقول ابن خلصان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة ، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر ، وهذا ابن خيران كان متولى كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم ، (٢) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة ٥٤١٦ هـ .

ويروى المقرئ أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : الفقر مر المذاق ، والحاجة تذلل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ، قليجروا على رسومهم في الإطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، (٣) فابن خيران إذن كان صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضا ، ويروى ياقوت أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهود ، وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شيء بحسبه ، وكان شابا حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد العارضة ، وسلم إلى أبي منصور بن الشيرازي رسول أبي كاليبجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله ، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير في تخليدهما دار العلم لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتضى واستجيد ، (٤) وبالرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة فاننا نستطيع أن نقول إن ابن خيران كان معجبا بنفسه ، يكثر الإشادة بشعره وبنثره . انظر إليه وهو يقول :

ولقد سموت على الأنام بخاطر      الله أجرى منه بحرا زاخرا

(٢) ابن خلصان ج ١ ص ٣٥٨

(٤) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٨

(٣) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٨

فاذا نظمت نظمت روضا حاليا      وإذا نثرت نثرت درا فاخرًا (١)  
ويقول مرة أخرى :

خلقت يدي للكرمات ، ومنطقي      للمعجزات ومفرقي للتاج  
وسموت للعلياء أطلب غاية      يشقى بها الغاوى ويحظى الراجي (٢)  
وهو القائل أيضا :

قد علم السيف وحد القنا      أن لساني منها أقطع  
والقلم الأشرف لي شاهد      بأنني فارسه المصقع (٣)

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد قتن بشعره وبثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات ، ويخيل إلى أن إعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر ، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والاعجاب بنفسه ، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بحياته ، ولعل القصة التي أوردتها ياقوت عنه تدل على ذلك كله ، قال ياقوت : كان ابن خيران قد خرج إلى الجزيرة منتزها ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة ، وقد احتفوا به يمينا وشمالا ، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة ، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها ، وظهور جزعهم منها ، قنع بغلته ، فوجها حتى قطعها ، وانثنى قائلا مرتجلا :

ومخاضة يلقي الردى من خاضها      كنت الغداة إلى العدا خواضها  
وبذلت نفسى في مهاول خوضها      حتى تنال من العدا أغراضها (٤)

وبالرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة في ديوان الانشاء ، وأن له رسائل كثيرة جمعها في حياته ، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التي كتبها توفيقا عن المستنصر . ويروى ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن « أن الرسائل صالحة سليمة ، قد انتزعت من المنظوم على خلوة إلا من الوزن والقافية » . (٤)

وتوفي ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة . وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدى ديوان الانشاء للمستنصر ، في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، وكان نحويا لغويا ، وصنف عدة

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٦

كتب منها كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات ، وكتاب الإرشاد إلى حل المنظوم ، وكتاب الهداية إلى نظم المنثور ، وكتاب انتزاعات القرآن ، وكتاب العروض ، وكتاب القوافي<sup>(١)</sup> فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى كان متأثراً بهذه الثقافة اللغوية النحوية ، وأرجح أن كتابته في رسائله كانت متأثرة أيضاً بهذه الألوان من العلوم التي حذقها فصنف فيها هذه الكتب ، مضافاً إليها خصائص الكتابة في مصر التي تحدثنا عنها ، وقد أورد ياقوت له بيتين من الشعر هما :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لي مفر عبادة إلا القرافة  
أن لم يرحم المولى اجتهادى وقلة ناصرى لم ألق رافة

ولعلك تلاحظ هذه الجناس بين «القرافة» و«ألقى رافة» ، ولا تدرى مقدار استخدامه لهذه المحسنات البديعية في كتابته لأننا لم نعر على شيء منها ، ولم يعمر العميدى طويلاً في الديوان ، إذ توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة هـ .

ثم تولى الكتاب بعده على ديوان الإنشاء ، نذكر منهم أبا الفرج الذهلي ، وأبا الطاهر النهركي وولي الدولة موسى بن الحسن وغيرهم ، إلى أن ولى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٤٤٣ م ، وقد تحدثنا طويلاً عن المؤيد في الدين ، ونكتفي الآن بأن نعرض صورة من رسائله التي حفظها في كتابه «السيرة المؤيدية» ، من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لموازرة البساسيري في حركته المعروفة .

#### رسالة صنع كتاب المؤيد :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بطلعه ، والسكون إلى علم مودعه . من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلهما الله متصلتي الأسباب ، مهلتني السحاب وفهمته . فأما ما ذكر جواباً عن قول حنين نبيت أن أرى تاج الأمراء سمعي ، لقيني بوجه التفتير في العزم ، أنني ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون منه في ذلك ، فإن خاطبني على شيء منه خاطبني بلسان كل الناس به ناطقون ، وعليه متفقون ، لو كان كلامهم في ناجعا ، ومنى موقع القبول واقعا ، إن الحضرة العالية حرس الله عزها عارفة بمن يلقي ذلك إلى على جهة الإشفاق وهو غل ،

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢

والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شاءت أن تسميهم لي أو تصدر كتبهم إلى لفعلت  
وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة في هذا الوجه ، ولكنها حرس الله عزها  
تتجنب ما يوزع سرى ، فمن أجل ذلك تكف ، فقد عرفته ، ومسلم للحصرة  
العالية حرس الله عزها ثقب الرأى والبصيرة والألمعية والمحاسن التي توحدنا  
الله به . فأما علم الغيب فقد انتفى منه النبي صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب :  
« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ولعله نما إليها  
حرس الله عزها ذكر رجل أو رجلين تكلم بذلك هما قليل من كثير ناظروني  
على ذلك وقبحوا على فعلى كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم  
في عامة الطريق . . . الخ ، (١)

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها  
خصائص الكتابة في مصر ، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصرياً ،  
إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر ، فلم يتأثر بمدرسة  
الكتاب المصريين ، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة  
من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله ، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازورى  
وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء : « معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه  
الوسيع والرزق السننى الكثير ، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة ، فإن آثارهم في  
صناعتهم حاضرة موجودة ، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردى ، والضعيف في  
الصناعة والقوى ، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى  
اليوم مقايسة إلى ، فإن كنت ممن يجرى في حلبتهم فرسه ، ويطول نحو أمرهم  
باعه ، فأنزلى منزلتهم من الجاه والمال ، وإلا فقل لي ما أنت مثلهم ، ولا في  
آفاقهم ، فقد رضيتك حكماً ، وجئت لحكك مستسلماً ، (٢) ولكن لانسى أن الذى  
يقول ذلك هو المؤيد في الدين الذى عرف بغروره وطموحه (٣)

وكان الذى ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابة عن مصر وسفره  
إلى العراق في حركة البساسيرى هو القاضى القضاعى الذى تحدثنا عنه في فصل  
المؤرخين ، ولكن لم تصل إلينا كتاباته (٤) ، وناب عنه أيضا أبو الحسن على

(١) السيرة المؤيدية ص ١٠٥ ( طبعة دار الكتاب المصرى )

(٢) السيرة المؤيدية ص ٩٤ (٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين .

(٤) السيرة المؤيدية ص ١٠٣

ابن الأنباري الذي ولي الوزارة بعد ذلك سنة ٥٧٧هـ<sup>(١)</sup>. ثم اختلف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تحفظ آثارهم ، إلى أن نلتقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر ، أما الأول فهو أبو الفرج الموفقي الذي وصفه العماد بقوله : « أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى<sup>(٢)</sup> » ، ولكن العماد لم يحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة ، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر في وصف ناعورة . أما الكاتب الثاني فكان معاصرا للموفقي والمؤيد ، وكان بينه وبين الموفقي بعض الرسائل وهو ابن الشيخباز .

### ابن الشيخباز :

أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشيخباز<sup>(٣)</sup> ، ولقب بالمجيد ذي الفضيلتين ، وصفه العماد بقوله « مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة<sup>(٤)</sup> » ، وقال ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة<sup>(٥)</sup> » . ووصفه ابن خلكان بقوله : « صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى<sup>(٦)</sup> » ، ويقول ابن بسام في ذخيرته : « كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعا من ثنايا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبقها وسابقها<sup>(٧)</sup> » . إذن تكاد تجمع هذه المصادر على علو كعبه في صناعة الكتابة ، وكفايته فيها . حتى قبل إن القاضي الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه ، وأنه كان يستحضر أكثره<sup>(٨)</sup> ، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي الفاضل : إنه تلميذ ابن الشيخباز ، لأنه كان يحدو حدوه في الصناعة . لم يكن ابن الشيخباز مصريا بل كان من عسقلان ، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلدا في فلسطين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة من ٥٢ ، وأخبار مصر لابن ميسر من ٣٣

(٢) الحريدة ورقة ٥ (٣) الحريدة ورقة ١٤

(٤) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٥٣ (٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

(٦) الذخيرة القلم الرابع ورقة ١٨٣ ( نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة ) .

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣



الطولوني ، واستمرت تابعة لمصر ، خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب ، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى . فلا غرو أن رأينا ابن الشخباء العسقلاني النشأة يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشأوا وترعرعوا في مصر بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية . إلا أن ابن الشخباء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن ، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفنه ، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله ، ويخيل إلى أن ابن الشخباء كان على علم تام بكل ما كان يحيط بالعرب في الجاهلية والإسلام ، حافظاً لأشعارهم وحكمهم ، متمكناً من لغتهم ، ويظهر ذلك في رسالته التي أرسلها إلى أبي الفرج الموفقي ، ففيها يقول :

« وصلت رقعة مولاي والصبح قد سل على الأفق مقضبه ، وأزال بأنوار الغزاة غيبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، وثمار البلاغة وأزهارها ، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاصية المدى ، ويجرى به في مضمار الأدب مفردا .

فكان روض الحسن تنثره الصبا فأطلت من قرطاسها أتصفح

فأما ما تضمنته من وصفي ، فقد صارت حضرته السامية تتسمح في الشهادة بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة ، وأنها لا توقع ألفاظها إلا مواقع الحقيقة ، فإن كنت قد بهرت عليها فلترجع نقدها تجدني لا أستحق من ذلك الإسهاب فصلا ، ولا أعد للكلمة واحدة منه أهلا ، وبالجملة فالله ينهضني بشكر هذا الإناعام الذي يقف عنده الثناء ويضلع ، ويحصر دونه الخطيب المصقع .

هيات تعي الشمس كل مرامق ويعوق دون منالها العيوق

وأما الفضل الذي أودعه الرقعة الكريمة من قوله « فأما فلان فيحل في قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد . قدوره عمارية ، وعطسات جواريه أسدية ، ويهوين لو خلق الرجال خلق الضباب ، يتضوعن النثر العبقسي ، ويرضعن مراضع ثعالة المجاشعي ، وما أمرت حضرته السامية من ذكر ما عندي فيه ، فقد تأملته طويلا ، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره ، راغبا في الرضا بما بلغت إليه المقدرة ، وتجليل ذلك بسجوف الصفح . أما قوله ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد ، فيقع لي أنه أراد خالد بن الوليد المخزومي ، وذلك أن

مسيلة الحنفي كان قد تنبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه مشهور — فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد المقدم ذكره في جيش كثيف من المسلمين ، ففتح اليمامة وقتل مسيلة وأباد جماعة كثيرة من بني حنيفة .  
وأما قوله : قدوره عمارية ، فإن هذا الفصل لما كان مبنياً على النم ، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه ، ولم نجد ما ينسب إليه إلا قول الفرزدق :  
لو أن قدرا بكت من طول ما حبست عن الحقوق بكت قدر ابن عمار  
ما مسها دسم منذ فض معدنها ولا رأت بعد نار القين من نار  
وأما قوله : عطسات جواربه أسدية ، فيقوى في وهمي أنه أراد قول الأول في هجائه :

إذا أسدية عطست فنسكها فإن عطاسها طرق الوداق

وأما قوله : يهوين لو خلق الرجل خلق الضباب ، فإن الجاحظ ذكر في كتاب الحيوان : أن للضب أيرين ، وللضبة حرين . وحكى أن أير الضب أصله واحد وإنما يتفرق فيصير أعلاه اثنين ، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

رعين الدبا والبقل حتى كأنما كساهن سلطان ثياب مراحل

سبحل له نركان كانا فضيلة على كل حاف في البلاد وناعل

والنرك : اسم أير الضب . وأنشد الأصمعي لابن دزمام فيما رواه أبو خالد

القمي :

تفرقت لازلتم قرن واحد تفرقت أير الضب والأصل واحد

ومن ههنا قالت جبي المدنية لما عدلها أبوها في تزوجها ابن أم كلاب :

وددت بأنه ضب وأني ضييبة كندية وجدت خلا

وأما قوله : يتضوعن النشر العبقسي ، فن أمثال العرب : هو أخسر صفقة

من شيخ مهو ، وهو بطن من عبد القيس بن أفصى بن دعي بن جديلة بن أسد

ابن نزار بن معد بن عدنان ، وكان من خبره أن إيادا كانت أفسى العرب ، فوفد

وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة ، فقال : يا معشر العرب

من يشتري مني مثلبة قوم لا تضره بجلتي هذه ؟ فقال الشيخ المهوي : أنا

أشترتها . فقال الإيادي : أشهدكم يا معشر العرب أني قد بعث فساء إياد لو افد

عبد القيس بجلتي هذه ، وتصالحا وافترقا متراضيين ، وقد شهد عليهما أهل الموسم

فصارت عبد القيس أفسى العرب ، وقيل لابن منذر : كيف الطريق إلى عبد القيس ؟ فقال : شم ومر .

فإن عبد القيس من لؤمها      نفسو فساء ربحه تعبق  
من كان لا يدري لها منزلا      فقل له يمشى ويستششق  
وأما قوله : « أعطش من نعاله المجاشعي » ، فن أمثال العرب فيما ذكره الكلبى قال : هما رجلان من بني مجاشع عطشا ، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله ، فلم يغن عنهما شيئا ، وماتا عطشا ووجدا على تلك الحال ، قال جرير يهجو بني دارم :

رضعتم ثم بال على الحاكم      نعاله حين لم يجدا الشرابا  
هذا ما وقع لى فى هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ما قصدته قائله (١) فى هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التى غمضت على أبى الفرج الموفقى ، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد فى كتب القدماء ، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر ، وبالأمثال مرة ، وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى ، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملماً بهذه الألوان من الثقافة والعلوم ، وأنه كان يستخدمها فى كتاباته بل فى شعره أيضاً . نرى ظاهرة أخرى فى هذه الرسالة ، وذلك أن ابن الشخباء كان يحلى كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء فى نثره ، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية ، ولكن ابن الشخباء أكثر منها بحيث لا تكاد نرى رسالة من رسائله التى حفظت تخلو من هذه الظاهرة ، ولا سيما رسائله إلى إخوانه وأصدقائه ، فن ذلك ما كتبه إلى صديق له :

ولما حديث ركاب مولاى أخذ صبرى معه ، وصحبه قلبى وتبعه .  
فعمجت من جسم مقيم سائر كمسير بيت الشعر وهو مقيد  
وبقيت بعده أقاسى أمورا تخف الحليم ، وترعى الهشيم ، إن رجوت منها  
غفلة اقتحمت ، وإن رمت منها فرجة تضايقت والتحمت ، وأما الوحشة فقد  
اصطبحت منها كأساً مترعة ، وتجرعت من صابها أمر جرعة ، ورأيت فؤادى  
إذا مر ذكر مولاى يكاد يخرج من خدره ، ويرغب فى مفارقة صدره ، حيننا

يجدده السماع ، وصدودا تنتفض منه الأضلاع ، وزفرة يدمى في غرارها ، ويطلع في الترائب شرارها .

أداری شجاها کی تخلی مکانها و هیات ألفت رحلها واطمأنت  
وأما ما أعانى بعد مسيره فأشياء : منها عبت الألم مرة ، وزوال الاستمتاع  
بما يعرفه من تلك المسرة ، ومنها اضطرارى إلى كثرة مكاره من أعلم دخل  
سرايره ، واختلاف باطنه وظاهره ، وتكلف اللقاء له بصفحة مستبشرة ،  
وأخلاق غير متوعرة . . . الخ . (١)

ولهلك تلاحظ بما أوردناه من فن ابن الشخباء في الكتابة أنه استخدم جميع  
الخصائص المصرية في الكتابة ، فنجد الكتابة المسجوعة ، واستخدام التشخيص  
والتصوير ومراعاة النظير ، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التي أكثرها المصريون .  
وقد أصيب هذا الكاتب البارع بنكبة لاندرى سببها ، إذ حبس في خزانة البنود  
ثم قتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢) . ويذهب ابن ميسر أنه قتل سنة ست  
وثمانين وأربعمائة ، وأنه أنشد وهو في سجنه :

أصبحت تخرجنى بغير جريمة من دار إكرام لدار هوان  
كدم الفصاد يراق أرذل موضع أبدا ويخرج من أعز مكان  
ثقلت موازين العباد بفضلمهم وفضيلتى قد خففت ميزانى (٣)

وفي عهد المستنصر أيضا ولى أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان الإنشاء  
بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٥٢٤ هـ ، ولا أدرى كيف يقول المقرئ عن عته :  
وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا ، فاقترح أبو الفرج ابن المغربي لما صرف  
أن يتولى بعض الدواوين ، فولى ديوان الإنشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة  
السر ، وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر (٤) وواضح هذا التخبط الذى  
وقع فيه المقرئ ، فإن ديوان الإنشاء فى الديار المصرية أقدم عهدا من أبى الفرج  
ابن المغربي ، بل أقدم عهدا من الدولة الفاطمية ، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء  
وجد بمصر منذ عهد أحمد بن طولون . ومهما يكن من شئ . فإن أبى الفرج أحد  
أفراد بنى المغربي الذين كان لهم شأن كبير فى الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز ،

(١) المصدر نفسه ص ١٥٤ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٢٩ (٤) خطاط المقرئ ج ٣ ص ٢٥٧

ولكن نشاطهم كان سياسيا أكثر منه أدبيا ؛ حقا تحدث عنهم ابن القارح في رسالته ، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المغربي وبين أبي العلاء المعري ، ولكن هذه الرسائل كانت لإبان فرار بني المغربي من مصر واستقرارهم في العراق حينما وفي ديار بكر حينما آخر ، ولذلك آثرنا ألا نتحدث عنهم طويلا في هذا البحث ، وكذلك لم تصل إلينا رسائل أبي الفرج بن المغربي الذي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ

وتمر السنون على ديوان الإنشاء ، ويتعاقب عليه الكتاب ، حتى نلتقي بكتاب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية ، ومن أحسنهم حظا ، فقد انتهت إلينا بقية صالحة من رسالته وسجلاته ، بل بقي لنا كتابان من كتبه الكثيرة التي صنفها ، ذلك الكاتب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة هـ

### ابن الصيرفي :

قال ياقوت : الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، معلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا واشتهى هو الكتابة ففهر فيها (١) ، ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ صناعة الترسل على ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدى (٢) ، ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي استخدم ابن منجب في ديوان المكاتب ورفع من قدره وشهره ، ثم إنه أراد أن يعزل الشيخ ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه ومن يأنس به ، فقال له : إن قدرت أن تفدى ابن أبي أسامة من الموت يوما واحدا بنصف مملكتك فافعل ذلك ولا تخلي الدولة منه فانه جمالها (٣) وقد وصف المقرئ بن أبي أسامة بقوله : الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن ابن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر من ٨٧

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٩

يكن أحد يشاركه في هذا النعت بديار مصر في زمانه (١) فنحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ السكتابة في مصر في العصر الفاطمي ، فقد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتباً في أواخر أيام المستنصر ، وهو الذي كتب سجل تولية المستعلي (٢) وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الأمر ، ثم ولي الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢ هـ فأصبح الديوان لابنه أبي المكارم إلى أن توفي أيام الخافظ ، فولى ابن منجب الصيرفي الديوان بعده ، فهذه المدة الطويلة التي قضها ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في السكتابة وذيوع عدد من رسائله وحفظها . وبالرغم من أنه أصبح رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الخافظ فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة ٤٩٥ هـ (٣) ثم تراه يكتب سجلات كثيرة وهو لم يزل كاتباً في الديوان ، منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم سنة ٥٠١ هـ الخاص بالخراج وتحويل السنة الخراجية . وقد جاء في هذا السجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته ، وألهمه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليفته ، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة في المحشر ، وعناهم بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأعلى منار سلطانه بمدير أفلاك دولته ، ومبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للجند علماً وراية ، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه ، السيد الأجل الأفاضل ، الذي نبه في السياسة على ما أهمله من سبقه ، وأغفله من تقدمه ، وتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلاً إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خلا إلا أصلحه وبادر بتلافيه ، إثارة لعارة الأعمال ، وقصدا لما يقضى بتوفير الأموال ، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها ، واهتماماً بمصالحهم التي ضعفت قواهم عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا ، وحملهم على عدل السنن وأفضل القضايا : يحمداه أمير المؤمنين على ما أعانته عليه من حسن النظر للأمة ، وادخره لأيامه من الفضائل التي ضفت بها ملابس النعمة ، ويرغب

(٢) ابن ميسر من ٣٥

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ١٤٠

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠

إليه بالصلاة على محمد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين به ما استحبهم من سبل الصواب ، وأنزل عليه في محكم الكتاب : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » صلى الله عليه وعلى آخيه وابن عمه أيينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كفيه فيما أعضل لما عدم المساعد ، وواقيه بنفسه لما اتخذ الكف والساعد ، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، والذين يهدون بالحق وبه يعدلون . . . الخ (١) ،

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر الفاطمية ، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبل ، وهي التي تجدها عند كل الكتاب تقريبا ، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت إلينا عن ابن الصيرفي . من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنين وثلاثين وخمسة مائة هـ ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتدعت في القرن السادس للهجرة تذكارا لخلاص الخليفة الحافظ من سجنه ، فقد استبد وزيره أبو علي بن الأفضل الملقب بكتيفات بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، فلما قتل الوزير في سادس عشر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله ، واتخذ هذا اليوم عيداً أسماه عيد النصر ، ففي ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء للاستعداد لهذا العيد :

« عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدناها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهى ، ونحن نأمرك أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنين وثلاثين وخمسة مائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في الأعياد وتقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفصيله ، وتعتمد في ذلك ما جرى الرسم فيه في كل عيد ، وتنتهي فيه إلى الغاية التي ليس عليها مزيد . فاعلم هذا ، واعمل به إن شاء الله تعالى ، .

ولم يكن ابن الصيرفي كاتباً من كتاب الرسائل فحسب ، بل كان مؤرخاً ومصنفاً ، ومن تصانيفه كتاب عمدة المحادثة وكتاب عقائل الفضائل وكتاب استئزال الرحمة

وكتاب منائح القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب ملح الملح وكتاب في السكر ، وله  
اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري  
وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن . وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان :  
الأول قانون ديوان الرسائل . والثاني كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة .  
أما الكتاب الأول « قانون ديوان الرسائل » فقد صنفه ابن منجب لكي  
يكون قانونا يعرف به من يجب أن يولى رئاسة ديوان الرسائل ومن يجب  
أن يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من  
الخدام الذين لاغنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ،  
التي إذا سلكت في هذا الديوان أدت الى ضبط أموره ، وأمن معها من اختلال  
شيء منها وفساد يدخل عليها ، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقادم عهدها  
وبعدت أزمنتها (١) فكأنه أراد أن يجعل من كتابه هذا دستوراً لاختيار كتاب  
الرسائل ، وهو بصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا الكتاب  
أنه « لما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة قد سبقوا إلى النظر في  
سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظموا ذكرها في الكتب والمؤلفات ،  
ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقررروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه  
ونها عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه ، وغالفوا بين أحكام تلك التصنيفات ،  
لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج  
كتبا كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة ، فألف كل من العراقيين والمصريين  
في ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته ، والبلد الذي يحتله ، فأما  
صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال ،  
وتوسع في تصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرأ ،  
التيهية ذكرأ ، الرفيعة شأنأ ، العلية مكانأ ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على  
الإشياء إلى ملوك الدول ، والمكاتبة عنه إلى من قل من الأمم وجل وكيف يجب  
أن يكون متوايها وما يخصه من الأخلاق والأدوات ، وما يجب أن يكون فيه من  
الفضائل ، وأن يحتنبه من القبائح والردائل . الخ (١) هذا السبب الذي من أجله

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٩١ ( طبعة مصر سنة ١٩٠٥ ) .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٨



ألف كتابه هذا ، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم توضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل ؟ من الحق علينا أن نقول إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هينة ، فإن أكثر كتب القدماء فقدت وإن بقي أسماء بعضها ، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تهتم بسرد كتب المؤلفين ، مثل الفهرست ومعجم الأدباء وكشف الظنون وغيرها ، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتباً في الكتابة والكتاب ، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب ، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يجودوا صناعتهم (١) ، ووضع الصولي أدب الكتاب ، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب .

ونذكر أحمد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة (٢) وأحمد بن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء ، وكتاب أدب الكتاب (٣) ، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب الكتاب (٤) وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧ هـ صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب (٥) وغيرهم ، وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا ، فلم نعرف ما اشتملت عليه ، ولكن من أسماؤها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه ، قوانين ديوان الرسائل ، فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلها عنها وعن اختصاصه في عمله ، ثم تحدث بعد ذلك عن معاونيه من الكتاب في الديوان ، لجعل لكل عمل كاتباً خاصاً له بميزات خاصة ، فمن يستخدم لتخريج الكتب الواردة له صفات خاصة ، ومن يستخدم برسم الإنشاء له خصائص ، ومن يكون ناسخاً في الديوان له ميزات ، وهكذا . فكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف عن الكتب التي وضعت في الكتاب والكتابة ، لأنه يتحدث قبل كل شيء عن نظام ديوان الرسائل ثم عن موظفيه ، فهو صورة مختصرة جداً للكتاب الذي ألف بعد ذلك وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندي .

أما الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب فهو كتاب الإشارة

(١) تجد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى .

(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ٦٦ . (٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٤ . (٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٨ .

إلى من نال الوزارة . . . فهو كتاب تاريخ من ولى الوزارة في عهد الدولة  
الفاطمية ، سجل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته ومالقب به ، وما تم  
على يديه من أعمال ، فهو من أهم الكتب التي تتحدث عن تاريخ الفاطميين .  
ولابن منجب عدة مقطوعات من الشعر ، ولكنه لم يعرف بالشعر كما عرف  
بالكتابة ، وروى له ياقوت قوله :

لما غدوت عليك الأرض أفضل من      جلت مفاخره عن كل إطارا .  
تغايرت أدوات النطق فيك على      ما يصنع الناس من نظم وإنشاء .  
وقوله :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته      إلا أخو الحرب والجرد السلاهب  
يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه      على وشيح من الخطى مخضوب  
ولكن ابن منجب لم يعد بين الشعراء ، بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة  
كان أكثرهم من كتاب الإنشاء ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مقلا في الشعر  
مكثرا في الرسائل ، حتى قيل إن ديوان رسائله يزيد على أربعة مجلدات .  
وتوفي ابن منجب في يوم الأحد عشر بقين من صفر سنة ٥٤٣ هـ (١) ،  
ولكن ياقوت يذهب إلى أنه توفي في أيام الملك الصالح بن رزك بعد سنة  
خمس وخمسة (٢) ، وليس بين أيدينا شيء من النصوص التي تجعلنا نرجح  
إحدى الروايتين .

### أبو الفتح بن قادوس :

كان مع ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدر كتاب  
مصر الفاطمية وشعرائها ، أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي السكفاة أبو الفتح  
محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطي المعروف بابن قادوس . شاهد  
عصر الأفضل بن بدر الجمالي ، وامتدت به الحياة إلى أن توفي في عهد الملك الصالح  
طلائع بن رزك ، أي أنه عاصر شعراء مصر وكتابها في النصف الأول من القرن  
السادس ، وعرف اتجاهاتهم الفنية في الشعر والكتابة ، فلا غرو أن نرى أمية  
ابن أبي الصلت يتحدث عنه في رسالته المصرية ، ونرى العماد يقول عنه : «أشعاره

(٢) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧

محكمة النسيج ، كالدرج في الدرج<sup>(١)</sup> ، ووصفه ابن ميسر بقوله : « كان من أمائل المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم<sup>(٢)</sup> » . لم يصلنا شيء عن حياة هذا الكاتب الشاعر ، فقد فقدت ترجمة حياته ، كما فقدت تراجم رجال مصر الفاطمية ، ومع ذلك فقد حفظت في بعض المراجع قصته مع زميله وصنوه أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري ، وكيف كان ابن قادوس سببا في أن يلقى زميله حتفه على نحو ما ذكرنا من قبل<sup>(٣)</sup> ، فإن هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفائته في صناعاتي الشعر والنثر ، فإنه كان ضعيف الخلق ، يحسد زملاءه ويوقع بهم في المهالك . وهناك قصة أخرى يرويها القدماء عنه ، وهي انتصاره للجليس بن الحباب ، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعا بهجاء الجليس ، كثير الدعابة بأنفه ، حتى قيل إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت ألف مقطوعة ، فأنبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلا :

يا من يعيب أنوفنا الشم م التي ليست تعاب  
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب<sup>(٤)</sup>

فما الذي جعل ابن قادوس ينتصر للجليس ؟ لا أشك في أن ضعف خاق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده في الوصول إلى مآربه الشخصية في الديوان أو في غير الديوان من مناصب الدولة ، بحكم تلك الصلة القوية التي كانت بين الجليس والخليفة الفاطمي من ناحية ، وبين الجليس والملك الصالح طلائع ابن رزيق من ناحية أخرى ، فلذلك انتصر للجليس ، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين .

مهما يكن من شيء فإن ابن قادوس كان من أمائل الكتاتب في القرن السادس الهجري ، فالرسائل التي بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه في الإنشاء ، فمن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة في عيد النحر ، ومنها :

« أما بعد ، فالحمد لله ما حى دنس الأنام بالحجج إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ونحول الغفران لمن كان بفرائض

(١) الخريدة ورقة ٤٩ .

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٩٧ .

(٣) راجع ص ١٨٧ من هذا الكتاب (٤) الخريدة ورقة ٦٨ .

الحج ونوافله شديد الولوج والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبي وأحرم ،  
وبين ما أحل الله وحرّم ، وعلى أخيه أئمتنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب  
الذي ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام  
الدين ، وحتوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ، وإن من  
الأيام التي كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عز  
صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة ( كذا ) : وكان من  
قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة  
في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور  
الزاهرة متبركين بأفئيتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألّفوا صفوفاً تبهر النواظر ،  
ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر ، مستصحبين فنونا من الأزياء تروق ،  
ومستتبعين أصنافاً من الأسلحة يفض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام  
خافقة ، والرياح بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا  
على تشوف لظهوره ، والتطلع للتبرك بلامع نوره ، ولما بزغت شمس سعادته ،  
وجرت الأمور على إثارة وإرادته ، وبدت أنوار الإمامة الجليلة ، وظهرت  
طلعتها المعظمة البهية ، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتمجيد ، والاعتراف بأنهم العبيد  
بنو العبيد ، واستقل ركابه أمير المؤمنين ، ووزيره السيد الأجل الذي قام  
بنصر الله في إنجاز أوليائه ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ، وناضل  
عن حوزة الدين وجهاد ، وناصل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم بأحكام  
الوزارة ، وتدير الدولة تديراً أولى الإخلاص والظهارة ، ويتبع آراء أمير المؤمنين  
فيما تنفذ به أوامره ، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره ، ويحسن  
السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ،  
ويخلص لله جل وعز وإمامه ، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في أعمال  
لهذه وحسامه ، وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في إثره ، متوافقة على  
امثال أمره ، قد رفعت السنايك من العجاج سحاباً ، وخيلت جنن الجند للناظرين  
في البرعبابا ، والجياد المسومة تموج في أعنتها ، وتختال في مراكبها وأجلتها ،  
وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً ، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً ، وتهدي لمن  
يحاول مائلتها غلواً واشتطاطاً ، وأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأصوات الحديد

تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل ، ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل ، وترض  
سناكبها الهضاب وتغدو صلابها كالكتيب المهيل . . . (١)

وكتب ابن قادوس بالبشارة بوفاء النيل :

والنعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر  
تنشر الآفاق أعلامه ، واعتداد تحمك بادراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك في  
النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجناد ، وتلك النعمة النيل  
المصرى الذى تبرز به الأرض الجزر في أحسن الملابس ، وتظهر حلال الرياض على  
القيعان والبسايس ، وترى السكونز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين  
والعقيان ، فسبحان من جعله سببا لإنشار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب  
البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والآقوات الخ ، (٢)

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هى من خصائص مصر ، فلا ينازع  
مصر بلد آخر في هذا اللون من السجلات ، ولا سينا في البشارة بوفاء النيل ، ولكن  
اللون الآخر ، وهو ركوب الإمام الفاطمى لصلاة عيد النحر ، فهو من ترتيب الدولة  
الفاطمية ، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية في السجل الفاطمى مما لا يدع  
شكا في أن العقائد أثرت في الكتابة كما أثرت في الشعر ، أضف إلى ذلك كله هذه  
الصنعة الفنية في الكتابة التى رأيناها عند جل كتاب الفاطميين . وقد حفظ  
العقاد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف ، وتظهر في هذه الرسالة  
صنعته الفنية التى ظهرت في السجلين السابقين :

أطال الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يتدعها ، وفرائض جود يشرعها ،  
وقوادم يذلل صعابها ، ومسايف سعود يطرق جنابها ، وأدام أيامها التى هى  
للدهر تمام ، وفى المحل غمام :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| غرر من الأيام توضح خرها  | والدهر من ظلم النوائب عاتم |
| ملك تملكه السدى وتجمعت   | فى راحتيه غمام وسمام       |
| فالروض يجذب وهو روض بمرع | والغيث يقلع وهو غيث دائم   |

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٨

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٦

وشتان ما بينهما ، تلك سحاب قد رعدت بوارقها ، وعدت صواعقها ، وروض  
يجف نباته ، وتضوع زهراته ، ومكارم الحضرة تزيد جدة على التكرار ، وتماثل  
فعل الفلك المدار ، فهى تبارى الشمس نهراً ، وتزور مزار الطيف سراراً :  
من بغير أهلة مستورة فطلعن فى فلك العلاء أقاراً  
ومواهب ومناقب ومناسب رفعت له فوق السماك مناراً (١)

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ فى سبع المحرم ، وقيل إن الملك الصالح حضر  
من القاهر إلى مصر للصلاة عليه ومشى فى جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام. (٢)  
ووافق العماد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو ، غير أن المقرئى روى  
قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأرمنى وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة  
٥٢٦ هـ وثقل على الخليفة أخذ كل منهما فى التدبير على الآخر ، فأجمل يانس  
وقبض على حاشية الخليفة ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح  
ابن قادوس وقتلها . فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره (٣) أى أنه  
ذهب إلى أن ابن قادوس قتل سنة ٥٢٦ هـ ، وقد وهم المقرئى فى هذه الرواية فإن  
الأدلة تكاد تجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع بن رزك ،  
من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبى على حسن بن زبيد الأنصارى كانت فى  
الخلافة بين حسن بن الحافظ وأبيه ، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة ٥٢٦ هـ ، ونحن  
نعلم أن ابنى الزبير لم يتقدما فى الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة ٥٤٩ هـ بل لم يكن  
لها ذكر فى الدولة قبل هذا التاريخ وقد روينا هجاء ابن قادوس لابن الزبير ، فعنى  
هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر أى بعد سنة ٥٢٦ هـ أيضاً ، ومن ذلك أن  
العماد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزك كان يعزى ابن الصياد بأنف الجليس  
ابن الحباب ، فأشدد ابن الصياد هذه المقطعات التى أشرنا إليها مراراً ولم يسكته  
إلا ابن قادوس ، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح ، أضف إلى ذلك

(٢) ابن ميسر ص ٩٧

(١) الحريرة ورقة ٥١ .

(٣) خطاط المقرئى ج ٣ ص ٢٧ .

مارواه ابن خلسكان أن الخليفة العاضد الفاطمي أشرك ابن قادوس مع الموقف ابن الخلال في ديوان الإنشاء . وإذن فنحن نؤيد رواية العماد وابن ميسر أنه توفي سنة ٥٥١ هـ .

أما الشاعر الكاتب الثاني فهو أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله ، وقد تحدثنا عنه شاعراً (١) . أما صفته الكتابية فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين في ديوان المكاتبات (٢) وقال مرة أخرى : « ومن نثره ما يدل حسنه على رونق فرنده وأثره (٣) ، وحقاً ، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له ، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب ، ومن هنا ظهرت مواهب أبي علي الأنصاري في النثر كما ظهرت من قبل في الشعر ، أقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له يهنئه بالشفاء من مرض :

« إذا قدم الوداد ، وصح الاعتقاد ، وصفت الضيائر ، وخلصت السرائر ، حل الإخاء المكتسب ، محل أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاركين فيما نفع وضر ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي ، فإنني وإياها كنفست قسمت على جسمين ، وروح فرقت بين شخصين ، فما ألمها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرتني وأبهجني ، وعرفت خبر إبلاها من ألم كان بها ، فشكرت الله على خلتين معا ، ونفيعين اجتماعاً ، أحدهما أنني أعلم نألمها فكنت ألقى ما يكدر الشراب ، ويمنع تلاقى الأهداب ، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض ، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البغيض ، والآخر على برئها عند حلوله ومعرفتي به عند تخييمه بساحتها ونزوله ، (٤) »

وأقرأ له يهنئه صديقه بمولود :

« وردت البشارة السارة بالقادم الأجد ، المستقبل بالطالع الأسعد . وأخذ المملوك من المسرة بأوفر حظ الأولياء المخلصين في الولاء ، المغفورين بجزيل

(٢) الخريدة ورقة ١١٠

(٤) المصدر نفسه ص ١١٥

(١) راجع ص ١٨٧

(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٤

الآلاه ، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد ، ووفرة العدد ،  
نامية الأهل والولد ، حتى يرى هذا المبشر بقدمه ممتطيا صهوات الجياد ، مخوف  
الشذا يوم الجلال ، يخفق وراءه اللواء ، وتخاف سطوته الأعداء ، وتخص  
البلاد بقواضيه ، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه ، وترى من أولاده أمجادا عن  
الإسلام ذادة ، وأملاكا لا متلاك البلاد سادة . لا زالت تبلغ أقصى الأمانى ؛  
وتسمع نغم التهاني ؛ وتمد ظلها على القاصي والداني (١) .

ثم اقرأ له هذه القطعة من رسالة في العزاء بغريق :

« لعمرى لقد نزهه الله عن سهك الجرباء ، وملاقة الحصباء ، والمقام تحت  
أديم الأرض ، وانطباق بعضها على البعض ، ورفعته عن أن يذل في الحدث  
جبينه ، ويعقر في العثير عرينه ، فجعل ضريحه في شبيهه جودا وكرما ، وضريحه  
محاسن وشيا ، فتضمنه الماء ، وتغطه مط فوقة الدأماء ، فإذا استسقى السحاب ،  
واستسمح التراب ، فهو في البحر الوافر ، واللج الزاخر ، بحيث تتفرع المناهل ،  
ويرد كل ناهل (٢) . »

فهل رأيت كيف كان أبو على الأنصارى فنانا يجيد صناعته ، فينتقى من اللفظ  
أجوده ، ومن المعانى أسماها وأجملها ؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده  
على مهارته ، ويخشى منافسته . فدبر المسكيدة التي أدت به إلى حتفه .

### الموفق ابن الخلال :

ولعل آخر من ولى ديوان الإنشاء فى مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد  
المعروف بابن الخلال ، الملقب بالموفق ، وقد وصفه العباد بقوله : « هو ناظر مصر  
وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب  
كما يشاء (٣) ، » ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء  
بمصر فى أيام الخافظ<sup>٤</sup> وأنه استمر فى مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية (٤) ،  
ويعد الموفق ابن الخلال الأستاذ المباشر للقاضى الفاضل ، وقد روينا كيف وقد  
القاضى الفاضل إلى ديوان الإنشاء ، ومثل بين يدي الموفق ولازمه ، وتدرج

(١) الحربدة ورقة ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٨ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ، وهذا ما يفهم أيضا من أقوال الفلشندي فى كتاب صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .



بين يديه ، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى ، إلى أن أجاد القاضي الفاضل فن الترسل ، وبلغ هذه الدرجة الرفيعة في هذا الفن . لذلك يقول ابن خلكان : « ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته . ويقال إن القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم ، فكان يجرى عليه كل ما يحتاج إليه <sup>(١)</sup> . » وابن الخلال أحد الذين ذكروهم عمارة اليمنى فقال : « ووجدت بحضرة (أى بحضرة الصالح بن رزيك) من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء . وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير ، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية ، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب <sup>(٢)</sup> . » إذن تكاد تجمع المصادر التي بين أيدينا والتي حدثتنا عن الموفق ابن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل ، وعلى براعته في فن الترسل . وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثاني مرة ؛ أى بعد انتصاره على ضرغام ، جاء فيه :

« سلام عليك . فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً (أما بعد) : فالحمد لله مانح الرغائب ومزيلها ، وكاشف المصاعب ومزيلها ، ومذل كل عصابة كلفت بالقدر والشقاق ومزيلها . ناصر من بغى عليه ، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه . وراد الحقوق إلى أربابها ، ومرجع المراتب إلى من هو أجدر بريقها وأوابها ، ومسنى الخير بتيسير أسبابه ، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه ، ومدنى نأى الحظ بعد نفوره واغترابه ، ومطلع الشمس بعد المغيب ، ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب . مبدع ما كان ويكون ، ومسبب الحركة والسكون . محسن التدبير ، مسهل التعسير . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . » والحمد لله الذى اختص أولياء أمير المؤمنين بالاستعلاء والظهور ،

(١) ابن خلكان ج ٢ من ٤٠٩ . (٢) النكت المصرية ص ٣٤ .

وذلك لهم جوامع الخطوب ومصاعب الأمور . وآتاهم من التأييد كل بديع  
مستغرب ، وأنالهم من كل غريب إذا أورد قصصه أطرب . ومكنهم من نواصي  
الأعداء ، وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء . وضمن لهم أحمد العواقب ،  
وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام أفضل المناقب . وهداهم  
بأمر المؤمنين إلى ما راق زلاله ، وتم غاية التماس كما أنه كان لرضا الله سبحانه  
وحسن ثوابه ومآله . ويمدهم في المجاهدة عن دولته بالتأييد والتمكين ، ويحظيهم  
من أنوار اليقين ، بما يجلو عن أفندتهم دجى الشك البهيم ، ويظهر لأفهامهم  
خصائص الإمامة في حلال التفخيم والتعظيم ، ويريهم أن خلوص الطاعة منجاة  
في المعاد بتقدير العزيز العليم .

والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين ، وأقامهم أعلاما  
مرشدة في محجة الدين ، وبين بتبصيرهم الحقائق ، وورث أمير المؤمنين شرف  
مقاماتهم ، وجعله محرز غاياتهم ، وجامع معجزاتهم وآياتهم ؛ وقضى لمن التحف  
بظل فنائه واشتمل بسايغ نعمه وآلائه . وتمسك بطاعته ، واعتصم بولائه :  
بالخلود في النعيم المقيم ، والحلول في مقام رضوان كريم . ذلك فضل الله يؤتيه من  
يشاء والله ذو الفضل العظيم ،

ثم يقول : « وراقب الله فيما ألقاه إليك ، فقد فوض إليك مقاليد البسط  
والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والمزل ، والقطع والوصل ، والتولية  
والنصرif والصرف ، والإمضاء والوقف ، والفض والتنبية ، والاحمال والتنويه  
والاعزاز والاذلال ، والإساءة والاحمال ، والابداء والاعادة ، والنقص  
والزيادة ، والانعام والارغام ، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام ، وتقتضيه مطالب  
الأنام ، فهو إليك مردود ، وفيما علق بنظرك معدود . وأما العدل ومد رواقه ،  
وإقامة مواسمه وأسواقه ، والإنصاف واتباع محجته ، والاعتماد على أحكامه وأفضيته .  
وكف عوادي الجور والمظالم ، وحمل الأمر على قصد التصاحب والنسالم ، وإظهار  
شعار الدين ، في إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكين ، والدعوة الهادية وفتح  
أبوابها للمستجيبين ، وإعزاز من يتمسك بها من كافة المؤمنين ، والأموال والنظر  
فيها ، والأعمال أقاصيها وأدانيها ، فكل ذلك محرر في تقليد وزارتك الأول .

وأنت أولى من حافظ على العمل به وأكمل . . . الخ (١) .  
فن هذه القطعة نستطيع أن نتبين كيف تبع الموفق بن الخلال ما تبعه غيره  
من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التي ذكرناها من قبل! ثم نتبين كيف  
استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته  
ليضيف إليها قوة في الصناعة .

لم يكن الموفق كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، شأنه في ذلك شأن عدد كبير  
من الكتاب الفاطميين ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعية التي تظهر في نثره  
أيضاً ، فهو يقول من قصيدة :

عذبت ليال بالعذيب خوالى      وحلت مواقف بالوصال حوالى  
ومضت لذاذات تقضى ذكرها      تصبي الحليم وتستهم السالى  
وجلت موردة الحدود فأوثقت      فى الصبوة الخالى بحسن الخال  
قالوا سراة بنى هلال أصلها      صدقوا كذاك البدر فرج هلال (٢)

كما روى أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر . ذلك  
أن الشاعر أبا القاسم بن هانى\* — وكان من سلالة الشاعر ابن هانى\* الأندلسي  
المعروف — كان يهجو ابن الخلال ، فأضمر هذا له حقداً ، فاتفق في بعض المواسم  
أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدي الخليفة ، وانتهت النوبة إلى ابن هانى\* ، فأنشد  
وأجاد ، فسأل الخليفة الموفق ابن الخلال رأيه في قصيدة ابن هانى\* ، فلم يسعه إلا  
أن يثنى عليه ويبالغ في وصفه ، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى  
ابن هانى\* الأندلسي شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت  
أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد ، فقال له الخليفة : ما هو؟ فنخرج  
الموفق من إنشاده ، وأبى الخليفة إلا أن ينشده ، وفي أثناء ذلك صنع ابن الخلال  
بيتاً هجاء فيه الأئمة الفاطميين .

فعظم ذلك على الخليفة ، وقطع صلة الشاعر ، وكاد يفرط في عقوبته (٣) .  
وتوفي ابن الخلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين  
وخمسائة من الهجرة (٤)

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٠ . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٩ . (٤) المصدر نفسه

### عمارة اليمنى النائر :

بالرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من عمال ديوان الرسائل ، ولم يعرف عنه انه كان كاتباً لأحد الأمراء ، فإننا نستطيع أن نلصق في رسائله الإخوانية التي حفظت لنا ، خصائص الكتابة التي عرفت عند كتاب الدواوين ، وكما تأثر عمارة في شعره بمصر وبشعرائها ، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها في نثره ؛ ونختم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولى على أسوان ، وقد رأينا أن نقلها بأكملها لما فيها من صنعة فنية وطرائف لا نجدها في السجلات الرسمية التي أوردنا صوراً منها من قبل ، كتب عمارة :

إن جرى بيننا وبينك عتب أو تناءت منا ومنك الديار  
فالوداد الذى عهدت مقيم والدموع التى شهدت غزار

كان عزمي ، أطال الله بقاء حضرة مولاي ، أن أستفتح هذا الكتاب ، بألم العتاب ، وأشحنه من الخطاب ، بما لا يستطاب ، بما أقيم أعنة القوارص ، وأسدد أسنة الخوارص ، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله ، وأجمع بين رويته وارتجاله ، وأجهز تعنيفاً يضيق له البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، ثم قلت السلام قبل الكلام ، والملاطفة أولى من الملام ، ثم عطفني حفظي لعهدك ، وحفاظي على ودك ، وشافع أولى ، ووفاء سموألى ، فإلطفاني حتى لزما كفي ، وخزما أنفي ، فعدت من شب نار الوجد عليك ، إلى التشبيب بذكر الشوق إليك . وكتابتني هذا صادر عن صدر مملوء بوجدك ، وقلب مصدوع ببعدهك ، وأسف لفقدك ، لا يظعن قاطنه ، ولا يخفى باطنه ، وغرام لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق ، ومراسم الاحتراق ، ولعلبت أن صورتك في القلب مغروسة ، ومكاتبك منه محروسة ، وأنتك شغل خاطرى ومسرحه ، ومرمى ناظرى ومطرحة

يا حبذا سفوان لي من مرتع ولربما جمع الهوى سفوان

بل حبذا ليالى محاضرتك ومذاكرتك ، ومرأوحتك ومباكرتك

وأياما لنا ولكم نعمنا زمانا في حواشينا الرقاق

ليالى نحن في غفلات عيش كأن الدهر عنا في وثاق

هذا يامولاي فصل مقصور على صحيح التشوق ، لا سقيم التسوق ، وخاطرك ،

والكاف أذ من الضمير في مخاطبتك ، وأعذب من الماء العذب في مكاتبتك ، تعلم  
صدق دخيلتي ، وودق مخيلتي . وأعود إلى ما في نفسي من عتابك ، بل سبابك ،  
والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وفائك . يا أعصى من العود ، وأقسى من  
الجلود . بل يا قصير العزيمة ، وطويل الهزيمة ، مضت لك شهور هي عندي دهور ،  
لم تهزك فيها ريح الأريحية ، ولا شيمة النفس المضرجية ، ولا استفزك المنصب الآني  
ولا الحسب الغري ، قطعت من مكاتبتك رسمي ، فلا تلفظ في كتبك إلى الناس باسمي ،  
فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسيلة لا فوق البسمة ، ولقد رأيت لك  
كتبا سلطانية وأخرى إخوانية ، فقبلت اسمك من عنوانها ، قبل الوقوف على  
بيانها . هذا وأنا كنانة سرك ، وخزانة حلوك ومرك ، والمتهم فيك بما سمع من فيك  
وأظن اسمي لو مر بسمعك لحذفت خمسه ليكون عمتي الأبصار ولست أعلم لك  
عذرا أحمل فملك عليه وأنسب تحاملك إليه ، إلا أن تكون طينة البلد والمنشا ،  
غشى فؤادك منها ماغشى ، فإنها الطينة التي تنبت العقارب ، وتعاذى بين الأقارب .  
وأنت تعلم أن آل الزبير والسكنز إليهم منتهى رياسة أعلامها وسياسة أعلامها  
وتحلى سيفها وضيغها ورحلتى شتاها وصيفها من منهم إلا من عداوته أسباطية  
لاخيه ، أنباطية في توخيه ، يبدون المودة ويخفون العداوة ، أهل حاضرة وفيهم جفاء  
البدواة ، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة ، ولا في منعه وسيلة ، لأنه طبع جرى في  
ماتهم ونسيم سماتهم وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ، وإلا تغذ إليك ، واحسب على  
يديك ، كم هنالك من راسخ أنساب ، وشاخ أحساب ، وصحة أديم ومجد قديم ، وغر  
عميم وكرم صميم . أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد ومقر الشريد ، وأمان الخائف  
والذمة من الدهر الخائف ، ثم هم سداد الثغر إذا انفتح ، وسداد الأمر إذا فذح .  
وشعلة الزناد إذا قذح ، وعنوان الصدق لمن مدح . العادلون إلا على الوفر ،  
والفاصلون بين الإسلام والكفر .

وأرجع يا مولاي إلى مخاصمتك ومواصمتك ، ومشامتتك وملاكتك ، والعرض  
من عندك والكف من عبدك ، هذه مكاتبة غير موأتية ، ومخاطبة الخالين والنوأتية  
ومقاسره ، وسوء معاشره ، وكأني بمولاي إذا انتهى إلى هذا الحد تمثل وأنشد :  
لئن ساءني أن نلتني بإساءة لقد سرتني أني خطرت ببالك  
أأمنت أن أعضب فأقول : لاسقاني الله بنوئك ، ولا هداني بضوئك ، ولا بلاني

بسوئك ، فإنك من أسوان والهمزة إذا حذف عنها ، فهمت تثنيه السوء منها ، وأنت الذى جلبت إليها التعنيف ، وفتحت عليها الكنيف ، فإن كان هوى البلد أعداك ، فقد هوى بك وأرداك ، وإن كانت الرياضة المحدثه — ولا أكسر دالها — ألهتك عن أصفياك ، وحسن وفائك ، فما إخالك ، وفلان خالك ، تجفو من ينصفك ، وتنكر من يعرفك . أجدنى يا مولاي قد اشتنى منك قرمى ، وانظفاً عنك ضرمى ، وأخذت الفتنة نارها ، ووضع الحرب أوزارها ، وسفرت المسألة عن جبينها ، وأخذت صفقة ثمينها .

وهذا أوان تسرعى إلى حسن ذكرك ، وتبرعى إلى حمدك وشكرك ، وإتمام ما عرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك ، والدعاء بطول بقائك ، وأما هذا الكلام فهو هذر ساقط ، وهدر ما له لا قط ، وجلالة قدرك ، وطهارة صدرك ، وهجمل اعتقادك ، وغالص ودادك وسؤددك ، وشرف قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك ، يحملنى على علمك بأن مكاتبك من قلبى ثابتة المسكان ، قوية الأركان . ولو لا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلاً ، وسلبت علماً وابست جهلاً ، ووجدت حزناً وعدمت سهلاً ، ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المكرومة ! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمحين ؟ وعميت عينك إلى من تطمحين ؟ إن لم يقك الوجل ، فلينهك الخجل . وإن لم يرعك الريث فلا يستفزك العجل . أما تعلين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية . بل رتبة النظر والإشراف ، ونفاذ الكلمة فى الأوساط والأطراف .

واتصل بى أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها فى الأموال والإمضاء ، وإن كان الكسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط أنسك . وأنا أعينك أن تغلط فى وهمك ، أو يعترض الشك على فهمك . لا تقل ذهبت أجمل الخدمتين ، وأكمل النعمتين ؛ فإن من زاد فى الكرام ملك الدار ، وهذه الشقراء والمضمار . وأما الخدمتان : فها أنا أجلوها على مرآة عقلك وهى صافية ، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهى شافية ؛ أما الشريعة فهى ملسوعة عدمت الراقى ، ومريضه روحها فى التراقى ، حدودها متروكة ، وحرماها مهتوكة ، ومعالمها مطموسة ، وأعلامها منكوسة ، وقد نغل أديمها ، ونسى قديمها ، وعنى وردنها ، وبلى بردها ، حتى وقعت الزهادة ، فى لفظ الشهادة ، وثقل الأذان على الآذان ، وكان

القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودري ، وشبع من المعارف وتصلح ، وتشوق إلى الكمال وتطلع ، وبسط يده بالعطايا ، وقبض رجليه عن الخطايا ، وقد صار القضاء في وقتنا لما قضى الله به من مقتنا ، مبدولا لمن بذل فرضا ، معروضا على من لا يصون عرضا ، شعارهم طول السبيل والقامة ، وعرض اللحية والعمامة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينسكرون الفرق بين النشا والنشوة . هذه حال الشرع في الأمصار الواسعة ، والأقطار الشاسعة . فأما أسوان فهي كما قال أبو الفتح البستي :

أكتاب بست كم يحاسدكم على      كتابة بست وهي سخنة عين  
وخفي حنين فوق ما تطلبونه      فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل في أحكام أسوان غريبة لا تعرف ، ونازلة تستطرف ؟ مامن أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصفع المعربدين على المزر والتمر ، حاكمها مستريح من إقامة الناموس ، وإحضار المصحف لليمين الغموس ، لأن يمين التجار ، وإلا يفرق في شبر من الماء ، ويمين الخمال ، وإلا عذبت في صحراء عذاب بالظلم ، والعشار يقول : د وإلا فالكلب على عياله ، والخمار على أخت حاله ، والسفساف يقول : د وإلا لصفع الوالى قفاه ، ورض فاه ، هذه الخدمة يا مولاي قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ، وهي زبدة كلها زبد ، ومورد صفوه زيد ، وعبية محشوة بالعيوب ، وذنوب مملوءة بالذنوب . وأما التصرف في الأموال ، والبسطة في الأعمال ، فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالى إلى أن أخلاك في ركابه ، واختصك بخطابه ، وكنت متكسلا فتشظت ، ومنقبضا فتبسظت ، ونظر إليك وخلق عليك ووعدك من الصيت والتنويه ، فوق ما تأمله وتنويه ، ثم أفرض أنك وحاكم ثورك وقاضى مصرك قدمتا على الوالى فأدلى القاضى بالدنية ، وأدليت أنت بالهدية ، ومت على الوالى بوقاره ، ومت بما قدمت إلى داره . هنا لك والله تعرف أن الجمال بخدمة المال ، وإلى اليمين فضل الشمال ، وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان . ثم لو جمعكما مسجد الجامع ، وبرزتما للناظر والسامع ، لامتلا مجلسك بالعمال والخزان والمؤدين إلى الوزن ، وأطافت بك الأعوان السلطانية ، والنواب الديوانية ، وحفت بك أبواب الرواتب والجوازي ، ولم تجد من قولك من يراجع أو يجازى ، وقلت قدموا هذا

وارفعوه، وأخروا ذلك واصفعوه. وأما القاضي فلم يكن مجلسه يفتنص، ومقصورته  
تختص، إلا باليتامى والأرامل، والمرضعات والحوامل، وقائلة إن زوجها لا يكفها،  
لتخرج من عصمته إلى من يشفيها، ويتم ظله عمه، ونسكت أمه. وأخرج رجله  
مخلوجة، ويده مفلوجة، ومشايخ عظامهم نخره، وكوادمهم بخره؛ ثم القاضي أيده الله  
نائب حكم الصعيد، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد.

وماضر أرباب الدواوين أنهم نصارى وأن لم يؤمنوا بمحمد  
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم دفعنا عن الأكام فضلا عن اليد  
وهذه صورة الحال، من غير انتحال. وكأني بك إذا فهمت أطربت، وشدت  
يدك على ما فيها وربطت، وعلبت مقدار حظك فأغتبطت، وأريد يا مولاي أن  
أصطادك بهذا الجنب، وأربط مرزأقي في هذا الذنب، وأشوى في نارك سمكتي،  
وأجلب إلى شوقك رمكتي. فلأمر ما نصبت هذه الراية، وأجريت إلى هذه الغاية،  
وجازفت وحققت، وعن صبح رققت، عليك يحيط بكثرة ما أتلف، وقلة  
ما أخلف، وغنى نفسى عن سؤال الغام فضلا عن الأنام، وليس للتوسع لاني مبدىر،  
بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يعذر، قد ركب اللجة الخضراء، والقمرة الغبراء،  
وقصد بابي، ونزل جنابي، أفأصون صون قرضى، وأبذل عرضي

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل  
وأما حاشيتي الضافية، وعدت الوافية، فأنت في كثرتها أصدق مخبر، وأفصح  
معبّر، ولما طالت محنة الغز وعرضت، ورجوناها أن تصح فرضت، رجعت إلى  
كثانة ذكرى، وخزانة فكري، فكنت أكرم خاطر في خاطري، وأحسن وجه  
يمثل لناظري، وسيرت إليك بعض خروجاتي للجاري الذي جمدت أنهاره، وخذت  
ناره، ومبلغه يسير في جنب كرمك، حقير إذا قرن بهممك

فكم في الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري  
ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد، إن هذا هو المرى البعيد. فلو كنت  
أعلم أنى عندك بمن ينده سر به، ويكدر بالأعداء شر به، لقصرت ما أطلته، وبخلت  
بما يذلته، ولكنى قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه، إذ أنت مالكة، وغيرى تقبل  
من جودك بعض مجودك، وقد أقسمت عليك وإبرار القسم إليك للنفس الأماره:  
سأحبنى في عماره، وأتركي عنك قصور باعك، وجفاء طباعك، فإن هذا سواد الناظر



بل ضمير الخاطر، وسقف السماء . وعذب الماء ، وكان في باوصول وقد آل إلى الحصول ،  
وبالسؤال في يد الرسول :

ألا إن نفسا بين جنبي تمتد إذا هم بالمعروف قالت تقدم  
ويا طالما قالت له عند فرصة من الجود خذها لا تفنك فتندم

يا مولاي قد أجلت الرسول شهرا ، وأنا أعده دهرا ، وأقف حيث انتهيت  
واسأل الجواب عما أنهيت ، فإن الحاجة سائق حديث ، والوقت غريم خبيث ، ولرايك  
الفضل المعروف بالتفضل ، والطول المشفوع بالتطول . ولو لا أن هذه الرسالة  
صادرة عن قائل لا يتقول ، واردة على قابل لا يتأزل ، لسألت كرمك عن بسط  
العذر عما فيها من التقصير . وحسبنا الله ونعم النصير (١) .

فهذه الرسالة بالرغم من إسرافها في الطول تجمع بين عدة فنون وأغراض  
كانت من أغراض الشعر ، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل  
الأقطار الإسلامية جعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل ،  
ففيها ذكر الفراق والعتاب ، والتهمم الذي هو أقرب إلى الهجاء ، إلى غير  
ذلك من الموضوعات .

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب  
مصر الفاطمية ، فالرسالة تقوم على السجع ، ثم على هذه الألوان المختلفة من البديع  
من تورية واقتباس وتضمين واستشهاد ومراعاة النظير وتشخيص وغير ذلك  
من هذه الألوان التي نفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية . ولم يشذ عن اتباعها  
كاتب واحد من كتابهم . فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي توارخه  
والعصر الذي يليه أسرف في استخدام هذه الألوان البديعية ، فهو لم يأت بشيء  
جديد ، إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة وسار  
على منهجهم وسنتهم ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي والتاريخ  
الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية ، لأن القاضي الفاضل  
قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي . فكان وزير صلاح الدين ومستشاره ،  
والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين ، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل ،

(١) النكت المصرية ج ٢ ص ٤٣١ .

ويثنوا عليه الشناء كله ، حتى بالغ بعض الكتاب فقال : إن القاضى الفاضل ابتدع  
طريقة جديدة فى الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية ، وكم كنت أود ألا  
يتسرع بعض المحدثين فى أحكامهم وكتاباتهم التى ساروا فيها على نمط من سبقهم ،  
فنسبوا إلى القاضى الفاضل هذا المذهب الجديد - فى نظرهم - عن الكتابة  
فى مصر ، فالقاضى الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية .  
وهذه الطريقة التى نسبت إليه ، عرفها كتاب مصر الفاطمية ، بل عرفها  
كتاب مصر منذ عهد الطولونيين .

## خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئا عن الحياة في مصر الفاطمية ، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين ، فقد كانت عقائد الفاطميين سببا قويا في تطور الحياة ، ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي ، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية ، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقرا لحكمهم . واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين أو لأمويي الأندلس ، وأن يسيطروا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان ، فأتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية ، كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، فاتجهت القلوب والأنظار من شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر ، وأصبحت القاهرة كعبتهم التي إليها يحجون ، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكانتها في عصر الولاة الذي سبق العصر الفاطمي .

ورأينا شيئا عن الحياة الاجتماعية ، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء ، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر ، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله ، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها ، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين ، فهناك أعياد ابتدعتها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل ، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي ، ولكنها ازدادت بهجة في العصر الفاطمي ، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها ، فورثها الأحفاد عن الأجداد ، أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين . فكل هذه الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتأنق في كل شيء .

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معا ، لذلك اهتم الفاطميون اهتماما خاصا بألوان العلوم المختلفة ، ولا سيما ما كان منها يمت بصلة قريبة أو بعيدة من عقائدهم مثل علوم الفلسفة ، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية ازدهارا

لم نسمع عنه من قبل ، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم ، فكان نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة ، ولما دالت ديرة الفواطم ضعفت هذه الدراسات وقل أن نجد لها أثرا في مصر ، وإن زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية ، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية ، حقيقة اهتم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة ، وأسسوا دار العلم ، وجمعوا فيها الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة ، ولكن هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي وتطورا وتطورها الطبيعي ، حتى إنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين ، كما توقفت الدراسات الفلسفية ، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل علمي ، فشجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى ، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهارا عظيما .

وكذلك نقول عن الحياة الأدبية فقد كان الشعراء المقرَّبون إلى الأئمة وهم شعراء القصر أو شعراء الحضرة يجهدون أنفسهم في أن يلهموا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم ، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلعت عليها نظرية المثل والمثول ، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية ، حتى ندرك ما أراد الشاعر من مدحه ، وإلا لكان فهمنا لهذا الشعر قاصرا غير صحيح ، فالعقائد أثرت تأثيرا قويا في الحياة الأدبية تأثيرا في جميع نواحي الحياة .

وهنا نقف لتساءل : هل بحيث الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين ؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين ، ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع ، إلى أن هددهم المعز بسيفه وأغرام بذهبه ، فاعتنقوا عندئذ التشيع ، وبالرغم مما في هذا القول من مبالغة ، فإنا لانكر أن من المصريين من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبة أو رهبة ، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السني ، وذكرنا أن من أسباب انقراض الدولة الفاطمية تهاون القائم بالامر

فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة ، فانهارت الدعوة بسبب ذلك ، وسهل على صلاح الدين أن يديل الدولة ، وبالرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت قدمن بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك ، ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد الأدفوي ، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوي ترينا عددا من أمثال المصريين كانوا يتشيعون ، من ذلك ما ذكره الأدفوي عن إبراهيم ابن محمد بن علي بن مطهر بن نوفل الأدفوي : « ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز ، فاستحق به التمييز ، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازما للصلاة والتلاوة والعبادة ، وهو كل يوم من الخير في زيادة ، مع صدق لهجة وصيانة ، إلا أنه كان من أتباع الشيعة ، أحباب تلك البدع الشيعية ، شاهده لما حضر داود الذي يدعى أنه ابن سليمان بن العاصد إلى أدفو في سنة سبع وتسعين وستائة ، وهو بين يديه ، وقد أخذ العهد عليه ، وهو ينشده قصيدة نظمها منها :

ظهر النور عند رفع الحجاب      فاستنار الوجود من كل باب  
وأنا البشير يخبر عنهم      ناطقا عنهم بفصل الخطاب (١)  
ويروي الأدفوي أيضا قصة قطنية الأسفوني الشاعر عند ما شكاه بعض أهله إلى الوالي بقوص ، جاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الآمري وكان شيعيا ، فلما رآه قطنية قال : يا آل أبي بكر ! فاغناظ الناظر ، فأنشد قطنية :

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر      بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر  
لهم منهم داع ككيس معمم      وحسبك من تيس تولى على بقر  
ومن نحسهم لا أكثر الله منهمو      يسبوا أبا بكر ولم يشتهوا عمر  
نخذ ما لهم لا تختشى من ما لهم      فإن مال الكافرين إلى سقر (٢)

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه من قبل - في سنة ٦٩٧ هـ ادعى هذا ادعى لمن استجاب له أنه يتحمل عنهم الصلاة ، فقبل كلامه ، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض أهل بلدته من قصيدة أنشدها :

(١) الطالع السعيد ص ٣١

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨

ارجع ستلتي بعدها الأهوالا      لاعشت تبلسخ عندنا آمالا  
يامن تجمع فيه كل نقيصة      فالأضربن بسيرك الأمشالا  
وزعمت أنك للتكلف حامل      وكذا الحمار يحمل الأثقالا (١)

ويقول الأدفوي أيضا عن الشيخ بهاء الدين الففطى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ  
وفتح إسنا فإنه كان بها التشيع فاشيا ، فما زال يجتهد في إخماده . وإقامة الدلائل  
على بطلانه ، وصنف في ذلك كتابا سماه « النصائح المفترضة في فسخ الرفضة »  
وهموا بقتله فخاه الله منهم (٢) ، ويذكر عن عبدالقادر بن مذهب الأدفوي المتوفى  
سنة ٧٢٥ هـ أنه كان لإسماعيلي المذهب مشغلا بكتاب دعائم الإسلام (٣) . معنى ذلك  
أن التشيع لم يقلع من مصر بزوال دولة الفاطميين ووجود حكومات سنية  
متعصبة لمذهبها ، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المصريين الآن لا يزالون  
متأثرين بهض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ أمد عام تقريبا ، فأهل السنة  
من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا : يا عمر !!! ، وهذا بقية من بقايا سب  
السلف الصالح في العصر الفاطمي ، وأهل مصر إلى الآن إذا زاروا ضريح  
« السيدة زينب » وضعوا نماذج لسفن على الضريح ، وهذا أثر آخر من تأثير  
العقائد الفاطمية الآن في المصريين ، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبي صلى  
الله عليه وسلم : « أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تركها غرق »  
ولا يزال المصريون إلى اليوم يلتمسون البركة والشفاعة من أهل البيت ، ويطوفون  
بأضرحتهم لفضاء الحاجات !! على نحو ما كان يفعل في أيام الفاطميين ، والمصريون  
إلى اليوم يذكرون مليا والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون أبا بكر  
وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار . ومن ناحية أخرى نرى المصريين  
اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون ، وإن كنا نخالفهم في  
أننا الآن نأخذ برؤية البصر ، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار ، ولا يزال  
إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين مثل أيام عاشوراء التي اتخذناها فرحا ، وكانت  
في أيام الفاطميين أيام حزن ، ونحتفل بدليلة نصف شعبان وليلة السابع والعشرين  
من رجب ، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمي ، ونرى

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧

(١) المصدر نفسه ص ١٩٧

(٣) المصدر نفسه ١٧٥

الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع التشيع الذي كان في العصر الفاطمي .  
وإذن فمصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع  
الذي نشره الفاطميون .

وبعد ، فهذا الكتاب الذي تقدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية  
والعلمية في مصر الفاطمية ، ولأدعى أنها صورة كاملة صحيحة ، لأن آثار الفاطميين  
الأدبية والعلمية فقدت ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وهو الذي اعتمدت عليه  
في هذا البحث ، ولعلّي وفقت ؟

## معجم الاسماء الواردة في الكتاب

دا

|                          |                                 |                                 |                              |
|--------------------------|---------------------------------|---------------------------------|------------------------------|
| ابن الأنباري             | ٣٠٥                             | ادم                             | ١٥٢، ١٥١، ٧٣، ٤٠، ١٨، ٦      |
| ابن بابشاذ النحوي        | ٩٢، ٩١                          | آصف فيظي                        | ٣١٠، ١٣٦، ٥٠، ٤٣، ٤٢         |
| ابن باقى الجزار          | ٢٦٤                             | الامر بأحكام الله               | ١٢٨، ١١٣، ٣٢                 |
| ابن البرقي               | ١٧٩                             |                                 | ٢١١، ١٧٩، ١٥٣، ١٣٨، ١٣٦، ١٣٤ |
| ابن بركات الفراء الموصلي | ٩٧                              |                                 | ٣٣٤، ٣٣٣، ٣١٣، ٣١٢، ٣١٠، ٢٨٢ |
| ابن بسام                 | ٣٢٨                             | أبان بن عبد الحميد اللاحق       | ١٢٨                          |
| ابن بشرون                | ١٣٩                             | إبراهيم (النبي)                 | ١٨، ٦                        |
| ابن بطلان (الطبيب)       | ٨٦، ٨٥                          | إبراهيم بن اسماعيل الدمياطي     | ٢٧٤                          |
| ابن جبر الشاعر           | ٢٣٠، ١٦٧                        | إبراهيم بن الرقيق               | ٢٤٠                          |
| ابن جرير الطبري          | ١٠٨                             | إبراهيم بن عبد الله النجيري     | ٣٠٢                          |
| ابن جنى                  | ٧٠                              | إبراهيم بن محمد بن احمد الهاشمي | ٩٣                           |
| ابن حجر العسقلاني        | ١١٠، ٥١، ٤٤                     | إبراهيم بن محمد بن علي بن مطهر  | ٣٥٧                          |
| ابن حديد القاضي          | ٢٦٨                             | إبراهيم بن ينال                 | ٦٣                           |
| ابن حريز الشاعر          | ١٧٩، ١٦٧، ١٢٩                   | إبراهيم الرسي                   | ٢٠٨                          |
| ابن الحلبي المنجم        | ٧٦                              | ابليس                           | ٤٠                           |
| ابن حنبل                 | ٧٠، ٥                           | ابن أبي أصيبعة                  | ٨٥، ٨٠، ٦٦                   |
| ابن حنزابه               | ٥٤                              | ابن أنى حصينة الشاعر            | ١٦٠                          |
| ابن حوقل                 | ٦٩                              | ابن أنى الدم                    | ٣١٣                          |
| ابن حيدر العقبلي         | ٢٤٧، ٢٠٨، ١٣٨                   | ابن أبي الزلازل                 | ٢٤٥، ٥٦                      |
|                          | ٢٧٧، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٥    | ابن أبي طي                      | ٢٧                           |
|                          | ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨١، ٢٧٨              | ابن أبي العيش المهندس           | ٧٦                           |
| ابن حيوس                 | ٦٣                              | ابن أنى كدينة                   | ١٣٤، ٢٨                      |
| ابن خلف الوراق           | ٧٧                              | ابن الاخرم الفرغاني             | ٨٧                           |
| ابن خلكان                | ٧٦، ٥٦، ٥١، ٤٦، ٤٤، ٤٣          | ابن الأثير                      | ٥٨                           |
|                          | ٢٥٢، ٢٣٥، ١٩٤، ١٩٠، ١١٠، ٩١، ٩٠ | ابن اسحق                        | ١١٤                          |
|                          | ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٢٨، ٣٢٤، ٢٦٠    | ابن الإمام                      | ٩٦                           |



- ابن خليف القاضي ٢٢٤  
ابن خيران ٣١٣، ٣١٢، ٣٠٤، ١٦٦  
٣٢٥، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣١٤  
ابن الداية ٣٠٢، ١١٣، ١٠٩، ١٠٨  
ابن دحية ٢٥٨  
ابن دريد ٢٦٦، ٢٦٠، ١٩٢  
ابن دزما ٣٣٠  
ابن دقاق ١١٠  
ابن دياب المنجم ٧٦  
ابن الراوندي ٢٨  
ابن رضوان الطيب ٨٦، ٨٤، ٨٢  
ابن زبارج النديم ٥٨  
ابن زولاق ١٠٨، ٥٥، ٥١، ٤٥، ٤٤  
٣١٣، ٢٣٩، ١١٣، ١١٠  
ابن سريج ٤٦  
ابن سعيد المغربي ٢٨٣، ٢٤٧، ١٣٩  
ابن سعيد بن يونس ١٠٨، ٩٧  
ابن السنيدي ٧٧  
ابن سينا ٦٩  
ابن شاكر السكتي ٢٦٠، ٢٥٩  
ابن الشيخبا ٣٢٩، ٣٢٨، ١٣٨  
٣٣٢، ٣٣١  
ابن شمزل المقرئ ٢٦٧  
ابن الصياد ٢١٧، ٢٠٤، ١٢٩  
٢٤٢، ٣٢٩، ٢٦٧، ٢٣٤  
ابن الضيف الداعي الشاعر ١٣٨  
٢٩٤، ٢٧٦  
ابن الطحان ٩٧  
ابن الطوير ٢٣٠، ١٢٣  
ابن عباد ٢٨٧  
ابن عبد الحقيق ٣٢  
ابن عبد القوي الداعي ١٠٥  
ابن عبد كان الكاتب ٣١٥، ٣٠٢  
٣٢٠، ٣١٩  
ابن العربي ٩٩  
ابن العريف الحسن بن الوليد ٩٤  
ابن الفارض ٢٨٥، ٢٨٣  
ابن فضل الله العمري ١١٠، ١٠٨  
ابن قادوس ١٩٥، ١٨٨، ١٣٩  
٣١٣، ٢٦٧، ٢١٩، ٢١٧، ٢١٣  
٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٢٣٩، ٣٣٨  
٣٤٥، ٣٤٤  
ابن القارح ٣٣٣، ١٦٦  
ابن قتاده المعدل ٢٧١، ٢٦٥، ٢٦٤  
ابن قتيبه ٣٣٧  
ابن قديد ١٠٩، ٩٦  
ابن القطاع الصقلي ٩٢  
ابن قلاقس ٢١٨، ٢١٦، ٢١٤  
٢٩٣، ٢٩١، ٢٢٦، ٢٢٢  
ابن القيسراني ٩٩  
ابن كازوك (والي الغريبة) ٢٦٨  
ابن كلس (ن: يعقوب بن كلس)  
ابن الكيزاني ٢٨٣، ٢٨٢، ١٣٩  
٢٨٥، ٢٨٤  
ابن المدبر ٣٠٥  
ابن مسرور البلخي ٩٨، ٩٧  
ابن المسلبه (رئيس الرؤساء) ٦٠  
ابن مصال ٢٢٤  
ابن معبد الاسكندردي ٢٧٨، ٢٧١  
ابن المعتز العباسي ٢٩٧، ٢٥٩، ١٧٠  
ابن معروف ٣٤١  
ابن المغربي ٣٣٣، ٣٣٢، ٣١٣، ٦٣  
ابن مكنسه ٢٦٢، ١٨٩، ١٨٨  
٢٦٣

ابو بكر بن سيف ٩٦  
ابو بكر الطرطوشي ١٠٢  
ابو بكر بن عبد الله بن مالك ٩٦  
ابو بكر النعال ١٠١  
ابو البركات بن أبي الليث ٣٠٣  
ابو تمام الشاعر ٧٧، ١٨٦، ١٩٦  
ابو جعفر احمد بن نصر ٣١٧  
ابو جعفر الجزري ٢٢  
ابو جعفر بن حسنداى ٧٦، ٨٧  
ابو جعفر مسلم ٣١٧  
ابو جعفر المنصور العباسي ٧٧  
ابو جعفر النحاس ٩٥، ٩٦، ٣٣٧  
ابو حاتم الرازي ٢٨  
ابو حامد احمد بن محمد الأنطاكي  
(ن: ابو الرقعمق)  
ابو الحسن بن الترمذي ٢٣  
ابو الحسن طاهر احمد (ن: ابن بابشاذ)  
ابو الحسن علي بن ابراهيم الحوفي ٩٥  
ابو الحسن علي بن أبي أسامة ٧٦  
٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٤  
ابو الحسن علي بن احمد بن نوبخت ٣٢٤  
ابو الحسن علي بن الأنباري ٣٢٧  
ابو الحسن علي بن الحسين الخلي ١٠٠  
ابو الحسن علي بن الحسن بن معبد  
(ن: ابن معبد)  
ابو الحسن علي بن رضوان (ن: ابن  
رضوان الطيب)  
ابو الحسن علي بن السلار ١٠٥  
ابو الحسن علي بن سليمان أيوب ٧٦  
ابو الحسن علي بن عبد الواحد (ن: صريع  
الدلاء)

ابن ملسافه ٨٧  
ابن مناذر ٣٣١  
ابن منجب الصيرفي ٣١١، ٣١٢  
٣١٣، ٣٢٣، ٣٣٤، ٣٣٥  
٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨  
ابن ميسر القاضي ١٨٩  
ابن ميسر المؤرخ ٢٩، ٧٢، ١٠٢  
١٣٦، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٣  
ابن النضر الأديب ٩٥، ١٧٩  
١٨٠، ٢٨١  
ابن نفيس ٩٦  
ابن هاني الاندلسي ١١، ١٤١  
١٤٢، ٢٩٧، ٣٤٧  
ابن هشام ١١٤  
ابن الهيثم ٦٨، ٦٩، ٧٨، ٧٩  
٨٠، ٨١، ٨٢  
ابن الهيثمي المنجم ٧٦  
ابن وكيع التنيسي ٢٥٢، ٢٥٤  
٢٥٥، ٢٥٩، ٢٨٥، ٢٨٨  
٢٨٩، ٢٩٠  
أبو اسحق ابراهيم القارح الصوفي ٢٨٢  
أبو اسحق ابراهيم بن شبيب ٢٧٦  
أبو اسحق علي بن سليمان المعري ٢١، ٩٠  
ابو اسماعيل الرسي ٢٥١، ٣١٧  
ابو الأسود الدؤلي ٨٩  
ابو بكر (الصديق) ١٠٦، ٣٣٠  
٣٥٧، ٣٥٨  
ابو بكر احمد بن علي ١١٣  
ابو بكر الادفوي ٩٥، ٩٦  
ابو بكر الانطاكي ٣١  
ابو بكر بن البرصقلي ٩٢  
ابو بكر الباقلاني ٥٣

- أبو طاهر الجنابي القرمطي ٣٢٠  
أبو طاهر الذهلي ٤٤ ، ٤٩  
أبو طاهر الهركي ٣١٢ ، ٣٢٦  
أبو العباس أحمد بن مفرج ١٦٧ ، ١٦٨  
أبو عبد الله بن الجوهري ٢٨٢  
أبو عبد الله الحسين بن الرمي ٢٥١ ، ٢٥٢  
أبو عبد الله الحميدي ١١٣  
أبو عبد الله الشامي ٨٧  
أبو عبد الله الشيعي ٢٢  
أبو عبد الله الصوري ٩٣  
أبو عبد الله بن القلانسي ٧٥  
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ( ن :  
ابن الكيزاني )  
أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي ( ن :  
القزاز النحوي )  
أبو عبد الله محمد بن الحسين الآمدي  
١٩٠  
أبو عبد الله محمد بن سلامه ( ن : القضاعي  
أبو العلاء صاعد بن مفرج ٣٢٣  
أبو العلاء المعري ٢٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٨  
٩٤ ، ٦٩ ، ٢٦١ ، ٢٢٣ ، ٣٣٦  
أبو علي الداعي ٢٢  
أبو علي أحمد بن الأفضل ١٠٥ ، ١٨٩  
٣٣٥  
أبو علي أحمد بن صدقه ٢٤٧  
أبو علي حسن بن اسماعيل ( ن : المسكوبل )  
أبو علي الحسن بن رشيق ٩٠  
أبو علي حسن بن يزيد الأنصاري  
١٧٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٣٣٩ ، ٢٤٢  
٣٤٣ ، ٣٤٤  
أبو علي محمد بن الحسن ( ن : ابن الهيثم )  
أبو الحسن علي بن قيصر ١٩٧  
أبو الحسن علي بن محمد ( ن : الأخفش  
الشاعر )  
أبو الحسن عمار بن محمد ٣٢٢  
أبو الحسن المختار بن الحسن ( ن : ابن  
بطلان الطبيب )  
أبو الحسن بن مطير الشاعر ١٣٨  
أبو الحسن بن النضر ( ن : ابن النضر  
الأديب )  
أبو الحسن الهراس ٩٨  
أبو الحسين الصوفي ٧٧  
أبو الحسين محمد بن علي الداعي ٢٢  
أبو حنيفة النعمان ٣ ، ٤٦ ، ٧٠ ،  
١٠٢  
أبو حصينه المعري ١٥٥  
أبو خالد النيري ٣٣٠  
أبو الخير سلامه بن رحمون ٢٦٧ ،  
٢٦٨  
أبو الرقعمق ٥٧ ، ٥٨ ، ١٦٢ ،  
١٦٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٤١ ،  
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،  
٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣  
أبو سعد التستري ٦١ ، ١٧٦  
أبو سعيد الجنابي القرمطي ٣٢٠  
أبو سعيد العميدي ٩٩ ، ٣١٢ ،  
٣٢٥ ، ٣٢٦  
أبو سعيد بن قرفة الطبيب ٧٦  
أبو سلامه الداعي ٢٣  
أبو سليمان داود بن مقدم ٢١٧ ، ٢٦٨  
أبو شرف الدجرجاري ١٨١  
أبو طاهر اسماعيل بن محمد ( ن : ابن  
مكئسه )

أبو محمد أحمد بن علي بن خيران ( ن :  
ابن خيران )

أبو محمد حسن بن آدم ٣٢

أبو محمد الكوفي الداعي ٢٣

أبو محمد عبد الكريم الصقلي ٧٦

أبو محمد عبد الله بن برى ٩١

أبو محمد عبد الله بن خليل ٢٩٤

أبو محمد عبد الله بن أبي سعد ( ن :

الكاسات )

أبو محمد القاسم الرمي ١٧٦

أبو محمد يحيى بن حسن ( ن : ابن جبر

الشاعر )

أبو المكارم بن أبي أسامة ٢١٣

أبو منصور بن الشيرازي ٣٢٤

أبو المنصور عبد الله بن السديد ٦٦

أبو المنصور بن نسطورس ٣١٢

أبو مليح النصراني ١٨٨ ، ٢٦٢

أبو النجا بن سند الساعاتي ٧٦

أبو النصر المنجم ٧٦

أبو نصر عبد الله الحسين القيرواني ٥٨

أبو نواس ٢٤٥ ، ٢٦١

أبو الهيجاء ١٩٥

أبو يعقوب ( قاضي الخندق ) ٣٤

أبو يعقوب الأزرق ٩٦

أبو يعقوب السجستاني ٢٨

أبو يوسف القزويني ٢٥

أحمد بن إمام ٣٠٢

أحمد بن الحسن الشيرازي ١٠٠

أحمد بن الحسن السكلي ١٧٠

أحمد حميد الدين الكرمانى ١٦ ، ١٩

٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٦٩

٨٨ ، ٨٧

أبو علي المعري الأنطاكي ٩٨

أبو علي المهندس المصري ٨٣

أبو عمر محمد بن يوسف الكسندى ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٢

أبو غانم المظفر بن أحمد ٩٦

أبو غفير الداعي ٢٣

أبو الغمر الاسناني ٢٦٥ ، ٢٧٥ ،

٢٧٦

أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن حميد

الدمياطي ( ن : ابن قادوس )

أبو الفتح يانس الأرميني ٣٤٢

أبو الفتح منصور بن مقشر ( ن :

منصور بن مقشر )

أبو الفخر داعي الدعاة ٣٤٢

أبو الفرج الذهلي ٣٢٦

أبو الفرج بن الطيب ٨٦

أبو الفرج الموفقي ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

٣٣١

أبو الفضل جعفر المكفوف ٣١

أبو القاسم الجوهري الغافقي ١٠٢

أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب

( ن : ابن منجب الصيرفي )

أبو القاسم الكيناني ٩٨

أبو القاسم بن هاني ٣٤٧

أبو كاليبجار البويهى ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،

١١٦ ، ٣٢٤

أبو كثير بن الزقان ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

٨٧

أبو كثير بن الحسن بن إسحاق ٨٦

أبو المحاسن بن تغرى بردى ٤٣ ،

١٠٨ ، ١١٠

افرايم بن الزقان (ن: أبو كثير بن الزقان)

الأفضل بن بدر الجمالي ٣١، ٣٢، ٧٦، ٨٧

٩٢، ١١٣، ١٢٨، ١٣٧، ١٧٧

١٧٨، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٥

١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠

٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٢، ٢٢٣، ٢٣٨

افلاطون ٦٤

افلوطين ٢٩٩

اقليدس ٨٠، ٨١، ٨٣

امرئ القيس ٢٠٨

أمية بن أبي الصلت ٨٢، ٨٤، ٨٧

١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣

١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠

٢٢٩، ٢٤٠، ٢٦٣، ٢٩٢، ٢٣٨

أوليري ٦٨

ايفانوف ١٩، ٤٦، ٥٧

« ب »

البابلي ٣٠٥

الباخرزي ١٣٩

البحترى ١٩٦

البخارى ١٠

بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسين

٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٦

بدر الجمالي ١٧٧، ١٧٨

البيديهي ٥٦

البراء بن عازب ٥

برجوان ٢٣٨

البساسيري ٦٢، ٦٣، ٦٥، ١١٦

٣٢٦، ٣٢٧

بشار بن برد ١٩٦

بظليموس ٨، ٧٧، ١١٧

احمد بن سهل البلخي ٣٣٧

احمد بن طولون ٣٠٢

احمد ابن عبد الله (الإمام المستور) ٣

احمد بن عبد الله بن أبي العصام ٢٤٥

احمد بن عبد الله الفرغاني ١٠٨

احمد بن الكيال ١٥

احمد بن محمد بن الفضل الالهوازي

٣٣٧

احمد بن محمد القشوري ٣١٣

احمد بن محمد المادرائي ٢٧٤

احمد بن محمد بن مودود (ن: ابن

عبد كان)

احمد بن محمد النحاس: ن أبو جعفر النحاس

احمد بن محمد يوسف الاصفهاني ٣٣٧

احمد بن مطرف ٩٣

احمد بن الموصل الداعي ٢٣

احمد بن يحيى البلاذري ٢٠٣

الاخفش ١١٩، ١٥٣، ٢١٣، ٢٧٥

اخوان الصفا ٦٩، ٧٢

ادريس الداعي ٤٥

ارسطاليس ٦٤

اسامه بن منقذ ٢٣٢، ٢٣٤

اسحق بن ابراهيم بن نسطاس ٦٨

اسحق بن نصير العبادي ٣٠٢

أسد الدين شيركوه ١٩٩، ٢٠٢

٢٢٣، ٢٣٦

الاسكندراني الشاعر ١٤٢

اسماعيل بن ابراهيم ٦

اسماعيل بن جعفر الصادق ٣

اسماعيل بن خلف الصقلي ٩٦

الأصمعي ١٩٦، ٣٣٠

الأعمش ٥٥

« ث »

الثعالبي ٢٨٨، ٢٥٢، ٢٥١، ١٣٩، ٤٩  
الثغوري ٢٨  
ثلط الفيل أبو الحسين النحوي ٩١  
ثمال بن صالح ٣٢٦  
ثيودورا ١١٢

« ج »

الجاحظ ٣٣١، ٣٣٠، ٢١٤، ١١٩  
جاسوس الفلك الشاعر ١٧٦  
جالينوس ٨٥، ٨٤، ٨٢  
جبرائيل بن تختيشوع ٦٨  
الجرجران ٣٠٥، ١٧٦، ١١٢، ٧٧  
جرجن بن يوحنا ٨٥  
جعفر (الصادق) ٤٠، ٣٥، ٣  
جعفر بن السراج ٩٩  
جعفر بن القرات (ن : ابن حنزابه)  
جعفر بن منصور ابن ٣٢٢، ٧٣، ٣١٩  
الجليس بن الحباب ١٩٥، ١٩٤، ١٣٩  
٢١٦، ٢١٥، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠  
٢٦٧، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢١٩، ٢١٧  
٣٤٥، ٣٤٢، ٣٣٩  
جمال الدين عبد الرحمن الاسكندري ٩٩  
جناده الهروي ٩٨، ٩٠، ٣١  
جوثيل ٤٣، ٤٢  
جوذر الصقلي ١١٥، ١١٤، ٢٩  
٣٠٩، ١٧٠، ١١٦  
جوهر الصقلي ٣١٦، ١٠٠، ٥١، ٢٣  
٣٥٥، ٣١٧  
جواد الخثعمي ٢٣

بنو أمية ٢٢٠

بنو حرب ٢٢٠

بنو رزيك ١٩٤

بنو عبد الحكم ٤٢

بنو عرام ١٣٩

بنو عبيد ٣٠٥، ٣٠٤، ٢٠٣

بنو السكندر ١٣٩

بنو مروان ٢٢٠

بنو المغربي ٣٠٥

بنو النعمان ٤٢

البهاء زهير ٢٧٢

بهاء الدين القفطي ٣٥٨

البهرة ١٣٥، ٦٤، ٤٦، ٤٢، ١٩

١٦٢، ١٦١، ١٣٦

بهاد النجيري ٩١

البوصيري ١١٣

البويهيون ٦٩

البيهقي ٨٠، ٨٩

« ت »

تاج الدين الكندي ٢٢٢

تاج المعالي (غلام الأفضل) ١٧٧

التاريخ ٢٦٢

تميم بن المعز ١٤٦، ١٣٢، ٧٤

١٦٨، ١٦٤، ١٦٣، ١٤٨، ١٤٧

١٧٣، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩

٢٤٩، ٢٤٧، ٢٢٧، ٢٠٨، ١٧٤

٢٨٧، ٢٨٠، ٢٥٤، ٢٥١، ٢٥٠

٢٩٧، ٢٩١، ٢٩٠

التميمي المقدس ٥٦

«ح»

حاتم بن ابراهيم ٦٤  
 الحافظ أبو الحسن علي بن فاضل  
 الصوري ٩٩  
 الحافظ السلفي ٩٥، ٩٦، ٩٨، ٩٩  
 ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١٩٠  
 ٢٢٢ ، ٢٢٤  
 الحافظ شرف الدين السكندري ٩٩  
 الحافظ لدين الله الفاطمي ٢٤ ، ٧٢  
 ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٤ ، ١٦٨ ، ١٨٩  
 ٢١١ ، ٢٢١ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣  
 ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤  
 الحاكم بأمر الله ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠  
 ٣١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦٨  
 ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٥  
 ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ،  
 ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤  
 ١٣٦ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ٢٤٠  
 ٢٥٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،  
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣  
 حسان عرقلة الشاعر ٢٠٢  
 الحسن بن ابراهيم الليثي (ن: ابن زولاق)  
 الحسن بن أحمد القرمطي ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨  
 الحسن بن بشر الدمشقي ٥٨ ، ١٧٠  
 حسن بن الحافظ الفاطمي ١٨٨ ، ٣٤٢  
 الحسن بن خاقان ١٧٦  
 الحسن بن رافع ٣٠٢  
 الحسن بن رشيق ٩٧  
 الحسن بن علي بن أبي طالب ٣ ، ٤  
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ، ٣٥٨  
 الحسن بن محمد الشمواجي ٢٤٥

الحسين بن أبي الهيثم ١٠٦  
 الحسين بن أحمد (الإمام المستور) ٢٢ ، ٢٣  
 حسين بن أحمد المؤذن ٢٠  
 الحسين بن جرهر ٥٣ ، ٣١٣  
 الحسين بن الحجاج ٢٤٢ ، ٢٦٣  
 الحسين بن حوشب (ن: منصور اليمن)  
 حسين بن طاهر الوزان ٣١٣  
 الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد [ ن :  
 ابن أبي الزلازل ]  
 الحسين بن عبد الله المعري [ ن :  
 أبو حصينة المعري ]  
 الحسين بن علي بن أبي طالب ٣ ، ٤ ، ١٢٣  
 ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ، ٣١٦ ، ٣٥٨  
 الحسين بن علي بن النعمان ٥٢ ، ٣٢٢  
 الحسين بن مهاجر ٣٠٢  
 حنين بن إسحق ٨٦

«خ»

خالد بن الوليد ٣٣٠  
 الخطيب التبريزي ٩١ ، ٩٨ ، ١١٣  
 الخطير بن الموفق في الدين ٢٨  
 الخليل بن أحمد ٢٧ ، ٧٠

«د»

الدارقطني ٩٧ ، ٨٨  
 داود بن شعبان الفاطمي ٣٥٧  
 الدرزي ٢٥ ، ٨٧  
 دعبل الخزاعي ١٨٦  
 دي بور ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢

«ذ»

الذكي النحوي محمد بن أبي الفرج ٩٣  
 ذهل بن شيبان ٢٤٢

سليمان بن الفياض الاسكندري ٨٧

١٨١

سناء الملك أبو محمد الحسني الزبيدي

٣٣٣ ، ٣١٣

سند بن عفان الأزدي ١٠٢

سهل بن محمد بن الحسن الصوفي ٢٨٢

سهلون المنجم ٨٦

سيبويه ٧٠

السيوطي ٣١ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٨

١١٠

« ش »

الشافعي ٣ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ١٠١

١٠٢ ، ٢٨٣

شاور السعدي ١٠٥ ، ١٣٨ ، ١٧٨

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦

٣٤٥

الشريف الكبير العجمي ٣٢٣

الشريف المرتضى ٣٢٤

الشريفة بنت الحافظ ١٢٩

الشمس الآمري ٣٥٧

شمس الملوك مظفر ٣٢٤

شمعون الصفا ٦

الشهرستاني ١٥

شيث بن آدم ٧٣

« ص »

صالح بن رشدين ٢٤٥ ، ٢٤٦

٢٤٧ ، ٢٥٤

صالح بن علي بن مؤنس (ن: الروزباري)

صريع الدلاء ٢٦٠

ذو الرقاعتين (ن: صريع الدلاء)

ذو النون المصري ٢٩٩

« ر »

رابعة العدوية ٢٨٤

رزق الله المنجم ٨٢

رزيك بن الملك الصالح ١٢٧ ، ١٩٨

١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

الرشيد بن الزبير ١٣٨ ، ١٩٥

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٦

٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧

رضوان الوزير ٢٧٥

الروزباري ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٣

رينولد ٢٣٤

« ز »

زرعه بن عيسى بن نسطورس ٣١٣

زياد بن أبيه ٢٢٠

زيد بن وهب ٥٥

« س »

سالم بن مفرج ١٧٩

سام بن نوح ٦

سانت اوغسطين ١٠

السخاوي ٣٥٧

السعيد بن ظفر ١٩٠

سلامه بن رحون ٨٢ ، ٨٤

سلطان بن ابراهيم بن مسلم ١٠١

سليمان بن جعفر ٢٤٥ ، ٢٤٦

سليمان بن العاضد ٣٥٧



٢٨٨ ، ٢٧٧ ، ٢٠٨ ، ١٩٣  
٢٩١ ، ٢٨٩  
الظافر الفاطمي ١٥٣ ، ١٠٥ ، ٩٩  
٢٤٢ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ١٩٣  
الظاهر الفاطمي ٨٢ ، ٥٧ ، ٤٨  
١٧٦ ، ١٦١ ، ١٤٢ ، ١٠٤  
٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٤٠ ، ٢٣٨  
٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٣١٣ ، ٣١٢

« ع »

العادل بن الحسن بن السلال ٩٩  
العاقد الفاطمي ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٣  
٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢١١ ، ١٦٠  
٢٤٣ ، ٣١٣

العباس بن أحمد بن طولون ٣٢٠  
عبد الجبار أحمد الطرسوسي ٩٦  
عبد الجبار بن محمد المقافري ٩٤  
عبد الجليل بن مخلوف الصقلي ١٠٢  
عبد الحميد السكاتب ٣٣٧  
عبد الرحمن بن إسماعيل العروضي ٩١  
عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم  
١١٢ ، ١٠٨

عبد الرحيم البيساني (ن: القاضي الفاضل)  
عبد السلام بن محمد بن بندار ٢٥  
عبد العزيز بن علي بن محمد (ن:  
ابن الإمام)  
عبد العزيز بن محمد بن النعمان ٢٤  
٥٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٣١

عبد الغني بن سعيد ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٠ ، ٣١  
عبد الله بن أبي الجوع ١٧٤ ، ٥٧  
٢٤٥ ، ٢٤٤  
عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي ٩٤

صلاح الدين الأيوبي ٢٧ ، ٢٤  
٢٠٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٩  
٣١٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢١٤  
٣٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣١٤  
الصليبيون ١٨٣  
الصليحيون ٥٩  
صناعة الدوح الشاعر ١٦٦  
صنجل ٢٣٠  
الصولي ٣٣٧

« ض »

ضرغام ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٧٨ ، ١٣٨  
« ط »

طاهر بن غلبون ٩٦  
طيبطب المحرر ٣٠٢  
طغرل بك السلجوقي ١١٢ ، ٦٣ ، ٦٢  
طلائع الأمري ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢  
طلائع بن رزيك ١٠٦ ، ١٠٣ ، ٦٩  
١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٣٧ ، ١٠٤  
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٨  
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦  
١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣  
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣  
٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠  
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩  
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٣٤٥  
طلي بن شاور ١٣٨

« ظ »

ظافر الحداد ١٣٢ ، ١٣١ ، ٨٧  
١٨٣ ، ١٨١ ، ١٧٩ ، ١٣٨  
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢

عقيل بن المعز لدين الله ١٧٠  
علاء الدين علي بن احمد الأسفوني ٣٥٧  
علقمة بن عبد الرزاق العليمي ١٧٨  
علم الدولة مقرب بن ماضي ٢٧٦، ١٩٠  
علي بن أبي طالب ٣، ٤، ٥، ٦، ٧  
١٠، ٨، ١٤، ١٦، ٣٣، ٣٤  
٣٧، ٤٠، ٧٣، ١٢٣، ١٢٤  
١٢٣، ١٤٢، ١٤٧، ١٥١، ١٥٢  
١٥٧، ١٦١، ٢٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨  
٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٥٨  
علي بن احمد الجرجاني (ن: الجرجاني)  
علي بن احمد المادرائي ٣٠٢  
علي بن احمد المهلبي ٩٠  
علي بن حاتم الحمداني ٢١١  
علي بن الحسن الفهري ١٠٢  
علي بن رضوان (ن: ابن رضوان الطيب)  
علي بن عباد الاسكندري ١٨٩  
علي بن الفضل الداعي ١٥  
علي بن محمد الصليحي ١٣٥، ٣١٠  
علي بن محمد النيلي ٢٩٣  
علي بن المؤمل الشاعر ١٣٨، ٢٧٨  
علي بن منصور (ن: ابن القارح)  
علي بن النعمان ٤٩، ٥٠، ٥٣  
علي بن يوسف الإيادي ٢٩٢  
علي أبو الحسن بن يونس ٧٦  
علي زين العابدين ٣  
العماد الأصفهاني ١٢٨، ١٣٨، ١٣٩  
١٤١، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤  
١٩٧، ٢٠٤، ٢١٠، ٢٣١، ٢٦٥  
٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣  
٢٢٨، ٢٣٨، ٣٤٣، ٣٤٤  
عماد الدولة أبو الفضل بن المحرق ٢٨

عبد الله بن الحسن السمرقندي ٥٠  
عبد الله بن دهبان ١٠٩  
عبد الله بن رفاعه السعدي ١٠١  
عبد الله بن عبد المطلب ٧  
عبد الله بن محمد بن إسماعيل (الإمام  
المستور) ٣  
عبد الله بن مسعود ٥٥  
عبد الله بن المعز لدين الله ١٧٠، ١٧١  
عبد الله بن ميمون القداح ٣  
عبد الله الحسين بن ابراهيم ٥٥  
عبد القادر بن مهذب الأدفوي ٣٥٨  
عبد المطلب بن هاشم ٣، ١٣٣  
عبد الوهاب بن حسن بن جعفر ٢٩١  
عبد الوهاب بن علي المالكي ٦٧، ١٠٢  
١١٣  
عبد الله بن أبي إسحق ٨٩  
عبيد الله المهدي ٤، ١٥، ٢٢، ٢٣  
٤٣، ٤٤، ١١٤، ١١٥  
عثمان بن عبد الرحيم (ن: ابن بشر) ٤٣  
عثمان بن عفان ٣٥٨  
عثمان بن علي السرقوسي ٩٧  
العزير بالله الفاطمي ٢٣، ٢٤، ٢٧  
٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٥، ٥٦، ٥٧  
٥٨، ٥٩، ٦٨، ٧٢، ٧٥، ٨٣  
٩٠، ١١٦، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣  
١٤٤، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤  
١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢  
١٧٥، ١٧٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٨  
٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٩، ٣١٢  
٣١٣، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٢  
عضد الدولة البيهقي ٧٧، ٣١٤  
عقيل بن أبي طالب ٢٥٥

« دق »

القاسم بن العزيز بن النعمان ٥٣  
قاسم بن هاشم ٢١٩  
القاضي الفاضل ٢٧، ١٠٥، ١٣٨، ١٨٧  
١٩٩، ٢٢٤، ٣٠٤، ٣١٣، ٣١٤  
٣١٥، ٣٢٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٥٣  
٣٥٤  
القاسم بأمر الله الفاطمي ٢٣، ٤٤، ١١٤  
١١٥، ١٣٠  
قتيل الغواني (ن: صريع الدلا) ١١٥  
القرامطة ١٥، ٥٠  
القزاز النحوي ٩٠  
القضاعي ٧٧، ٩٢، ٩٣، ١٠١، ١١٢  
١١٣، ٣٢٧  
قطنيه الأسفوني ٣٥٧  
القفطي ٧٦، ٨٢، ٨٤، ١٨٣  
القلعي ٧٦  
القلقشندي ٢٤، ١٠٨، ١١٠، ١٦٠  
١٦١، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٤، ٣٣٧  
القليوبي الكاتب ٢٥٩

« دك »

كارلو نالينو ٧٧  
كافور الاخشيدى ٥٤، ٥٥، ٩٠، ١٧٦  
الكافي ابن عبدون النصراني ٣١٣  
الكاسات الشاعر ٢٦٢  
الكامل بن شاور ١٠٥، ١٧٨، ٢٠٨  
٢٠٩، ٢٢٤  
كشاجم ٢٤٣، ٢٤٥  
الكمال الادفوي ٣٥٧، ٣٥٨

عمار بن وثيمة ١٠٨

عمار بن وثيمة ١٠٨  
عمار بن وثيمة ٦٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦  
١٠٧، ١١٩، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٧  
١٣٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩  
١٦٠، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩  
٢٠٠، ٢٠١، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩  
٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦  
٢٣٧، ٢٩٢، ٣٤٥، ٣٤٨  
عمر بن الخطاب ٥، ١٠٦، ٣٥٨  
عيسى بن مريم ٦، ١٨، ١٣٦، ١٥١  
١٥٢

« دغ »

الغزالي ٦٧، ٩٩، ١٠٤  
غسان ٢٠٣

« دف »

الفارابي ٦٩  
فارس بن احمد بن موسى الضير ٩٦  
فاطمة الزهراء بنت الرسول ١٢٣،  
١٢٤، ١٣٣، ١٤٢، ٣٥٨  
الفائز الفاطمي ١٥٣، ١٥٧، ٢١١  
٢١٥، ٢١٩  
الفرزدق ٣٣٠  
الفضل القائد ٥٨  
الفقيه الشاعر (ن: السناس) ٦١، ٦٨، ١٧٦، ٣٠٥  
الفلاحى ٦١، ٦٨، ١٧٦، ٣٠٥  
فهد بن ابراهيم ٢٣٨  
الفيثاغوريون ١٧، ١٨  
فيروز الداعي ٢٢  
فيلون ١٠

محمد أبو عبد الله ٤٣  
محمد بن أحمد الجرجاني ٩٢  
محمد بن أحمد بن سعيد التميمي ٨٤  
محمد بن أحمد بن محمد العميدى ( ن :  
أبو سعيد العميدى )  
محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي ١٠٠  
محمد بن أحمد اليازورى ( ن : اليازورى )  
محمد بن اسماعيل ( ن : التاريخ الشاعر )  
محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ٣  
محمد الباقر ٣ ، ٣٦  
محمد بن بركات بن هلال السعدى ٩١ ،  
١١٢ ، ١١٣  
محمد بن برى ٩٢  
محمد بن الحسن العسكري ٤  
محمد بن الحسن اليميني ٢٤٥  
محمد بن الحسن بن عمير ٩٢  
محمد بن حميد بن حيدر ٩٢ ، ٩٥  
محمد رضا مدور بك ٨١  
محمد بن زبان ٩٦  
محمد بن زكريا الرازى ٨٦  
محمد بن سعيد بن هشام ( ن : ابن ملساقه )  
محمد بن عاصم ٢٩٠  
محمد بن عبد الله بن ظفر المسكى ٩٣  
محمد بن عبد الله بن محمد العنقى ٧٥  
محمد بن علي أبو سهل الهروى ٩٢  
محمد بن علي الهاشمى ( ن : أبو الغمر الاستائى )  
محمد بن عيسى اليميني ٢١٠  
محمد بن القاسم ( ن : صناجة النوح )  
محمد بن القاسم بن النعمان ٥٣  
محمد بن كلا ٣٢٠  
محمد السكريني ٢٤٠  
محمد بن النعمان ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

كوبرنيقوس ٧٧  
الكيزانية ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥

« ل »

لقمان ٢١٣  
ملك بن مالك ٥٩ ، ٦٥  
لورنس ٦٢

« م »

ماسينيون ٤٢  
مالك بن أنس ٣ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٧٠ ،  
١٠٢  
مالك بن سعيد الفاروقى ٣١٣  
المأمون البطائحي ٣٢ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ١١٣  
١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٣٨  
المأمون العباسى ١٠  
مبشر بن فاتك ٨٢ ، ٨٤  
المنبجى ٩٠ ، ٩١ ، ١٨٦ ، ٢٠٨ ، ٢٤٥  
٢٩٧  
بجلى بن جميع الخزوى ١٠١  
بجير بن محمد الصقلى ١٢٩ ، ٢٨٨  
محسن بن بدوس ٣٢٣  
محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ٣ ، ٤  
٦٠ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٨٠  
٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧  
٣٨ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤  
١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦  
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨  
١٦١ ، ١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١  
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٢  
محمد أبو بكر بن علي بن حسن ٩٧ ، ٩٨

١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١٠٥ ، ٩٠  
١٦٨ ، ١٤٥ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٠  
٢٩٢ ، ٢٥٠ ، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩  
٣١٦ ، ٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦  
٣٥٦ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧  
معز الدولة البويهى ٢٢٧  
معضاد القائد ٣٢٣  
المقريزى ٢٤ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٧٦  
١٢٦ ، ١٢٣ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١٠٨  
٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٠ ، ١٩٨ ، ١٧٥  
٣١٦ ، ٣٠٣ ، ٢٨٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧  
٣٣٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١  
٣٤٢  
المكربل الشاعر ٢٦٤ ، ٢٦٥  
مكى بن أبى طالب ٩٦  
المنصور بالله الفاطمى ١٦ ، ٢٣ ، ٤٤  
١٣٠ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٧٥ ، ٧٤  
٣٠٨  
منصور الجوذرى العريزى ٢٩ ، ١١٦  
منصور بن مقشر ٨٣ ، ٦٨  
منصور البين ١٥ ، ٢٢ ، ٣١٩  
المهذب بن الزبير ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٩٥  
٢٠٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٠ ، ١٩٧ ، ١٩٦  
٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤  
٢١٩ ، ٢١٧ ، ٢١٥ ، ٢١٣ ، ٢١١  
٣٤٥ ، ٢٩٣ ، ٢٧٦ ، ٢٣١ ، ٢٢٦  
المهذب بن النقاش ٦٦  
موسى بن الحسن (ن : بدر الدولة  
أبو الفتوح)  
موسى بن عمران ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٦ ، ١٨  
٥٣  
موسى بن العزاز ٨٤

محمد بن محمد البنانى ١١٣  
محمد بن وهب ٢٧٨  
محمد بن يحيى بن مزاحم ٩٣  
محمود بن ناصر الاسكندرانى ١٦٨ ، ١٧٩  
المختار تاج المعالى ١٧٩  
المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم (ن :  
المسبحى)  
مرجو ايوس ٥٩  
مروان بن أبى حفصه ١٢٨ ، ١٩٦  
مروان بن عمان السكى ١٧٩ ، ٢٧٣ ،  
٢٧٤  
المروزى الداعى ٢١٩  
مرى ٢٠١ ، ٢٢٧  
المسبحى ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١  
٤٤ ، ٥١ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٧٧  
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٢١  
المستعلى بالله الفاطمى ٢٢٩ ، ٣٣٤  
المستنصر بالله الفاطمى ٢٤ ، ٢٨ ، ٦١  
٦٢ ، ٦٣ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٤  
١٠٥ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦  
١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١  
١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١  
١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٤  
٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٢  
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤  
مسعود الدولة (ن : ابن حريز)  
مسيلمه السكذاب ٣٢٩ ، ٣٣٠  
مشرقه باشا (الدكتور) ٨١  
مصطفى نظيف بك ٨١  
المعز لدين الله ١١ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣  
٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٥  
٦٦ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٤

١١٣ ، ١٠٤ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٦٦

٣١٩ ، ٣٠٩ ، ١٥٣

نوح ١٥٢ ، ١٥١ ، ٣٩ ، ١٨ ، ٦

نور الدين زنكي ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ١٩٩

٢٣٤

النويرى ١١٠ ، ١٠٨

نيوتن ٨١

« ه »

هايل بن آدم ٦

هارون ٦

الهارونى الحسنى ٨٧

هبة الله بن البدر ( ن : ابن الصياد )

هبة الله بن صدقة ١١٣

هبة الله بن على بن عرام ٢٧٥

هبة الله بن موسى ( ن : المؤيد فى الدين )

هفتكين الشرايى ٢٢٧

هلال بن المحسن ٣٢٥

هو ميروس ١١٨

« و »

الواسانى الشاعر ١٣٤

ورش ٩٦

ولى الدولة أحمد بن على ( ن : ابن خيران )

لوصى ( ن : على بن أبى طالب )

الوضيع الشاعر ٢٦١

« دى »

اليازورى ١١٢ ، ٩٢ ، ٦١ ، ٥٣ ، ٤٦

٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٠٥

ياسر بن بلال ٢٢٤ ، ٢٢٢

الموفق بن الخلال ٢١٩ ، ٢١٥ ، ١٩٥

٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤

٣٤٧ ، ٣٤٥

المؤيد فى الدين ( داعى الدعوة ) ٨ ، ٤

٢٠ ، ١٦ ، ١٤ ، ١٣ ، ١٢ ، ٩

٥٣ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٣٤ ، ٣٢ ، ٢٧

٦٥ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٩

١٣٥ ، ١١٧ ، ١١٦ ، ١٠٢ ، ٦٩

١٥٤ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٤٨

١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٥٨

٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٢٤١

« ن »

الناجى المصرى الشاعر ١٨٩ ، ١٧٩

الناصر بن طلائع ( ن : رزيك بن الملك

الصالح )

ناصرى خمير ٢٨٩ ، ٢٣٩ ، ٦٥

ناصر الدولة ابن حمدان ٢٨

النبي ( ن : محمد صلى الله عليه وسلم )

نجم الدين أيوب ١٦٠

نجيب الدولة الجرجرائى ٣٢٣

نزار بن المعز ( ن : العزيز بالله الفاطمى )

النسائى ٩٧

النسناس ٢٦٢

نصر بن بشر بن على ١٠٠

نصر بن صدقه القابسى ٩٤

نصر بن عبد الرحمن الفزارى ١٣٨

نصر المقدسى ١٠١

النعمان بن محمد ( القاضى ) ١٥ ، ١٢

٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٣٤ ، ٢٦

٦٠ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٦

|                                    |                                   |
|------------------------------------|-----------------------------------|
| يعقوب بن اسحق ٣٠٢                  | ياقوت الحموى ١١٠، ٩٦، ٩٠، ٥٦      |
| يعقوب بن كلس ٥٥، ٥٤، ٥١، ٢٤        | ١٨١، ١٩٦، ٢٠٣، ٣٢٢                |
| ١١٠، ٨٤، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦            | ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨                |
| ٣١٤، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٣٨            | يحيى بن تميم بن باديس ١٧٩         |
| يوسف بن عبد العزيز بن على الميورقى | يحيى أبو سالم بن الاجرب ( ن : ابن |
| ١٠١                                | أبي حصينه الشاعر )                |
| يوسف بن على ١٣٤                    | يحيى بن على الكتبي ( ن : الوضع    |
| يوسف بن يعقوب النجيري ٩١           | الشاعر )                          |

## المصادر والمراجع

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء للمقرئى : طبع دار الفكر العربى  
 أخبار الدول المنقطعة للخزرجى : نسخة فتوغرافية بدار الكتب  
 إخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن الففطى : طبع القاهرة ١٣٢٦  
 أسرار النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتى  
 الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفى : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م  
 إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقرئى : سنة ١٩٤٠ م  
 افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى  
 أنباء الزمن فى أخبار اليمن ليحيى بن الحسين : طبع برلين سنة ١٩٣٦ م  
 الانتصار لابن الخياط : طبع القاهرة  
 الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ  
 بحار الأنوار للمجلسى : طبع حجر بتبريز  
 بدائع الزهور لابن إياس : طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ  
 بغية الوعاة للسيوطى : طبع القاهرة  
 تاج العروس  
 تاريخ ابن الأثير  
 تاريخ ابن خلدون  
 تاريخ مصر لابن ميسر  
 تاريخ ابن صالح الأرمنى  
 تاريخ الإسلام للذهبى : طبع أكسفورد سنة ١٨٩٤ م  
 نسخة خطية بدار الكتب  
 المصرية رقم ٤٢ تاريخ  
 تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام لبندلى جوزى  
 تجارب الأمم لمسكويه  
 تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد : نسخة خطية بمكتبتى  
 التمهيد فى الرد على الملاحدة والشعبة للباقلانى : طبع دار الفكر العربى  
 تفسير الألوسى



- تفسير الخازن  
تفسير الطبري  
تفسير القرطبي  
التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسن الملقب  
: طبع باستامبول سنة ١٩٣٦ هـ  
: الجمع بين آراء الحكميين للفارابي  
: حسن المحاضرة للسيوطي  
: الحضارة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد  
: عبد الهادي أبو ريده  
: خريدة القصر للهاد الأصهباني  
: نسخة فوتوغرافية بمكتبة  
جامعة فؤاد  
خزانة الأدب لابن حجة الحموي  
دستور المنجمين لمؤلف مجهول  
: نسخة خطية بالمكتبة الأهلية  
بيارس رقم ٥٩٦٨  
: نسخة خطية بمكتبتي  
: طبع حلب سنة ١٩٣٠  
: صورة فوتوغرافية بدار الكتب  
رقم ٨٩٠  
: طبع القاهرة  
: نسخة خطية بمكتبتي  
: طبع بجريدة الأهرام  
: طبع القاهرة  
: من سلسلة مخطوطات الفاطميين  
: نسخة خطية بالمكتبة الأهلية  
بيارس رقم ١٨٥٠  
: من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية  
: راحة العقل لأحمد حميد الدين الكرمانى  
( تحقيق محمد كامل حسين و محمد مصطفى حلمي )

- الرد على الباطنية للغزالي : طبع ليدن سنة ١٩٢٦  
رسائل إخوان الصفا : طبع القاهرة  
الرسالة المصرية لامية بن أبي الصلت : نسخة خطية بدارالكتب المصرية  
رسالة الرشد والهداية لمنصور اليمن : من سلسلة مخطوطات الفاطميين  
( تحقيق محمد كامل حسين )  
رسائل الكرماني ( ثلاث عشرة رسالة ) : نسخة فتوغرافية بمكتبتي  
الرسائل المستنصرية : نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات  
الشرقية بلندن  
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر : نسخة خطية بدارالكتب المصرية  
رقم ١٠٥  
روضة الأدب في طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازي : طبع حجر بمومباي  
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي : طبع القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ  
سرائر النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتي  
سفر نامه لناصري خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب : طبع القاهرة  
سيرة الأستاذ جوذر : نسخة خطية بمكتبتي  
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة : من سلسلة مخطوطات الفاطميين  
( تحقيق محمد كامل حسين )  
صبح الأعشى للقلقشندي  
الطالع السعيد للأدقوى  
عقد الجنان للعيني  
طبع القاهرة سنة ١٩١٤ :  
نسخة خطية بدار الكتب  
المصرية رقم ١٥٨٤  
عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة : طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ  
عيون المعارف ورياض كل متبصر عارف : طبع بمومباي سنة ١٢٩٧ هـ  
عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف للقضاعي : نسخة خطية بدار الكتب  
المصرية رقم ١٧٧٩  
الفيث المنسجم للصفدي : طبع القاهرة  
الفاطميون في مصر للأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن

- الفترات والقرانات لجعفر بن منصور الين : نسخة خطية بمكتبتى  
فتوح البلدان للبلاذرى : طبع القاهرة  
الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : طبع القاهرة  
فرق الشيعة للنوبختى : طبع استامبول سنة ١٩٣١  
الفرق بين الفرق للبغدادى : طبع القاهرة  
الفصل لابن حزم : طبع القاهرة  
فضائل مصر لابن زولاى : نسخة خطية بمكتبة الأزهر  
فضائل مصر للسكندى : نسخة خطية بدار الكتب  
المصرية رقم ٧٥٣  
الفهرست لابن النديم : طبع القاهرة  
فهرست كتب الشيعة للطوسى : طبع كلكتا سنة ١٨٥٥  
فوات الوفيات لابن شاكر : طبع القاهرة  
القاموس المحيط  
الكشاف للزمخشرى  
كشف أسرار الباطنية لابن مالك الخماوى : طبع القاهرة سنة ١٩٣٩  
الكشف لجعفر بن منصور بتحقيق ستروتمان : طبع القاهرة  
كنوز الفاطميين للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن  
لسان العرب  
المجالس المؤيدية للتويد فى الدين داعى الدعاة : نسخة خطية بمكتبتى  
(ثمانمائة مجلس)  
المجالس والمسائرات للفاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى  
المجالس المستنصرية بتحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين  
- طبع دار الفكر العربى  
مجموع أشعار الاسماعيلية : نسخة خطية بمكتبتى  
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى : نسخة خطية بدار الكتب  
المصرية رقم ٥٥١ تاريخ

- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري : نسخة خطية بدار الكتب المصرية  
المسالك والممالك لابن حوقل  
معرفة أخبار الرجال للكشي  
المغرب في حلى المغرب لابن سعيد  
مقالات الاسلاميين للأشعري  
المقني الكبير للمقريزي
- نسخة خطية بالمكتبة الأهلية  
بيارس رقم ٢١٤٤  
الممل والنجل للشهر ستاني  
معجم الأدباء لياقوت  
معجم البلدان لياقوت  
مقولات الهند للبيروني
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي : طبع القاهرة  
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : طبع دار الكتب المصرية  
نظرية المثل والمثول للدكتور محمد كامل حسين : طبع القاهرة سنة ١٩٤٨  
نقد العلم والعلماء لابن الجوزي : طبع القاهرة  
النسكت العصرية لعارة النبي  
نهاية الأرب للنويري
- بيارس  
الهداية الآمرية بتحقيق الأستاذ آصف فيظي : نشر جمعية الدراسات الإسلامية  
بالهند  
الهمة في آداب اتباع الأئمة بتحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين  
طبع دار الفكر العربي
- وفيات الأعيان لابن خلكان  
الولاية والقضاء للسكندی  
بذيمة الدهر للشعالي
- طبع القاهرة  
طبع بيروت سنة ١٩٠٨  
طبع بيروت

## المصادر والمراجع الإفرنجية

### Asaf A. A. Fyze :

- A Chronological List of the Imams and Da'is. (J. B. B. R. A. S. 1934).
- Isma'ilia Law and Its Founder.
- Materials For an Ismaili. bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. 11, 1935)
- Qadi un - Nu'mans - (J. R. A. S. 1934.)

### Guyard (M. S.) :

- Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, (Paris)

### De Goeje.

- Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimide, (1886.)

### Hamadany (H.F.) :

- The History of the Isma'ili da'wat and its literature during the last Phase of the Fatimid. (J. R. A. S.) 1932.)

### Ivanow, (W.)

- A Guide to Ismaili Literature. (London 1933.)
- The Organisation of the Fatimid Propaganda. (J. B. B. R. A. S. 1939.)
- The Creed of the Fatimids (Bombay 1936.)
- Ismailis and Qarmatians (J. B. B. R. A. S. 1940)
- The Rise of the Fatimids (Bombay 1942)

### Lewis, (R.)

- The Origins of Isma'ilism (1940)

### Massignon (L.)

- Salmam Pak (S. E. I.) Paris 1934.
- Esquisse d'une bibliographie Qarmate, 1922.

### O'Leary,

- A short History of the Fatimide Khalifate 1923.

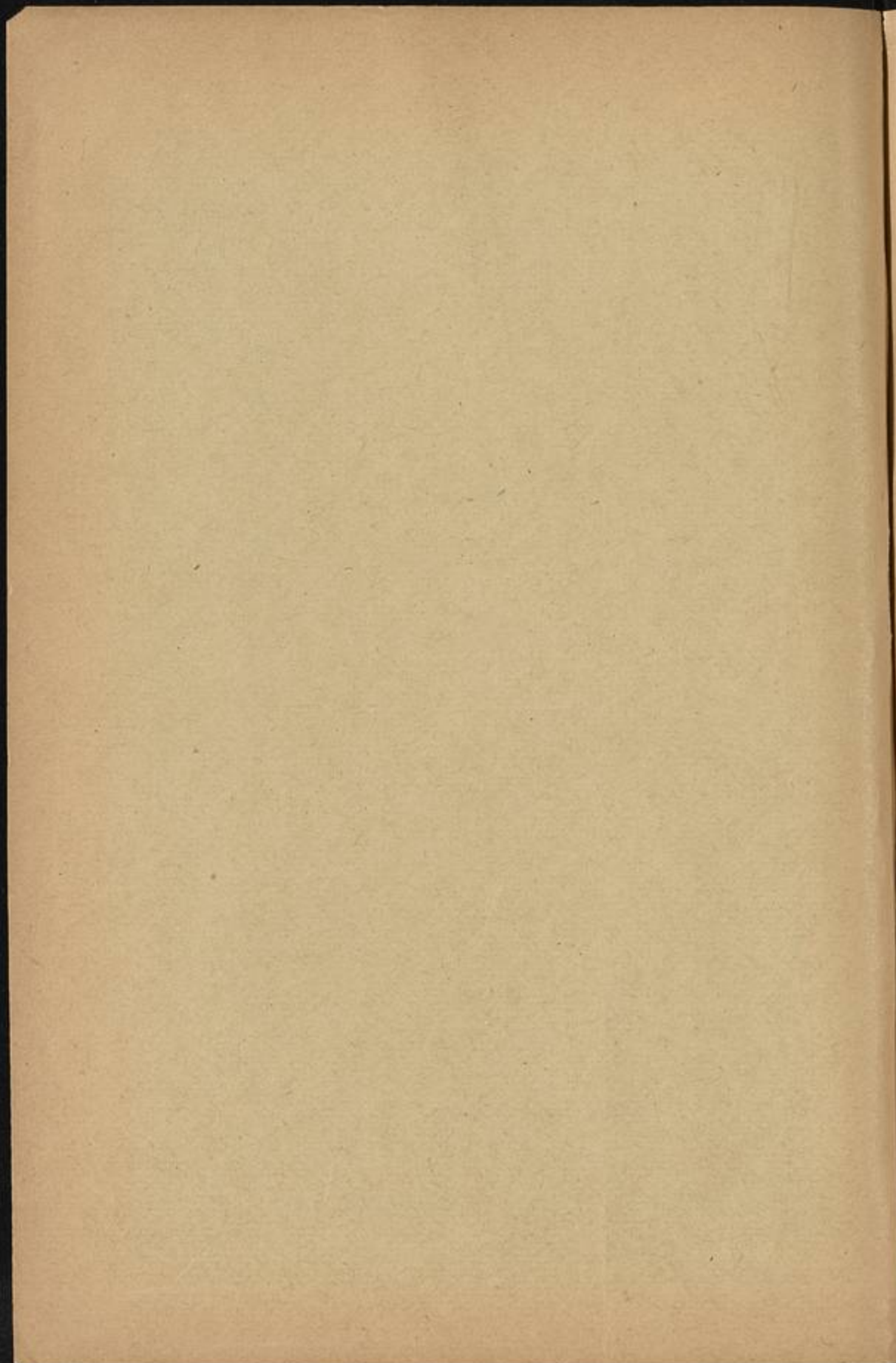
### Quatremere, (N.)

- Mémoire Historiques sur la Dynastie des Khalifs Fatimid J. A. 1836.

## استدراكات

وقعت أثناء الطبع عدة أخطاء مطبعية نعتذر عنها أشد الاعتذار . ونذكر أهمها الآن :

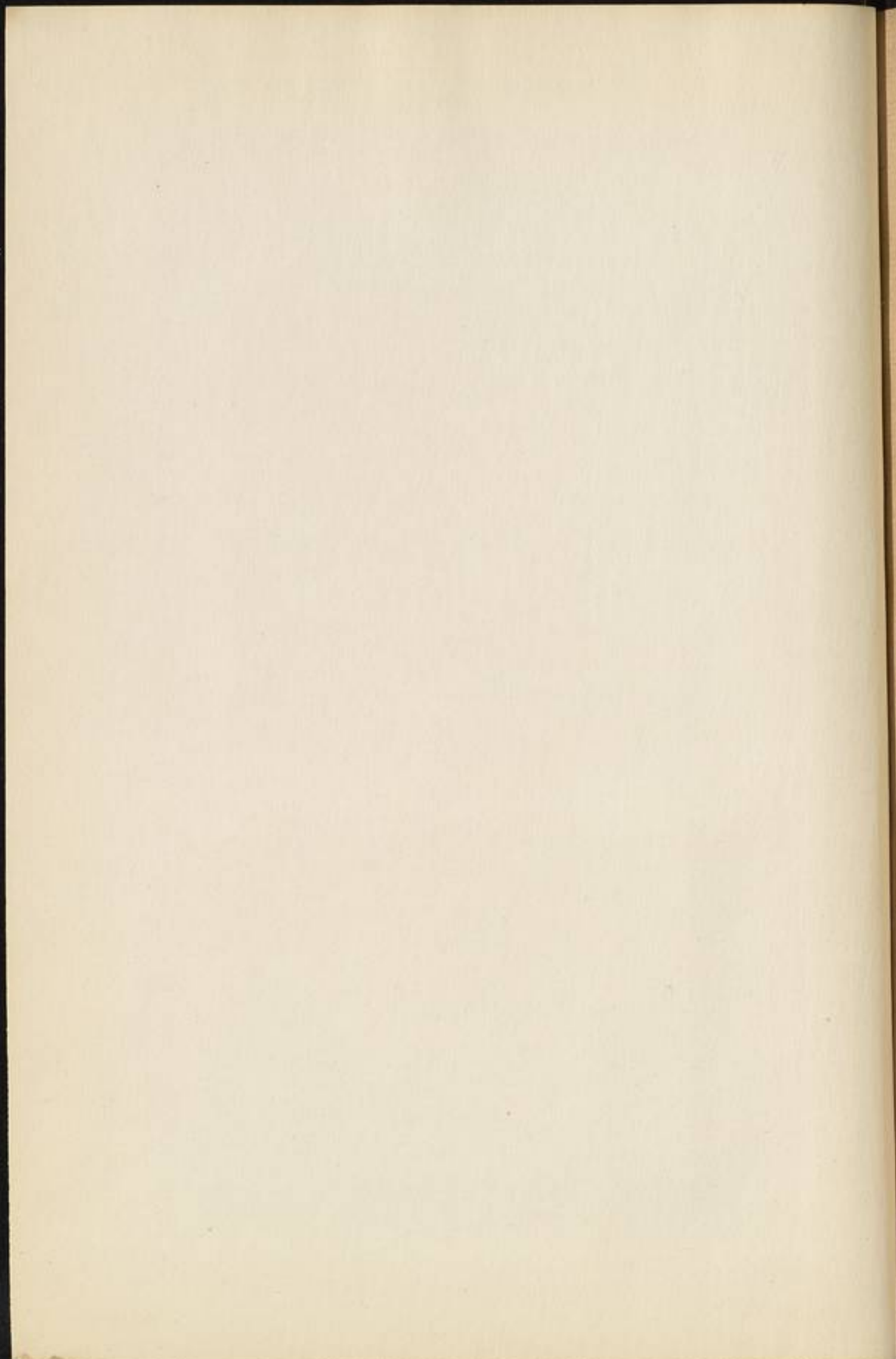
| الصواب             | الخطأ          | صفحة  | الصواب   | الخطأ    | صفحة   |
|--------------------|----------------|-------|----------|----------|--------|
| تسكن               | تبين           | ٣١٢٦  | الرسول   | الرسول   | ١٩ ٤   |
| والعبدان           | والعبدان       | ١٨١٢٨ | شرط      | مرط      | ٧ ٨    |
| شعر                | شعراء          | ٥١٤٠  | الذي     | الذي     | ٤ ١٧   |
| يفرع عن يمين وشمال | يفرع عن يمين   | ٧١٤٤  | تعريف    | تعريف    | ٢٠ ٢١  |
| تحريرها            | محولها         | ١٠١٥٣ | المطلق   | الطلق    | ٢٣ ٢١  |
| الدولة             | الدوو          | ٢٢١٧٦ | العين    | المن     | ١٦ ٢٧  |
| لأن                | أنى            | ٦١٩٣  | ازديادكم | ازيادكم  | ١ ٣٨   |
| الحفاظ             | اللحفاظ        | ٧١٩٧  | دامغ     | دامغ     | ١٩ ٤٧  |
| قد ألم             | قد لم          | ١٧٢٠٦ | فرغابته  | فرغابته  | ٢٢ ٥٦  |
| مبالاة             | مبالانا        | ٣٢٤٢  | المعري   | المعري   | ١٣ ٩٨  |
| نمل                | نمل            | ١٢٥٠  | المؤبدية | المؤبدية | ١١ ١١٦ |
| ويوجد              | ويوجد          | ١٤٢٥٦ | إمامته   | إقامته   | ١٨ ١١٧ |
| السجع في كتاباتهم  | السجع كتاباتهم | ٧٣١٤  | بمظهر    | ظهر      | ١٩ ١١٨ |
| ولا ندرى           | ولا ندرى       | ٩٣٢٦  | العاص    | العاص    | ٨ ١٢٤  |

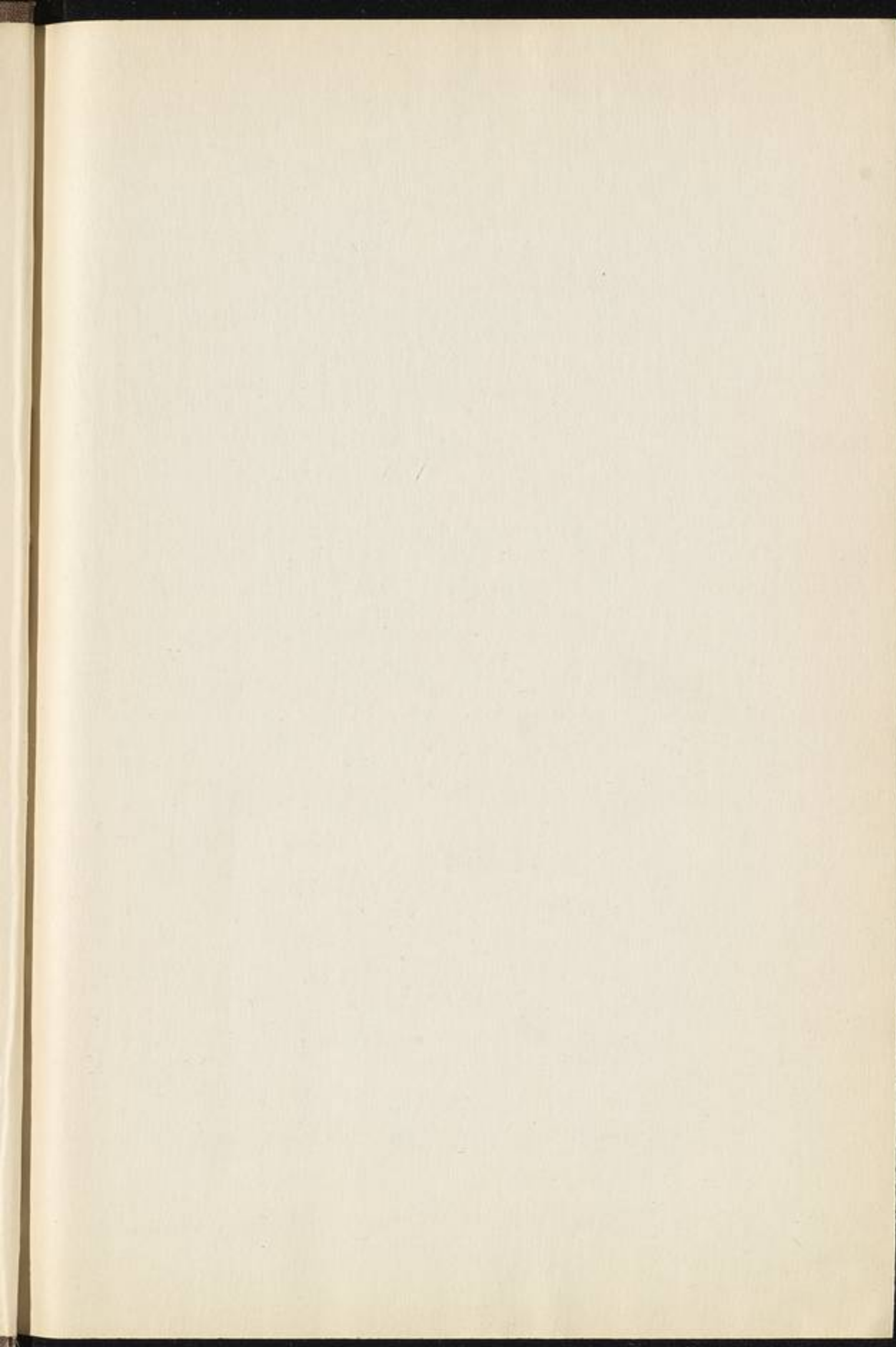


طبقة الاعتماد بصر

الثنى ٤٠







893.79  
H9563

FOUND

AUG 13 1958

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58869948

893.79 H9563

Fi Misr al-Fatimiyah

**RECAP**